٢٨ بابٌ

ما جاءَ في التنجيم

● **مناسبة هذا البـاب لما قبله**

قال ابن باز[١]: لما كان التنجيم شائعًا معمولاً به ذكره المؤلف، ولما كان من التنجيم كالطيرة من حـيث التعدى على علم الغيـب ناسب أن يأتى بالتنجيم ومـا جاء فيه بعد الطيرة. اهـ

● **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:**

قال السعدى[٢]: التنجيم ينـافى التوحيد لما فيه من هذه الدعاوى الـباطلة- لمشاركة الله فى علم الغيب الذى انفرد به أو تصديق لـمـن ادعى ذلك،- ولما فيه من تعلق القلب بغير الله ولـمـا فيه من فساد العـقل، لأن سلوك الطرق الباطـلة وتصديقها مـن مفسدات العقول والأديان. اهـ.

قلت: وقد تقدم ذلك فى باب شىء من أنواع السحر

وقال عبـد الله بن جار الله[٣]: مناسبة هـذا الباب لكتاب التوحـيد هى أن بعض أنواع التنجيم من الشرك المنافى للتوحيد. اهـ.

● **شرح الترجمة، وماذا أراد المصنف بها:**

قال سليمان آل الشيخ[٤]: المراد هنا ذكر ما يجوز من التنجيم ومالا يجوز وما ورد فيه مـن الوعيد، قال شيـخ الإسلام: «التنجيـم هو الاستدلال بـالأحوال الفلكيـة على الحوادث الأرضية»[٥].

قلت: وتقدم فى باب ما جاء فى الكهان ونحوهم.

وقال الخطابى: علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعـيه أهل التنجيم من علم الكوائن، والحوادث التـى لم تقع وستـقع في مستـقبل الزمان، كـأوقات هبوب الريـاح، ومجىء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كـان في معناها من الأمور التى يزعمون أنهم يدركون معرفتها بمسير الكواكب فى مـجاريها واجتماعها وافتراقها، ويدعون أن لها

---

(١) التعليق المفيد (١٦٧)

(٢) القول السديد(٨٣)

(٣) الجامع الفريد (١١٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٣٢٧)

(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢)

تأثيرًا فى السفليات وأنها تجرى على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطى لعلم قد استأثر الله به لا يعلم الغيب سواه[1]. اهـ.

قلت: وهو ما يفعله الكهان والعراف كما تقدم فى بابه.

وقال ابن باز[2]: والتنجيم: مصدر ينجم تنجيمًا أى حرز وحدس بما يعتقده فى النجوم، والتنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية فينظرون فى النجوم واجتماعها وافتراقها وطلوعها وغروبها وتقاربها وتباعدها ويستدلون بها على أنه يقع كذا، وهذا باطل من دعوى علم الغيب التى أبطلها الله بقوله **﴿قل لا يعلم الغيب إلا الله﴾** أما النظر فى النجوم من باب التسيير لمعرفة منازل القمر لتحديد أوقات الصلاة والمطر فلا بأس به كما هو رأى أحمد وإسحاق بن راهوية .اهـ وسيأتى فى أنواع التنجيم. أهـ وقد تقدم من كلام الخطابى.

وقال ابن عثيمين[3]: التنجيم : مصدر نجم بتشديد الجيم، أى تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم .اهـ.

وقال صاحب فضل الغنى الحميد[4]: هو الاستدلال بمطالع النجوم، والكواكب، أو غروبها على وقوع بعض الحوادث ومنه قراءة أو كتابة حظك اليوم، أو أنت والنجوم، كما هو مشاهد فى الجرائد والمجلات المعاصرة اهـ.

●أقسام التنجيم، وحكم كل قسم:

وقال الخطابى:

١- علم النجوم المنهى عنه هو: فذكر ما تقدم أنه ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى لم تقع وستقع فى مستقبل الزمان كأخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجىء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار وما كان فى معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها، وباجتماعها واقترانها، ويدعون لها تأثيراً فى السفليات وأنها تتصرف على أحكامها، وتجرى على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم استأثر الله سبحانه به لا يعلم الغيب أحد سواه.

٢ - فأما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والحس الذى يعرف به الزوال

(١) معالم السنن (٤/ ٢١٢، ٢١٣)

(٢) التعليق المفيد (١٦٧)

(٣) القول المفيد (٢/ ١٢٥)

(٤) فضل الغنى الحميد (٨٠).

ويعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فى ما نهى عنه؛ وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل مادام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى، وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة، فإنما هى كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لانشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها فى حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة عنها بالمعاينة، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم إذا كانوا غير متهمين فى دينهم ولامقصرين فى معرفتهم. اهـ.

وهناك تقسيم آخر، إلى: -

جائز ومحرم:

- **فأما الجائز:** فهو ما كان من جنس الحساب، ويدرك بطريق المشاهدة والخبر، كمعرفة حركات النجوم والكواكب تنقلاتها ومنازلها، وذلك للتعرف على نحو الكسوف والخسوف والزوال وجهة القبلة وما شابه ذلك. فهذا ونحوه ليس من باب علم الغيب فى شىء، وإنما هو من جنس علم الحساب الذى علمه الله عباده.

وقد اخترع أهل هذه الصناعة لمعرفة ذلك منظارات مقربة وآلات حاسبة، ومراصد كاملة الأسباب والآلات، وتعرفوا من خلال ذلك على كثير من العوالم العلوية حتى أصبحت كأنها على الأرض.

ولا شك أن ما كان من هذا القبيل فلا يصح أن يختلف فيه مطلقاً، لأنه مما يعرف بالحساب كما سبق، وهو مما أجرى الله به العادة فلا يحرم أبداً، فكان الإخبار عنه بمنزلة الإخبار بأن الهلال يطلع إما ليلة الثلاثين أو الليلة التى بعدها، أو أن الشمس تغرب آخر النهار وأمثال ذلك.

قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(٢).

---

(١) الرحمن: ٥. (٢) يونس: ٥.

قال الخطابى: أما علم النـجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخـبر، الذى يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة فهو غير داخل فيما نهى الله عنه - وتقدم هذا -.

وقال ابـن رجب: والمأذون فى تعلـمه علم التسييـر لا علم التأثير فإنـه باطل محرم قليله وكثيره. وأما علم التسيير فتعلم مـا يحتاج منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عما هو أهم منه.

وقال ابن تيمية(١): لاريب أن النجوم (نوعان): - حساب - وأحكام.

فأما الحساب فهو مـعرفة أقدار الأفلاك والكواكب. وصفاتها ومقـادير حركاتها، وما يتبع ذلك فهذا فى الأصل علم صحيح لاريب فيه كمعرفة الأرض وصفاتها، ونحو ذلك لكن جـمهور التدقيـق منه كثير الـتعب، قليل الـفائدة، كالعالـم مثلاً بمقادير الـدقائق والثوانى والثوالث فى حركة السبعة المتحيرة «**الخنس، الجوار الكنس**». اهـ.

وقال فى موضع آخر(٢): وهو بصدد حديثه عن الكـسوف والخسوف-: وما أخبر به النبـى ﷺ لاينافى لكـون الكسوف له وقـت محدد يكون فـيه، حيث لايكـون كسوف الشمس إلا فى آخر الشهر ليلة السرار ولايكون خسوف القمر إلا فى وسط الشهر وليالى الإدبار.

ومن ادعى خلاف ذلـك من المتفقهة أو الـعامة فلعدم عـلمه بالحساب، ولهـذا يمكن المعرفة بما مضـى من الكسوف وما يستقبـل، كما يمكن المعرفة بما مـضى من الأهلة وما يستقبل إذ كل ذلك بحساب كما قال تعالى: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾ وقال تعالى: ﴿**جَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ وقال ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾. اهـ.

ثم قال(٣): وأما الأحكام التى هـى من جنس السحر، منها ما هـو دعاية الكواكب، وعبادة لها، وأنواع من الشرك.

وأما المحرم فهو قسمان:

الأول: الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث المستقبلة.

قال الفقير: مثل حظك اليـوم وأنت والنجوم. ا.هـ وهو ما يدعيه أهل الـتنجيم من

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨١).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨١).

الاستدلال على الحوادث بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها، وهذا من جنس الاستقسام بالأزلام، فهو تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا شك فى فساد هذه الصناعة وحرمتها.

وقد علم الخاصة والعامة بالتجربة والتواتر أن الأحكام التى يحكم بها المنجمون يكون الكذب فيها أضعاف الصدق، فصدقهم كصدق الكهان، يصدقون فى كلمة ويكذبون فى مائة، وذلك أن مبنى علمهم أن الحركات العلوية هى السبب فى الحوادث، والعلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب، وهذا إنما يكون إذا علم السبب التام الذى لايتخلف عنه حكمه، وهؤلاء - إن علموا - لا يعلمون إلا جزءاً يسيراً من جملة الأسباب الكثيرة، ولا يعلمون بقية الأسباب ولا الشروط ولا الموانع، وذلك مثل من يعلم أن الشمس فى الصيف تعلو الرأس حتى يشتد الحر، فيريد أن يعلم من هذا مثلا أن العنب الذى بأرض كذا يصير زبيباً، وهذا وإن كان يقع أحياناً ولكن أخذه من مجرد حرارة الشمس جهل عظيم، إذ قد يكون هناك عنب وقد لا يكون، وقد يثمر شجره أو لا يثمر، وقد يؤكل عنها وقد يعصر وقد يسرق، وكل ذلك وارد!

وقد أراد المنجمون أن يمنعوا عليّا رضى الله عنه من السفر لقتال الخوارج قائلين له: إنك إن سافرت والقمر فى العقرب هزم أصحابك! فقال على: بل أسافر ثقة بالله وتوكلاً على الله. فبورك له فى سفره هذا، وكتب له فيه النصر والغلبة.

قال الخطابى: علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى ستقع فى مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح، ومجئ المطر، وتغير الأسعار، وما فى معناها من الأمور التى يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب فى مجاريها واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيراً فى السفليات وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا يعلم الغيب سواه.

وقال ابن تيمية: والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وذلك أن النجوم التى من السحر نوعان: **أحدهما** علمى، وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث من جنس الاستقسام بالأزلام. . .

إلى أن قال: والدلالة الدالة على فساد هذه الصناعة وتحريمها كثيرة وليس هذا موضعها، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما**»(١) والعراف قد قيل: إنه اسم عام للكاهن والمنجم

(١) تقدم تخريجه

والرمّال ونحوهم ممن يتكلم فى تقدم المعرفة بهذه الطرق. ولو قيل: إنه فى اللغة اسم لبعض هذه الأنواع. فسائرها يدخل فيه بطريق العموم المعنوى، كما قيل فى اسم الخمر والميسر ونحوهما(١).

الثانى: القول بتأثير الكواكب فى الأمور، وأن الحوادث مركبة على تأثيرها ولاشك أن هذا كفر بإجماع المسلمين

- قال الفقير: ويستدل له بحديث الأنواء وسياتى - فإذا انضم إلى ذلك دعاؤها والاستعانة بها فقد بلغ الكفر غايته ومنتهاه.

قال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.

وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة: من أغرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمرى ما من نجم إلا ويولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما عِلْم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىء من هذا الغيب؟! ولو أن أحداً أُعلم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شىء قلت: وسيأتى هذا الأثر وشرحه حيث صدر به المصنف هذا الباب(٢).

حكم من يعتقد أن النجوم مؤثرة فى سعده ونحسه

قال ابن تيمية: واعتقاد المعتقد أن نجماً من النجوم السبعة هو المتولى لسعده ونحسه اعتقاد فاسد وإن اعتقد أنه هو المدبر له فهو كافر، وكذلك إذا انضم إلى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كفراً وشركاً محضاً(٣)(*).

وقال سليمان آل الشيخ(٤): واعلم أن التنجيم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو كفر بإجماع المسلمين، وهو القول بأن الموجودات فى العالم السفلى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٥/ ١٧١ - ١٧٣.

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ١٧٧.

(*) وانظر «أصول الإيمان» (١/ ١٠٤ - ١٠٧).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٧و ٣٣٢ و ٣٣٣.

مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة وهذا كفر بإجماع المسلمين، وهذا قول الصابئة المنجمين الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا كانوا يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيماً يسجدون لهم ويتذللون لها ويسبحونها تسابيح معروفة فى كتبهم، ويدعونها دعوات لاتنبغى إلا لخالقها وفاطرها وحده لاشريك له، ويبنون لكل كوكب هيكلاً: أى موضعاً لعبادته ويصورون فيه ذلك الكوكب، ويتخذونه لعبادته وتعظيمه، ويزعمون أن روحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم وتخاطبهم وتقضى حوائجهم. وتلك الروحانيات هى الشياطين تنزلت عليهم وخاطبتهم وقضت حوائجهم. وقد صنف بعض المتأخرين فى هذا الشرك مصنفاً وذكر صاحب «التذكرة» فيها.

الثاني: الاستدلال على الحوادث الأرضية بسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك، ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته فلا ريب فى تحريم ذلك، **واختلف المتأخرون فى تكفير القائل بذلك. وينبغى أن يقطع بكفره** لأنها دعوى لعلم الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه بما لا يدل عليه.

القسم الثالث: عن علم التنجيم وهو تعلم منازل الشمس والقمر، للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصوات والفصول، وهو كما ترى من اختلاف السلف فيه. فما ظنك بذينك القسمين ومنازل القمر ثمانية وعشرون كل ليلة فى منزلة منها فكره قتادة وسفيان بن عينية تعلم المنازل.

وأجازه أحمد واسحاق وغيرهما قال الخطَّابى: أما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذى يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة، فإنه **غير داخل فيما نهى عنه** وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً. فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى، وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى. وهذا علم يصح دركه بالمشاهدة. إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوا له من الألات التى يستغنى الناظر فيها عن مراعات مدته ومراصدته، وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لانشك فى عنايتهم بأمر الدين، ومعرفتهم بها وصدقهم فيما

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٢١٢) ونسبه لابن المنذر.

أخبروا به عنها. مثل أن يشاهدوها بحضرة الكـعبة، ويشاهدوها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهـم الدلالة منها بالمعـاينة وإدراكنا ذلك بقـبول خبرهم، إذ كانوا عنـدنا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفته.

قلت: سليـمان آل الشيخ: وروى ابن المنـذر عن مجاهـد أنه كان لايرى بـأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر[1] قلت - سليمان آل الشيخ ـ لأنه لا محذور في ذلك.

وعن إبراهيم أنه كان لايرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم مايهتدى به. رواه ابن المنذر.

قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم قليله وكثيره. وأما علم التسيير فتعلم ما يحتـاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور وما زاد عليه لا حـاجة إليه لشغله عما هو أهم منه، وربما أدى تـدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمـحاريب المسلمين كما وقـع من أهل هذا العلم قديمـاً وحديثاً، وذلك يفضى اعتقاده إلى خطأ السلف في صلاتهم وهو باطل انتهى. مختصراً.

قلت ـ سليمان آل الشيخ ـ وهذا هو الصحيح إن شاء الله، ويدل على ذلك الآيات والأحاديث التي تقدمت.

وهل يدخل في النهى وقت الكسوف الشـمسى والقمرى أم لا؟ رجح ابن القيم أنه لا يدخل.

قلت: ومن العلماء من جعلهم قسمين.

قال ناصر السعدي[2]:

التنجـيم نوعان: نوع يسـمى عِلم التأثـير: «وهو الاستدلال بـالاحوال الفلكيـه على الحوادث الكونيه فهذا باطل ودعوى لمشاركه الله في علم الغيب الذى أنفرد به أو تصديق لمن ادعى ذلك، وهذا ينافى الـتوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطلـه، ولما فيه من تعلق القلب بـغير الله، ولما فيه من فـساد العقل، لان سلوك الطـرق الباطله، وتصديـقها من مفسدات العقول والاديان.

النوع الثانى: علم التـسيير وهو الاستـدلال بالشمس والقمـر والكواكب على الـقبلة والاوقات والجهات، فهذا النوع لابأس به، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع اذا كان وسيلة إلى معرفة اوقات العبادة أو إلى الإهتداء به في الجهات.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٢١٢) ونسبه لابن المنذر.

(٢) القول السديد ٨٣ و ٨٤.

فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه، وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه فالاول هو المنافى للتوحيد.

قلت: وجمع بين من قال أنه ثلاثة أقسام وبين من قال أنه قسمين ابن عثيمين بشرحه وتفصيله لهذه الاقسام.

فقال: وعلم النجوم(١) ينقسم إلى قسمين:

١ - علم التأثير.

٢ - علم التسيير.

فالأول: علم التأثير.

وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هى التى تخلق الحوادث والشرور؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقاً؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً مُسخراً.

(ب) أن يجعلها سبباً يدعى به علم الغيب؛ فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا؛ لأن النجم الفلانى صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإِنسان ستكون حياته شقاءً؛ لأنه ولد فى النجم الفلانى، وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد فى النجم الفلانى؛ فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلةً لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة؛ لأن الله يقول: ﴿ **قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾، وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفى والإِثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب؛ فقد كَذَّب القرآن.

(ج) أن يعتقدها سبباً لحدوث الخير والشر، أى أنه إذا وقع شىء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه؛ **فهذا شرك أصغر.**

مسألة: فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبى ﷺ فى قوله فى الكسوف: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بها عباده**»(٢)؛ فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٢٥ - ١٢٨.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١٠٤١) ومسلم فى الكسوف (٦/ ٢١٥ ـ النووى) عن أبى مسعود وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يُسلَّم أن للكسوف تأثيراً في الحوادث والعقوبات من الجَدْب والقَحْط والحروب، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إنهما لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته**»، لا في ما مضى ولا في المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً؛ فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصاً به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلاً أن لهما تأثيراً في هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه؛ فالحديث ينص على التخويف، والمُخَوِّف هو الله تعالى، والمَخُوف عقوبته، ولا أثر للكسوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثاني: علم التسيير.

وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية؛ فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجباً، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة؛ فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة؛ فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية؛ فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات؛ كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدى وهو قريب منه يدور حوله شمالاً، وهكذا؛ فهذا جائز، قال تعالى: ﴿**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾(1).

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر؛ فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل: طلع النجم الفلاني؛ فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذى يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح. والصحيح عدم الكراهة؛ اهـ.

● ● ●

(1) النحل: ١٦.

قَالَ البُخَـارِىُّ فِى «صَحِيحه»: قَالَ قَتَـادَةُ: خَلَقَ اللهُ هَذِه النُّجُومَ لِـثَلاثٍ: زِينَةً للسَّمَاءِ، وَرُجُومًا للشَّيَاطِينِ، وَعَلامَاتٍ، يُـهْتَدَى بِهَا ، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيـهَا غَيْرَ ذَلِكَ؛ أَخْطَأَ وَ أَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ».انتهى[1].

قوله : قال البخارى فى صحيحه قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث .. الأثر

قوله: «قال البخارى فى صحيحه».

قال ابن حـجر[2]: وصله عبـد بن حميد من طـريق شيبان عنـه به وزاد فى آخره «وأن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة: من غرس بنجم كذا كان كذا ومن سافر بنجم كذا كان كذا ولعمرى ما من الـنجوم نجم إلا ويولد به الطويل والقصير والأحمر والأبيض والحسن والـدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابـة وهذا الطائرة من هذا الغيب شىء. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3]: هذا الأثر علقه البخارى فى «صحيحه» كما قال المصنف وأخرجه عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جـرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والخطيب فى كـتاب «النجوم» عن قتـادة. ولفظه قال: «إن الله إنمـا جعل هذه الـنجوم لثلاث خصال جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة: من غرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بـنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمرى مـا من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير والحسن والـدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىء مـن هذا الغيب، ولو أن أحداً علم الغيب لعـلمه آدم الذى خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء. اهـ.

---

(١) أخرجه البخارى تعليقاً (٦/ ٣٤١) ابن جرير (٢٩/ ٣).

قال: حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة. . فذكره.

وابن أبى حاتم فى تفسيره (١٠/ ٣٣٦٣/ ح ١٨٩٣٠).

وذكره السيوطى فى «الدر المـنثور» (٣/ ٦٣) ونسبه لعبد الرزاق وعبد بن حمـيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والخطيب فى «كتاب النجوم».

وانظر ابن أبى حاتم فى تفسيره وفتح المجيد (ح ٥٩٣) بتخريجنا. .

(٢) الفتح (٦/ ٣٤١).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٢٨).

- **مناسبة الأثر للباب**[1]: **قال القرعاوى:** حيث أفاد الأثر رأى قتادة أنه لايجوز الاعتقاد فى النجوم أكثر من الامور الثلاثة المذكور.

- **مناسبة الآثر لـلتوحيد**[2]: **قال القـرعاوى:** حيث أنـكر قتادة ما يدعـيه أهل التنجيم من علم الغيب، لأن ذلك إشراك مع الله فى علم الغيب.

وكره قتـادة تعلم منـازل القمر ولم يرخـص فيه ابن عيـينة، ذكره حرب عـن قتادة ورخص أحمد وإسحاق فى تعلم المنازل. اهـ.

قوله: [قال قتادة].

هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، الدوسى، أبو الخطاب، وكان أَكْمَه.

وقال أبو بكر الأثرم: سمعت أحمد بن حنبل يقـول: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لايسمع شيئاً إلا حفظه؛ وقُرِئَ عليه صحيفةَ جابر مرة واحدة فحفظها.

وكان من العلماء، كان له خمس وخمسون سنة يوم مات.

وقال عبد الرزاق عن معمر: سمعت قتادة يقول: ما فى القرآن أية إلا قد سمعت فيها شيئاً.

وعن مطر الورَّاق: ما زال قتادة متعلماً حتى مات.

وعن همام: سمعت قتادة يقول: ما أفتيت بشىء من رأيى منذ عشرين سنة.

وعن سعيد بن المسيب يقـول: ما أتانى عراقىٌّ أحفظ من قتادة.

وعن بكـر بن عبد الله المزنى: مـن سره أن ينظر إلـى أحفظ من أدركنا فـى زمانه أجدر أن يؤدى الحديث كما سَـمِعَهُ فلينظر إلى قتادة؟ ما رأيـت الذى هو أحفظ منه ولا أجدر أن يؤدى الحديث كما سمعه.

وعن مطـر الوَّراق: كان قتادة إذا سمـع الحديث يختطـفه إختطافاً، وكـان إذا سمع الحديث يأخذه العويل والزَّوِيل حتى يحفظه.

قال أبو حاتم: سمعت أحمد بن حنبل: وذكر قتـادة، فأطنب فى ذكره فجعل ينثر من علمه وفقهه، ومعـرفته بالاختلاف والتفسير وغير ذلك، وجعل يـقول: عالم بتفسير القرآن: وباختلاف العلماء. وصَفَهُ بالحفظ والفقه، فقال: قَلَّ ما تجد من يتقدمه أمَّا المِثْل فلعل[3]. اهـ.

(١) الحديد ٢٦٤.

(٢) الجديد ٢٦٤.

(٣) «تهذيب الكمال (٢٣/٥٠٧؛ ٥٠٩؛ ٥١١).

قوله: [ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح] خلق الله هذه النجوم لثلاث].

قال ابن عثيمين(١): اللام للتعليل؛ أى: لبيان العلة والحكمة.

قوله: «**لثلاث**».

ويجوز لثلاثة، لكن الثلاث أحسن، أى: لثلاث حكم، لهذا حذف تاء التأنيث من العدد. اهـ.

قوله: [زينة للسماء] لقوله الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾.

● **التفسير : بأقوال المفسرين.**

قال ابن جرير(٢): بقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهى النجوم وجعلها مصابيح لاضاءتها وكذلك الصبح إنما قيل له صبح للضوء الذى يضىء للناس من النهار. اهـ.

قال البغوى(٣): قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أراد الأدنى من الأرض وهى التى يراها الناس، وقوله: ﴿بمصابيح﴾ الكواكب، واحدها مصباح، وهو السراج. سمى الكواكب مصباحاً لإضاءته. اهـ.

قال الزمخشرى(٤): (الدنيا) القربى؛ لأنها أقرب السموات إلى الناس، ومعناه السماء الدنيا منكم والمصابيح السرج سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح، فقيل، (ولقد زينا) سقف الدار التى اجتمعتم فيها (بمصابيح) أى بأى مصابيح لاتوازيها مصابيحكم إضاءة. اهـ.

قال ابن حجر(٥):

وذكر ابن دحية فى «التنوير» من طريق أبى عثمان النهدى عن سلمان الفارسى قال: النجوم كلها معلقة كالقناديل من السماء الدنيا كتعليق القناديل فى المساجد. اهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ(٦): وفيه إشارة إلى أن النجوم فى السماء الدنيا كما هو ظاهر الآية، وفيه حديث رواه ابن مردويه عن ابن مسعود قال:

---

(١) القول المفيد (٢/ ١٢٨).
(٢) تفسير الطبرى (١٢/ ٢٩/ ٣).
(٣) معالم التنزيل (٥/ ٤٢٠).
(٤) الكشاف (٤/ ١٢١).
(٥) فتح البارى (٦/ ٣٤١).
(٦) تيسير العزيز الحميد (٣٢٨).

قال رسول الله ﷺ: «وأما السماء الد نـيا فإن الله خلقها من دخان وجعـل فيها سراجا وقمرا منيرا، وزينها بمـصابيح النجوم، وجعلها رجوما للشياطـين وحفظا من كل شيطان رجيم».

قال ابن عثيمين(١):

الأولى: زينة للسماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾(٢)؛ لأن الإنسان إذا رأى الـسماء صافـية فى ليلـة غير مقـمرة وليس فـيها كهرباء يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم مالا يعلمه إلا الله؛ فتكون كأنها غابة محلاة بأنواع مـن الفضة اللامعـة، هذه نجمة مضيـئة كبيرة تمـيل إلى الحمره، وهذه تمـيل إلى الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة، وهذا شىء مشاهد.

وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجـوم مُرصَّعة فى السماء، أو نقول: لايلزم ذلك؟

الجواب: لايلزم مـن ذلك أن تكون النجوم مـرصعة فى السماء، قـال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٣)؛ أى: يدورون، كل له فلك.

وأنا شاهدت بعينـى أن القمر خسف نجمة من النجوم، أى غطـاها، وهى من النجوم اللامعة الـكبيرة كان يقرب حولـها فى آخر الشهر، وعـند قرب الفجر غطاهـا؛ فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين فى آخر رمضان.

إذن هى أفلاك متفاوتة فى الارتفاع والنزول، ولايلزم أن تكون مُرصَّعة فى السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾؟

قلنا: إنه لايلزم من تزيين الشىء بـالشىء أن يكون ملاصقاً له، أرأيت لو أن رجلاً عمر قـصراً وجعل حوله ثـريات من الكهربـاء كبيرة وجميـلة، وليست علـى جدرانه؛ فالناظر إلى القصر من بُعْدٍ يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

قلت: ويـؤيد قول ابن عثـيمن قول الرازى حيـث قال(٤): اعلم أن ظاهـر هذه الآية

---

(١) القول المفيد ٢/١٢٨ و ١٢٩.
(٢) الملك: ٥
(٣) الأنبياء: ٣٣.
(٤) التفسير الكبير (١٥/٢٩/٦١).

لايدل على أن هـذه الكواكب مركوزة فى السـماء الدنيا، وذلك لأن السـموات إذا كانت شفافة، فالكواكب سواء كانت فى السمـاء فى الدنيا أو كانت فى سموات أخرى فوقها، فهى لابد وأن تظهـر فى السماء الدنيا، وتلوح منهـا، فعلى التقدير السماء الـدنيا مزينة بهذه المصابيح. اهـ.

قوله: [رجوماً للشياطين] لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾.

● أقوال المفسرين

قال ابن جـرير[1]: يقول وجـعلنا المصـابيح التى زيـنا بها الـسماء الدنيـا رجوماً للشياطين ترجم بها. اهـ.

قال البغوى[2]: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ مرامى ﴿لِّلشَّيَاطِينِ﴾ إذا استرقوا السمع. اهـ.

وقال الزمخشرى[3]: وضمـنا إلـى ذلك منـافع أخـر أنا ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ لأعداءكم ﴿لِّلشَّيَاطِينِ﴾ الذين يخـرجونكم من النور إلـى الظلمات، وتهتـدون بها فى ظلمـات البر والبحـر، وعن محمد بـن كعب: فى الـسماء نجم والله ما لأحـد من أهل الأرض، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة.

والرجوم: جـمع رجم، وهو مصدر، سـمى به ما يرجم بـه، ومعنى كونهـا مراجم للشياطـين أن الشهب تنقض لـرمى المسترقة منهـم منفصلة من نار الـكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنـفسها؛ لأنها قارة فى الفلك على حالـها وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة كاملة لاتنقص.

وقيل: من الشيـاطين المرجومة من يقتله الـشهاب. ومنهم: من يخبلـه، وقيل معناه (وجعلناها) ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس، وهم النجامون. اهـ.

قال ابن حـجر[4]: قال أبو عـلى الفارسـى فى قوله تـعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ الضمير للسماء، أى وجعلنا شهبها رجوماً، على حذف مضاف، فصار الضمير للمضاف إليه. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

(١) تفسير الطبرى (١٢/ ٢٩/ ٣).

(٢) معالم التنزيل (٥/ ٤٢٠).

(٣) الكشاف (٤/ ١٢١، ١٢٢).

(٤) فتح البارى (٦/ ٣٤١).

قال ابن عثيمين:[1]؛ أي: لشياطين الجن، وليسوا شياطين الإنس؛ لأن شياطين الإنس لم يصلوها، لكن شياطين الجن وصلوها؛ فهم أقدر من شياطين الإنس، ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم: ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** ﴾[2]؛ أي: سخرنا لسليمان: ﴿ **وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** ﴾[4]؛ أي: من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظيم لملكة سبأ؛ فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم.

وقال تعالى: ﴿ **وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا** ﴾[5].

والرَّجْم: الرمى. اهـ.

قوله: [وعلامات يهتدى بها]: لقوله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وهذه هى الغاية الثالثة لخلق النجوم كما قال قتادة.

● أقوال أهل التفسير.

قال ابن جرير[6]: اختلف أهل التأويل فى المعنى بالعلامات:

فقال بعضهم: معالم الطريق بالنهار، وبالنجم هم يهتدون بالليل. قاله ابن عباس.

وقال آخرون: عنى بها النجوم. قال إبراهيم: منها ما يكون علامات، ومنها ما يهتدون به. وكذا قال مجاهد، وقتادة وقال (وعلامات): النجوم.

وقال آخرون: عنى بها الجبال. قاله الكلبى - كذا مختصراً -.

وقال الطبرى: وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال أن الله تعالى ذكره عدَّد على عباده من نعمه إنعامه عليهم بما جعلهم لهم من العلامات التى يهتدون بها فى

---

(١) القول المفيد (٢/ ١٢٩).

(٢) ص: ٣٧.

(٣) ص: ٣٨.

(٤) النمل: ٣٩.

(٥) الجن: ٩.

(٦) تفسير الطبرى (٧/ ١٤/ ٦٣، ٦٤).

مسالكهم وطرقهم التى يسيرونها ولم يخصص بذلك بعض العلامات دون بعض، فكل علامة استدل بها الناس على طرقهم وفجاج سبلهم فداخل فى قوله: ﴿وَعَلامَاتٍ﴾ والطرق المسبولة الموطوءة علامة للناحية المقصودة، والجبال علامات يهتدى بهن إلى قصد السبيل، وكذلك النجوم بالليل، غير أن الذى هو أولى بتأويل الآية أن تكون العلامات من أدلة النهار إذا كان الله قد فصل منها أدلة الليل بقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

إلى أن قال: النجم الذى يهتدى به ليلاً الجدى والفرقدان؛ لأن بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم. اهـ.

وبنحو قول ابن جرير قال البغوى(١)، **وزاد**: فى قوله: **(وعلامات)** قال بعضهم: هاهنا تم الكلام، ثم ابتدأ **(وبالنجم هم يهتدون)**..

وقال السدى: أراد بالنجوم الثريا، وبنات نعش، والفرقدان، والجدى يهتدون بها إلى الطرق والقبلة. اهـ.

وبنحو ذلك قال الزمخشرى(٢)، **وزاد**: قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه ﴿النَّجْمِ﴾ مقحم فيه ﴿هُمْ﴾ كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون. فمن المراد بهم؟ قلت: - يعنى الزمخشرى - كأنه أراد قريشاً كان لهم اهتداء بالنجوم فى مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا. اهـ.

وزاد ابن الجوزى(٣): ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ أنه اسم جنس، والمراد جميع النجوم، قاله الزجاج.

- وقرأ الحسن والضحاك وأبو المتوكل ويحيى بن وثاب: (وبالنُّجْم) بضم النون، وإسكان الجيم، وقرأ الجحدرى: (وبالنُّجُم) بضم النون والجيم. وقرأ مجاهد (وبالنجوم) بواو على الجمع. اهـ.

وبنحوٍ من هذه الأقوال قال الرازى(٤). **وقال القرطبى**(٥): ﴿يَهْتَدُونَ﴾ فى

(١) معالم التنزيل (٣/ ٤٢١).
(٢) الكشاف (٢/ ٣٢٥).
(٣) زاد المسير (٤/ ٣٣١).
(٤) التفسير الكبير (١٠/ ٢٠/ ١٢).
(٥) تفسير القرطبى (٦/ ٣٧٠٨).

الأسفار، وهذا قول الجمهور وقال ابن العربى: أما جميع النجوم فلا يهتدى بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها والفرق بين الجنوبى والشمالى منها، وذلك قليل فى الآخرين. . اهـ.

وقال ابن كثير[1]: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ فى ظلام الليل. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[2]: (وعلامات).

أى دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك يهتدى بها بصيغة المجهول. أى يهتدى بها الناس فى ذلك كما قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ﴾[3]. اهـ.

وقال ابن عثيمين[4]: الثالثة: علامات يُهتَدى بها، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾[5]؛ فذكر الله تعالى نوعين من العلامات التى يهتدى بها:

الأول: أرضية، وتشمل كل ما جعل الله فى الأرض من علامة؛ كالجبال، والأنهار، والطرق، والأودية، ونحوها.

والثانى: أفقية فى قوله تعالى: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾.

والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به، ولا يختص بنجم معين؛ لأن لكل قوم طريقة فى الاستدلال بهذه النجوم على الجهات، سواء جهات القبلة أو المكان، براً أو بحراً.

وهذا من نعمة الله أن جعل علامات علوية لا يحجب دونها شىء، وهى النجوم؛ لأنك فى الليل لاتشاهد جبالاً ولا أودية، وهذا من تسخير الله، قال تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾[6].

قوله: [فمن تأول فيها بغيرذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف مالا علم له به].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٥٤٧).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٢٩).
(٣) الأنعام: ٩٧.
(٤) القول المفيد (٢/ ١٣٠ - ١٣١).
(٥) النحل: ١٦.
(٦) الجاثية: ١٣.

قال ابن حجر[1]: قال الداوودى: قول قتادة فى النجوم حسن، **إلا قوله: (أخطأ وأضاع نفسه)؛ لأنه قصر فى ذلك؛ بل قائل ذلك كافر.** انتهى.

ولم يتعين الكفر فى حق من قال ذلك، وإنما يكفر من نسب الاختراع إليها، وأما من جعلها علامة على حدوث أمر فى الأرض فلا. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: وليس المراد يهتدون بها فى علم الغيب ولهذا قال: فمن تأول فيها بغير ذلك. أى: زعم فيها غير ما ذكر الله تعالى فى هذه الثلاث فادعى بها علم الغيب فقد أخطأ أى حيث تكلم رجماً بالغيب وأضاع نصيبه أى: حظه من عمره لأنه اشتغل بما لا فائدة فيه بل مضرة محضة. وتكلف ما لا علم له به أى: تعاطى شيئاً لايتصور علمه، لأن أخبار السماء والأمور المغيبة لاتعلم إلا من طريق الكتاب والسنَّة، وليس فيهما أزيد مما تقدم. اهـ.

وقال ابن باز[3]: قوله: (من تأول فيها بغير ذلك أخطأ).

لأن زعم أنها تدل على كذا وكذا من علوم الغيب، فقد أخطأ وأضاع نصيبه، أى من الآخرة، وتكلف ما لايعلم. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: فإن قلت: إن المنجمين قد يصدقون بعض الأحيان.

قيل: صدقهم كصدق الكهان يصدقون مرة ويكذبون مئة، وليس فى صدقهم مرة ما يدل على أن ذلك علم صحيح كالكهان.

وقد استدل بعض المنجمين بآيات من كتاب الله على صحة علم التنجيم منها قوله [تعالى]: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

والجواب: أنه ليس المراد بهذه الآية أن النجوم علامات على الغيب يهتدى بها الناس فى علم الغيب، وإنما المعنى وعلامات أى: دلالات على قدرة الله وتوحيده. وعن قتادة ومجاهد أن من النجوم ما يكون علامة لايهتدى بها، وقيل: إن هذا من تمام الكلام الأول وهو قوله تعالى: **﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلامَاتٍ ﴾** أى: وألقى لكم معالم يعلم بها الطريق والأراضى من الجبال الكبار والصغار يستدل بها المسافرون فى طرقهم. وقوله: **﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾** قال ابن عباس فى الآية: **﴿وَعَلامَاتٍ ﴾** يعنى: معالم الطرق بالنهار **﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾** قال:

---

(١) فتح البارى (٦/٣٤١). (٢) تيسير العزيز الحميد (٣٢٩). (٣) التعليق المفيد (١٦٨).

يهتدون به فى البحر فى أسفارهم[1]. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم. فهذا القول ونحوه هو معنى الآية، فالاستدلال بها على صحة علم التنجيم استدلال على ما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام، بما لا يدل عليه لا نصاً ولا ظاهراً وذلك أفسد أنواع الاستدلال، فإن الأحاديث جاءت عن النبى ﷺ بإبطال علم التنجيم وذمه.

منها حديث: **«مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ عِلْمِ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ»**[2] الحديث وقد تقدم. وعن عبد الله بن محيريز التابعى الجليل أن سليمان بن عبد الملك دعاه فقال: لو علمت علم النجوم فازددت إلى علمك فقال: **قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ على أُمَّتى ثَلاثٌ: حَيْفُ الأَئمة، وتَكْذيبٌ بالقَدرِ، وإِيمَانٌ بالنُّجُومِ»**[3] وعن رجاء بن حيوة أن النبى ﷺ قال: **«مِمَّا أَخَافُ على أُمَّتى التَّصْديقَ بالنُّجُومِ، والتَكْذيبَ بِالقَدَرِ، وحَيْفُ الأئمة»**[4] رواهما عبد بن حميد. فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لا سيما وقد احتج به من أرسله. وعن أبى محجن مرفوعاً: **«أخَافُ عَلى أُمَّتي مِنْ بَعْدِى ثَلاثاً: حَيْفُ الأئمة، وإيماناً بالنُّجُومِ، وتَكْذيباً بالقدر»**[5] رواه ابن عساكر وحسنه السيوطى. وعن أنس مرفوعاً **«أخافُ على أُمَّتى بَعْدِى خَصْلَتين: تَكْذيباً بِالقَدَرِ، وإِيمَاناً بِالنُّجُومِ»**[6] رواه أبو يعلى وابن عدى والخطيب فى كتاب «النجوم» وحسنه السيوطى أيضاً.

روى الإمام أحمد والبخارى عن ابن عمر مرفوعاً: **«مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمسٌ لايَعلَمُها إلا الله لاَ يَعْلَمُ مَا تَغيضُ الأَرحَامُ إلا الله، ولاَ يَعْلَمُ مَا فى غد إلا الله ولاَ يَعْلمُ مَتى يَأْتِ المطرُ أحدٌ إلا الله، ولاَ تَدْرِى نَفسٌ بِأَىِّ أَرضٍ تَموتُ إلاَ الله ولاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَ الله»**[7] لفظ البخارى.

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٤٩٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٢١٢) وزاد نسبته لابن جرير، وابن مردويه وانظر «فتح المجيد» (ح٥٩٩) بتخريجنا.

(٢) تقدم.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٠٠) بتخريجنا.

(٤) المصدر السابق. وانظر «فتح المجيد (ح ٦٠٠) بتخريجنا.

(٥) أخرجه ابن عبدالبر فى «جامع بيان العلم» (٢/ ٣٩) عن أبى محجن به.

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٦٥) ونسبه لأبى يعلى، وابن مردويه، والخطيب. وانظر «فتح المجيد (ح٦٠٢) بتخريجنا.

(٧) **[صحيح]** أخرجه البخارى (٧٣٧٩).

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك ما لم تضلهم النجوم»** رواه ابن مردويه.

وعن ابن عمر مرفوعًا: **«تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبْحر ثم انتهوا»**[1].

وعن أبي هريرة قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ النَّظَرِ في النُّجُومِ»[2] رواهما ابن مردويه والخطيب.

وعن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أما بعد: فَإِنَّ نَاساً يَزْعُمُونَ أَنَّ كُسُوفَ هَذِهِ الشَّمْسِ، وَكَسُوفَ هَذَا القَمَرِ، وَزَوَالَ هَذِهِ النُّجُومِ عَنْ مَوَاضِعِهَا لِمَوْتِ رِجَالٍ عُظَمَاءَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، وأَنَّهم قَدْ كَذَبُوا وَلَكِنَّها آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ يَعْتَبِرُ بِها عِبَادُهُ لِيَنظُرَ مَنْ يُحدِثُ لَهُ مِنهُمْ تَوْبَةً»**[3] رواه أبو داود. وفي الباب أحاديث وآثار غير ما ذكرنا. فتبين بهذا أن الاستدلال بالآية على صحة أحكام النجوم من أفسد أنواع الاستدلال.

ومنها قوله تعالى عن إبراهيم: **﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾**.

والجواب: أن هذا من جنس استدلاله بالآية الأولى في الفساد، فأين فيها ما يدل على صحة أحكام النجوم بوجه من وجوه الدلالات؟ وهل إذا رفع إنسان بصره إلى النجوم فنظر إليها دل ذلك على صحة علم النجوم عنده؟ وكل الناس ينظرون إلى النجوم فلا يدل ذلك على صحة علم أحكامها. وكأن هذا ما شعر أن إبراهيم عليه السلام إنما بعث إلى الصابئة المنجمين مبطلاً لقولهم مناظراً لهم على ذلك.

فإن قيل على هذا: فما فائدة نظرته في النجوم؟

قيل: نظرته في النجوم من معاريض الأفعال ليتوصل به إلى غرضه من كسر الأصنام كما كان قوله: **﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾** فمن ظن أن نظرته في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام وعلم أن طالعه يقتضي عليه بالنحس فقد ضل ضلالاً بعيداً.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٦٤) ونسبه لابن مردويه، والخطيب.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٦٤) ونسبه لابن مردويه، والمرهبي، والخطيب.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لأبي داود والخطيب.
وهو في أبي داود (١١٨٤) بدون موضع الشاهد.

قال: وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه ذكره حرب عنهما ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

ولهذا جاء فى حديث الشفاعة الصحيح أنه عليه السلام يقول: «**لست هناكم ويذكر لهم خطاياه التى أصابها**[1]» وعدها العلماء فى قوله تعالى إخباراً عنه ﴿ **إني سقيم** ﴾. وقوله: ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ وقوله عن سارة: هى أختى[2]. فلو كان قوله: ﴿ **إني سقيم** ﴾ أخذه من علم النجوم لم يعتذر من ذلك، وإنما هى من معاريض الأفعال، فلهذا اعتذر منها كما اعتذر من قوله: ﴿ **بل فعله كبيرهم** ﴾ ذكر ذلك ابن القيم. لكن قوله: وعدها العلماء. يدل على أنه لم يستحضر الحديث الوارد فى عدها. وقد:

رواه أحمد والبخارى وأصحاب «السنن» وابن جرير وغيرهم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات اثنتين فى ذات الله قوله: ﴿ إني سقيم ﴾، وقوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾، وقوله فى سارة هى أختى**» لفظ ابن جرير[3].

وروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد مرفوعاً: «**فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال: ما منها كلمة إلا ما حال بها عن دين الله، فقال: ﴿ إني سقيم ﴾، وقال: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾، وقال للملك حين أراد امرأته: «هي أختى»**[4] وفى إسناده ضعف. وقال قتادة فى الآية: العرب تقول لمن تفكر: نظر فى النجوم قال ابن كثير: يعنى قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يكذبهم به فقال: إنى سقيم أى ضعيف. اهـ.

● ● ●

قوله: [قال: وكره قتادة تعلم منازل القمر.... إلخ] الأثر.

● **مناسبة الأثر للباب:**

قال القرعاوى[5]: حيث دل الأثر على أن قتادة وابن عيينة يكرهان تعلم منازل القمر وأما أحمد وإسحاق فإنهما يجوزانه. اهـ.

---

(١) تقدم فى باب الشفاعة رواه البخارى.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٥٧٨) ونسبه لأبى يعلى.

(٥) الجديد (٢٦٤).

● **شرح الأثر:**

قال سليمان آل الشيخ: هذا هو القسم الثالث من علم التنجيم، وهو تعلم منازل الشمس والقمر؛ للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول، وهو كما ترى من اختلاف السلف فيه. فما ظنك بذينك القسمين. اهـ أى المذكورين فى أول هذا الباب.

قال ابن عثيمين(١):

قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر».

أى: كراهة تحريم بناءً على أن الكراهة فى كلام السلف يراد بها التحريم غالباً.

وقوله: **«تعلم منازل القمر»** يحتمل أمرين:

الأول: أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون فى الشرطين، ويكون فى الأكليل؛ فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة؛ لأن كل ليلة له منزلة حتى يتم ثمانياً وعشرين وفى تسعٍ وعشرين وثلاثين لا يظهر فى الغالب.

الثانى: أن المراد به تعلم منازل النجوم؛ أى: يخرج النجم الفلانى فى اليوم الفلانى، وهذه النجوم جعلها الله أوقاتاً للفصول؛ لأنها [٢٨] نجماً، منها [١٤] يمانية و[١٤] شمالية؛ فإذا حلت الشمس فى المنازل الشمالية صار الحر، وإذا حلت فى الجنوبية صار البرد، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل، وهو من النجوم اليمانية. اهـ.

قوله: «لم يرخص فيه ابن عيينة».

هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران، أبو محمد الكوفى.

ولد سفيان سنة سبع ومائة. قال الزهرى: ما رأيت طالباً لهذا الأمر أصغر سناً منه. وقال ابن عيينة: ما كتبتُ شيئاً قط إلا شيئاً حفظته قبل أن اكتبه وقال الشافعى: لولا مالك، وسفيان لذهب علم الحجاز. وقال ابن المبارك: سئل سفيان الثورى عن سفيان ابن عيينة فقال: ذاك أحد الأحدين، ما كان أغربه!

وقال بشر بن المفضل: ما بقى على وجه الأرض أحد يشبه سفيان بن عيينة.

وقال يحيى بن سعيد: سفيان أمامٌ اليوم منذ أربعين سنة. وقال الشافعى: ما رأيتُ أحداً من الناس فيه من آلة العلم ما فى سفيان بن عيينة، وما رأيتُ أحدًا أكفأ عن الفتيا منه.

(١) القول المفيد ٢/ ١٣١ و ١٣٢.

وقال سفيان بن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعماً أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله فإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا.

وقال: العلم إن لم ينفعك ضرك[1].

مناقبه كثيرة وفضائله غزيرة، له أقوال تظهر عليها نور الحكمة.

[قوله: ذكره حرب عنهما]

قال سليمان آل الشيخ[2]: هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرمانى الفقيه من أجلة أصحاب الإمام أحمد روى عن أحمد وإسحاق وابن المدينى وابن معين وأبى خثيمة وابن أبى شيبة وغيرهم، وله مصنفات جليلة منها كتاب «المسائل» التى سئل عنها الإمام أحمد وغيره وأورد فيها الأحاديث والآثار وأظنه روى أثر قتادة وابن عيينة فيها. مات سنة ثمانين ومائتين. وإسحاق هو إبراهيم بن مخلد أبو يعقوب الحنظلى النيسابورى الإمام المعروف بابن راهويه روى عن ابن المبارك وأبى أسامة وابن عيينة وطبقتهم قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، وروى عنه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم، وروى هو أيضاً عن أحمد مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

قوله: [أحمد]

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيبانى المروزى، نزيل بغداد أبو عبدالله، أحد الأئمة، ثقة حافظ فقيه، مات سنة (٢٤١) وله سبع وسبعون سنه[3]. وتقدمت ترجمته بأطول من ذلك.

قوله: [وإسحاق]

هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد، المعروف بابن راهَوَيْه. أحد أئمة المسلمين، وعلماء الدين، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد، ورحل إلى العراق والحجاز واليمن والشام، وعاد إلى خراسان فاستوطن نيسابور إلى أن مات بها، وانتشر علمه عند أهلها.

ولما سُئل أحمد بن حنبل عنه قال: مثل إسحاق يسأل عنه؟! إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين[4]. مناقبة كثيرة.

---

(١) «تهذيب الكمال» للمزى (١١/ ١٧٧ - ١٩٦) ترجمته فيها مطولة.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٣٣).

(٣) «التقريب» للحافظ (ت/ ٩٦).

(٤) «تهذيب الكمال» (٢/ ٣٧٣ - ٣٨٨).

وَعَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابنُ حِبَّانَ فِى «صَحِيحِه»(٢).

قال ابن عثيمين(١) تعقيباً على الأثر:

والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر؛ لأنه لاشرك فيها؛ إلا إنْ تَعَلَّمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هى الجالبة لذلك؛ فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها: هل هو الربيع، أو الخريف، أو الشتاء؛ فهذا لا بأس به. اهـ.

●●●

قوله: وعن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لايدخلون الجنة.....» الحديث.

مناسبة الحديث للباب(٣):

قال القرعاوى: حيث دل الحديث على تحريم التصديق بجميع انواع السحر ومنها التنجيم. اهـ.

- مناسبة الحديث للتوحيد(٤):

قال القرعاوى: حيث حرم الحديث التصديق بالسحر ومنه التنجيم وذلك لما فيه من دعوى علم الغيب وذلك إشراك مع الله فى علمه. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٥): هذا الحديث رواه أيضاً الطبرانى والحاكم وقال: صحيح وأقره الذهبى. وتمام الحديث: **«وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُدْمِنُ الخمرِ سَقَاهُ الله مِن نَهرِ الغُوطَةِ نَهرٌ يَجرى مِنْ فُرُوجِ المومِسَاتِ يُؤْذى أَهلَ النَّارِ ريح فُروجِهنَّ».**

---

(١) القول المفيد (٢/ ١٣٢).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٩٩) وابن حبان فى «صحيحه» (٧/ ٣٦٦/ ح ٥٣٢٢) وأبو يعلى فى «مسنده» ((٦/ ٣٨٩/ ح ٧٢١٢)، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ١٥٦). عن المعتمر بن سليمان عن الفضل بن ميسرة عن أبى جرير أن أبا بردة حدثه عن أبى مرسى. . فذكره.

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥/ ٧٤) وقال رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى ورجال أحمد وأبو يعلى ثقات.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٤، ٨٣).

من طريق الأعمش عن سعد الطائى عن عطية بن سعد عن أبى سعيد الخدرى. وانظر «فتح المجيد (ح٦٠٥) بتخريجنا.

(٣ - ٤) الجديد (٢٦٦). (٥) تيسير العزيز الحميد (٣٣٤).

قوله: (عن أبى موسى)

قال سليمان آل الشيخ[1]: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بفتح المهملة وتشديد الضاد المعجمة أبو موسى الأشعرى، صحابى جليل استعمله النبى ﷺ وأمره عمر ثم عثمان، وهو أحد الحكمين بصفين مات سنة خمسين.

قوله: [ثلاثة لايدخلون الجنة]

قال سليمان آل الشيخ[2]: هذا من نصوص الوعيد التى كره السلف تأويلها وقالوا: أمِرُّها كما جاءت، وإن كان صاحبها لاينتقل عن الملة عندهم وكان المصنف رحمه الله يميل إلى هذا القول وقالت طائفة: هو على ظاهره فلا يدخل الجنة أصلاً مدمن الخمر ونحوه. ويكون هذا مخصصاً لعموم الأحاديث الدالة على خروج الموحدين من النار ودخولهم الجنة، وحمله أكثر الشراح على من فعل ذلك مستحلاً، أو على معنى أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد العذاب إن لم يتوبوا والله أعلم. اهـ.

وقال ابن عثيمين[3]: هى الدار التى أعدها الله لأوليائه المتقين، وسُمِّيت بذلك؛ لكثرة أشجارها لأنها تُجِن من فيها أى تستره.

وقوله: «ثلاثة لايدخلون الجنة».

هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟

الجواب: لا؛ لأن هناك من لا يدخلون الجنة سوى هؤلاء؛ فهذا الحديث لايدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟

اختلف أهل العلم فى هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو فى منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون فى النار، فَيُجْرُون هذا الحديث ونحوه على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من فى قلبه إيمان وإن قل؛ فإنه لابد أن يدخل الجنة.

القول الثانى: إن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة

(١ - ٢) تيسير العزيز الحميد (٣٣٤).

(٣) القول المفيد (٢/ ١٣٣).

على أن من فى قلبه إيمان وإن قل؛ فلا بد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلاً؛ فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التى تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها، بل يقال: هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت؛ فمثلاً: قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾(١)، هذه الآية من نصوص الوعيد؛ فنؤمن بها، ،ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرى، ونقول: هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد، وهذا مذهب كثير من السلف؛ كمالك وغيره، وهذا أبلغ فى الزجر.

القول الرابع: أن هذا نفى مطلق، والنفى المطلق يُحمَل على المقيد؛ فيقال: لايدخلون الجنة دخولاً مطلقاً يعنى لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدْر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يُصدَّق بعضها بعضاً، ويلائم بعضها بعضاً، وهذا أقرب إلى القواعد وأبْيَن حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة؛ فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال: أن من كانت هذه حاله حرى أن يختم له بسوء الخاتمة، فيموت كافراً، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه، وحينئذ لايبقى فى المسألة إشكال، لأن من مات على الكفر؛ فلن يدخل الجنة، وهو مخلد فى النار، وربما يؤيده قوله ﷺ: «**لا يزال المرء فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**»(٢)؛ فيكون هذا قولاً خامساً.

قوله: [مدمن خمر].

قال سليمان آل الشيخ(٣): أى المداوم على شربها. اهـ.

وقال ابن عثيمين(٤): هو الذى يشرب الخمر كثيراً، والخمر حده الرسول ﷺ بقوله: «**كل مسكر خمر**»(٥)، ومعنى «أسكر»؛ أى: غَطَّى العقل، وليس كل ما غطى العقل فهو خمر؛ فالبنج مثلاً ليس بخمر، وإذا شرب دهناً فأغمى عليه؛ فليس ذلك بخمر، وإنما الخمر الذى يغطى العقل على وجه اللذة والطرب؛ فتجد الشارب يحس أنه فى منزلة عظيمة وسعادة وما أشبه ذلك، قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملــوكاً … وأســداً ما ينهنها اللقــاء

وقال حمزة بن عبد المطلب - وكان قد سكر قبل تحريم الخمر - للنبى ﷺ: «وهل

---

(١) النساء: ٩٣.
(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٨٦٢). عن ابن عمر به.
(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٣٢).
(٤) القول المفيد (٢/ ١٣٣).
(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأشربة (٧/ ١٨٨/ ٧٣) عن ابن عمر به.

أنتم إلا عبيد أبي»؛ فالذي يغطي العقل على سبيل اللذة محرم بالكتاب والسنة، ومن استحله؛ فهو كافر، إلا إن كان ناشئاً ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام، ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك؛ فإنه يعرف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه. اهـ.

قوله: [قاطع رحم]

قال سليمان آل الشيخ[1]: أي: القرابة كما قال تعالى: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾[2].

وقال ابن عثيمين[3]: الرَّحِم: هم القرابة، قال تعالى: ﴿ **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** ﴾[4]، وليس كما يظنه العامة أنهم أقارب الزوجين؛ لأن هذه تسمية غير شرعية، والشرعية في أقارب الزوجين: أن يُسمَّوا أصهاراً.

ومعنى قاطع الرحم: أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ** ﴾[5]، ومنه الأرحام وما جاء مطلقاً غير مقيد؛ فإنه يتبع فيه العرف كما قيل:

وكُـــلُّ ما أتى ولَمْ يُحَدَّدِ ... بالشَّرع كالحِرْز فبالعرف احْدُدُ

فالصلة في زمن الجوع والفقر: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسوة والطعام دائماً، وفي زمن الغنى لا يلزم ذلك.

وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب وبعيد؛ فأقربهم يجب لهم من الصلة أكثر مما يجب للأبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهة أخرى: قسم من الأقارب يرى أن لنفسه حقاً لابد من القيام به، ويريد أن تصله دائماً، وقسم آخر يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها؛ فهذا له حكم، وذلك له حكم.

والقطيعة يرجع فيها إلى العرف؛ إلا أنه يستثنى من ذلك مسألة، وهي: ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقاً، بأن كنا في أمة تشتت وتقطعت عرى صلتها كما يعرف الآن في البلاد الغربية؛ فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول: لابد من صلة، فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة؛ فلا يمكن أن نعطل هذه الشريعة التي أمر الله بها ورسوله.

---

(1) تيسير العزيز الحميد (٣٣٢). (2) محمد: ٢٢.

(3) القول المفيد (٢/ ١٣٤، ١٣٥). (4) الأحزاب: ١٦. (5) الرعد: ٢١.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذا مكافأة، وليست صلة؛ لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله، إنما الواصل؛ كما قال الرسول ﷺ: **«من إذا قطعت رحمه وصلها»**(١)، هذا هو الذى يريد وجه الله والدار الآخرة.

وهل صلة الرحم حق لله أو للآدمى؟

الظاهر أنها حق للآدمى، وهى حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

قوله: (ومصدِّق السحر).

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «ومصدق بالسحر»(٣) مطلقاً ويدخل فيه التنجيم لحديث: **«من اقتبس علماً من النجوم اقتبس علماً من السحر»** وهذا وجه مطابقة الحديث للباب. قال الذهبى: فى «الكبائر» ويدخل فيه تعلم السيمياء وعملها، وهو محض السحر، وعقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة قال: وكثير من الكبائر بل عامتها إلا الأقل يجهل خلق من الأمة تحريمة وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد عليه، فهذا الضرب فيهم تفصيل، فينبغى للعالم أن لا يجهل على الجاهل بل يرفق به ويعلمه سيما إذا قرب عهده بجهله، كمن أسر وجلب إلى أرض الإسلام وهو تركى فبالجهد أن يتلفظ بالشهادتين فلا يأثم أحد إلا بعد العلم بحاله وقيام الحجة عليه.

قال ابن عثيمين(٤):

قوله: «ومصدق بالسحر». هذا هو شاهد الباب، ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدَّق به؛ فقد صدَّق بنوع من السحر، فقد سبق: **«أن من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»**، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المُنجِّم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به؛ فإنه لا يدخل الجنة، لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالى: **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾**(٥).

فإن قيل: لماذا لايجعل السحر هنا عاماً ليشمل التنجم وغير التنجيم؟

أجيب: إن المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيراً؛ فلا يلحقه هذا الوعيد؛ إذ لا شك أن للسحر تأثيراً، لكن تأثيره تخييل، مثل ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصى كأنها حيات تسعى، وإن كان لا حقيقة لذلك، وقد يسحر الساحر شخصاً

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٩٩١) عن عبدالله بن عمرو به وانظر «رياض الصالحين» (٣٢٤ ـ بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٤ و ٣٣٥.

(٣) تقدم تخريجه..

(٤) القول المفيد ٢/ ١٣٥ و ١٣٦.

(٥) النمل: ٦٥.

فيه مسائل

الأولى: الحكمةُ في خلقِ النُّجُومِ.

الثانية: الرَّدُّ على مَنْ زعَمَ غيْرَ ذَلكَ.

الثالثة: ذِكْرُ الخلافِ في تعَلُّم المَنازلَ.

الرابعة: الوَعيدُ فيمَنْ صدَّقَ بِشَيءٍ مِنَ السِّحْرِ، ولَوْ عرَفَ أَنَّهُ باطِلٌ.

فيجعله يحب فلاناً ويبغض فلاناً؛ فهو مؤثر، قال تعالى: ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** ﴾(١)؛ فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهباً أو نحو ذلك؛ فلا شك في دخوله في الوعيد؛ لأن هذا لايقدر عليه إلا الله - عز وجل - .اهـ.

قوله: فيه مسائل:

قال ابن عثيمين(٢):

- **الأولى: الحكمة في خلق النجوم.** وهي ثلاث:

- أنها زينة للسماء - ورجوم للشياطين. - وعلامات يهتدى بها.

وربما يكون هناك حِكَم أخرى لانعلمها.

- **الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.** لقول قتادة: «**من تأول فيها غير ذلك؛ أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به**».

ومراد قتادة في قوله: «**غير ذلك**» ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة؛ فلا ضلال لمن تأوله.

- **الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.** سبق ذلك.

- **الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف انه باطل:** من صدق بشيء من التنجيم أو غيره من السحر بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه، فإن عليه هذا الوعيد، كيف يُصدق وهو يعرف أنه باطل، لانه يؤدى إلى إغراء الناس وبتعلمه وبممارسته اهـ.

● ● ●

---

(١) البقرة: ١٠٢.

(٢) القول المفيد: ٢/ ١٣٩، ١٤٠.

باب (٢٩)
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

● **مناسبة هذا الباب لما قبله**

قال الفقير: لما كان الاستسقاء بالانواء أعظم ما جاء فى التنجيم أفرد له هذا الباب ولما كان متعلقاً بالتنجيم ناسب أن يأتى به بعده فالمصنف عم ثم خص والله أعلم.

● **مناسبة هذا الباب للتوحيد.**

قال السعدى(١): لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم وإضافتها إليه قولاً واعترافاً واستعانة بها على طاعته كان قول القائل: مطرنا بنؤ كذا وكذا ينافى هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء.

والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى اللـه فإنه الذى تفضل بها على عباده. ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال فينزل عليهم بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم.

فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

قال عبدالله بن جار الله(٢): هى أن نسبة مجىء المطر إلى الأنواء واعتقاد أن لها تأثير فى إنزال المطر شرك ينافى التوحيد اهـ.

● **شرح الترجمة والتبويب وماذا أراد المصنِّف بهذا الباب.**

قال سليمان آل الشيخ(٣): باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء أى من الوعيد.

والمراد نسبة السقيا ومجىء المطر إلى الأنواء جمع نوء وهى منازل القمر.

قال أبو السعادات: وهى ثمانية وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ يسقط فى الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع

---

(١) القول السديد (٨٤، ٨٥، ٨٦)

(٢) الجامع الفريد (١٢٠).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٣٥.

طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت فى الشرق فتنقضى جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها فيقولون: مطرنا بنوء كذا، وإنما سمى نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق. ينوء نوءاً أى: نهض وطلع.

قال ابن عثيمين[1]: الاستسقاء: طلب السُّقْيا؛ كالاستغفار: طلب المغفرة، والاستعانة: طلب المعونة، والاستعاذة: طلب العَوْذ، والاستهداء: طلب الهداية؛ لأن مادة استفعل فى الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب، بل تدل على المبالغة فى الفعل، مثل: استكبر؛ أى: أن تطلب منها أن تسقيك.

حكم الاستسقاء بالأنواء

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالى: **﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾**، وقال تعالى: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾**، وقال تعالى: **﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾**.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهى عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هى الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يَدْعُها؛ فهذا شرك أكبر فى الربوبية، والأول فى العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك فى الربوبية؛ لأنه لم يَدْعُها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضى الحاجة.

القسم الثانى: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سبباً مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل؛ لأن كل من جعل سبباً لم يجعله الله سبباً لا بوحيه ولا بقدره فهو مشرك شركاً أصغر. اهـ.

---

(١) القول المفيد ٢/١٤١ و ١٤٢.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿تَجعلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

- مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ[2]: روى الإمام أحمد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن أبى حاتم والضياء فى المختارة عن على رضى الله عنه قال وقال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقول: شركم، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا»[3]

وهذا أولى ما فسرت به الآية، وروى عن على وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراسانى وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين. وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية على الترجمة. اهـ.

قلت: وسيأتى تفصيل أقوال المفسرين فى الآية.

قال عبدالله بن جار الله[4]: أنّ من نسب نعمة من النعم إلى غير الله وهو المطر فى هذا الموضع إنه مشرك كافر.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[5]: حيث دلّت الآية على كفر من نسب النعم إلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء

قلت: سيأتى من كلام القرعاوى فى شرح أثر ابن عباس، فى سبب النزول أن المناسبة هى تكذيب الآية لمن نسب النعم رلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء لأن ذلك إشراك مع الله مع إنعامه.

قوله: ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

---

(١) الواقعة ٨٢. (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٥.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٠٨)، وابن جرير فى «تفسيره» (٢٧/ ١١٩)، والترمذى (٣٢٩٥) وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٤) وزاد نسبته لابن منيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والخرائطى فى مساوىء الأخلاق، وابن مردويه، والضياء فى «المختارة» وانظر الإتقان» (١٧٦٢ - بتخريجنا).

(٤) الجامع الفريد ١٢٠ و ١٢١.

(٥) الجديد ٣٦٨.

الإعراب(1): ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ الواو حرف عطف ﴿وتجعلون رزقكم﴾ فعل مضارع والواو فاعل و﴿رزقكم﴾ مفعول تجعلون الأول وأن واسمها وجملة تكذبون خبرها وأن وما فى حيزها فى موضع المفعول الثانى ولابد من تقدير مضاف أى شكر رزقكم ا.هـ.

● **سبب نزول الآية:**

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ: «**أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر**، قالوا: هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم. لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآية ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم**﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(2).

قلت: وسيأتى الأثر عند المصنف فى أخر الباب فانظر شرحه هناك

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ سافر فى حر شديد، فنزل الناس على غير ماء فعطشوا، فاستسقوا رسول الله ﷺ، فقال لهم: «**فلعلىّ لو فعلت فسقيتم قلتم هذا بنوء كذا وكذا**»، قالوا: يا نبىّ الله ما هذا بحين أنواء، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ ثم قام فصلى، فدعا الله تعالى، فهاجت ريح وثاب سحاب، فمطروا، حتى سال كل واد، فزعموا أن رسول الله ﷺ مر برجل يغرف بقدحه ويقول: هذا نوء فلان، فنزل ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(3).

عن علىّ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿**وتجعلون شكركم**﴾(4).

عن أبى عبدالرحمن السلمى قال: قرأ على رضى الله عنه الواقعات فى الفجر، فقال: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» فلما انصرف قال: إنى قد عرفت أنه سيقول قائل: لم

---

(1) إعراب القرآن ٩/ ٤٤٧ و ٤٤٨.

(2) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٣٣٧/ ١٢٧) عن ابن عباس به وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٣) وزاد نسبته لابن المنذر، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (١١٨٦٦ ـ بتخريجنا)

(3) ذكره السوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٤) ونسبه لابن مردويه.

(4) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن مردويه.

وانظر فتح القدير» (١١٨٧١ ـ بتخريجنا).

قرأها هكذا؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها كذلك، كانوا إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله **﴿وتجعلون شكركم أنكم إذ مطرتم تكذبون﴾**[(١)].

● التفسير.

● ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لو أمسك الله المطر عن الناس ثم أرسله لأصبحت طائفة كافرين**، قالوا: هذا بنوء الذبح يعني الدبران»[(٢)].

وعن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح زمن الحديبية في أثر سماء، فلما أقبل علينا فقال: «**ألم تسمعوا ما قال ربكم في هذه الآية: ما أنعمت على عبادي نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين. فأما من آمن بي وحمدني على سقياي فذلك الذي آمن بي، وكفر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك الذي آمن بالكوكب وكفر بي**»[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **إنه يقول: إن الذين يقولون نسقى بنجم كذا وكذا فقد كفر بالله، وآمن بذلك النجم، والذين يقولون سقانا الله فقد آمن بالله وكفر بذلك النجم**[(٤)].

وعن عبد الله بن محيريز أن سليمان بن عبدالملك دعاه فقال: لو تعلمت علم النجوم فازددت إلى علمك، فقال: قال رسول الله ﷺ:

«**إن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث، حيف الأئمة، وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنجوم**»[(٥)].

وعن رجاء بن حيوة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مما أخاف على أمتي التصديق بالنجوم والتكذيب بالقدر وظلم الأئمة**»[(٦)].

---

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن مردويه أيضاً.
وانظر «فتح القدير» (١١٨٧٣ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٨٣٦) عن أبي سعيد به.
وانظر «فتح القدير» (١١٨٦٨ ـ بتخريجنا).

(٣) سيأتي تخريجه في الباب

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) تقدم تخريجه

(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

وعن جابر السوائي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أخاف على أمتي ثلاثاً استسقاء بالأنواء وحيف السلطان وتكذيباً بالقدر»**(١).

وعن معاوية الليثي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكون الناس مجدبين، فينزل الله عليهم رزقاً من رزقه فيصبحون مشركين، قيل له: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا»**(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله ليصبح القوم بالنعمة أو يمسيهم بها فيصبح بها قوم كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا»**(٣).

ثانياً بأقوال السلف

● أولاً من الصحابة

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ **﴿وَتجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾** قال: يعني الأنواء وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً وكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله تعالى **﴿وَتجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾**(٤).

وعن أبي عبدالرحمن قال: كان عليّ رضي الله عنه يقرأ **﴿وَتجعَلُونَ شكركم أَنَكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾**(٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما **﴿وَتجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾** قال: الاستسقاء بالأنواء(٦).

و عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله «وتجعلون شكركم» يقول: على ما أنزلت عليكم من الغيث والرحمة، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وكان ذلك منهم كفراً بما أنعم الله عليهم(٧).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون:

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٦) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٢٩) عن معاوية به.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣)، ونسبه لابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٣) ونسبه لأبي عبيد في «فضائله» وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

وانظر «فتح القدير» (١١٨٧٢ـ بتخريجنا).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٦) ونسبه لابن جرير

مطرنا بنوء كذا وكذا، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون»(١).

● **ثانياً : من التابعين**

وعن قتادة ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فقال: أما الحسن فقال: بئس ما أخذ القوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب، قال: وذكر لنا أن الناس أمحلوا على عهد نبى الله ﷺ، فقالوا يانبى الله: لو استسقيت لنا؟ فقال: عسى قوم إن سقوا أن يقولوا سقينا بنوء كذا وكذا، فاستسقى نبى الله ﷺ، فمطروا، فقال رجل: إنه قد كان بقى من الأنواء كذا وكذا، فأنزل الله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(٢).

وعن مجاهد ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: قولهم فى الأنواء مطرنا بنوء كذا وكذا، فيقول: قولوا: هو من عند الله تعالى هو رزقه(٣).

وعن عوف عن الحسن فى قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: تجعلون حظكم منه أنكم تكذبون، قال عوف رضى الله عنه: وبلغنى أن مشركى العرب كانوا إذا مطروا فى الجاهلية قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا(٤).

وعن عطاء الخراسانى رضى الله عنه فى قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: كان ناس يمطرون فيقولون مطرنا بنوء كذا وكذا(٥).

● **ثالثا : من أقوال المفسرين**

قال ابن الجوزى(٦): وللمفسرين فى معنى هذه الأية ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الرزق ها هنا بمعنى الشكر. روت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ قال: ﴿شكركم﴾، وهذا قول على بن أبى طالب، وابن عباس. وكان على يقرأ ﴿وَتَجْعَلُونَ شكركم﴾.

والثانى: أن المعنى: وتجعلون شكر رزقكم تكذيبكم، قاله الأكثرون. وذلك أنهم كانوا يمطرون، فيقولون: مطرنا بنوء كذا.

والثالث: أن الرزق بمعنى الحظ. فالمعنى: وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، ذكره الثعلبى. وقرأ أبى بن كعب، والمفضل عن عاصم «تَكْذِبون» بفتح التاء، وإسكان الكاف، مخفَّفة الذال.

---

(١) نفس المصدر السابق. (٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد ،و ابن جرير

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٦) ونسبه لابن جرير. (٦) زاد المسير ٧/ ٣٢٨ و ٣٣٩.

قال الطبرى[1]: وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم التكذيب وذلك كقول القائل لآخر إحسانى إليك إساءة منك إلىّ، بمعنى جعلت شكر إحسانى أو ثواب إحسانى إليك إساءة منك إلىّ وقد ذكر عن الهيثم أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان بمعنى ما شكر.

قال ناصر السعدى[2]: وقوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أى: تجعلون مقابلة منّة الله عليكم بالرزق والتكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنؤ كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومُوليها.

فهلا شكرتم الله على إحسانه، إذا أنزل اليكم، ليزيدكم من فضله. فإن التكذيب والكفر، داع لرفع النعيم وحلول النقم.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين[3]:

قوله ﴿رِزْقَكُمْ﴾ الرِّزق هو العطاء، والمراد به هنا: ما هو أعم من المطر؛ فيشمل معنيين:

الأول: أن المراد به رزق العلم؛ لأن الله قال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾؛ أى: تخافونهم فتداهنونهم، وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحى أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الأية.

الثانى: أن المراد بالرزق المطر، وقد روى فى ذلك حديث عن النبى ﷺ[4] لكنه ضعيف؛ إلا أنه صح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير الآية: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسباً للباب تماماً.

والقاعدة فى التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعاً بدون منافاة تحمل عليهما جميعاً، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

---

(١) تفسير الطبرى ١١/٢٧/١١٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٥/١٦٦ و ١٦٧.
(٣) القول المفيد ٢/١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤.
(٤) تقدم تخريجه فى أول الباب

عَنْ أَبِى مَالِكٍ الأَشْعَرِىِّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النبىَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِى أُمَّتِى مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ فِى الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِى الأَنْسَابِ، والاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ». وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد؛ لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر بمن ينعم عليها؛ فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذى به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذى به حياة القلوب؛ فإن هذا من أعظم الرزق؛ فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب؟!

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، بأن يقول: هذا كذب، أو المطر من النوء، ونحو ذلك.

والثانى: التكذيب بلسان الحال، بأن يُعظِّم الأنواء والنجوم معتقداً أنها السبب، ولهذا وعظ عمر بن عبدالعزيز الناس يوماً؛ فقال: «أيها الناس! إن كنتم مصدقين؛ فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين؛ فأنتم هلكى»، وهذا صحيح؛ فالذى يُصدِّق ولا يعمل أحمق، والمكذب هالك؛ فكل إنسان عاصٍ نقول له الآن: أنت بين أمرين: إما أنك مصدق بما رُتِّب على هذه المعصية، أو مكذب، فإن كنت مصدقاً؛ فأنت أحمق، كيف لا تخاف فتستقيم؟! وإن كنت غير مصدق؛ فالبلاء أكبر، فأنت هالك كافر.

● ● ●

قوله : عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: أربع فى أمتى من أمر الجاهلية .. الحديث »

قلت: أخرجه مسلم فى الجنائز باب التشديد فى النياحة.

- مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى(٢): حيث دل الحديث على تحريم الاستسقاء بالأنواء. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الجنائز»/ باب التشديد فى النياحة (٣/ ٥٠٧/ ح٢٩). وأحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٤٢، ٣٤٤).

من حديث أبى مالك الأشعرى وانظر فتح المجيد (ح٦١٤) بتخريجنا.

(٢) الجديد ٢٧١.

- **مناسبة الحديث للتوحيد**

قال القرعاوى[1]: حيث أنكر الحديث الاستسقاء بالنجوم لأنه طلب للنفع من غير الله وذلك شرك به. اهـ.

قوله. «عن أبى مالك الأشعرى».

قال سليمان آل الشيخ[2]: اسمه الحارث بن الحارث الشامى صحابى تفرد عنه بالرواية أبو سلام، وفى الصحابة أبو مالك الأشعرى اثنان غير هذا جزم به الحافظ. ا هـ.

قوله: «انّ النبىَّ - ﷺ - قال: أربع من أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن»

قال سليمان آل الشيخ[3]:

قوله «أربع من أمتى»

أى: من أفعال أهلها بمعنى أنها معاصى ستفعلها هذه الأمة. إما مع العلم بتحريمها وإما مع الجهل بذلك كما كان أهل الجاهلية يفعلونها. والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث سموا بذلك لفرط جهلهم وكل ما يخالف ما جاءت به الأنبياء والمرسلون فهو جاهلية منسوبة إلى الجاهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل.

قال شيخ الإسلام: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمن لم يتركه، وهذا يقتضى أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم فى دين الإسلام وإلا لم يكن فى إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها. ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم وهذا كقوله تعالى: **﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾** فإن فى ذلك ذماً للتبرج وذماً لحال الجاهلية الأولى وذلك يقتضى المنع من مشابهتهم فى الجملة. اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: قوله فى حديث أبى مالك: «أربع فى أمتى».

الفائدة من قوله: «**أربع**» ليس الحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها فى المعنى، وإنما

(١) الجديد ٢٧١

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٣٦.

(٤) القول المفيد ٢/ ١٤٥- ١٤٧.

يقول النبى ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ.

قوله: **«من أمر الجاهلية»**.

أمر هنا بمعنى شأن؛ أى: من شأن الجاهلية وهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر؛ لأن واحد الأوامر طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: **«من أمر الجاهلية»**.

إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال: فِعْلُك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب؛ إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية؛ فالغرض من الإضافة هنا أمران:

١- التنفير.

٢- وبيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان؛ إذ ليست أهلاً بأن يراعيها الإنسان أو يعتنى بها؛ فالذى يعتنى بها جاهل.

قلت: وهذا ما فهمه أبو ذر من قول الرسول ﷺ: **«إنك امروء فيك جاهلية»** فيما عير بلالاً بأمة وقال له يا ابن السوداء وسيأتى اهـ.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل البعثة؛ لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يُسمَّون بالأميين، والأمى هو الذى لا يقرأ ولا يكتب؛ نسبةً إلى الأم، كأن أمه ولدته الآن.

لكن لما بُعث فيهم هذا النبى الكريم؛ قال تعالى: **﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾**(١)؛ فهذه منة عظيمة أن بعث فيهم النبى عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١- يتلو عليهم آيات الله.

٢- ويزكيهم؛ فيطهر أخلاقهم وعباداتهم وينميها.

٣- ويعلمهم الكتاب.

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

٤- والحكمة.

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند من يعرف قدرها، ثم بيَن الحال مــن قبل قال: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، و﴿وَإِن﴾ هذه ليست نافية، بـل مُؤكِّدة؛ فهى مخــففة من الثقــيلة، يعنى: وإنــهم كانوا من قبـل لفى ضلال مبين.

إذن المراد بالجاهلية ما قبل البعثة؛ لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم.

فجهلــهم شامل للجهل فــى حقوق الله وحقوق عباده، فــمن جهلهم أنهم يُـنصّبون النُّصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكى لا يُعيّر بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر. اهـ.

قلت: الجاهلية : هى زمن ما قبل بعثة النبى ﷺ وسموا بذلك لفرط جهلهم

والجاهلية: سلوك غير منضبط بضابط شرعى.

قال ابن تيمية فى «الإيمان الأوسط» من هذا الحديث : إن المسلم قد يكون فيه شىء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهوديــة ونصرانية، ولايُوجب ذلك كفره ولافسقه. اهـ فمن صور الجاهلية .

[١] حكم الجاهلية [٢] ظن الجاهلية [٣] تبرج الجاهلية [٤] حمية الجاهلية [٥] دعوى الجاهلية . . . والله أعلم (*).

قوله: **(لا يتركونهن)**.

المراد: لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثانى عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام فى قبيلة، وقد تخلو بعض القبــائل منها جميعاً، إنما الأمة كمجموع لابد أن يوجد فيها شــىء من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصــدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التنــفير؛ لأنه ﷺ قد يـخبر بأشياء تـقع وليس غرضــه أن يُؤخذ بها؛ كــما قال ﷺ: «**لتركبن سنن مــن كان قبلكم اليهــود والنصارى**»(١)؛ أى: فاحذروا، وأخــبر ﷺ: «**أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضر موت لا تخشى إلا الله**»(٢)؛ أى: بلا محرم، وهذا خبر عن أمر واقع وليس إقراراً له شرعاً.

(*) وانظر تعليقى على «أحكام الجنائز» للألبانى

(١)،(٢) تقدم تخريجه

قوله: «أمتى».

أى: أمة الإجابة.

قوله: «الفخر بالأحساب»

قال سليمان آل الشيخ[١]: أى التشرف بالآباء والتعاظم بعد مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم وذلك جهل عظيم، إذ لا شرف إلا بالتقوى كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾** الآية. وقال تعالى: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**.

وروى أبو داود عن أبى هريرة مرفوعاً **«إنَّ الله قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُم عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّة وَفَخْرَهَا بِالآباءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌ وفاجِرٌ شَقِيٌّ أَنْتُمْ بَنِى آدَمَ وآدَمُ مِنْ تُراب لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخْرَهُم بِأَقْوَام إنما هُم فَحمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّم أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى الله مِنَ الجُعْلانِ التى تَدْفَعُ بِأَنفِها النتن»**[٢] والأحساب جمع حسب وهو ما يعده الإنسان له ولآبائه من شجاعة وفصاحة ونحو ذلك.

قال ابن عثيمين[٣]: الفخر: التعالى والتعاظم، والباء للسببية؛ أى: يفخر بسبب الحسب الذى هو عليه.

والحَسَبُ: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأن يكون من بنى هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة، فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية؛ لأن الفخر فى الحقيقة يكون بتقوى الله الذى يمنع الإنسان من التعالى والتعاظم، والمتقى حقيقة هو الذى كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد تواضعاً للحق وللخلق.

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية؛ فلا يجوز لنا أن نفعله، ولهذا قال تعالى لنساء نبيه ﷺ: **﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾**، واعلم أن كل ما ينسب إلى الجاهلية؛ فهو مذموم ومنهى عنه. اهـ.

قلت: وجآء الذم والنهى صريحا فيما أخرجه أحمد عن أبى ريحانه أن النبى ﷺ

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٣٦ و ٣٣٧.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٦١)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذى (٣٩٥٦) وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا..

(٣) القول المفيد ٢/ ١٤٨

قال: «من انتسب إلى تسعة آبآء كفار يريد بهم عزاً وفخراً فهو عاشرهم فى النار»(*).

إشكال: فإن قيل إن النبى ﷺ قال: «أنا ابن عبد المطلب وغير ذلك»

الجواب: يوب البخارى على هذا الحديث وغيره باب من انتسب إلى آبائه فى الإسلام والجاهلية.

قال ابن حجر أى جواز ذلك خلافاً لمن كرهه مطلقاً فإن محل الكراهة ما إذا أورده على طريق المفاخرة والمشاجرة واستدل لذلك بحديث أبى ريحانه المتقدم(**).

قال سليمان آل الشيخ(١):

قوله: «**والطعن فى الانساب**» أى: الوقوع فيها بالذم والعيب أو يقدح فى نسب أحد من الناس فيقول: ليس هو من ذرية فلان أو يعيره بما فى آبائه من المطاعن.

ولهذا لما عَيَّرَ أبو ذَرٍ رَضى الله عنهُ رَجُلاً بِأُمِّهِ، قَالَ النَّبىُّ ﷺ لأَبى ذَرٍ «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَهلية** . . . الحديث(٢)» متفق عليه. فدل ذلك أن التعيير بالأنساب من أخلاق الجاهلية، وأن الرجل مع فضله وعلمه ودينه قد يكون فيه بعض هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره وفسقه. قاله شيخ الإسلام.

قوله: «والطعن فى الأنساب»

قال ابن عثيمين(٣):

قوله: «**الطعن فى الأنساب**».

الطَّعْن: العيب؛ لأنه وخز معنوى كوخز الطاعون فى الجسد، لهذا سُمِّى العيب طعناً.

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن فى نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مقطعة البظور- وهى شىء فى فرج المرأة يقطع عند ختان النساء.

قال سليمان آل الشيخ(٤):

قوله: «**والاستسقاء بالنجوم**». أى نسبة السقيا ومجىء المطر إلى النجوم والأنواء، وهذا هو الذى خافه النبى ﷺ على أمته.

(*) قال الحافظ فى الفتح (٦/ ٦٣٧) رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن.

(**) الفتح (٦/ ٦٣٦، ٦٣٧).

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٣٧.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٠٥٠) ومسلم فى الإيمان (٦/١٤٦/٣٨) عن أبى ذر به

(٣) القول المفيد ٢/ ١٤٨.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٣٧ و ٣٣٨

كما روى الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائى قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أخَافُ على أُمَّتى ثَلاثاً اسْتِسقَاء بِالنُّجُوم، وَحَيْفُ السُّلْطَان، وتَكْذِيباً بِالقَدَرِ»(١) إذا تبين هذا، **فالاستسقاء بالنجوم نوعان:**

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفر ظاهر إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** وليس هذا معنى الحديث، فالنبى ﷺ أخبر أن هذا لا يزال فى أمته، ومن اعتقد أن النجم ينزل المطر فهو كافر.

الثانى: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، لكن معنى أن الله تعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، فحكى ابن مفلح خلافاً فى مذهب أحمد فى تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشافعى بجوازه، **والصحيح أنه محرم**، لأنه من الشرك الخفى، وهو الذى أراده النبى ﷺ، وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله، وهو الذى كان يزعم المشركون، ولم يزل موجوداً فى هذه الأمة إلى اليوم، وأيضاً فإن هذا من النبى ﷺ حماية لجناب التوحيد وسد لذرائع الشرك ولو بالعبادات الموهمة التى لا يقصدها الإنسان، كما قال لرجل قال له: ما شاء الله وشئت، قال:

«أجعلتنى لله نداً، بل ما شاء الله وحده»(٢).

وفيه التنبيه على ما هو أولى بالمنع من نسبة السقيا إلى الأنواء كدعاء الأموات، وسؤالهم الرزق والنصر والعافية ونحو ذلك من المطالب، فإن هذا من الشرك الأكبر، سواء قالوا: إنهم شفعاؤنا إلى الله، كما قال تعالى إخباراً عن المشركين: **﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾** أو اعتقدوا أنهم يخلقون، ويرزقون، وينصرون استقلالاً على سبيل الكرامة، كما ذكره بعض عباد القبور فى رسالة صنعها فى ذلك؛ لأنه إذا منع من إطلاق نسبة السقيا إلى الأنواء مع عدم القصد والاعتقاد، فلأن يمنع من دعاء الأموات والتوجه إليهم فى الملمات مع اعتقاد أن لهم أنواع التصرفات أولى وأحرى. اهـ.

قلت: واختصر ذلك الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ وأتيت هنا بتمام الكلام للإفاده.

(١)،(٢) تقدم تخريجه

قوله «والإستسفاء بالنجوم»

قال ابن عثيمين[١]: أى: نسبة المطر إلى النجوم، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله- عز وجل-، أما إن اعتقد أن النجوم هى التى تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر؛ فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة. اهـ.

قوله: «والنياحة على الميت»

قال سليمان آل الشيخ[٢]: قوله: «والنياحة» أى. رفع الصوت بالندب على الميت، لأنها سخط لقضاء الله ومعارضة لأحكامه وسوء أدب مع الله، ولا كذلك ينبغى أن يفعل المملوك مع سيده، فكيف يفعله مع ربه وسيده ومالكه وإلهه الذى لا إله له سواه، الذى كل قضائه عدل، وأيضاً ففيها تفويت الأجر مع ذهاب المصيبة. اهـ.

قال ابن عثيمين[٣]: قوله: **«والنياحة على الميت»**.

هذا هو الرابع، والنياحة: هى رفع الصوت بالبكاء على الميت قصداً، وينبغى أن يضاف إليه على سبيل النَّوح؛ كنوح الحمام.

والنَّدْبُ: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية، ولابد أن تكون فى هذه الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية:

إما من الجهل الذى هو ضد العلم.

أو من الجهالة التى هى السَّفَة، وهى ضد الحكمة.

وإنما كانت كذلك لأمور، هى:

١- أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزناً وعذاباً.

٢- أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه.

٣- أنها تُهيِّج أحزان غيره.

وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله- وهو من علمائنا الحنابلة- أنه خرج فى جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا فى المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾؛ فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان.

---

(١) القول المفيد ٢/١٤٨ و ١٤٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٨

(٣) القول المفيد ٢/١٤٩و ١٥٠.

٤- أنه مع هذه المفاسد لا يَرُدُّ القضاء، ولا يرفع ما نزل.

قوله: قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها»

قال النووى [*]: فيه دليل على تحريم النياحة وهو مجمع عليه .

وفيه : صحة التوبة مالم يمت المكلف ولم يصل إلى الغرغرة .اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[١]:

قوله: وقال «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها**». فيه تنبيه على أن الوعيد والذم لا يلحق من تاب من الذنب، وهو كذلك بالإجماع، فعلى هذا إذا عرف شخص بفعل ذنوب توعد الشرع عليها بوعيد لم يجز إطلاق القول بلحوقه لذلك الشخص المعين، كما يظنه كثير من أهل البدع، فإن عقوبات الذنوب ترتفع بالتوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة نبيهم ﷺ فيهم، وعفو الله عنهم.

وفيه أن من تاب قبل الموت ما لم يغرغر فإن الله يتوب عليه

كما فى حديث ابن عمر مرفوعاً: «**إِنَّ الله تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغرغِر**»[٢]. رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى «صحيحه».

قال ابن عثيمين[٣]: والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء، ولهذا قال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها**»؛ أى: إن تابت قبل الموت؛ تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لاتمحوه لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات فلا يمحوها إلا التوبة. اهـ.

قوله: «**تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران**»

قال سليمان آل الشيخ[٤]:

قوله: «**تقام يوم القيامة**». أى تبعث من قبرها، «**وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**».

قال القرطبى: السربال واحد السرابيل، وهى الثياب والقمص؛ يعنى أنهن يلطخن بالقطران، فيصير لهن كالقميص حتى يكون اشتعال النار والتصاقها بأجسادهن- أعظم ورائحتهن أنتن وألمهن بسبب الجرب أشد. وروى عن ابن عباس أن القطران هو النحاس

(*) شرح مسلم (٣/ ٥٠٩)

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٣٩.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ١٣٢)، والترمذى (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣) عن ابن عمر به وانظر «رياض الصالحين» (١٩ ـ بتخريجنا).

(٣) القول المفيد ٢/ ١٥٠

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٣٩

المذاب، وروى الثعلبى فى «تفسيره» عن عمر بن الخطاب أنه سمع نائحة فأتاها، فضربها بالدرة حتى وقع خمارها، فقيل يا أمير المؤمنين: المرأة المرأة قد وقع خمارها قال: إنها لا حرمة لها. اهـ.

قوله: «ودرع من جرب»

قال ابن عثيمين[1]: الجرب: مرض معروف يكون فى الجلد، يؤرق الإنسان، وربما يقتل الحيوان، والمعنى: إن كل جلدها يكون جرباً بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء؛ لأن الجرب أى شيء يمسه يتأثر به؛ فكيف ومعه قطران؟!

والحكمة أنها لما لم تُغَطِّ المصيبة بالصبر غُطِّيت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب؛ فكانت العقوبة من جنس العمل.

● **ويستفاد من الحديث:**

١- ثبوت رسالته ﷺ؛ لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع كما أخبر **قاله سليمان آل الشيخ**.

٢- التنفير من هذه الأشياء الأربعة: الفخر بالأحساب، والطعن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.

٣- أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليه فى الآخرة، وكل ذنب عليه الوعيد فى الآخرة؛ فهو من الكبائر.

٤- أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح؛ لقوله: «**إذا لم تتب قبل موتها**».

٥- أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت؛ لقوله: «**إذا لم تتب قبل موتها**»، ولقوله تعالى: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ** ﴾.

٦- أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة؛ فمن أهل العلم من قال: إنه داخل تحت المشيئة: إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة، وإنه لابد أن يعاقب، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾؛ فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك، قال ابن مسعود رضى الله عنه: «**لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً**»[2].

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٥٠و١٥١و١٥٢ (٢) تقدم تخريجه.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْد بـن خَالد ـ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ ـ ، قَـالَ: «صَلَّى لَنَـا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَةِ عَلَى أَثْرِ سمَاء كَـانَتْ منَ اللَّيْلِ، فَلمَّا انْصرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟» قَالُوا: الله ورسوله أعلم. قَالَ: «يُقَالَ: أَصْبَحَ منْ عبَادى مُؤمنٌ بى وَكَافـرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَـالَ: مُطِرْنَا بِـفَضْلِ الله وَرَحْمَـته، فَذَلكَ مُـؤمنٌ بى كَافـرٌ بالكَوْكَب، وَأَمَّـا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَـا بِنَوْءِ كَذَا وَكَـذا، فَذَلكَ كَافِرٌ بِى مُؤمِنٌ بِالكَوْكَبِ»(١).

لأن الحلف بـغير الله من الـشرك، والحلف بالله كـاذباً من كبـائر الذنوب، وسـيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧- ثبوت الجزاء والبعث.

٨- أن الجزاء من جنس العمل.

● ● ●

قولـه: ولهمـا عن زيـد بن خالـد ـ رضى الله عنـه ـ قال «صـلى لنـا رسول الله.....» الحديث.

قلت: قوله: «ولهما» أى البخارى ومسلم فـقد أخرجه البخارى فى كتاب الأذان باب يستقبل الامام الناس إذا سلم، ومسلم فى الإيمان.

- مناسبة الحديث للباب.

قال عبـدالله بن جـار الله(٢): أنه دل علـى نسبة مجـىء المطر إلى الأنـواء كفر بالله(٣).

- مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى(٤): حيث أعتبـر الحديث أن من نسب المطر إلـى الأنواء كافراً لأنه نسب النعمه وهى المطر إلى غير الله فأشرك معه غيره. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه مالك فى «المـوطأ» (١/ ١٧٠)، والبخارى فى الآذان/ باب يستقبـل الإمام الناس إذا سلم (٢/٣٨٨/٨٤٦)، ومسلم فى الإيمان / باب كفر من قال : مطرنا بالنوء (٢/ ٥٩ ـالنووى)، وأحمد فى «مسنده» (١١٧/٤)، وأبو داود فى الطب / باب النجوم (٣٩٠٦/١٥/٤) ، والنسائى فى «الكبرى» فى عمل الـيوم والليلـة (٦/ ٢٢٩/ ١٠٧٦١)، والبيهقـى فى «الكبرى» (٣٥٨/٣) ، والـبغوى فى «شرح الـسنة» (١١٦٩/٤١٩/٤). عن زيد بن خالد به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٣٤ ـ بتخريجنا) وانظر فتح المجيد (ح٦١٩) بتخريجنا.

(٢)، (٣) الجامع الفريد ١٢٣.   (٤) الجديد ٢٧٤.

قوله: عن زيد بن خالد

قال سليمان آل الشيخ[١].

قوله: عن زيد بن خالد. أى الجهنى المدنى، صحابى مشهور، مات سنة ثمان وستين بالكوفة، وقيل غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: صلى لنا رسول الله ﷺ

قال ابن حجر[٢] أى لأجلنا، أو اللام بمعنى الباء أى صلى بنا، وفيه جواز إطلاق ذلك مجازاً وإنما الصلاة لله تعالى. أهـ

قال ابن عثيمين[٣] : أى: إماماً؛ لأن الإمام يصلى لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم، وقيل: إن اللام بمعنى الباء، وهذا قريب، وقيل: إن اللام للتعليل؛ أى: صلى لأجلنا. أهـ

قوله: (بالحديبية):

قال النووى(*): فيها لغتان: تخفيف الياء، وتشديدها، والتخفيف هو الصحيح المشهور المختار، وهو قول الشافعى وأهل اللغة وبعض المحدثين. اهـ.

قال ابن حجر[٤]: بالمهملة والتصغير وتخفيف ياءوها وتثقل، يقال سميت بشجره حدباء هناك.

قال ابن عثمين[٥]: أى: صلاة الفجر، والحديبية فيها لغتان: التخفيف، وهو أكثر، والتشديد، وهى اسم بئر سمى بها المكان، وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمى حديبية، والأكثر على أنها اسم بئر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه فى الحل وبعضه فى الحرم، نزل به الرسول ﷺ فى السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمراً، فصده المشركون عن البيت، وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ويسمى الآن الشِّميسى. اهـ.

قوله: على إثر

قال النووى(*): هو بكسر الهمزة وإسكان الثاء وبفتحها جميعاً لغتان مشهورتان، والسماء: المطر.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

(٢) الفتح (٢ ص٦٠٧)، ونقله الشيخ سليمان فى تيسير العزيز الحميد وغيره.

(٣) القول المفيد ٢/١٥٣.

(٤) الفتح (٢ ص٦٠٧)

(٥) القول المفيد ٢/١٥٣

(*) شرح مسلم (١/٣٣٨).

قال ابن حجر[٥] بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور وهو ما يعقب الشيء.

قال ابن عثيمين[١]: الإثر معناه العَقب، والأثر: ما ينتج عن السير. اهـ.

قوله: «سماء».

قال ابن حجر[٢] أى مطر واطلق عليه سماء لكونه ينزل من جهة السماء وكل جهة علو تسمى سماء. اهـ.

قوله: كانت من الليل

قال ابن حجر [٣]: كذا للأكثر وللمستملى والحموى (من الليلة) بالإفراد

قال ابن عثيمين[٤]: «من» لابتداء الغاية، هذا هو الظـاهر- والله أعلم-، ويحتمل أن تكون بمعنى فى للظرفية.

قوله: فلما انصرف

قال ابن حجر [٥]: أى من صلاته أو من مكانه. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[٦].

قوله: فلما انصـرف. أى من صلاته لا من مكانه، كـما يدل عليه قوله: أقـبل على الناس. أى التفت إليهم بوجهه الشريف، ففـيه دليل على أنه لا ينبغى للإمام إذا صلى أن يجلس مستقبل القبلة، بل ينـصرف إلى المأمومين، كما صحت بذلك الأحاديث[٧]. أهـ وقال بنحوه عبد الرحمن آل الشيخ.

قال ابن باز[٨]

من عادته-ﷺ- أنه إذا سلم استغفر ثلاثاً وقال اللهم أنت السلام.. ثم يعطى الناس وجهه ويذكر بقية الاذكار. أهـ.

قلت : وذلك ثانيا فى صحيح مسلم من حديث عائشة[٩].

(٦) الفتح ٢ صـ٦٠٧.

(١) القول المفيد ٢/ ١٥٣

(٢) الفتح ٢ ص٦٠٧.

(٣) الفتح ٢ ص٦٠٧.

(٤) القول المفيد ٢/١٥٣.

(٥) الفتح ٢ ص٦٠٧.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٤.

(٧) قال نحوه بين عثيمين فى القول ٢/ ٢٥٣

(٨) التعليق المفيد ١٧١.

(٩) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد (٣/٩٧/ ١٣٦) عن عائشة به

قوله: هل تدرون

قال ابن حجر(١)

لفظ استفهام معناه التنبيه، ووقع فى رواية سفيان عن صالح عند النسائى «**ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة**» وهذا من الأحاديث الإلهية وهى تحتمل أن يكون النبى ﷺ أخذها عن الله بلا واسطة أو بواسطة. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢)

قوله: «هل تدرون». لفظ استفهام، ومعناه التنبيه. وفى رواية النسائى: «**أَلم تَسمَعُوا مَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيلَةَ**» وهذا من الأحاديث القدسية.

قال الحافظ: وهى تحمل على أن النبى ﷺ أخذها عن الله بواسطة أو بلا واسطة، وفيه إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليخبرهم، وإخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها ذكره المصنف. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣)

الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا؛ فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله؛ لأن الوحى لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: «**هل تدرون**» أى: هل تعلمون.

قوله «ماذا قال ربكم؟»

قال ابن عثيمين(٤)

والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ لأن ربوبية الله للمؤمن خاصة كما أن عبودية المؤمن له خاصة، ولكن الخاصة لا تنافى العامة؛ لأن العامة تشمل هذا وهذا، والخاصة تختص بالمؤمن. اهـ.

قوله «قالوا: الله ورسوله أعلم»

قال سليمان آل الشيخ(٥)

فيه حسن الأدب للمسؤول عما لا يعلم، وإنه يقول ذلك أو نحوه، ولا يتكلف ما لا يعنيه اهـ.

---

(١) الفتح (٢ ص٦٠٨). (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠. (٣) القول المفيد ٢/ ١٥٤.
(٤) القول المفيد ٢/ ١٥٤. (٥) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

وذكر نحو ذلك ابن باز فقال: «الله ورسوله أعلم» هذا من أدب الصحابة رضى الله عنهم وبعد موته ﷺ يقال الله أعلم لأن الوحى انقطع فلا يعلم ما بعده كما فى حديث الحوض إلا ما يعرضه الله عليه كالصلاة عليه. اهـ.

قوله: «أصبح من عبادى»

قال ابن حجر(٢): هذه إضافة عموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر بخلاف مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ فإنها إضافة تشريف. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٣): فإن قيل: هذا يدل على أن المراد بالكفر هنا هو الأكبر قيل: ليس فيه دليل إذ الأصغر يصدر من الكفار(٤).

قال النووى(*): اختلف العلماء فى كفر من قال (مطرنا بنوء كذا) على قولين:

أحدهما: هو كفر بالله تعالى سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام، قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشأ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم.

ومن اعتقد هذا فلاشك من كفره، وهذا القول هو الذى ذهب إليه جماهير العلماء والشافعى منهم، وهو ظاهر الحديث.

قالوا: وعلى هذا لو قال **(مطرنا بنوء كذا)** معتقداً أنه من الله تعالى وبرحمته وأن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً للعادة، فكأنه قال: مطرنا فى وقت كذا، فهذا لا يكفر.

واختلفوا فى كراهته، والأظهر كراهته، لكنها كرهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهية أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها؛ ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم.

والقول الثانى: فى أصل تأويل الحديث، أن المراد كفر نعمة الله تعالى؛ لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لايعتقد تدبير الكوكب، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة فى الباب بلفظ: «**أصبح من الناس شاكر وكافر**» وفى الرواية الأخرى: «

(١) التعليق ١٧١.

(٢) الفتح ٢ ص٦٠٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

(٤) قال نحوه صاحب فتح المجيد ٢/ ٥٤٣.

(*) شرح مسلم (١/ ٣٣٨ـ ٣٣٩)

ما أنعمت على عبادى من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين» وفى الرواية الأخرى: **«ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين»** فقوله **«بها»** يدل على أنه كفر بالنعمة والله أعلم. اهـ.

وقال ابن حجر(1):

قوله **(مؤمن بى وكافر)** يحتمل أن يكون المراد بالكفر هنا كفر الشرك بقرينة مقابلته بالإيمان، ولأحمد من رواية نصر بن عاصم الليثى عن معاوية الليثى مرفوعاً **«يكون الناس مجدبين فينزل الله عليهم رزقاً من رزقه فيصبحون مشركين يقولون: مطرنا بنوء كذا»**(2) ويحتمل أن يكون المراد به كفر النعمة، ويرشد إليه قوله فى رواية معمر عن صالح عن سفيان **«فأما من حمدنى على سقياى وأثنى علىَّ فذلك آمن بى»** وفى رواية سفيان عند النسائى والإسماعيلى نحوه، وقال فى آخره **«وكفر بى»** أو قال **«كفر نعمتى»** وفى رواية أبى هريرة عند مسلم **«قال الله: ما أنعمت على عبادى من نعمة إلا أصبح فريق منهم كافرين بها»**(3) وله فى حديث ابن عباس **«أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر»**(4) وعلى الأول حمله كثير من أهل العلم، وأعلى ما وقفت عليه من ذلك كلام الشافعى، قال فى **«الأم»**: من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه مطر نوء كذا فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ لأن النوء وقت والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ومن قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا فى وقت كذا فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحب إلىَّ منه، يعنى حسماً للمادة، وعلى ذلك يحمل إطلاق الحديث، وحكى ابن قتيبة فى «كتاب الأنواء» أن العرب كانت فى ذلك على مذهبين على نحو ما ذكره الشافعى، قال: وكانوا فى الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما بصنعه على زعمهم وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم وجعله كفراً، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعاً فى ذلك فكفره كفر تشريك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة لأنه لم يقع فى شىء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين لتناول الأمرين، والله أعلم.

---

(1) الفتح ٢/ ص٦٠٨.

(2) تقدم تخريجه

(3) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٣٣٧/ ١٢٦)

(4) تقدم تخريجه

ولا يرد الساكت، لأن المعتقد قد يشكر بقلبه أو يكفر، وعلى هذا فالقول في قوله **«فأما من قال»** لما هو أعم من النطق والاعتقاد، كما أن الكفر فيه لما هو أعم من كفر الشرك وكفر النعمة، والله أعلم بالصواب. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ مقرباً كلام ابن حجر وشارحاً له[١]:

قوله: «مؤمن بي وكافر». المراد بالكفر هنا هو الأصغر بنسبة ذلك إلى غير الله وكفران نعمته، وإن كان يعتقد أن الله تعالى هو الخالق للمطر المنزل له بدليل قوله في الحديث **«فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته»** إلى آخره، فلو كان المراد هو الأكبر، لقال أنزل علينا المطر نوء كذا، فأتى بباء السببية ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سبباً. وفي رواية: **«فأما من حمدني على سقياي وأثنى على، فذاك من آمن بي»** فلم يقل: فأما من قال: إني المنزل للمطر فذاك من آمن بي، لأن المؤمنين والكفار يقولون ذلك: فدل على أن المراد إضافة ذلك إلى غير الله، وإن كان يعتقد أن الفاعل لذلك هو الله. وروى النسائي والإسماعيلي نحوه وقال في آخره: **«وكفر بي أو كفر نعمتي»**.

وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عند مسلم قال رسولُ الله ﷺ: **«أَلَمْ تَرَوْ إلى ما قَالَ رَبُّكم؟ قال: مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي مِنْ نِعْمَةٍ إلاَّ أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْهمْ بِهَا كَافِرِينَ»**[٢].

وله من حديث ابن عَباسٍ: **«أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ ومِنْهُمْ كَافِرٌ»** الحديث[٣].

وفي حديث معاوية الليثي مرفوعاً: **«يَكُونُ النَّاسُ مُجْدِبِينَ فَيُنْزِلُ الله عَليهم رِزْقاً مِنْ رِزْقِه فَيُصْبِحُونَ مُشْرِكِينَ، يَقُولُونَ: مُطِرنا بِنَوءِ كَذَا»**[٤] رواه أحمد، فبين الكفر والشرك المراد هنا بأن نسبة ذلك إلى غيره تعالى، بأن يقال: مطرنا بنوء كذا، **قال ابن قتيبة:** كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته؛ فأبطل الشرع قولهم، وجعله كفراً؛ فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعاً في ذلك، فكفره كفر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة، فليس بشرك؛ لكن

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤١, ٣٤٢.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة؛ لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين.

وقال الشافعي: من قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا، فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحب إلى منه.

قلت: يعني سليمان آل الشيخ: قد يقال: إن كلام الشافعي لايدل على جواز ذلك، وإنما يدل على أنه لا يكون كفر شرك، وغيره من الكلام أحسن منه. أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز، فالصحيح أنه لا يجوز، لما تقدم أن معنى الحديث هو نسبة السقيا إلى الأنواء لفظاً، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن الله هو المنزل للمطر، فهذا من باب الشرك الخفي في الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا، وفيه معنى قوله تعالى ﴿**وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾ فإن كثيراً من النعم قد تجر الإنسان إلى شر، كالذين قالوا: «مطرنا بنوء كذا» بسبب نزول النعمة.

وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع. ذكره المصنف، يشير إلى أن المراد به هنا نسبة النعمة إلى الله وحمده عليها، كما في قوله: ﷺ إخباراً عن ربه تعالى: «**فَأَمَّا مَنْ حَمِدَنِي عَلَى سُقْيَايَ وَأَثْنَى عَلَيَّ فَذَاكَ مَنْ آمَنَ بِي**» وقوله: «**فأما من قال: مُطِرْنا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِه**» الحديث

وفيه أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة. ذكره المصنف. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١)

قوله: «**مؤمنٌ بي وكافر**» إذا اعتقد أنَّ للنوء تأثيراً في إنزال المطر، فهذا كفر؛ لأنه شركٌ في الربوبية، والمشركُ كافر. وإنْ لم يعتقد ذلك، فهو من الشرك الأصغر؛ لكونه نسب نعمةَ الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوءَ سبباً لإنزال المطر فيه، وإنَّما هو فضلٌ من الله ورحمة. يحبُسه إذا شاء، ويُنزِله إذا شاء.

ودلَّ هذا الحديث: أنه لا يجوز لأحدٍ أنْ يُضيف أفعالَ الله إلى غيره، ولو على سبيل المجاز.

وأيضاً، الباءُ تحتمل معاني، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة؛ لما عرفتَ من أنَّ هذا باطل. ولا تصدقُ أيضاً على أنها للمصاحبة، لأن

---

(١) فتح المجيد ٢/ ٥٤٣، ٥٤٤.

المطر قد يجيءُ فى هذا الوقت وقد لا يجىء فيه. وإنما يجيء المطرُ فى الوقت الذى أراد الله مجيئه فيه، برحمته وحكمته وفضله. فكلُ معنى تُحمل عليه الباءُ فى هذا اللفظ المنهى عنه فاسدٌ.

فيظهر على هذا: تحريمُ هذه اللفظة مطلقاً؛ لفساد المعنى. وقد تقدّم القطعُ بتحريمه فى كلام صاحب (الفروع) و (الإنصاف).

قوله: فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته

قال سليمان آل الشيخ(١).

قوله: أى من نسبه إلى الله واعتقد أنه أنزله بفضله ورحمته من غير استحقاق من العبد على ربه وأثنى به عليه، فقال: «مطرنا بفضل الله ورحمته»، وفى الرواية الأخرى: «**فأما من حمدنى على سقياى، وأثنى على فذاك من آمن بى**» وهكذا يجب على الإنسان أن لا يضيف نعم الله إلى غيره ولا يحمدهم عليها بل يضيفها إلى خالقها ومقدرها الذى أنعم بها على العبد بفضله ورحمته، ولا ينافى ذلك الدعاء لمن أحسن بها إليك، وذكر ما أولاكم من المعروف إذا سلم لك دينك، والسر فى ذلك- والله أعلم- أن العبد يتعلق قلبه بمن يظن حصول الخير له من جهته وإن كان صنع له فى ذلك، وذلك نوع شرك خفى فمنع من ذلك.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): فالفضلُ والرحمة صِفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أنَّ ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة، والعلم. وصفات الأفعال؛ كالرحمة التى يرحم بها عباده، كلها صفاتٌ لله قائمة بذاته، ليست قائمةً بغيره، فتفطَّنْ لهذا؛ فقد غلِط فيه طوائف.

وفى هذا الحديث: أنَّ نعم الله لا يجوز أنْ تُضاف إلاَّ إليه وحده، وهو الذى يُحمد عليها، وهذه حالُ أهل التوحيد. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): أى: قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل: العطاء والزيادة.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٢.

(٢) فتح المجيد ٢/ ٥٤٤.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٥٦.

والرحمة: صفة من صفات الله، يكون بها الإنعام والإحسان إلى الخلق.

قوله «فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب».

قال ابن باز[1]: لانه علم أن الله مُنزل الأمطار وهذا المطر من رحمة الله وفضله.

قال ابن عثيمين[2]: لأنه نسب المطر إلى الله ولم ينسبه إلى الكوكب، ولم ير له تأثيراً فى نزوله، بل نزل بفضل الله. اهـ.

قوله: «بنوء»

قال النووى[*]: فيه كلام طويل قد لخصه الشيخ أبو عمرو بن الصلاح - رحمه الله - فقال: النوء فى أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء النجم ينوء نوءاً أى سقط وغاب وقيل أى نهض وطلع وبيان ذلك أن ثمانية وعشرين نجماً معروفة المطالع فى أزمنة السنة كلها، وهى المعروفة بمنازل القمر الثمانية والعشرين يسقط كل ثلاثة عشر ليلة نجم فى المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله فى المشرق من ساعته وكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلى الساقط الغارب منهما.

وقال الأصمعى: إلى الطالع منهما. قال أبو عبيد: ولم أسمع أحداً ينسب النوء للسقوط إلا فى هذا الموضع، ثم أن النجم نفسه قد يسمى نوءاً تسمية للفاعل بالمصدر.

قال أبو إسحاق الزجاج فى بعض أماليه: الساقطة فى الغرب هى الأنواء والطالعة فى المشرق هى البوارح. والله أعلم. اهـ.

قال: ومعنى النوء سقوط نجم فى المغرب من النجوم الثمانية والعشرين التى هى منازل القمر، قال: وهو مأخوذ من ناء إذا سقط، وقال آخرون: بل النوء طلوع نجم منها، وهو مأخوذ من ناء إذا نهض، ولا تخالف بين القولين فى الوقت لأن كل نجم منها إذا طلع فى المشرق وقع حال طلوعه آخر فى المغرب لا يزال ذلك مستمراً إلى أن تنتهى الثمانية والعشرون بانتهاء السنة، فإن لكل واحد منها ثلاثة عشر يوماً تقريباً.

قوله: وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا

---

(١) التعليق المفيد ١٧١.

(٢) القول المفيد ٢/١٥٦.

(*) شرح مسلم (١/٣٣٩)

قال ابن حجر[1].

قوله (مطرنا بنوء كذا وكذا) فى حديث أبى سعيد عند النسائى «مطرنا بنوء المجدح» بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدال بعدها مهملة ويقال بضم أوله هو الدبران بفتح المهملة والموحدة بعدها، وقيل سمى بذلك لاستدباره الثريا، وهو نجم أحمر صغير منير. قال **ابن قتيبة**: كل النجوم المذكورة له نوء غير أن بعضها أحمر وأغزر من بعض، ونوء الدبران غير محمود عندهم، انتهى. وكأن ذلك ورد فى الحديث تنبيهاً على مبالغتهم فى نسبة المطر إلى النوء ولو لم يكن محموداً، أو اتفق وقوع ذلك المطر فى ذلك الوقت إن كانت القصة واحدة. وفى مغازى الواقدى أن الذى قال فى ذلك الوقت «مطرنا بنوء الشعرى» هو عبدالله بن أبيٌّ المعروف بابن سلول أخرجه من حديث أبى قتادة. وفى هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم طرح الإمام المسألة على أصحابه وإن كانت لا تدرك إلا بدقة النظر. ويستنبط منه أن للولى المتمكن من النظر فى الإشارة أن يأخذ منها عبارات ينسبها إلى الله تعالى كذا قرأت بخط بعض شيوخنا، وكأنه أخذه من استنطاق النبى ﷺ أصحابه عما قال ربهم وحمل الاستفهام فيه على الحقيقة، لكنهم رضى الله عنهم فهموا خلاف ذلك، ولهذا لم يجيبوا إلا بتفويض الأمر إلى الله ورسوله. اهـ.

قلت: بل الأولى أن يستنبط من هذه الجزئية ماسيأتى من كلام سليمان تبعاً للمصنف أن فيها إخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها، وذلك لأن هذا الاستنباط بعيد ومع بعده فيه شبهة للصوفية وغيرهم ممن ينصبون لأنفسهم أئمة ثم يغالون فيهم بل يدعون أنهم يعرفون الغيب أو العلم اللدنى أو غير ذلك.

قال سليمان آل الشيخ[2]: كالصريح فيما ذكرنا أن المراد نسبة ذلك إلى غير الله، وإن كان يعتقد أن المنزل للمطر هو الله. ولهذا لم يقل فأما من قال: أنزل علينا المطر أو أمطرنا نوء كذا.

قال المصنف: وفيه التفطن للكفر فى هذا الموضع يشير إلى أن المراد بالكفر هنا هو نسبة النعمة إلى غير الله كالنوء ونحوه على ما تقدم، ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم الله وإحسانه إلى عباده لما اشتمل عليه من منافعهم، فلا يستغنون عنه أبداً كان من شكره الواجب عليهم أن يضيفوه إلى البر الرحيم المنعم، ويشكروه فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها، والله تعالى هو المحسن المنعم على الإطلاق الذى ما بالعباد من نعمة فمنه وحده، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾. اهـ.

(١) الفتح ٢/ صـ ٦٠٨، ٦٠٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٢.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[1]: قال القُرطبى فى شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العربُ إذا طلع نجمٌ من المشرق وسقط آخرُ من المغرب فحدث عند ذلك مطرٌ أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب؛ نسبةَ إيجادٍ واختراع، ويُطلقون ذلك القولَ المذكور فى الحديث. فنهى الشارعُ من إطلاق ذلك؛ لئلا يعتقد أحدٌ اعتقادهم، ولا يشتبه بهم فى نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبُه نسبةَ إيجاد. يدلُّ على أنَّ بعضهم لا يعتقد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فدلَّ على أنَّ منهم من يعرف ويقرُّ بأنَّ الله هو الذى أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أنَّ للنوء فيه شيئاً من التأثير.

والقرطبيُّ فى شرحه لم يُصرِّح أنَّ العرب كلَّهم يعتقدون ذلك المعتقد الذى ذكره، فلا اعتراض عليه بالآية؛ للاحتمال المذكور. أهـ

قال ابن باز[2].

لأنه من أنواع الكفر ولا يقول صدق نوء كذا أو سقينا بنوء كذا بل يقول مطرنا بفضل الله ورحمته.

«مطرنا بنوء كذا» أن قصد به أنه هو الذى خلق المطر وهو المتصرف فى الكون فهذا كفر أكبر وأن قصد أنه سبب لهذا المطر فهذا نوع من أنواع الكفر ولكنه كفر أصغر لأنه ليس هو المتسبب بل كله من الله تعالى والنجم ظرف من الظروف تقع فيه الحوادث كما تقع فى الأيام والليالى. أما إذا قال مطرنا فى الصيف أو نحوه فلا بأس لأنه إخبار عن الوقت. فالواجب الحذر من أخلاق الجاهلية والاعتراف بنعمة الله سبحانه. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: الباء للسببية؛ فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب، وصار كافراً بالله؛ لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سبباً؛ فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسى نعمة الله، وهذا الكفر لا يُخرِج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس إلى النوء على أنه فاعل.

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٢٤٤، ٢٤٥).
(٢) التعليق المفيد ١٧١، ١٧٢.
(٣) القول المفيد ٢/١٥٦، ١٥٧، ١٥٨.

لأنه قال: «مطرنا بنوء كذا»، ولم يقل: أَنْزَلَ علينا المطَرَ نوء كذا؛ لأنه لو قال ذلك؛ لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد؛ لأنه لو كان هذا هو المراد؛ لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل مطرنا به.

فعُلِم أن المراد أن من أقر بأن الذى خلق المطر وأنزله هو الله، لكن النوء هو السبب؛ فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذى لا يخرج من الملة.

والمراد بالكوكب النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلانى جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلانى جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب؛ فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.

٢- نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.

٣- نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا؛ أى: جاءنا المطر فى هذا النوء أى فى وقته. ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز مطرنا فى نوء كذا، وفرّقوا بينهما أن الباء للسببية، وفى للظرفية، ومن ثَمَّ قال أهل العلم: إنه إذا قال: مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى، لكن لا وجه له من حيث اللفظ؛ لأن لفظ الحديث: «من قال: مطرنا بنوء كذا»، والباء للسببية أظهر منها للظرفية، وهى وإن جاءت للظرفية كما فى قوله تعالى: **﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ﴾**، لكن كونها للسببية أظهر، والعكس بالعكس؛ فـ «فى» للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية؛ كما فى قوله ﷺ: **«دخلت امرأة النار فى هرة»**(1). أهـ

والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقاً، ولا يظن أنها تأتى سببية؛ فهذا جائز، ومع ذلك؛ فالأولى أن يقال لهم: قولوا: فى نوء كذا. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٣١٨)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٧٢ ـ النووى) عن ابن عمر به، وانظر «رياض الصالحين» (١٦٠٣ ـ بتخريجنا)

● **فوائد الحديث:**

قال سليمـان آل الشيخ [(١)]: وفيه القاء العـالم للمسألة على أصحابه لـيختبرهم وتقدمت هذه الفائدة من كلام ابن حجر.

- وإخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[(٢)]:

- أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز.

- إن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده وهو الـذى يُحمد عليها، وهذا حال أهل التوحيد.

قال عبدالله بن جار الله [(٣)]:

١- لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره.

٢- أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده.

٣- إثبات صفه الفضل والرحمة لله تعالى.

قال القرعاوى[(٤)]

١- استحباب انصراف الإمام بعد التسليم والتوجه إلى المأمومين.

٢- استحباب التشويق إلى العلم بالاستجواب.

٣- إثبات صفة القول لله.

٤- حسن الادب للمسئول عمالا يعلم.

٥- تحريم الكفر بالنعم.

٦- إثبات صفة الرحمة لله

٧- نسبة النعمة إلى غير الله كفر بها.

٨- تحريم قول الإنسان مطرنا بنؤ كذا

● ● ●

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠

(٢) فتح المجيد ٢/ ٥٤٣.

(٣) الجامع الفريد ١٢٣.

(٤) الجديد ٢٧٣.

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيْث ابنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وفـيه: «قَالَ بَعْضُهُم: لَقَد صَدَقَ نَوء كَذَا وَكَذَا. فَأَنْزَلَ الله هَذِه الايات :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(*)(1)

قوله : «ولهما من حديث ابن عباس ... » الحديث.

قال سليمان آل الشيخ(2): الحديث لمسلم فقط ولفظه عن ابن عباس «مُطر الناس على عهد النبى- ﷺ- فقال النبى- ﷺ- **أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا وقال**: فنزلت هذه الآية ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

قلت: وتقدم عزو السيوطى له فى «الدر» إلى مسلم فقط.

مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى(3): حيث دلت الآية على كفر من نسب النعم إلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى(4): حيث كذبت الآية من نسب النعم إلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء لأن ذلك إشراك مع الله فى إنعامه. اهـ.

قوله «قال بعضهم».

قال سليمان آل الشيخ(5): ذكر الواقدى فى مغازيه عن أبى قتادة أن عبدالله ابن أبى هو القائل فى ذلك الوقت: مطرنا بنوء الشعرى. وفى صحة ذلك نظر.

(*) الواقعة (75-82)

(1) تقدم تخريجه.

(2) تيسير العزيز الحميد 343.

(3)،(4) الجديد 276.

(5) تيسير العزيز الحميد 343.

قوله: «لقد صدق نوء كذا...»

تقدم قريباً تعريف النوء، وماجاء فيه من أقوال أهل العلم.

قوله [فأنزل الله هذه الآيات]

قال النووى(*): قال الشيخ أبو عمرو ـ رحمه الله ـ :ليس مراده أن جميع هذا نزل فى قولهم فى الأنواء، فإن الأمر فى ذلك وتفسيره يأبى ذلك وإنما النازل فى ذلك قوله تعالى ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ والباقى نزل فى غير ذلك، ولكن اجتمعا فى وقت النزول، فذكر الجميع من أجل ذلك.

قال الشيخ أبو عمرو ـ رحمه الله ـ ومما يدل على هذا أن فى بعض الروايات عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى ذلك الاقتصار على هذا القدر اليسير فحسب، هذا آخر كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ اهـ.

قلت: ولهذا لم نفسر إلا هذه الآية على منهجنا فى الكتاب والباقى فسرناه بكلام شراح التوحيد فقط.

قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ هذا قسم من الله عزَّ وَجَلَّ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمة المقسم به وتشريفه. وتقديره: أقسم بمواقع النجوم، ويكون جوابه: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**﴾، فعلى هذا تكون (لا) صلة لتأكيد النفى، فتقدير الكلام: ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿**فَلا أُقْسِمُ**﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد، فقيل: ﴿**أُقْسِمُ**﴾؛ ومواقع النجوم. قال ابن عباس يعنى نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً فى السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. ومواقعها نزولها شيئاً بعد شىء، وقيل: النجوم هى الكواكب، ومواقعها مساقطها عند غروبها، قال مجاهد: مواقع النجوم يقال: مطالعها ومشارقها، واختاره ابن جرير.

قال النووى(*): وأما مواقع النجوم، فقال الأكثرون : المراد نجوم السماء، ومواقعها: مغاربها.

وقيل مطالعها، وقيل : انكدارها، وقيل : انتثارها يوم القيامة، وقيل: النجوم نجوم

(*) شرح مسلم (١/ ٣٣٩)

القرآن، وهى أوقات نزوله، وقال مجاهد: مواقع النجوم محكم القرآن. والله أعلم اهـ.

ثم قال سليمان آل الشيخ

فائدة: وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم فى القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه:

أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل؛ فتلك هداية فى الظلمات الحسية، وآيات القرآن هداية فى الظمات المعنوية؛ فجمع ين الهدايتين مع ما فى النجوم من الزينة الظاهرة للعالم وفى القرآن من الزينة الباطنة؛ ومع ما فى النجوم من الرجوم للشياطين، وفى آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن؛ والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية؛ مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول، ذكره ابن القيم.اهـ.

قال ابن عثيمين(1):

فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويُصدِّقون كلامه؛ فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به؛ فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.

أجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربى لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المُخاطَب، والقرآن نزل بلسان عربى مبين.

الثانى: أن المؤمن يزداد يقيناً من ذلك، ولا مانع من زيادة المُؤكِّدات التى تزيد فى يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه؛ فكأنه يقيم فى هذا المُقْسَم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عِظَم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشىء عظيم، وهذان الوجهان لا

---

(1) القول المفيد ٢/ ١٥٩.

يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويهاً له بها وتنبيهاً على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

وقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾

الله- سبحانه- يتحدث عن نفسه بضمير المفرد؛ لأنه يدل على الانفراد والتوحيد؛ فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع؛ لأنه يدل على العظمة؛ كقوله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** وقوله: **﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾** الآية، ولا يتحدث عن نفسه بالمثنى؛ لأن المثنى محصور باثنين.

والباء حرف قسم، والمواقع جمع موقع.

واختلف في النجوم؛ فقيل: إنها النجوم المعروفة؛ فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

وأقسم الله بها؛ لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب؛ فإن السماء عند نزول الوحي مُلِئَت حرساً شديداً وشهباً.

وقيل: إن المراد آجال نزول القرآن، ومنه قولهم: «نزل القرآن مُنجَّماً»، وقول الفقهاء: يجب أن يكون دين المُكَاتَب مؤجلاً بنجمين فأكثر؛ فيكون الله أقسم بمواقع نزول القرآن، وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة، وهي أنه إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية على كل منهما، وإلا؛ طُلب المرجح. اهـ.

قلت: انتهى هنا محل الشاهد من الآيات وسنورد باقي التفسير تبعاً لشراح كتاب التوحيد مقتصرين على كلامهم فقط.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

قال سليمان آل الشيخ[(١)].

وقوله: **﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾** قال ابن كثير: أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم عليه. وقوله: **﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ**

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٤.

﴿كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن أى: أنه وحى الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر وكهانة أو شعر، بل هو قرآن كريم أى: عظيم كثير الخير، لأنه كلام الله.

قال ابن القيم: فوصفه بما يقتضى حسناً وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شىء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره، وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن.

قال الأزهرى: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان، والعلم والحكمة. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]:

قوله: **﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾**

﴿لَقَسَمٌ﴾: خبر إن، وهذا القسم أكد الله عظمته بإن واللام تنويهاً بالمُقْسَم عليه وتعظيمه.

وقوله: **﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾**.

مُؤكِّد ثالث كأنه قال: ينبغى أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه؛ فهو أعظم من أن يكون مجهولاً؛ فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته؛ فانتبهوا.

قوله: **﴿لَقُرْآنٌ﴾**.

مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول؛ فعلى الأول يكون المراد أنه جامع للمعانى التى تضمنتها الكتب السابقة من المصالح والمنافع، قال تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾**، وعلى الثانى يكون بمعنى المجموع؛ لأنه مجموع مكتوب.

قوله: **﴿كَرِيمٌ﴾**.

يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال فى العطاء متعد للغير، ويطلق على الشىء البهىّ الحسن، ومنه قول النبى ﷺ: «**إياك وكرائم أموالهم**»[2].

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٦١ - ١٦٣.

(٢) تقدم تخريجه

أى: البهى منها والحسن، وهذا كمال فى الذات، وهذان المعنيان موجودان فى القرآن؛ فالقرآن لا أحسن منه بذاته، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

والقرآن يعطى أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ فهو سلاح لمن تمسك به، ولكن يحتاج إلى أن نتمسك به بالقول والعمل والعقيدة؛ فلا بد أن يصدق العقيدة العملُ، قال ﷺ: **«ألا إن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»**(١).

ووصف الله القرآن فى آية أخرى بأنه مجيد، والمجد صفة العظمة والعزة والقوة، والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

قوله ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾

قال سليمان آل الشيخ(٢):

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ قال ابن كثير: أى: معظم فى كتاب معظم محفوظ موقر. وقال ابن القيم: اختلف المفسرون فى هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة. قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣):

قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾.

كتاب فعال بمعنى مفعول، مثل: فراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وكتاب بمعنى مكتوب.

والمكنون: المحفوظ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى(٥٢)، ومسلم فى المساقاة (١١/ ٢٧ ـ النووى) عن النعمان بن بشير به وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٩ ـ بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٤.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٦٣.

واختلف المفسرون فى هذا الكتاب على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شىء.

الثانى: وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التى فى أيدى الملائكة، قال تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ**﴾؛ فقوله: ﴿**بِأَيْدِى سَفَرَةٍ**﴾ يرجح أن المراد الكتب التى فى أيدى الملائكة؛ لأن قوله: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾؛ أى: الملائكة، يوازن قوله: ﴿**بِأَيْدِى سَفَرَةٍ**﴾، وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد. اهـ.

قوله ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾.

قال سليمان آل الشيخ(1):

وقوله: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾ قال: الكتاب الذى فى السماء.(2).

وفى رواية: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾ يعنى: الملائكة (3).

وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما فى الدنيا فإنه يمسه المجوسى النجس والمنافق الرجس. قال: وهى فى قراءة ابن مسعود: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (4)

واختار هذا القول كثيرون منهم ابن القيم ورجحه،

وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين فأخبر الله تعالى أنه: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾ كما قال: ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ**﴾ **إلى قوله:** ﴿**لَمَعْزُولُونَ**﴾.

قال ابن كثير: وهذا قول جيد وهو لا يخرج عن القول قبله.

---

(1) تيسير العزيز الحميد ٣٤٤- ٣٤٥.

(2) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٢) ونسبه لآدم، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقى فى «المعرفة»

وانظر «فتح القدير» (١١٨٥٣ ـ بتخريجنا)

(3) ما قبله

(4) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.

وقال البخارى فى «صحيحه» فى هذه الآية لا يجد طعمه إلا من آمن به.

قال ابن القيم: وهذا من إشارة الآية وتنبيهها وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً. ولا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه منه حرج بوجه من الوجوه.

وقال آخرون: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُون﴾ أى: من الجنابة والحدث قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب. قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف كما فى:

حديث ابن عمر مرفوعاً عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَنْهى أَنْ يُسَافَرَ بِالقُرآنِ إِلى أَرْضِ العَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالُه العَدُوُّ[1]، واحتجوا على ذلك بما.

رواه مالك فى «الموطأ» عن عبدالله بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن لاَ يَمَسَّ القُرْآنُ إِلاَّ طَاهِرٍ[2]. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]:

قوله: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُون﴾.

الضمير يعود إلى الكتاب المكنون؛ لأنه أقرب شىء، وهو بالرفع ﴿لا يَمَسُّه﴾ باتفاق القراء، وإنما نبهنا على ذلك؛ لدفع قول من يقول: إنه خبر بمعنى النهى، والضمير يعود على القرآن؛ أى: نهى أن يمس القرآن إلا طاهر، والآية ليس فيها ما يدل على ذلك، بل هى ظاهرة فى أن المراد به اللوح المحفوظ؛ لأنه أقرب مذكور، ولأنه خبر، والأصل فى الخبر أن يبقى على ظاهره خبراً لا أمراً ولا نهياً حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل على خلاف ذلك، بل الدليل على أنه لا يراد به إلا ذلك، وأنه يعود إلى الكتاب المكنون، ولهذا قال الله: ﴿إِلاَّ الْمُطَهَّرُون﴾ باسم المفعول، ولم يقل: إلا المطَّهِّرون، ولو كان المراد المطَّهِّرين لقال ذلك، أو قال: إلا المتطهرون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين﴾.

---

(١) أخرجه البخارى (٢٩٩٠)، ومسلم فى الإمارة (٧/ ١٧/ ٩٢) وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

(٢) أخرجه مالك فى «الموطأ» (١/ ١٧٧)

وانظر مقدمه تخريجنا لمنار السبيل».

(٣) القول المفيد ٢/ ١٦٢- ١٦٣- ١٦٤.

والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى، وهم الملائكة، طهروا من الذنوب وأدناسها، قال تعالى: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وفرق بين المطهِّر الذى يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطهَّر الذى كمله غيره وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد بالكتاب الكتب التى فى أيدى الملائكة، وفى الآية إشارة على أن من طهر قلبه من المعاصى كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصى كان أبعد فهماً عن القرآن؛ لأنه إذا كانت الصحف التى فى أيدى الملائكة لم يمكن الله من مسها إلا هؤلاء المطهرين؛ فكذلك معانى القرآن.

فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآية: أن المعاصى سبب لعدم فهم القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾؛ فهم لا يصلون إلى معانيها وأسرارها؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

قلت: ويستدل على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: الآية

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغى لمن استفتى أن يقدم بين يدى الفتوى الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتى يتبين له الحق، واستنبطه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال سليمان آل الشيخ(١)

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال ابن كثير أى: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذى لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع. وفى هذه الآية إثبات أنه كلام الله تكلم به.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٥- ٣٤٦.

قال ابن القيم: ونظيره ﴿ولكن حق القول منى﴾ وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وإثبات علو الله سبحانه على خلقه، فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشىء من أعلى إلى أسفل، ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ لأنا نقول: إن الذى أنزلها فوق سمواته فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم: وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

فائدة: أى: تريدون أن تمالؤوهم فيه وتركنوا إليهم.

قال ابن القيم: ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الأدهان فى غير موضعه وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء فى طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به. فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه؟! ولم ينزل للمداهنة، وإنما أنزل بالحق وللحق، والمداهنة إنما تكون فى باطل قوى لا تمكن إزالته، أو فى حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق، ويلتزم بعض الباطل. فأما الحق الذى قام به كل حق فكيف يداهن فيه؟ وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، تقدم الكلام عليها أول الباب، والله أعلم(١).

قال ابن عثيمين(٢) قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١) وانظر رسالتى (المداهنة المداراة) يسر الله طبعها.

(٢) القول المفيد ٢/ ١٦٥- ١٦٦.

خبر ثان لقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾، وهو كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ فهو خبر مكرر مع قوله: ﴿لَقُرْآنٌ﴾.

وتنزيل؛ أي: منزل؛ فهي مصدر بمعنى اسم المفعول منزل من رب العالمين، أنزله الله على قلب النبي ﷺ؛ لأنه محل الوعي والحفظ بواسطة جبريل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

قال ابن عثيمين(1):

ويستفاد من الآية ما يلي:

١- أن القرآن نازل لجميع الخلق؛ ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.

٢- أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك؛ فهو الحكم بينهم الحاكم عليهم.

٣- أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله، فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ علم أن القرآن رحمةٌ للعباد أيضاً، وربوبية الله مبنية على الرحمة، قال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه؛ فهو رحمة بهم.

٤- أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان الله أنزله؛ فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله السلف رحمهم الله، وهو غير مخلوق؛ لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة.

والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟

قلنا: لا، لكن كل منزل يكون وصفاً مضافاً إلى الله؛ فهو غير مخلوق؛ كالكلام، وإلا؛ فإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ والأنعام مخلوقة، فإذا كان المُنزَل من عند الله صفة لا تقوم بذاتها، وإنما تقوم بغيرها؛ لزم أن يكون غير مخلوق؛ لأنه من صفات الله.

(1) القول المفيد (٢/ ١٦٦-١٦٩)

قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والحديث: القرآن، والمُدْهن: الخائف من غيره الذى يحابيه بقوله وفعله.

والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون؟! لا ينبغى لكم هذا، بل ينبغى لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف؛ أى: أتجعلون شكر رزقكم؛ أى: ما أعطاكم الله من أى شىء من المطر ومن إنزال القرآن؛ أى: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبى ﷺ وإن كان ذكرها فى المطر؛ فإنها تشمل المطر وغيره.

وقيل: إنه ليس فى الآية حذف، والمعنى: تجعلون شكركم تكذيباً، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو من أكبر الأرزاق، قال الشاعر:

إذا كان شُكرى نعمةَ الله نعْمَةً ... علىَّ لَهُ فى مثْلها يَجبُ الشُكرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُكْرِ إلا بِفَضْلِه ... وإن طالتْ الأيامُ واتصلَ العُمرُ

فالنعمة تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكرتها؛ فهى نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثانٍ، وإن شكرت فى الثانية؛ فهى نعمة تحتاج إلى شكر ثالث، وهكذا أبداً، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

قوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

﴿أن﴾ وما دخلت عليه فى تأويل مصدر مفعول تجعلون الثانى؛ أى: تُصيِّرون شكركم تكذيباً، ولا شك أن هذا من السَّفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب، إن كانت وحياً كَذَّب خبره ولم يمتثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاءً تنمو به الأجسام نسبه إلى غير الله، قال: هذا من النوء أو هذا من عملى؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾.

● ● ●

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الوَاقِعَةِ.

الثانية: ذِكْرُ الأَرْبَعِ الَّتِى مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ.

الثالثة: ذِكْرُ الكُفْرِ فِى بَعْضِهَا.

الرابعة: أَنَّ مِنَ الكُفْرِ مَا لاَ يُخْرِجُ عَنِ المِلَّةِ.

الخامسة: قوله: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِى مُؤمِنٌ بِى وَكَافِرٌ»، بِسَبَبِ نزول النعمة.

قوله: وفيه مسائل

● **الأولى: تفسير آية الواقعة.**

قال ابن عثيمين[(١)]

وهى قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، وقد مر تفسيرها.

● **الثانية: ذكر الأربع التى من أمر الجاهلية.**

وهى الطعن فى الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت.

● **الثالثة: ذكر الكفر فى بعضها.**

وهى الاستسقاء بالأنواء، وكذلك الطعن فى النسب، والنياحة على الميت؛ كما فى حديث: «**اثنتان فى الناس هما بهم كفر: الطعن فى النسب، والنياحة على الميت**».

● **الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة.**

وهى أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر مخرج عن الملة وبعضه كُفر دون ذلك، وقد سبق بيان ذلك.

قلت: وكذلك الطعن فى النسب

● **الخامسة: قوله: «أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر» بسبب نزول النعمة.**

---

(١) القول المفيد ٢/١٧٠.

السادسة: التَّفَطُّنُ للإيمَانَ فِى هَذَا المَوْضِعِ.

السابعة: التَّفَطُّنُ للكُفْرِ فِى هَذَا المَوْضِعِ.

الثامنة: التَّفَطُّنُ لِقَوْلِهِ : «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا».

أى: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله، بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سبباً، مثال ذلك: رجل غرق فى ماء، وكان عنده رجل قوى، فنزل وأنقذه؛ فإنه يجب على هذا الذى نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمراً قدرياً وأمراً شرعياً أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

أما إن غرق ويسر الله له، فخرج، فقال: إن الولى الفلانى أنقذنى؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه سبب غير صحيح، ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بل يريد أنه منقذ بنفسه؛ لأن اعتقاد أنه سبب وهو فى قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى؛ فيقعون فى الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون، ثم قد يفتنون؛ فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا به؛ لأننا نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يستجيبون لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾(1)، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.(2)

● **السادسة: التفطن للإيمان فى هذا الموضع.**

وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته.

● **السابعة: التفطن للكفر فى هذا الموضع.**

وهو نسبة المطر إلى النوء؛ فيقال: هذا بسبب النوء الفلانى، وما أشبه ذلك.

● **الثامنة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا».**

---

(1) الأعراف :١٩٨

(2) الأحقاف :٥

التاسعة: إِخْرَاجُ العَالِمِ للمُتَعَلِّمِ المَسْأَلَةَ بالاسْتِفهَامِ عَنْهَا لِقَوْلِه: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟».

العاشرة: وَعِيدُ النَّائِحَةِ.

وهذا قريب من قوله: «مطرنا بنوء كذا» لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده.

● **التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها؛ لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم».**

وذلك أن يلقى العالم على المتعلم السؤال لأجل أن يتنبه له، وإلا؛ فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر؛ فقال: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**»، وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

قلت: وفى كلام الشيخ ابن عثيمين رد آخر على الفائدة التى أوردها ابن حجر من هذا الحديث وهى أن الولى قد يعرف بالإشارات عبارات ينسبها لله تعالى وحمل الاستفهام فيها على حقيقته وفهم الصحابة خلاف أى أن الاستفهام ليس على حقيقته لأنهم يعلمون أن الرسول يعلم أن الصحابة لايعلمون ماذا قال الله وهو ماذهب إليه الشيخ هاهنا . والله أعلم.

● **العاشرة: وعيد النائحة.**

وذلك بقوله: «إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب، وهذا وعيد عظيم.

● ● ●

باب ٣٠

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾(١).

تمهيد: [قلت]: تقدم فى الباب الخامس (تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله) مسائل الولاء (المحبة لله ورسوله) والبراء (بغض أعداء الله) بتفصيل فهذا الباب ـ الثلاثين ـ له علاقة بالباب الخامس أيضاً، ليس هذا فحسب بل وله علاقة بباب (التغليظ فيمن عبدالله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده) حيث ذكر فيه حديث جندب بن عبدالله وفيه «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليل» حيث ذكرنا هناك الفرق بين الخلة والمحبة والمسائل المتفرعة عليهما، فالجمع بين هذين البابين مع هذا الباب يجمع لك الفوائد كلها.

● **مناسبة هذا الباب لما قبله**

قال الفقير: لما كان من أعظم أسباب حركة القلب وتعلقه بمحبوبه ـ سبحانه وتعالى ـ كثيرة ذكره ومطالعة آلائه ونعمائه كان الإستسقاء بالأنواء دليلاً على فراغ القلب من هذه المحبة ومن أسبابها التى منها مطالعة آلآء الله ونعمائه على العبد بل فى هذا الاستسقاء صرف لهذه المحبة وأسبابها لغير الله لهذا ولغيره ناسب أن يذكر المصنف باب المحبة بعد باب الاستسقاء بالأنواء والله أعلم.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الباب.**

قال الشيخ حامد بن محمد بن حسن:(٢) باب ماجاء فى بيان المحبة وأنواعها المأمور بها والمنهى عنه. اهـ

قال ابن عثيمن(٣): جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هى الترجمة، ويمكن أن يُعنى بهذه الترجمة باب المحبة.

قال الرازى(٤): اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد لأن تقبيح ضد الشىء مما يؤكد حسن الشىء ولذلك قال الشاعر : **[وبضدها تتبين الأشياء]**.

وقالوا أيضاً: النعمة مجهولة، فإذا فقدت عرفت، والناس لايعرفون قدر الصحة، فإذا مرضوا ثم عادت الصحة إليهم عرفو قدرها، وكذا القول فى جميع النعم. أهـ

---

(١) البقرة : ١٦٥

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٤٨.

(٣) القول المفيد٢/ ١٧٣.

(٤) تفسير الرازى (٢/ ٤/ ٢٢٦).

● مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ(١): لما كانت محبة الله سبحانه، هى أصل دين الإسلام، الذى يدور عليه قطب رحاها، فبكمالها يكمل الإيمان، وبنقصانها ينقص توحيد الإنسان، نبه المصنف رحمه الله، على وجوبها على الأعيان.

ولهذا جاء فى الحديث **«أَحِبُّوا الله لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ»**(٢) الحديث رواه الترمذى والحاكم.

وفى حديث آخر: «أحبوا الله بكل قلوبكم»(٣).

وفى حديث معاذ بن جبل، فى حديث المنام **«وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك»**(٤) رواه أحمد والترمذى وصححه.

● إخلاص المحبة أصل التوحيد:

قال ابن تيمية(*): اسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل وهكذا الدين الذى يدين به الناس فى الباطن والظاهر لابد فيه من الحب والخضوع، بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم، فإنها قد تكون خضوعاً ظاهراً فقط. اهـ وقال: أصل الإشراك العملى بالله الإشراك فى المحبة، قال تعالى: **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾** الآية. اهـ.

قال ناصر السعدى(٤): أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده وهى أصل التأله والتعبد له، بل هى حقيقة العبادة، ولايتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعا لهذه المحبة التى بها.

ومن تفريعها وتكميلها الحب فى الله، فيحب العبد مايحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض مايبغضه الله من الأشخاص والأعمال ويوالى أولياءه ويعادى أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ انداد من الخلق يحبهم كحب الله ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٦، ٣٤٧.

(٢) أخرجه الترمذى(٣٧٨٩). والحاكم فى «المستدرك» (٣/ ١٥٠) وصححه وقال الترمذي: حسن غريب

(٣) ذكره فى «الدر» (٣/ ٦٧) ونسبه للبيهقى فى «الدلائل».

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٤٣)، والترمذى (٣٢٣٥) عن معاذ بن جبل به.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(*) جامع الرسائل (٢/ ٢٢٠، ٢٢٥).

(٤) القول السديد ٨٧، ٨٨.

بذكرهم ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر، الذى لايغفره الله وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لايملك له شيئاً، وهذا السبب الواهى الذى تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج مايكون العبد لعمله، وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضا وعداوة. أهـ

قال ابن باز(١): هذا الباب فى إثبات محبة الله وأنها من أهم العبادات وأفضل القربات وأساس الدين لأن حبه يقتضى الإخلاص له والامتثال لأمره: وترك نهيه والإنقياد له. أهـ

قال الشيخ ابن عثيمن(٢): وأصل الأعمال كلها هو المحبة؛ فالإنسان لايعمل إلا لما يحب ؛إما لجلب منفعة، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئاً؛ فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام، أو لغيره كالدواء. أهـ

قدر منزلة المحبة

قال ابن القيم(٣): هى المنزلة التى يتنافس فيها المتنافسون، وإلى عملها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، فهى قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهى الحياة التى من حرمها، فهو من جملة الأموات، والنور الذى من فقده، ففى بحار الظلمات، والشفاء الذى من عدمه؛ حلت بقلبه جميع الأسقام واللذة التى من لم يظفر بها، فعيشه كله هموم وآلام، وهى روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التى متى خلت منها؛ فهى كالجسد الذى لاروح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل، لم يكونوا أبداً بدونها واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولا هى داخليها.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، وقد قضى الله تعالى يوم قدر مقادير الخلائق، بمشيئته وحكمته البالغة، أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة . تالله لقد سبق القوم السعادة، وهم على ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم فى مسيرهم واقفون، وأجابوا مؤذن الشوق، إذ نادى بهم : حى على الفلاح، وبذلوا نفوسهم فى طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح ، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول مسراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح ا.هـ وأطال فى وصفها فراجعه فى «المدارج». أهـ

(١) التعليق المفيد ١٧٣ (٢) القول المفيد ٢/ ١٧٤.

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٦، ٧) وانظر تيسير العزيز الحميد ٣٤٧.

قال ابن تيمية[1]: «اعلم أن محـركات القلوب إلى الله ـ عزوجل ـ ثـلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهى مقصودة لذاتها؛ لأنها تراد فى الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف؛ فإنه يزول فى الأخرة.. والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق؛ فالمحبة تلقى العبد فى السير إلـى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن الطريق، والرجاء يقوده؛ فهذا أصل عظيم يجب على كل عبـد أن يتنبه له؛ فإنها لاتصـح له العبودية بدونه، وكل أحـد يجب أن يكون عبداً لله لالغيره.

فإن قيل: فالعبد فى بعض الأحيان قد لايكون عنـده محبة تبعثه على طلب محبوبه؛ فأى شىء يحرك القلوب؟

قلنا: شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به.

والثانى: مطالعـة آلائه ونعمائه... فـإذا ذكر العبد ما أنعـم الله به عليه من تـسخير السماء والأرض، وما فيهما من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير عنده باعثاً.

وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب، ونحوه.

وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم، والحلم، والعفو». أهـ

قال ابن عثيمين[2]: وعبادة الله مبـنية على المحبة، بـل هى حقيقة الـعبادة؛ إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشراً لاروح فـيها، فإذا كان الإنسان فى قلبه محبة لله وللوصول إلى جنته؛ فسوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك.

ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أومع الله. أهـ

● أقسام المحبة وحكم كل قسم.

قال ابن تيمية[*]: ومحبة الله ورسوله على درجتين: واجـبة، وهي درجة المقتصدين ومستحبة وهى درجة السابقين.

[فالأولى]: تقتضى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بحيث لايحب شيئاً يبغضه كمـا قال تعالى: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ وذلك يقتضى محـبة جميع ما أوجبه الله تعالى وبغـض ما حرمه الله تعالى، وذلك واجب.

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥). (٢) القول المفيد ٢/ ١٧٤. (*) جامع الرسائل (٢/ ٢٢٧، ٢٧٨).

[الثانية]: أما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقربين الذين قربهم الله إليه. اهـ.

قال الشيخ سليمان(١): واعلم أن المحبة قسمان، مشتركة وخاصة: فالمشتركة ثلاثة أنواع:

[أحدها]: محبة طبيعية، كمحب الجائع للطعام، والظمآن للماء ونحو ذلك. وهذه لاتستلزم التعظيم.

الثاني: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل، وهذه أيضاً لاتستلزم التعظيم.

الثالث: محبة أنس وألف، وهى محبة المشتركين فى صناعة، أو علم أو مرافقة أو تجارة أوسفر، لبعضهم بعضاً، وكمحبة الإخوة، بعضهم بعضاً. فهذه الأنواع الثلاثة، التى تصلح للخلق، بعضهم من بعض، ووجودها فيهم، لايكون شركاً فى محبة الله.

ولهذا كان رسول الله ﷺ، يحب الحلواء والعسل، وكان يحب نساءه، وعائشة أحبهن إليه وكان يحب أصحابه وأحبهم إليه الصديق رضى الله عنه.

القسم الثاني: المحبة الخاصة التى لاتصلح إلا لله ومتى أحب العبد بها غيره كان شركاً لايغفره الله.

وهى محبة العبودية، المستلزمة للذل، والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لايجوز تعلقها بغير الله أصلاً كما حققه ابن القيم؛ وهى التى سوى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها. كما قال تعالى فى الآية التى ترجم لها المصنف: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا**﴾. اهـ.

قال حامد بن حسن(٢): اعلم أن أنواع المحبة التى تنسب إلى الله: محبة الله ومحبة فى الله ومحبة مع الله.

[فالمحبة التى لله]: محبته ومحبة مايحبه من النيات والأقوال والأفعال.

[والمحبة التى فى الله]: محبة من يحبه الله كالأنبياء والمرسلين وعبادة الصالحين.

[وأما المحبة التى مع الله]: فهى المحبة الشركية التى ذكرها فى كتابه المنهيه عنها وذلك قول الله تعالى﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والذين أمنوا أشد حباً لله**﴾. اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٨.

(٢) فتح الله الحميد المجيد. (٣٤٨).

قال ناصر السعدى[1]: بهذه الأنواع الثلاثة للمحبة لله وفى الله ومع الله.

حيث قال: واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التى هى أصل الإيمان والتوحيد.

الثانى: المحبة فى الله وهى محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة مايحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرهم، وهذه تابعه لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهى محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر، وحجر، وبشر، وملك، وغيرها وهى أصل الشرك وأساسه.

ثم قال: وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التى تتبع مايلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة إن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت فى باب العبادات، وأن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى مالايحبه الله دخلت فى المنهيات. وإلا بقيت من أقسام المباحات والله أعلم.

ولقد جمع **ابن عثيمين** بين أقوال أهل العلم فى أقسام المحبة شارحاً ومفصلاً كلام سليمان آل الشيخ وغيه **فقال**[2]:

والمحبة تنقسم إلى قسمين

القسم الأول: محبة عبادة، وهى التى توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضى أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة؛ فهو مشرك شركاً أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثانى:محبة ليست بعبادة فى ذاتها، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفى الله، وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله؛ أى: كون الشيء محبوباً لله تعالى من أشخاص؛ كالأنبياء، والرسل والصديقين، والشهداء، والصالحين.

أو أعمال؛ كالصلاة، والزكاة، وأعمال الخير، أو غير ذلك.

وهذا النوع تابع للقسم الأول الذى هو محبة الله.

النوع الثانى: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد، والصغار، والضعفاء.

---

(١) القول السديد ٨٨

(٢) القول المفيد ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٧.

النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لاعبادة؛ كمحبة الإنسان لوالده، ولمعلمه، ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية؛ كمحبة الطعام، والشراب، والملبس، والمركب، والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح؛ إلا إذا اقترن بها ما يقتضى التعبد صارت عبادة؛ فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضى أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة. أهـ.

● أقسام الناس من حيث المحبة والإرادة:

قال شيخ الإسلام(*): أصل كل فعل وحركة فى العالم من الحب والإرادة، فهو أصل كل فعل ومبدؤه. وقال: وهنا انقسم الناس أربعة أقسام:

[القسم الأول]: قوم لهم قدرة، ولهم إرادة ومحبة غير مأمور بها، فهم يجاهدون ويستعملون جهدهم وطاقتهم لكن لا فى سبيل الله، بل فى سبيل آخر، إما محرمة، كالفواحش، ما ظهر منها وبطن، والإثم والبغى بغير الحق والإشراك بالله مالم ينزل به سلطاناً، والقول على بغير علم الحق.

وإما فى سبيل لاينفع عند الله مما جنسه مباح، لاثواب فيه، لكن الغالب أن مثل هذا كثيراً ما يقتون به من الشبه، ما يجعله فى سبيل الله أو فى سبيل الشيطان.

[القسم الثانى]: قوم لهم إرادة صالحة، ومحبة كاملة لله، ولهم قدرة كاملة، فهؤلاء هم سادة المحبين المحبوبين المجاهدين فى سبيل الله، لايخافون لومة لائم، كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة.

[القسم الثالث]: قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة لله قوية تامة، لكن قدرتهم ناقصة، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم ولايتركون مما يقوون عليه، لكن قدرتهم قاصرة، ومحبتهم كاملة، فهو مع القسم الذى قبله ومازال فى المؤمنين على عهد النبى ﷺ وبعده من هؤلاء خلق كثير، وفى مثل هؤلاء قال النبى ﷺ «إن بالمدينة لرجالاً ماسرتم مسيراً ولاسلكتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر» وقال له سعد بن أبى وقاص: يا رسول الله: الرجل يكون فى حامية القوم يسهم له مثلما يسهم لأضعفهم؟ فقال: «ياسعد وهل تنصرون إلا بضعفائكم؟ بدعائهم وصلواتهم واستغفارهم» - كلاهما فى «الصحيح» -.

(*) «جامع الرسائل» رسالة (قاعدة فى المحبة) (٢/١٩٣، ٢٨١، ٢٨٤).

[القسم الرابع] من قدرته قاصرة، وإرادته للحق قاصرة، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم، فهؤلاء ضعفاء المجرمين، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظ مع أهل باطلهم، كما يوجد فى العلماء والعباد والزاهدين من المشركين وأهل الكتاب ومنافقى هذه الأمة مافيه مضاهاة لعلماء المؤمنين وعبادهم، وذلك أن الشيطان جعل لكل شيء من الخلق نظيراً فى الباطل، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله. اهـ.

● ● ●

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ الآية

● مناسبة الآية للباب والتوحيد.

قال ابن عثيمن [1]: منع الإنسان أن يحب أحداً كمحبة الله؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة، وهذا يوجد فى بعض العباد وبعض الخدم؛ فبعض العباد يعظمون ويحبون بعض القبور أوالأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله، قال تعالى ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾اهـ

قال القرعاوى [2]: حيث دلت الآية على أن من أحب شيئاً كحب الله فقد إتخذه نداً» مع الله وذلك هو الشرك. أهـ

● الإعراب [3]:

قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن بعض الناس لم يعتقد الوحدانية بعد أن ثبت بالدليل القاطع ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم [3].

وقوله﴿مَن يَتَّخِذُ﴾

﴿مَن﴾ اسم موصول فى محل رفع مبتدأ مؤخر أو نكرة موصوفة فى محل رفع مبتدأ

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٧٩ وقال نحوه عبد الله بن جار الله. (٢) الجديد ٢٧٨.

(٣) إعراب القرآن وبيانه لمحى الدين درويش (١/ ٢٣٠)

مؤخر(يتخذ) الجملة الفعلية لامحل لها لأنها صلة الموصول أوصفة لـ«من» وفاعل يتخذ ضمير مستتر تقديره هو يعود على لفظ من.

قوله ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾

جار ومجرور متعلقان بيتخذ (أنداداً) مفعول به[1].

● ماجاء فى تفسير الآية من أحاديث وآثار:

فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم؟ قال **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[2].

روى ابن جرير بسنده عند قتادة:

قوله **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾**[3] من الكفار لأوثانهم وبنحوه عن عكرمة[4].

وبسنده عن مجاهد:

فى قوله تعالى ذكره (**يحبونهم كحب الله**) مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد والذين آمنوا أشد حباً لله من الكفار لاوثانهم[5].

وبسنده عن الربيع قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ من الكفار لأوثانهم﴾[6].

وبسنده عن ابن وهب قال: قال ابن زيد فى قوله ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله قال هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين أمنوا الله والذين أمنوا اشد حبا لله تعالى ذكره[7].

(١) إعراب القرآن وبيانه لمحى الدين درويش (١/ ٢٣٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢/ ٤٠) وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٤) ونسبه لعبد بن حميد

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد وانظر «فتح المجيد» (ح٦٢٨) بتخريجنا.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٧) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٢٩ بتخريجنا).

وبسنده عن السدي: ومن النـاس من يتخذ من دون الله أنـداداً يحبونهـم كحب الله قال: الأنداد من الرجال يطيعونهم ما يطيعون الله إذا أمروهم أطاعوهم وعصوا الله[١].

● ماجاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[٢]. فإن قال قائـل وكيف قيل كحب الله وهل يـحب الله الأنداد وهل كان متخـذ الأنداد يحبون الله فيـقال يحبونهم كـحب الله قيل أن معنـى ذلك بخلاف ماذهبت إليه وإنما نظير ذلك قول القائل بعت غـلامى كبيع غلامك بمعنى بعته كما بيع غلامك وكبيعك غلامك و استوفيت حقى منـه حقك بمعنى استفائك حقك فتحذف من الثانى كناية اسم المخاطب اكتفاء بكنايته فى الغلام والحق كما قال الشاعر.

فلست مسلما مادمت حيا ❊ على زيد بتسليم الأمير

يعنـى بذلك كما يـسلم على الأمـير فمعـنى الكلام إذا ومن الـناس من يتخـذ أيها المؤمنون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله. أهـ

قال الرازى[٣]: اختلفوا فى المراد بالأنداد على أقوال:

(أحدها) أنها هـى الأوثان التى اتخـذوها آلهة لتقـربهم إلى الله زلفـى، ورجوا من عندها النفع والضـر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور، وقربـوا لها القرابين، وهو قول أكثر المفسريـن، وعلى هذا الأصنام أنداد بعضها لبعض، أى أمـثال ليس إنها أندادا لله، أو المعنى: إنها أنداد لله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة.

(وثانيها) إنهم الـسادة الذين كانـوا يطيعونهـم فيحلون لـمكان طاعتهـم ماحرم الله، ويحرمون ما أحل الله، عن السدى، والقائلـون بهذا القول رجحوا هذا القول على الأول من وجوه:

(الأول) أن قوله **(يحبونهم كحب الله)** الهاء والميم فيه ضمير العقلاء.

(الثانى) أنه يبعد أنهـم كانوا يحبون الأصنام كمحـبتهم الله تعالى مع علمـهم بأنها لاتضر ولاتنفع.

(الثالث) أن الله تعالـى ذكره بعد هـذه الآية **(إذ تبرأ الذين اتبـعوا من الذين)** وذلك

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق

(٢) ٢/ ٤٠.

(٣) التفسير الكبير ٢/ ٤/ ٢٢٦/ ٢٢٧

لايليق إلا بمن اتخذ الرجال أنداداً وأمثالا لله تعالى، يلتزمون من تعظيمهم والإنقياد لهم، ما يلتزمه المؤمنون من الإنقياد لله تعالى.

(القول الثالث) فى تفسير الأنداد قول الصوفية والعارفين، وهو أن كل شىء شغلت قلبك به سوى الله تعالى، فقد جعلته فى قلبك نداً لله تعالى وهو المراد من قوله **(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)** أهـ

قال ابن كثير[1]: يذكر تعالى حال المشركين به فى الدنيا ومآلهم فى الدار الآخرة حيث جعلوا له أنداداً أى أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه هو الله لاإله إلاهو ولاضد له ولاند له ولاشريك معه.

فائدة[2]:

(دون) ظرف للمكان وهونقيض فوق، نحو هو دونه أى أحط منه رتبة أومنزلة، ويأتى بمعنى أمام نحو: الشىء دونك أى أمامك، وبمعنى وراء نحو: قعد دون الصف، أى وراءه، وقد يأتى بمعنى ردىء وخسيس فلايكون ظرفاً، نحو: هذا شىء دون، وهو حينئذ يتصرف فى وجوه الإعراب. ويأتى بمعنى غير كما فى الآية،وأكثر ما يستعمل حينئذ مجروراً بمن. أهـ

قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

● الإعراب:

(يحبونهم) فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به والجملة الفعلية صفةلأنداداً أو حال من الضمير المستكن فى يتخذ(كحب الله) الكاف ومجرورها فى موضع نصب صفة لمصدر محذوف فهو مفعول مطلق ويجوز الإعراب حالاً وقد رجحه سيبويه والمصدر مضاف إلى مفعوله[3].

● أقوال المفسرين فى الآية:

قال ابن الجوزى[4]:

وفى قوله:﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قولان.

أحدهما: أن معناه: يحبونهم كحب الذين آمنوا لله ، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبى العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء.

---

(١) تيسير القرآن العظيم ١/ ١٩٢

(٢) إعراب القرآن ١/ ٢٣١.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٢٣١.

(٤) زاد المسير /١٤٧

والثاني: يحبونهم كمحبتهم لله، أى : يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى فى المحبة. هذا اختيار الزجاج.

قال : والقول الأول ليس بشيء والدليل على نقضه قوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾.

قال المفسرون: أشد حباً لله من أهل الأوثان لأوثانهم. أهـ

قال الرازى[1]: أما قوله تعالى (**يحبونهم كحب الله**) فاعلم أنه ليس المراد محبة ذاتهم فلا بد من محذوف، والمراد يحبون عادتهم أو التقرب إليهم والإنقياد لهم، أوجميع ذلك، وقوله، (**كحب الله**) فيه ثلاثة أقوال:

قيل: فيه كحبهم لله، **وقيل فيه**: كالحب اللازم عليهم لله، **وقيل فيه**: كحب المؤمنين لله.

وإنما اختلفوا هذا الإختلاف من حيث إنهم اختلفوا فى أنهم هل كانوا يعرفون الله أم لا؟

فمن قال: كانوا يعرفون مع اتخاذهم الأنداد تأول على أن المراد كحبهم لله.

ومن قال إنهم ماكانوا عارفين بربهم حمل الآية على أحد الوجهين الباقيين إما كالحب اللازم لهم أو كحب المؤمنين لله والقول الأول أقرب لأن قوله(يحبونهم كحب الله) راجع إلى الناس الذين تقدم ذكرهم، وظاهر قوله (كحب الله) يقتضى حباً لله ثابتاً فيهم، فكأنه تعالى بين فى الآية السالفة أن الإله واحد، ونبه على دلائله، ثم حكى قوله من يشرك معه، و ذلك يقتضى كونهم مقربين بالله تعالى .

● إشكاله وجوابه

فإن قيل: العاقل يستحيل أن يكون حبه للأوثان كحبه لله، وذلك لأنه بضرورة العقل يعلم أن هذه الأوثان أحجار لاتضر، ولاتسمع، ولاتبصر، ولاتعقل، وكانوا مقرين بأن لهذا العالم صانعاً مدبراً حكيماً ولهذا قال تعالى ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ومع هذا الاعتقاد كيف يعقل أن يكون حبهم لتلك الأوثان كحبهم لله تعالى، وأيضاً فإن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ**

(١) التفسير الكبير ٢/ ٤/ ٢٢٧، ٢٢٨.

زُلْفَىٰ﴾ وإذاكان كذلك، كان المقصود الأصلى طلب مرضات الله تعالى، فكيف يعقل الاستواء مع هذا القول؟

قلنا قوله﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أى فى الطاعةلها. والتعظيم لها، فالإستواء على هذا القول فى المحبة لاينافى ماذكرتموه. أهـ

قال عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ(١): وهذه التسوية المذكورة فى قوله تعالى: حكاية عنهم وهم فى النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهى محضرة معهم فى العذاب﴿تالله إن كنالفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين﴾ ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين فى الخلق والربوبية وإنما سووهم به فى المحبة والتعظيم وهذا أيضاً هو العدل المذكور فى قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ به غيره فى العبادة التى هى المحبة والتعظيم.

قال الشوكانى(٢): أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد، بل أحبوها حباً عظيماً، وأفرطوا فى ذلك إفراطاً بالغاً، حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها متمكناً فى صدورهم، كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه. فالمصدر فى قوله: ﴿كحب الله﴾مضاف إلى المفعول، والفاعل محذوف وهو: المؤمنون.

ويجوز أن يكون المراد: كحبهم لله، أى عبدة الأوثان، قاله ابن كيسان والزجاج.

ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبنى للمجهول، أى كما يحب الله.

والأول أولى، كقوله﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، فإنه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوى، أى أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد؛ لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء، والكفار لايخصون أصنامهم بذلك، بل يشركون الله معهم، ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله. ويمكن أن يجعل هذا، أعنى قوله﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ دليلا على الثاني؛ لأن المؤمنين إذا كانوا أشد حبا لله لم يكن حب الكفار للأنداد كحب المؤمنين لله؛

وقيل: المراد بالأنداد هنا: الرؤساء، أى يطيعونهم فى معاصى الله، ويقوى هذا الضمير فى قلوبهم: ﴿يحبونهم﴾ فإنه لمن يعقل، ويقويه أيضاً قوله سبحانه عقب ذلك: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ الآية.

---

(١) فتح المجيد ٢/ ٥٥٤، ٥٥٥. (٢) فتح القدير١/ ٢٣١.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾

● الإعراب:

(والذين) الواو استئنافية أو حالية واسم الموصول مبتدأ (آمنوا) فعل وفاعله. والجملة صلة الموصول(أشد) خبر الموصول (حباً) تمييز(لله) الجار والمجرور متعلقان بحبا[1].

● أقوال المفسرين فى الآية:

قال البغوى[2]:

قوله تعالى :﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أى أثبت وأدوم على حبه من المشركين لأنهم لايختارون على الله ماسواه. والمشركون إذا اتخذوا صنماً ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختار الثانى.

قال قتادة: إن الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله تعالى كما أخبر الله عزوجل عنهم فقال ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ والمؤمن لايعرض عن الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء.

قال سعيد بن جبير: إن الله عزوجل يأمر يوم القيامة من أحرق نفسه فى الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم فلا يدخلون، لعلمهم أن عذاب جهنم على الدوام . ثم يقول للمؤمنين وهم بين أيدى الكفار إن كنتم أحبائى فادخلوا جهنم فيقتحمون فيها فينادى مناد من تحت العرش ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾

وقيل إنما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأن الله تعالى أحبهم أولا ثم أحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال تعالى ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

قال الرازى[3]: فى بيان أن الذين آمنوا هم أشد حباً لله، أما المتكلمون فقالوا: إن حبهم لله يكون من وجهين .

(أحدهما) أنه مايصدر منهم من التعظيم، والمدح، والثناء والعبادة خالصة عن الشرك وعما لاينبغى من الاعتقاد ومحبة غيرهم ليست كذلك .

(والثاني) ـ أى والإشكال الثانى ـ أن حبهم لله اقترن به الرجاء والثواب والرغبة فى عظيم منزلته والخوف من العقاب والأخذ فى طريق التخلص منه، ومن يعبد الله ويعظمه

(١) إعراب القرآن ١/ ٢٣١.

(٢) معالم التنزيل ١/ ١٩٢.

(٣) التفسير الكبير ١/ ٤/ ٢٣٠، ٢٣١.

على هذا الحد تكون محبته أشد، وأما العارفـون فقالوا المؤمنون هم الذين عرفوا الله بقدر الطاقة البشرية، وقد دللنا على أن الحب من لوازم العرفان فكلما كان عرفاتهم أتم وجب أن تكون محبتهم أشد

فإن قيل: كيف يمكن أن يقال محبة المؤمـنين لله تعالى أشد مع أنا نرى الهنود يأتون بطاعات شاقة لايأتى بشىء منها أحد من المسـلمين ولايأتون بها إلا لله تعالى ثم يقتلون أنفسهم حباً لله.

(والجواب) من وجوه

(أحدها) أن الذين آمنوا لايتضرعون إلا إلى الله بخلاف المشركين فإنهم يعدلون إلى الله عند الحـاجة، وعند زوال الحاجة يـرجعون إلى الأنداد، قال تـعالى **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** إلى آخـره والمؤمن لايعـرض عن الله فى الـضراء والسراء والشدة والرخاء، والكافر قد يعرض عن ربه، فكان حب المؤمن أقوى

(وثانيها) أن من أحب غيره رضى بـقضائه، فلا يتصرف فى ملكـه، فأولئك الجهال قتلوا أنفسهم بغير إذنه، أما المؤمنون فقد يقتلون أنفسهم بإذنه،وذلك فى الجهاد .

(وثالثها) أن الإنسان إذا ابتلى بالعذاب الشديد لايمكنه الاشتغال بمعرفة الرب، فالذى فعلوه باطل .

(ورابعها) قال ابن عباس: إن المشـركين كانوا يعبدون صنماً، فـإذا رأوا شيئاً أحسن منه تركوا ذلك وأقبلوا على عبادة الأحسن .

(وخامسها) أن المؤمنين يوحدون ربهـم، والكفار يعبدون مع الصنم أصنـاما فتنقص محبة الواحد، أما الإله الواحد فتنضم محبة الجميع إليه.

قال ابن كثير(١):

قوله **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** ولحبهم لله وتمام معرفتهم بـه وتوقيرهم وتوحيدهم له لايشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون فى جميع أمورهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال. الآية . أهـ.

قال ناصر السعدى(١): فإنه تعالى، لما بين وحدانيته وأدلـتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١١٠، ١١١

ذكر هنا أن ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ مع هذا البيان التام ﴿ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ لله أى : نظراء ومثلاء، يساويهم فى الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة ـ بعد إقامة الحجة، وبيـان التوحيد ـ علم أنه معاند لله، مشاق له. أو معرض عن تدبير آياته والتفكير فـى مخلوقاته، فليس له أدنى عذر فى ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخـذون الأنداد مع الله، لايسوونهم بالله فى الخلـق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به فى العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه.

وفى قوله«اتخذوا» دليل على أنه ليس لله ند .

وإنما المشركـون جعلوا بعض المخـلوقات أنداداً له، تسمـية مجردة، ولفظـاً فارغاً من المعنى . كما قال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾(١) ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾(٢) .

فالمخلوق ليـس نداً لله لأن الله هو الخالق، وغيره مخلـوق، والرب هو الرازق. ومن عداه مرزوق، والله هوالغنى وأنتم الفقراء.

وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه.

والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء.

فعلم علماً يقيناً، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً.

سواء كان ملكاً أو نبياً، أو صالحاً، أو صنماً، أو غير ذلك.

وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام.

فلهذا مدح الله المؤمـنين بقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أى : من أهـل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها.

---

(١) الرعد: ٣٣.

(٢) النجم : ٢٣

ولأنهم أحبـوا من يستحق المحبـة على الحقيقة، الـذى محبته هى عين صـلاح العبد وسعادته وفوزه.

والمشركون أحبوا من لايسـتحق من الحب شيئاً، ومحبتهم عين شـقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾أهـ.

● **ماجاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ (١):

قوله﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ نتكلم عليها متابعة لبعـض شراح كتاب التوحيد لتعلقها بما قبلها تكميلاً للفائدة، وإن لم يذكرها المصنف، وفيها قولان:

أحدهما: وهو الصحيح أن المعنى: والذين آمنوا أشد حباً لله محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنـين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهـم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة.

والثانى: والذين آمنوا أشد حباً لله من حب أصحـاب الأنداد لأندادهم التى يحبونهم من دون الله، قال ابن القيـم: والقولان مرتبان على القولين فـى قوله تعالى **﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾** وفى الآيـة دليل علـى أن الله لايقبل مـن العمـل إلا ماكان خالـصاً، وأن الشرك محبط للأعمال.

قال حامد بـن حسن(٢): واعلم أن المحبـة تستلزم الطـاعة ولابد كما هو المـعلوم بالضرورة فمن يدعى مـحبه الله يلزمه طاعته فى متابعه رسـوله كما قال تعالى **﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** فمـخالفة الله ورسـوله تخـل بالمحبة وتـقدح فيهاوكلما زادت المخالفة والمعاصى على قدر بـعدها من محبة الله وقربها من عداوته حتى تؤول إلى الشرك والكفر كما ورد المعاصى بريـد الكفر، فالمخالف إذا أدعى المحبة فليس بصادق:

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٩

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٤٨، ٣٤٩

تعـصى الآله وأنـت تظهر حبه   هـذا وربـى فـى الإلـه شنيـع

لوكان حـــبك صادقــاً لاطـعته   إن المحب لمن يحب مطيع اهـ

● **فائدة:** فى معنى الشوق ودرجاته والفرق بينه وبين المحبة

قال ابن القيم[1]: والشوق أثر من أثار المحبة، وحكم من أحكامها فإنه سفر القلب إلى المحبوب فى كلٍّ حال.

والمحبة أعلى منه. لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى ويضعف.

قال يحيي بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

وقال أبو عثمان: علامته حب الموت، مع الراحة والعـافية ، كحال يوسف لما ألقى فى الجب لم يـقل (توفني) ولما أدخل السـجن لم يقل (توفني) ولـما تمَّ له الأمر والأمن والنعمة، قال (توفنى مسلماً).

وهو على ثلاث درجات:

الدرجـة الأولى: شوق العـابد إلى الجنة، لـيأمن الخائـف، ويفرح الحزين. ويـظفر الأمل.

الدرجة الثانية: شوق إلى الله عزوجـل زرعة الحب الذى ينبتُ علـى حافات المنن. فعلَّق قلبه بصفاته المقدسة. فاشتاق إلـى معانية لطائف كرمه. وآيات بره وأعلام فضله. وهذا شوق تغشاه المبارُّ وتخالجه المسارُّ ويقاومه الاصطياد.

والـشوق إلـى الله لاينـافى الـشوق إلـى الجنـة، فـإن أطيـب مافـى الجنـة قربـه تعالي،ورؤيته، وسمع كلامه ورضاه.

الدرجة الثالثة: نار اضرمها صفو المحبة، فنغصت العين. وسلبت السلوة ولم ينهنها معزى دون اللقاء. أهـ.

وليرجع إلى تفصيل ذلك إلى مدارج السالكين.

● ● ●

(١) مدارج السالكين ٣/ ٥٤ ـ٦١.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

● **مناسبة الآية للباب:**

قال عبدالله بن جار الله أن فيها وعيد شديد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه(٢). أهـ

قال القرعاوى: حيث دلت الآية على تحريم تقديم حب هذه الأشياء الثمانية على حب الله ورسوله(٣). أهـ

● **مناسبة الآية للتوحيد**

قال القرعاوى: حيث دلت الآية على وجوب حب الله ورسوله، لذا يكون الحب نوعاً من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك(٤). أهـ

● **سبب النزول:**

عن مجاهد قال: أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبدالمطلب: أنا أسقى الحاج. قال طلحة أخو بنى عبدالدار: أنا أحجب الكعبة فلانهاجر، فأنزلت﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾(٥)

وعن مقاتل فى هذه الآية قال: هي فى الهجرة(٦).

قال القرطبى(٧):

لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلي المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرجل لزوجته: إنا قد أمرنا بالهجرة؛ فمنهم من سارع لذلك،

---

(١) [التوبة: ٢٤]. (٢) الجامع الفريد ١٢٦

(٣) الجديد: ٢٨٠.

(٤) الجديد: ٢٨٠

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٨٧) فانظره بتخريجنا.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٤٠٣) وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبى الشيخ.

(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق (٣/٤٠٣) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٧) تفسيرالقرطبى / ٢٩٣٣، ٢٩٣٤

ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولاأنفق عليكم شيئاً أبدا ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له: أنشدك الله ألا تخرج فنضيع بعدك؛ فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم؛ فنزلت﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ**﴾. يقول إن استحبوا الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة. ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ**﴾ بعد نزول الآية﴿ **فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾. ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا: (قل إن كان آباءكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم).

قال ابن الجوزى[1]:

في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في الذين تخلفوا مع عيالهم بمكة ولم يهاجروا، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن على بن أبى طالب قدم مكة، فقال لقوم: ألاتهاجرون؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن سيرين.

والثالث:أنه لما نزلت الآية التى قبلها، قالوا: يارسول الله، إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى الدين، قطعنا آباءنا وعشيرتنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا، فنزلت. حكيناه عن ابن عباس. أهـ

قوله (قل إن كان آباؤكم..)

الإعراب[2]: إن شرطية وكان واسمها ومابعده عطف عليه وأحب خبر كان وإليكم حال ومن الله جار ومجرور متعلقان بأحب ورسوله وجهاد فى سبيله عطف على الله أى من الهجرة إليهما.

● ماجاء في الآية من آثار :

روى ابن جرير بسنده عن السدى (وأموال اقترفتموهاوتجارة تخشون كسادها) يقول تخشون أن تكسد فتبيعوها ومساكن ترضونها قال هى القصور والمنازل[3].

---

(١)زاد المسير ٣/ ٣١٢.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٧٧

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ٧٠) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٤٠٣) ونسبه لابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ.

عن قتادة رضى الله عنه فى قوله ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ قال أصبتموها[1].

قوله «عشيرتكم»

● **أقوال المفسرين:**

قال البغوى[2]: قرأ أبو بكر عن عاصم عشيراتكم بالألف على الجمع والآخرون بلا ألف على التوحيد، لأن العشيرة واقعة على الجمع، ويقوى هذه القراءة أن أبا الحسن الأخفش قال: لا تكاد العرب تجمع العشيرة على العشيرات، إنما تجمعها على العشائر. أهـ

قال ابن الجوزى[3]:

فأما العشيرة، فهم الأقارب الأدنون. وروى أبو بكر عن عاصم و«عشيراتكم» على الجمع . قال أبو على: وجهه أن كل واحد من المخاطبين له عشيرة، فإذا جمعت.

قلت: ـ أى ابن الجوزى ـ عشيراتكم؛ وحجة من أفرد: أن العشيرة واقعة على الجمع، فاستغنى بذلك عن جمعها . قال الأخفش : لاتكاد العرب تجمع عشيرة : عشيرات، إنما يجمعونها على عشائر. أهـ

قال القرطبى[4]: هى الجماعة التى ترجع إلى عقد واحد كعقد العشرة فما زاد؛ ومنه المعاشرة وهى الاجتماع على الشيء. أهـ

قوله «وأموال اقترفتموها».

● **أقوال المفسرين:**

قال ابن الجوزى[5]: والاقتراف يعنى الاكتساب. أهـ

قال القرطبى[6]: وأموال اقترفتموها يقول: اكتسبتموها بمكة. وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره. أهـ

قال السعدى[7]:

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى: اكتسبتموها ،وتعبتم فى تحصيلها.

---

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٢) معالم التنزيل ٣/ ٢٣

(٣)(٥) زاد المسير ٣/ ٣١٢، ٣١٣

(٤) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤

(٦) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤

(٧) تيسير الكريم ٢/ ٢٢٧

خصهـا بالذكر، لأنها أرغـب عند أهلها،وصـاحبها أشد حرصـاً عليها، ممن تـأتيه الأموال من غيرتعب ولاكدّ. أهـ.

قوله: ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾.

●أقوال المفسرين:

قال القرطبى[1]:

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ قال ابن المـبارك: هى البـنات والأخوات إذا كسـدن فى البيت لايجدن لهن خاطباً قال الشاعر :

كسدن من الفقر فى قومهن وقد زادهن مقامى كسوداً أهـ

قال الشوكانى[2]: والتجارة الأمتعة التى يشترونها ليربحوا فيها

قال السعدى[3]: **﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾** أى: رخصها نقصـها، وهذا شامل لجميع أنـواع التجارات والمكـاسب من عـروض التجـارات، من الأثمـان، والأوانى، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك. أهـ

قوله ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾

تقدم مارواه بن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى معنى المساكن.

●أقوال المفسرين:

قال القرطبى:[4] **﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾** يقول: ومنازل تعجبكم الإقامة فيها. أهـ

قال الشوكانى:[5] والمراد بالمساكن التى يرضونها: المنـازل التى تعجبهم وتميل إليها أنفسهم ويرون الإقامة فيها أحب إليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله.

قوله ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

● ما جاء فى الآية من الآحاديث:

أخرج أحمد الـبخارى عن عبدالله بن هـشام رضى الله عنه قال: كـنا مع رسول الله

(١) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤. (٢) فتح القدير ٢/٣٦٦.

(٣) تيسيرالكريم الرحمن (٣/ ٢٢٧).

(٤) تفسير القرطبى٤/ ٢٩٣٤. (٥) فتح القدير ٢/٣٦٦.

ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: والله لانت يارسول الله أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى فقال النبىﷺ **«لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»**(١).

قال ابن كثير(٢): وانفرد بإخـراجه البخارى فرواه عن يـحيى بن سليـمان عن ابن وهب حيوة بن شريح عن أبى عقيل زهرة بن مـعبد أنه سمع جده عبدالله بن هشام عن النبى ﷺ بهذا. اهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال القرطبى(٣):أحب إليـكم من أن تهاجروا إلـى الله ورسوله بالمديـنة. «وأحب» خبر كان . ويجوز فى غير القرآن رفع«أحب» على الابتداء والخبر ، واسم كان مضمر فيها . وأنشد سيبويه:

إذا متُّ كان الناسِ صنفانِ: شامتٌ وآخرُ مُثنٍ بالذى كنتُ أصنعُ

وأنشد:

هى الشفاء لدائى لو ظـفـرتُ بـها وليس منها شفاءُ الداءِ مبذول

وفى الآية دليـل على وجوب حب الله ورسوله، ولاخلاف فـى ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب أهـ.

قال السعدى(٤): فإن كانت هذه الأشياء **﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾** فأنتم فسقة ظلمة .أهـ

قوله ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾.

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث:

روى الإمام أحمد(٥): وأبو داود واللفظ له من حديث أبـى عبد الرحمن الخراسانى عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول **«إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالـزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**(٦) .

(١) تقدم تخريجه
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٣٠، ٣٣١
(٣) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤، ٢٩٣٥
(٤) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٢٢٧
(٥) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤
(٦) **[ضعيف]** أخرجه أحمد فى «مسنده»(٢/ ٤٢) وأبو داود (٣٤٦٢) عن ابن عمر به وانظر «السلسيل» (١٥٣٨ ـ بتخريجنا). وانظر «فتح المجيد» (ح٦٣٠) بتخريجنا.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون عن أبى حباب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبدالله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك[١]، وهذا شاهد للذى قبله والله أعلم. أهـ

●كلام المفسرين:

قال القرطبى [٢]: وجهاد فى سبيله فتربصوا صيغته صيغة أمر ومعناه التهديد. يقول انتظروا.

قال القرطبى: «وجهاد فى سبيله» دليل على فضل الجهاد، وإيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمال كفاية، والحمد لله . وفى الحديث الصحيح «**إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاث مقاعد قعد له فى طريق الإسلام فقال أتذر دينك ودين آبائك فخالفه وأسلم وقعد له فى طريق الهجرة فقال له أتذر مالك وأهلك فخالفه وهاجر ثم قعد له فى طريق الجهاد فقال له تجاهد فتقتل فينكح أهلك ويقسم مالك فخالفه وجاهد فحق على الله أن يدخله الجنة**»[٣] وأخرجه النسائى من حديث سبرة بن أبى فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان**...» فذكره [٤]. قال البخارى: «ابن الفاكه» ولم يذكر فيه اختلافاً. وقال ابن ابى عدى: يقال ابن الفاكه وابن أبى الفاكه. انتهي.

قوله ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

الإعراب[٥]:

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٣]. الفاء رابطة وتربصوا فعل أمر وفاعل وحتى حرف غاية وجر ويأتى منصوب بأن مضمرة بعد حتى والله فاعل وبأمره جار ومجرور متعلقان بيأتى والله مبتدأ وجملة لايهدى القوم الفاسقين خبر ومعنى الأمر هنا التهديد ومفعوله محذوف. أى انتظروا عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذه الآية من أشد الآيات تهديداً وإرعاداً وإبراقاً وردعاً لكل من تسول له نفسه إيثار الفانية على الباقية ومراعاة جانب الأهل والعشيرة وترك جانب الله . أهـ

---

(١) ما قبله

(٢) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٨٣)، والنسائى فى «الكبرى» (٤٣٤٢) عن سبرة بن الفاكه به.

(٤) أما قبله

(٥) إعراب القرآن / ٧٧

قال البغوى[1]:

(فتربصوا): فانتظروا (حتى يأتى الله بأمره) قال عطاء بقضائه وقال مجاهد ومقاتل بفتح مكة وهذا أمر تهديد ، (والله لايهدي) ولايوفق ولايرشد (القوم الفاسقين). الخارجين عن الطاعة وقال نحوه ابن الجوزي.

قال الشوكانى[2]:

﴿**حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم، وقيل المراد بأمر الله سبحانه: القتال وقيل فتح مكه وفيه بُعد، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح وفى هذا وعيد شديد ويؤكده إبهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات ﴿**والله لايهدى القوم الفاسقين**﴾ أى الخارجين عن طاعته، النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه. أهـ

روى ابن جرير: عن مجاهد (حتى يأتى الله بأمره بالفتح)[3] وعنه أيضاً (فتربصواحتى يأتى الله بأمره) فتح مكة[4].

قال بن جرير [5]. يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام المقيمين بدار الشرك إن كان المقام مع (أبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) وكانت (أموال اقترفتموها) يقول اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) بفراقكم بلدكم (ومساكن ترضونها) فسكنتموها (أحب إليكم من) الهجرة إلى (الله ورسوله) من دار الشرك ومن (جهاد فى سبيله) يعنى فى نصرة دين الله الذى ارتضاه (فتربصوا) يقول فتنتظروا (حتى يأتى الله بأمره) حتى يأتى الله بفتح مكة والله لايهدى القوم الفاسقين يقول الله لايوفق للخير الخارجين عن طاعته وفى معصيته وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل أهـ

قال الزمخشرى[6] :

وهذه آية شديدة لاترى أشد منها كأنها تنعى على الناس ماهم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من

---

(١) معالم التنزيل ٣/ ٢٣
(٢) فتح القدير ٢/ ٣٦٦
(٣) أخرجه ابن جريرفى «تفسيره» (١٠/ ٧٠)
(٤) تفسير الطبرى ٦/ ١٠/ ٧٠
(٥) ما قبله
(٦) الكشاف ٢/ ١٤٥.

التصلب في ذات الله والثبات على دين الله مايستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدرى أى طرفيه أطول ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره. أهـ

قال ناصر السعدى(١):

(فتربصوا» أى : انتظروا مايحل بكم من العقاب﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الذى لا مرد له.

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة، أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء.

وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك،أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس نفسه فيها هوى والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يفوت عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه.

فإنه إن قدم ماتهواه نفسه، على مايحبه الله دل على أنه ظالم، تارك لمايجب عليه. أهـ

● فوائد جليلة

قال الرازى(٢)

وهذه الآية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا،وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .

واعلم أنه تعالى ذكر الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار، وهى أمور أربعة:

أولها: مخالطة الأقارب، وذكر منهم أربعة أصناف على التفصيل وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج، ثم ذكر البقية بلفظ واحد يتناول الكل، وهى لفظ العشيرة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢٢٧،٢٢٨

(٢) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٢٠.

وثانيها: الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

وثالثا : الرغبة فى تحصيل الأموال بالتجارة.

ورابعها :الرغبة فى المساكن.

ولا شك أن هذا الترتيب ترتيب حسن، فإن أعظم الأسباب الداعية إلى المخالطة القرابة. ثم إنه يتوصل بتلك المخالطة إلى إبقاء الأموال الحاصلة. ثم إنه يتوصل بالمخالطة إلى اكتساب الأموال التى هى غير حاصلة، وفى آخر المراتب الرغبة فى البناء فى الأوطان والدور التى بنيت لأجل السكني، فذكر تعالى هذه الآشياء على هذا الترتيب الواجب، وبين بالآخرة أن رعاية الدين خير من رعاية جملة هذه الأمور. أهـ

● **ماجاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد**

قال سليمان آل الشيخ(١):

وهو تنبيه على أن من فعل ذلك؛ فهو من الفاسقين فهذا تشديد، ووعيد عظيم، ولا يخلص منه إلا من صح إيمانه فخلص لله سره وإعلانه، وعلى أن المحبة الصادقة تستلزم تقديم مراضى الله على هذه الثمانية كلها، فكيف بمن آثر بعضها على الله ورسوله، وجهاد فى سبيله.

فإن قلت: قد قال شيخ الإسلام: إن كثيراً من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة.

قيل: مراده أن كثيراً من المسلمين قد يكون ما ذكر أحب إليه من الله ورسوله أى: فى إيثار ذلك على فعل أمر الله، وأمر رسوله الذى ينشأ عن المحبة لا فى الحب الذى يوجب قصد المحبوب بالتأله، فإن من ساوى بين الله وبين غيره فى هذا الحب؛ فهو مشرك، فكيف إذا كان غير الله أحب إليه كما هو الواقع من عباد القبور، فإنهم يحبون أندادهم أعظم من حب الله، وذلك أن أصل الحب يحتمل الشركة بخلاف الخلة، فإنها لاتقبل الشركة أصلا. أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢):

قال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾(٣)

---

(١) تيسيرالعزيز الحميد ٣٥٠. (٢) فتح المجيد ٤٤٦/٢ (٣) المائدة : ٥٤

وذكر لهم أربع علامات:

أحدها : أنهم أذلة على المؤمنين، قيل معناه: أرقَّاء رُحماء مشفقين عليهم عاطفين عليهم. فلما ضمن (أذلة) هذا المعنى عدَّاه بأداة (على) قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده.

وعلى الكافرين كالأسد على فريسته﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾[1] ـ وهذه هى الثانية ـ **العلامة الثالثة** الجهاد فى سبيل الله تعالى بالنفس واليد واللسان والمال وذلك يحقق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم، فهذا علامة صحة المحبة فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة.

وقال تعالى ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾[2] فذكر المقامات الثلاثة : الحب .وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً أنه لايتنافس إلا فى قرب من يحب قربه وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه.

وعند الجهمية والمعطلة: مامن ذلك كله شىء فإنه عندهم لاتقرب ذاته من شىء ولايقرب من ذاته شىء، ولايحب لذاته ولايحب فأنكروا حياة القلوب ونعيم الأرواح وبهجة النفوس وقرة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته فلا يعرفونه ولايحبونه ولايذكرونه إلاعند تعطيل أسمائه وصفاته فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالأدواء التى هم أحق بها وأهلها.

وحَسب ذى البصيرة وحياة القلب، ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان.

وقال رحمه الله ـ يعنى ابن القيم ـ لاتُحَدُّ المحبةُ بَحَدٍّ أوضح منها فالحدود لاتزيدها

---

(١) الفتح ٢٩ (٢) الإسراء: ٥٧

إلا خفاء فحدها وجودها، ولاتصف المحبة بوصف أظهر من المحبة وإنما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها.

وأجمع ماقيل فى ذلك ماذكره أبو بكرالكتانى عن الجنيد.

قال أبو بكر : جرت مسألة فى المحبة بمكة - أعزها الله - فى أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا : هات ماعندك ياعراقى فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هيبته وصفا شرابه من كأس مودته، وانكشف لها الحياء من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله، فهو لله وبالله،و مع الله فبكى الشيوخ، وقالوا: ماعلى هذا مزيد، جبرك الله ياتاج العارفين».

● **الأسباب لمحبة الله:**

وذكر رحمه الله تعالى - يعنى **ابن القيم** -: «أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أُريد به.

الثانى: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه فى رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهو - أعجبها - إنكسار القلب بين يديه.

الثامن:الخلوة وقت النزول الإلهى وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله - عزوجل -.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبّة،ودخلوا على الحبيب.»[1].

(١) فتح المجيد ٢/ ٥٥٥

قال ابن عثيمين (١):

فدلت الآية على أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العبادة إذا فُضلت على محبة الله صارت سبباً للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده؛ فهو يحب أباه أكثر من ربه.

وما فى القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله، لكن له شاهد فى الجوارح، ولذا يروى عن الحسن ـ رحمه الله ـ أنه قال: «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه»؛ فالجوارح مرآة القلب.

فإن قيل: المحبة فى القلب ولايستطيع الإنسان أن يملكها، ولهذا يروى عن النبى ﷺ؛ أنه قال: «**اللهم إن هذا قسمى فيما أملك؛ فلا تلمنى فيما لا أملك**»(٢) وكيف للإنسان أن يحب شيئاً وهو يبغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكناً؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد؛ فالإنسان قد تنقلب محبته لشىء كراهة وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة، فمثلاً: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك، فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة صادقة؛ كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه.

وقال عمر رضى الله عنه للنبى ﷺ: «إنك لأحب إلى من كل شىء إلا من نفسى. قال النبى ﷺ: **لاوالذى نفسى بيده؛ حتى أكون أحب إليك من نفسك**. قال: الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى. فقال النبى ﷺ: **الآن يا عمر**»(٣)؛ فقد ازدادت محبة عمر رضى الله عنه للنبى ﷺ.

وأقره النبى ﷺ على أن الحب قد يتغير.

وربما تسمع عن شخص كلاماً وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب؛ فتعود محبتك إياه.

● ● ●

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٨٠، ١٨١

(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ١٤٤)، وأبو داود (٢١٣٤)، والترمذى (١١٤٠)، والنسائى (٧/ ٦٤ـ السيوطى)، وابن ماجه (١٩٧١) عن عائشة به.

وانظر «السلسبيل» (٢١٣٤ ـ بتخريجنا)

(٣) تقدم تخريجه

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ، مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١) أَخْرَجَاهُ.

وهذا لفظ البخارى

وبوّب عليه باب حب الرسول - ﷺ - من الإيمان.

وذكر فيه حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«فوالذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»**(٢).

● مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٣)

أنَّ محبة الرسول - ﷺ - واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها أهـ.

قال ابن عثيمين(٤) مناسبة هذا الحديث ظاهرة، إن محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولأنه إذا كان لايكمل الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ. أحب إلى الإنسان من نفسه والناس أجمعين فمحبة من أولى وأعظم. اهـ

قال القرعاوى(٥): مناسبة الحديث للباب

حيث دل الحديث على وجوب محبة الله ورسوله على محبة من سواهما. أهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى(٦): حيث دل الحديث على وجوب تقديم محبة الله ورسوله على من سواهما لذا تكون المحبة عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ

قوله «لايؤمن أحدكم» أى إيماناً كاملاً (٧).

قال سليمان آل الشيخ (٨):

قوله «لايؤمن أحدكم». أى لايحصل له الإيمان الذى تبرأ به ذمته، ويستحق به

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «الإيمان» / باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ٧٥/ ح١٥) ومسلم فى الإيمان / باب وجوب محبة رسول الله ﷺ (١/ ٢٩٠/ح ٧٠). من حديث أنس. وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٣١) بتخريجنا

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري(ح١٤)

(٣) الجامع الفريد ١٢٦.

(٤) القول المفيد ٢/ ١٨٦.

(٥) (٦) الجديد ٢٨٢

(٧) قاله الحافظ فى الفتح ١/ ٧٥

(٨) تيسير العزيزا لحميد ٣٥١،٣٥٢،٣٥٣

دخول الجنة بلا عذاب حتى يكون الرسول ﷺ «أحب إليه من أهله وولده ووالده والناس أجمعين»، بل لايحصل له ذلك حتى يكون الرسول أحب إليه من نفسه أيضاً.

كما فى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه المتقدم (١).

فمن لم يكن كذلك، فهو من أصحاب الكبائر، إذا لم يكن كافراً، فإنه لايعهد فى لسان الشرع نفى اسم مسمى أمر الله به ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته فأما إذا كان الفعل مستحباً فى العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب، ولو صح هذا لنفى عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج وحب الله ورسوله، لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبى ﷺ، بل ولاأبو بكر ولاعمر، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين، من الأولين والآخرين، وهذا لايقوله عاقل. وعلى هذا فمن قال إن المنفى هو الكمال، فإن أراد أنه نفى الكمال الواجب الذى بذم تاركه يتعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أنه نفى الكمال المستحب فهذا لم يقع قط فى كلام الله ورسوله ﷺ

قاله شيخ الإسلام. وأكثر الناس يدعى أن الرسول أحب إليه مما ذكر، فلا بد من تصديق ذلك بالعمل المتابعة له، وإلا فالمدعى كاذب؛ فإن القرآن بين أن المحبة التى فى القلب تستلزم العمل الظاهر بحبها كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ إلى قوله: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله سمعوا وأطاعوا. فتبين أن هذا من لوازم الإيمان والمحبة، لكن كل مسلم لابد أن يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام كما أن كل مؤمن لابد أن يكون مسلماً، وكل مسلم لابد أن يكون مؤمناً، وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق، لأن ذلك لايحصل إلا لخواص المؤمنين، إن الإستسلام لله ومحبته لاتتوقف على هذا الإيمان الخاص.

قال شيخ الإسلام: وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره، فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام، التزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، وهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى

---

(١) تقدم تخريجه

قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك؛ وإلا فكثير من الناس لايصلون إلى اليقين، ولا إلى الجهاد ولو شُكِّكُوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفاراً ولامنافقين. بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه مايدرأ الريب، ولاعندهم من قوة الحب لله ورسوله مايقدمونه على الأهل والمال. وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب، وإلاصاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق انتهى.

قال ابن عثيمين(١):

هذا نفى للإيمان، ونفى الإيمان تارة يراد به نفى الكمال الواجب، وتارة يراد به نفى الوجود؛ أى : نفى الأصل.

والمنفى فى هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب؛ إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ إطلاقاً؛ فلا شك أن هذا نفى لأصل الإيمان أهـ.

قوله حتى أكون أحب إليه»

قال ابن حجر(٢):

قوله(أحب) هوأفعل بمعنى المفعول، وهو مع كثرته على خلاف القياس، وفصل بينه وبين معموله بقوله«إليه» لأن المتنع الفصل بأجنبى........والمراد بالمحبة

هنا حب الاختيار لاحب الطبع، **قاله الخطابى.**

وقال النووى: فيه تلميح إلى قضية النفس الأمارة والمطمئنة، فإن من رجح جانب المطمئنة كان حبه للنبى ﷺ راجحاً، ومن رجح جانب الأمارة كان حكمه بالعكس. وفى كلام القاضى عياض أن ذلك شرط فى صحة الإيمان، لأنه حمل المحبة على معنى التعظيم والإجلال. تعقبه صاحب المفهم بأن ذلك ليس مراداً هنا، لأن اعتقاد الأعظمية ليس مستلزماً للمحبة، إذ قد يجد الإنسان إعظام شيء مع خلوه من محبته.

قال : فعلى هذا من لم يجد من نفسه ذلك الميل لم يكمل إيمانه، وإلى هذا يومىء قول عمر الذى رواه البخارى فى **«الأيمان والنذور»**ـ وتقدم ـ من حديث عبدالله بن هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبى ﷺ «لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى. فقال : **«لا والذى نفسى بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك.** فقال له عمر: فإنك الآن والله أحب إلى من نفسى. فقال : **الآن ياعمر»** انتهى.

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٨٢

(٢) الفتح ١/ ٧٥،٧٦،٧٧

فهذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط، فإنها كانت حاصلة لعمر قبل ذلك قطعاً أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١):

وفيه أن محبه الرسول ﷺ واجبة تابعه لمحبة الله لازمه لها، فإنها محبة لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله فى قلب المؤمن وتنقص بنقصانها، وكل من كان محباً لله فإنما يحب فى الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح. وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالأعتماد عليه ورجائه فى حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه، وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة فى الله ولاجله، التى هى من كمال التوحيد، وبين المحبة مع الله التى هى محبة الإنداد من دون الله لما يتعلق فى قلوب المشركين من الإلهية التى لاتجوز إلا لله وحده. أهـ

قال ابن عثيمين(٢):

ومحبة رسول الله ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء؛ فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثانى: لما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث:لما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك اهـ

قلت: لقوله ﷺ **«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم»**(٣).ولقوله ﷺ **«من ترك مالاً فلورثته ومن ترك ديناً فإلى وعلي**(٤).لقوله ﷺ «فى الدجال **«إن يظهرو أنا فيكم فأنا حجيجكم وإن يظهر بعدى فامرؤ حجيج نفسه »**(٥).**وغير ذلك**، لذلك كان كثير من

---

(١) فتح المجيد ٢/ ٥٦٢.

(٢) القول المفيد ٢/ ١٨٢، ١٨٣

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٤٧)، وأبو داود (٨)، النسائى (١/ ٣٨ـ السيوطي)، وابن ماجه عن أبى هريرة به.

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٢٢٩٨)، ومسلم فى الفرائض (١١/ ٥٦ ـ النووي) عن ابى هريرة به وانظر «منار السبيل» (١٨٤٧ ـ بتخريجنا)

(٥) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى الفتن(١٨/ ٦٣ ـالنووي) عن النواس بن سمعان به

الصحابة يجمعون له أبويهم (بأبى وهو أمــى ﷺ) بل وأنفسهم بالقول والعمل كثيرا ما نسمعهم يقولــون له فداك نفسى يا رسول الله وتقرأ من سيرتهــم معه أيضاً أنهم فادوه بأنفسهم لله درهم.

الخامس: لصبره على الأذى فى تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله

قوله «من ولده ووالده»

قال ابن حجر (١):

قوله(من والده وولده) قدم الوالد للأكثرية لأن كل أحد له والد من غير عكس، وفى رواية النسائى فى حديث أنس تقديم الولد على الوالد، وذلك لمزيد الشفقة.

وذكر الولد والوالد أدخل فى المعنى لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز من نفسه، ولهذا لم يذكر النفس أيضاً فى حديث أبى هريرة.

وهل تدخل الأم فى لفظ الوالد؟ إن أريد به من له الــولد فيعم،أو يقال أكتفى بذكر أحدهما كما يكتــفى عن أحد الضدين بالآخر ويكون ما ذكر على سبــيل التمثيل والمراد الأعزه، كأنه قال: أحب إليه من أعزته. أهـ

قوله: قلت: «والناس أجمعين»

قال ابن حجر(٢):

ذكر الناس بعد الوالد والولد من عطف العام على الخاص وهوكثير، وقدم الوالد على الولد فى رواية لتقدمه بالزمان والإجلال، وقدم الولد فى أخرى لمزيد الشفقة.

وهل تدخل الــنفس فى عموم قــوله والناس أجمعــين؟ الظاهر دخوله. وقــيل إضافة المحبة إليه تقتضى خروجه منهم وهو بعيــد، وقد وقع التنصيص بذكر النفس فى حديث عبدالله بن هشام أى حديث عمر بن الخطاب المتقدم ــ أهـ.

● **من فوائد الحديث**

قال سليمان آل الشيخ(٣):

إذا كان هذا شأن محبة الرسول ﷺ فما الظن بمحبة الله.

وانظر «رياض الصالحين»(١٨١١ بتخريجنا)

(١) الفتح ١/ ٧٥،٧٦. (٢) الفتح ١/ ٧٦.

وفيه أن الأعمال من الإيمان؛ لأن المحبة عمل، وقد نفى الإيمان عمن لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه مما ذكر فدل على ذلك.

وفيه أن نفى الإيمان لايدل على الخروج من الإسلام أهـ

قال ابن عثيمن(١):

ويستفاد من هذا الحديث مايلي:

١ـ وجوب تقديم محبةالرسول ﷺ على محبة النفس.

٢ـ فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال؛ لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.

٣ـ أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول اللهﷺ ويبذل لذلك نفسه وماله وكل طاقته؛ لأن ذلك من كمال محبة رسول اللهﷺ، ولذلك قال بعض أهل العلم فى قوله﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾؛ أى : مبغضك، قالوا : وكذلك من أبغض شريعته ﷺ؛ فهو مقطوع لاخير فيه.

٤ـ جواز المحبة التى للشفقة والإكرام والتعظيم؛ لقوله ﷺ: «**أحب إليه من ولده ووالده....**»؛ فأثبت أصل المحبة، وهذاأمر طبيعى لاينكره أحد.

٥ـ وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس؛ لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدماً على كل أحد من الناس؛ حتى على نفسك، فمثلاً: أنت تقول شيئاً وتهواه وتفعله، فيأتى إليك رجل ويقول لك: هذا يخالف قول الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك؛ فأنت تنتصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك، وترد على نفسك بقول الرسول ﷺ ؛ فتدع ماتهواه من أجل طاعة الرسول ﷺ، وهذا عنوان تقديم محبته على محبة النفس، ولهذا قال بعضهم:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع(٢)

قال ابن تيمية: محبة الله مستلزمة لمحبة مايحبه من الواجبات كما قال تعالى﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى على عباده وأحبه، وهو سبحانه أعظم شىء بغضاً لمن لم يتبع

(١) القول المفيد ٢/ ١٨٣ ـ١٨٦.

(٢) «جامع الرسائل» (٢/٢٥٨) وقال (٢٨٤)

رسوله، فمن كان صادقاً فى دعوى محبة الله اتبع رسوله لامحالة، وكان الله رسوله أحب إليه مما سواهما.

«والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك، ولكن لاتزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة فى القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق؛ كما فى «صحيح البخاري» عن عمر بن الخطاب: حديث حمار الذى كان يشرب الخمر، وكان النبى ﷺ يقيم عليه الحد، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل، فقال النبى ﷺ«**لاتلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله...**»؛ فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات، والمعاصى تنقص المحبة، وهذا معنى قول الشبلى لماسئل عن المحبة؛ فقال: ماغنت به جارية فلان: فذكر البيتين.

«والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل؛ فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لايخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لايحبه كما يخضع للظالم؛ فإن كلاً من هذين ليس عبادة محضة، وإن كان محبوباً لغير الله ومعظم لغير الله؛ ففيه شوب العبادة؛ كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: «تعس عبدالدرهم، تعس عبد الدينار...»

قال ابن عثيمين: إذا يؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول، على قول كل الناس حتى على قول أبي بكر وعمر عثمان، وعلي قول الأئمة الأربعة ومن بعدهم، قال الله تعالى ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾(١).

ولكن إذا وجدنا حديثاً يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أومخالفاً لقول أهل العلم وجمهور الأمة؛ فالواجب التثبت والتأنى فى الأمر؛ لأن اتباع الشذوذ يؤدى إلى الشذوذ.

ولهذا إذا رأيت حديثاً يخالف ماعليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التى كالجبال فى رُسوِّها؛ فلاتتعجل فى قبوله، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع فى سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين؛ فإنه لابأس أن يخصص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة؛ فالمهم التثبت فى الأمر، وهذه القاعدة تنفعك فى كثير من الأقوال التى ظهرت أخيراً، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين الناس، فإنه يجب اتباع هذه القاعدة، ويقال: أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله؛ لكانت

(٢) «جامع الرسائل» (٢/٢٥٨) وقال (٢٨٤)

وَلَهُمَا(١) عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاَثٌ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ اللهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ).

وَفِي رِوَايَةٍ: «لاَ يَجِدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى ..» إِلَى آخِرِهِ.

منقولة باقية معلومة مثل ما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد، فإنه يعود محرماً، فإن الحديث وإن كان ظاهر سنده الصحه، ولكنه ضعيف وشاذ، ولهذا لم يذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا، فالأمة على خلافه فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيها ويتثبت، ولانقول: إنها لايمكن أن تكون صحيحه. أهـ.

●●●

قوله : [ولهما عنه قال : قال رسول الله ﷺ ثلاث من كن .....] الحديث

ذكره البخاري في أربع مواضع:

أولهم: في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان وهواللفظ الذى جاء به المصنف.

الثاني: باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان.

ولفظه(٢): **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبداً لايحبه إلا لله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذهُ الله كما يكره أن يلقى في النار.**

---

(١)[**متفق عليه**]أخرجه البخارى فى الإيمان» / باب : حلاوة الإيمان (١/ ٧٧/ ح١٦)، ومسلم فى «الإيمان» / باب خصال الإيمان (١/ ٢/ ١٣- النووى)وأحمد فى «مسنده» (٣/ ١٠٣، ١٧٢، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٧٥، ٢٨٨) والترمذى فى «الإيمان»/ باب ماجاء فى ترك الصلاة (٥/ ١٥/ ح٢٦٢٤) والنسائى فى الكبرى» فى الإيمان وشرائعه/ باب حلاوة الإيمان (٦/ ٥٢٧/ ح١١٧١٩) وابن ماجه فى «الفتن/ باب: الصبر على البلاء(٢/ ١٣٣٨/ ح٤٠٣٣)وابن حبان فى«صحيحه» (١/ ٢٢٩، ٢٣٠/ ح٢٣٧، ٢٣٨ ـ الإحسان) وعبدالرزاق فى «مصنفه» (١١/ ٢٠٠/ ح٢٠٣٢٠) والبغوى فى شرح السنة»(١١/ ٤٩/ ح٢١) جميعاً من طريق : عبدالوهاب الثقفى عن أيوب أبى قلابة عن أنس مرفوعاً به. وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٣٣) بتخريجنا

(٢) ح٢١

الثالث: فى كتاب الأدب، باب الحب فى الله. ولفظه[1]

«لايجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لايحبه إلالله، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

الرابع: فى كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ولفظه[2]:

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلالله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

● مناسبة الحديث للباب :

قال القرعاوى[3]:

حيث دل الحديث على وجوب تقديم محبة الله ورسوله على محبة من سواهما. اهـ

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى[4]:

حيث دل الحديث على وجوب تقديم حب الله ورسوله على من سواهما وهذا يدل على أن المحبة نوع من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. أهـ

قوله : [ولهما عنه قال .....]

أى : وللبخارى ومسلم عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ

قوله«ثلاث»

قال ابن حجر[5]: هو مبتدأ والجملة الخبر وجاز الابتداء بالنكرة لأن التنوين عوض من المضاف إليه فالتقدير خصال يحتمل فى إعرابه غير ذلك.

وذكر ذلك ابن عثيمن واستدل عليه بقول ابن مالك فى الألفية فقال[6].

وإعراب «ثلاث»: مبتدأ، وجاز الابتداء بها لأنها مفيدة على حد قول ابن مالك أهـ.

ولايجز الابتداء بالنكرة ما لم تفد. . . . .

قال عبدالرحمن آل الشيخ[7]: أى ثلاث خصال.

(١) ح٦٠٤١ (٢) ٦٩٤١ (٣) الجديد للقرعاوى ٢٨٤
(٤) الجديد للقرعاوى ٢٨٤ (٥) الفتح ١/ ٧٧ ط دار الحديث
(٦) القول المفيد ٢/ ١٨٧ (٧) فتح المجيد ٢/ ٥٦٣

قوله«من» : شرطية[١]:

قوله «كن» أى حصلن، فهى تامة[٢].

قال ابن عثيمن [٣]:

«كن» أصلها كان؛ فتكون فعلاً ماضياً ناسخاً، والنون اسمها .

قوله (فيه) خبرها [٤]:

قوله «وجد بهن»

قال ابن عثيمين[٥]:

وجد: فعل ماض فى محل جزم جواب الشرط ، والجملة من فعل الشرط وجوابه فى محل رفع خبر المبتدأ. أهـ

قوله «حلاوة الإيمان»

قال ابن حجر[٦]:وفى قوله:حلاوة الإيمان استعارة تخييلية، شبه رغبة المؤمن فى الإيمان بشىء حلو وأثبت له لازم ذلك الشىء وأضافه إليه وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح لأن المريض الصفراوى يجد طعم العسل مراً والصحيح يذوق حلاوته على ماهى عليه وكلما نقصت الصحة شيئاً ما نقص ذوقه بقدر ذلك فكانت هذه الأستعارة من أوضح مايقوى استدلال المصنف على زيادة والنقص قال الشيخ أبو محمد بن ابى جمرة:

إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة فى قوله: **﴿مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾** فالكلمة هى كلمة الإخلاص والشجرة أصل الإيمان وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهى وورقها مايهتم به المؤمن من الخير وثمرها عمل الطاعات وحلاوة الثمر جنى الثمرة وغاية كماله تناهى نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها.أهـ.

وقال النووى[٧] معنى حلاوة الإيمان:

استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك الرسول.

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٨٧

(٢) قاله الحافظ فى الفتح ١/ ٧٧ دار الحديث

(٣)القول المفيد ٢/ ١٨٧

(٤) القول المفيد ٢/ ١٨٧

(٥)القول المفيد ٢/ ١٨٧

(٦) الفتح ١/ ٧٧ ط دار الحديث

(٧) فتح المجيد٢/ ٥٦٣

قال سليمان آل الشيخ(١):

والشجرة لها ثمرة والثمرة لها حلاوة فكذلك شجرة الإيمان لابد لها من ثمرة ولابد لتلك الثمرة من حلاوة. لكن قد يجدها المؤمن وقد لايجدها وإنما يجدها بما ذكر في الحديث. أهـ

قوله «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

قال ابن حجر(٢):

معناه أن من استكمل الإيمان علم أن حق الله ورسوله آكد عليه من حق أبيه وأمه وولده وزوجه وجميع الناس، لأن الهدى من الضلال والخلاص من النار إنما كان بالله على لسان رسوله، ومن علامات محبته نصر دينه بالقول والفعل والذب عن شريعته والتخلق بأخلاقه، والله أعلم. أهـ

وقال أيضاً (٣):قوله «أحب إليه»

منصوب لأنه خبر يكون. قال البيضاوي:

المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولاينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أوخلاص آجل والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك، تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعاً له ويلتذ بذلك التذاذاً عقلياً إذ الإلتذاذ العقلي إدراك ماهو كمال وخير من حيث هو كذلك. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٤):في التعليق على كلام البيضاوي المتقدم.

وكلامه - يعني البيضاوي - على قواعد الجهمية ونحوهم من نفي محبة المؤمنين لربهم لهم. والحق خلاف ذلك بل المراد في الحديث أن يكون الله ورسوله عند العبد أحب إليه مما سواهما حباً قلبياً كما في بعض الأحاديث.

«أحبوا الله بكل قلوبكم» فيميل بكليته إلى الله وحده حتى يكون وحده محبوبه

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٥٤

(٢) الفتح ١٠/ ٤٧٨

(٣) الفتح ١/ ٧٧ ط دار الحديث

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٥٤

ومعبوده، وإنما يحب من سواه تبعاً لمحبته كما يحب الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين لما كان يحبهم ربه سبحانه؛ وذلك موجب لمحبة مايحبه سبحانه وكراهة ما يكره، وإيثار مرضاته على ماسواه والسعى فيما يرضيه ما استطاع وترك ما يكره. فهذه علامات المحبة الصادقة ولوازمها. وأما مجرد إيثار ما يقضى العقل رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه إلى آخر كلامه. فهذا قد يكون فى بعض الأمور علامة على الحب ولازماً له لا أنه هو الحب. أهـ

ثم قال ابن حجر(١):

قال البيضاوى: وعبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة قال: وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنواناً لكمال الإيمان لأن المرء إذا تأمل أن المنعم بالذات هو الله تعالى وأن لامانح ولامانع فى الحقيقة سواه، وأن ماعداه وسائط وأن الرسول هو الذى يبين له مراد ربه اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه: فلايحب إلا مايحب ولايحب من يحب إلا من أجله وأن يتيقن أن جملة ماوعد وأوعد حق يقيناً ويخيل إليه الموعود كالواقع فيحسب أن مجالس الذكر رياض الجنة وأن العود إلى الكفر إلقاء فى النار انتهى ملخصا وشاهد الحديث من القرآن قوله تعالى **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ـ إلى قوله ـ أحب إليكم من الله ورسوله﴾** ثم هدد على ذلك ويوعد بقوله **﴿فتربصوا﴾**.

●**فائدة:** فيه إشارة إلى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل، فالأول من الأول والأخير من الثانى. وقال غيره: محبة الله على قسمين فرض وندب، فالفرض المحبة التى تبعث على امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه والرضا بما يقدره، فمن وقع فى معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره فى محبة الله حيث قدم هوى. نفسه والتقصير تارة يكون مع الإسترسال فى المباحات والإستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع فى الرجاء فيقدم على المعصية أو تستمر الغفلة فيقع .و هذا الثانى يسرع إلى الإقلاع مع الندم. وإلى الثانى يشير حديث «**لايزنى الزانى وهو مؤمن**»(٢) والندب أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع فى الشبهات، والمتصف عموماً بذلك نادر. قال : وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم، ويزاد أن لايتلقى شيئاً من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته، ولايسلك إلا طريقته، ويرضى بما شرعه حتى لايجد فى نفسه

---

(١) الفتح ١/ ٧٨، ٧٩ ط دار الحديث

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٥٧٨)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٣١٧/ ١٠٠) عن أبى هريرة به. وأنظر «فتح المجيد» (ح٧٣٥) بتخريجنا)

حرجاً مما قضاه، ويتخلق بأخلاقه فى الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان،وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك.

وقال محيى الدين: هذا حديث عظيم أصل من أصول الدين. ومعنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق فى الدين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا،ومحبة العبد لله تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته،وكذلك الرسول وإنما قال «مما سواهما» ولم يقل «ممن» ليعم من يعقل ومن لايغفل .

● **إشكال وجوابه**

قال النووى: وفيه دليل على أنه لابأس بهذه التثنية. و أما قوله للذى خطب فقال ومن يعصهما «**بئس الخطيب أنت**»(١) فليس من هذا، لأن المراد فى الخطب الإيضاح، وأما هنا فالمراد الإيجاز فى اللفظ ليحفظ، ويدل عليه أن النبى ﷺ حيث قاله فى موضع آخر قال «**ومن يعصهما فلايضر إلا نفسه**»(٢) واعترض بأن هذا الحديث إنما ورد أيضاً فى حديث خطبة النكاح،وأجيب بأن المقصود فى خطبة النكاح أيضاً الإيجاز فلا نقض. وثم أجوبة أخرى، منها دعوى الترجيح، فيكون حيز المنع أولى لأنه عام.والآخر يحتمل الخصوصية، ولأنه ناقل والآخر مبنى على أصل، ولأنه قول والآخر فعل . ورد بأن احتمال التخصيص فى القول أيضاً حاصل بكل قول. ليس فيه صيغة عموم أصلاً، ومنها دعوى أنه من الخصائص، فيمتنع من غيرالنبى - ﷺ ولايمتنع منه، لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاقه التسويه، بخلافه هو فإن منصبه لايتطرق إليه إبهام ذلك. وإلى هذا مال ابن عبد السلام .و منا دعوى التفرقة يوجه آخر وهو أن كلامه ﷺ هنا جملة واحدة فلا يحسن إقامة الظاهر فيها مقام المضمر،وكلام الذى خطب جملتان لايكره إقامة الظاهر فيهما مقام المضمر، وتعقب هذا بأنه لايلزم من كونه لايكره إقامة الظاهر فيهما مقام المضمر أن يكره إقامة المضمر فيهما مقام الظاهر، فما وجه الرد على الخطيب مع أنه هو ﷺ جمع كما تقدم؟ ويجاب بأن قصة الخطيب - كما قلنا - ليس فيها صيغة عموم، بل هى واقعة عين، فيحتمل أن يكون فى ذلك المجلس من يخشى عليه توهم التسوية كما تقدم . ومن محاسن الأجوبة فى الجمع بين حديث الباب وقصة الخطيب أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لاكل واحدة منهما، فإنها وحدها لاغيه إذا لم ترتبط بالأخرى . فمن يدعى حب إليه مثلا ولايحب رسوله

---

(١)[صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/ ٤٢٠/٤٨) عن عدى بن حاتم به
وانظر «فقه الخطابة وزاد الخطيب» للمؤلف

(٢) أخرجه أبو داود (٢١١٩) عن ابن مسعود به.

لاينفعه ذلك، ويشير إليه قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فأوقع متابعته مكتنفة بين قطرى محبة العباد ومحبة الله تعالى للعباد. وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانيين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف فى تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين فى الحكم، ويشير إليه قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فأعاد ﴿أَطِيعُوا﴾ فى الرسول ولم يعده فى أولى الأمر لأنهم لا استقلال لهم فى الطاعة كاستقلال الرسول. أنتهى ملخصاً من كلام البيضاوى والطيبى. ومنها أجوبة أخرى فيها تكلم: منها أن المتكلم لايدخل فى عموم خطابه، ومنها أن له أن يجمع بخلاف غيره. أهـ.

قلت: وفيما قاله الإمام النووى إشكال وتعقبات للشيخ الألبانى فأنظرها فى كتابنا «فقه الخطابة» فى الباب الرابع، والله أعلم.

قال حامد بن محمد(١): وأيضاً تستلزم المحبة: الحب فيه والبغض فيه والمولاة فيه والمعاداة فيه كما هو المشاهد المتعارف شرعاً وعرفاً ومن لم يكن كذلك فليس بصادق فى محبته ولو فعل ما فعل من الطاعة.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): قوله

«أن يكون الله ورسوله أحب إليه ما سواهما»، يعنى بالسوى: مايحبه الإنسان بطبعة كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها، فتكون: أحب هنا على بابها.

وأما المحبة الشركية ـ التى قد تقدم بيانها ـ فقليلها وكثيرها ينافى محبة الله ورسوله وفى بعض الأحاديث **«أحبو الله بكل قلوبكم»**. ـ وتقدم ـ

فمن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب مايحبه الله ويكره مايكرهه الله ويؤثر مرضاته على ماسواه. ويسعى فى ما يرض ما استطاع ويبعد عما حرمَّه ويكرهه أشد الكراهة ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه كما قال تعالى ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف مانهى عنه فذلك علم على عدم محبة الله ورسوله فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله. فمن أحب الله وأطاعة أحب الرسول وأطاعة ومن لا فلا. كما فى آية المحنة ونظائرها والله المستعان.

وانظر «فقه الخطابة وزاد الخطيب» للمؤلف

قلت: ـ يعنى عبدالرحمن آل الشيخ ـ ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته فإنه يحب من عبده أن يطيعه والمحب يحب مايحبه محبوبه ولابد.

ومن لوازم محبة الله أيضاً. محبة أهل طاعته كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده فمحبة ما يحبه اللهومن يحبه الله من كمال الإيمان كما فى حديث ابن عباس الآتى. أهـ.

قوله «وأن يحب المرء لايحبه إلا لله»

قال يحيى بن معاذ(١):حقيقة الحب فى الله أن لايزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء أهـ

قال ابن عثيمين(٢):

قوله **«وأن يحب المرء»** يشمل الرجل والمرأة.

قوله: **«لايحبه إلا لله»** : اللام للتعليل؛ أى : من أجل الله؛ لأنه قائم بطاعة الله ـ عزوجل ـ.

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة: يحبه للدنيا، ويحبه للقرابة، ويحبه للزمالة، ويحب المرء زوجته للاستمتاع، ويحب من أحسن إليه، لكن إذا أحببت هذا المرء لله؛ فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان. أهـ.

قوله «وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار»

قال ابن حجر(٣): **قوله «وأن يكره أن يعود فى الكفر »**.

زاد أبو نعيم فى المستخرج من طريق الحسن بن سفيان عن محمد بن المثنى شيخ البخارى **«بعد إذا أنقذه الله منه»** وكذا هو فى طريق أخرى للبخاري، والإنقاذ أعم من أن يكون بالعصمة منه ابتداء بأن يولد على الإسلام ويستمر أو بالإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان كما وقع لكثير من الصحابة وعلى الأول فيحمل قوله يعود على معنى الصيرورة بخلاف الثانى فإن العود فيه ظاهره.

فإن قيل: فلم عدى العود بفى ولم يعده بإلى؟ فالجواب أنه ضمنه معنى الاستقرار وكأنه قال يستقر فيه ومثله قوله تعالى**﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾**

● **تنبيه:** استدل به على فضل من أكره على الكفر فترك ذلك إلى أن قتل وأخرجه من

---

(١) الفتح ١/ ٧٩ ط دار الحديث

(٢) القول المفيد ٢/ ١٨٨

(٣) الفتح ١/ ٧٩، ٨٠

هذا الوجه فى الأدب فى فضل الحب فى الله ولفظه فى هذه الرواية: «**وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذا نقذه الله منه**» وهى أبلغ من لفظ حديث الباب لأنه سوى فيه بين الأمرين وهنا جعل الوقوع فى نار الدنيا أولى من الكفر الذى أنقذه الله بالخروج منه من نار الأخرى وكذا رواه مسلم من هذا الوجه، وصرح النسائى فى روايته والإسماعيلى بسماع قتادة له من أنس والله الموفق وأخرجه النسائى من طريق طلق بن حبيب عن أنس وزاد فى الخصلة الثانية ذكر البغض فى الله ولفظه: «**وأن يحب فى الله ويبغض فى الله**»(١) وقد تقدم البخارى ترجمته «**والحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان**» وكأنه أشار بذلك إلى هذه الرواية والله أعلم.

وقال أيضاً(٢):

سوى - أى البخارى - فى ترجمة باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر بين كراهية الكفر وكراهية دخول النار، والقتل والضرب والهوان أسهل عند المؤمن من دخول النار فيكون أسهل من الكفر إن اختار الأخذ بالشدة، ذكره ابن بطال وقال أيضاً: فيه حجة لأصحاب مالك، وتعقبه ابن التين بأن العلماء متفقون على اختيار القتل على الكفر، وإنما يكون حجة من يقول إن التلفظ بالكفر أولى من الصبر على القتل، ونقل عن المهلب أن قوماً منعوا من ذلك واحتجوا بقوله تعالى ﴿**ولاتقتلوا أنفسكم**﴾ الاية، ولاحجة فيه لأنه قال تلو الآية المذكورة ﴿**ومن يفعل ذلك عدوناً وظلماً**﴾فقيده بذلك، وليس من أهلك نفسه فى طاعة الله ظالماً ولامعتدياً.

وقد أجمعوا على جواز تقحم المهالك فى الجهاد انتهي، وهذا يقدح فى نقل ابن التين الاتفاق المذكور وأن ثم من قال بأولوية التلفظ على بذل النفس للقتل، وإن كان قائل ذلك يعمم فليس بشىء، وإن قيده بمالو عرض مايرجح المفضول كما لو عرض على من إذا تلفظ به نفع متعد ظاهراً فيتجه.

قال ابن عثيمين(٣):

قوله: «وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار».

هذه الصورة فى كافر أسلم؛ فهو يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار، وإنما ذكر هذه الصورة؛ لأن الكافر يألف ما كان عليه أولاً؛ فربما يرجع إليه، بخلاف من لايعرف الكفر أصلاً.

(١) أخرجه النسائى فى «الكبري» (١١٧١٨)

(٢) الفتح ١٢/ ٣٣١ (٣) القول المفيد ٢/ ١٨٨، ١٨٩

فمن كره العود فى الكفر كما يكره القذف فى النار؛ فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

قوله: «وفى رواية: لايجد أحد حلاوة الإيمان».

قال عبدالرحمن آل الشيخ: قوله : وفى رواية (لايجد أحد) هذه الرواية أخرجها البخارى فى الأدب من صحيحه : ولفظه «**لايجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلالله، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه وحتى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**». وقد تقدم أن المحبة هنا: عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور؛ والإجلال والهيبة ولوازم ذلك . قال الشاعر:

أهابك إجلالا وما بك قدرة عليَّ ولكن ملءُ عين حبيبها. اهـ

أتى المؤلف بهذه الرواية؛ لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم، وهذه عن طريق المنطوق، ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم. أهـ

قال سليمان آل الشيخ (١): قال شيخ الإسلام:

أخبر النبى ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجود الحلاوة للشىء يتبع المحبة له فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك. واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب أو المشتهى قال : فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح يتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور تكميل هذه المحبة وتفريعها ودفع ضدها. فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فإن محبة الله ورسوله، لايكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله، أحب إليه مما سواهما.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ: ولايكون كذلك، إلا إذا وافق ربه، فيما يحبه وما يكرهه، وقال : وتفريعها أن يحب المرء لايحبه إلا الله.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ: فإن من أحب مخلوقا لله، لا لغرض آخر، كان هذا من تمام حبه لله ، فإن محبة محبوب المحبوب، من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله، وأولياءه، لأجل قيامهم بمحبوبات الله، لالشىء آخر، فقد أحبهم لله لالغيره قال: ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان، كما يكره أن يقذف فى النار.

---

(١) تيسير العزيز الحميد٣٥٤، ٣٥٥

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ : وإنما كره الضد، لما دخل قلبه من محبة الله، فانكشف له بنور المحبة محاسن الإسلام، ورذائل الجهل، والكفران، وهذا هو المحب الذى يكون مع من أحب.

كما فى «الصحيحين» عن أنس قال : قال رجل : يا رسول الله متى الساعة؟ قال : «و ماأعددت لها؟» قال: ما أعددت لهامن كثير صلاة ولاصيام ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ : «أنت مع من أحببت»[1] وفى رواية للبخارى فقلنا: ونحن كذلك، قال : نعم . قال أنس: ففرحنا يومئذ، فرحاً شديداً.[2] أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ[3]:قوله (كما يكره أن يقذف فى النار) .

أى يستوى عنده الأمران وفيه : رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص فى حقه مطلقاً وإن تاب منه.

والصواب : أنه إن لم يتب كان نقصاً وإن تاب فلا ولهذا كان المهاجرون والأنصار أفضل هذه الأمة مع كونهم فى الأصل كفاراً فهداهم الله إلى الإسلام . والإسلام يمحو ما قبله كذلك الهجرة كما صح الحديث بذلك. اهـ

فوائد الحديث:

قال سليمان آل الشيخ[4]: وفي الحديث من الفوائد، أن الله تعالى يحبه المؤمنون، وهو تعالى يحبهم، كما قال : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

وفيه رد ما يظنه بعض الناس، من أنه من ولد على الإسلام؛ أفضل ممن كان كافراً فأسلم، فمن اتصف بهذه الأمور؛ فهو أفضل ممن لم يتصف بهامطلقاً، ولهذا كان السابقون الأولون، أفضل ممن ولد على الإسلام.

وفيه رد على الغلاة، الذى يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص فى حقه مطلقاً، والصواب أنه إن لم يتب كان نقصاً وإن تاب فلا، ولهذا كان المهاجرون والأنصار، أفضل هذه الأمة، وإن كانوا فى أول الأمركفاراً يعبدون الأصنام، بل المنتقل من الضلال إلى الهدى، ومن السيئات إلى الحسنات، يضاعف له الثواب، قاله شيخ الإسلام.

وفيه دليل على عداوة المشركين وبغضهم؛ لأن من أبغض شيئاً أبغض من اتصف به، فإذا كان يكره الكفر كما يكره أن يلقى فى النار، فكذلك يكره من اتصف به. أهـ

●●●

(١) تقدم تخريجه

(٢) ما قبله

(٣) فتح المجيد ٢/٥٦٦،٥٦٧

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٥٦

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِى الله، وَأَبْغَضَ فِى الله، وَوَالَى فِى الله، وَعَادَى فِى الله، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلاَيَةُ الله بِذَلِكَ، وَلَن يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ ـ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ وَصَوْمُهُ ـ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لاَ يُجْدِى عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا»(١) رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ.

● **مناسبة هذا الأثر للباب والتوحيد(٢):**

حيث أفاد الأثر أن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ يرى أن المحبة عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك

وقال ابن عباس رضى الله عنه ـ فى قوله تعالي﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ قال المودة. اهـ وسيأتى الأثر الثانى بعد قريباً.

قوله «من أحب فى الله»

قال ابن عثيمين(٣):

من : شرطية، وفعل الشرط أحب، وجوابه جملة: «**فإنما تنال ولاية الله بذلك**».

و«**فى**»: يحتمل أن تكون للظرفية؛ لأن الأصل فيها الظرفية، ويحتمل أن تكون للسببية؛ لأن «فى» تأتى أحياناً للسببية؛ كما فى قوله ﷺ: «**دخلت امرأة النار فى هرة**»(٤)، أى : بسبب هرة.

وقوله: «**فى الله**».

أى: من أجله، إذا قلنا: إن فى للسببية، وأما إذا قلنا: إنها للظرفية؛ فالمعنى: من أحب فى ذات الله؛ أى : فى دينه وشرعه لا لعرض الدنيا. أهـ

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠/ ٣٣٤٤م/ ح١٨٨٤٨) عن ابن عباس به
وأخرجه الطبرانى فى «الكبير»(١٢/ ٤١٧/ ح١٣٥٣٧) عن ابن عمر موقوفاً.
وأخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٣١٢)
من طريق ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن ابن عمر مرفوعاً
وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/ ٩٠) و قال رواه الطبرانى فى الكبير» وفيه ليث بن أبى سليم والأكثرون على ضعفه .
وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٤) ونسبه لابن أبى شيبة و الحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول» وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٤٠) بتخريجنا)

(٢) الجديد ٢٨٥. (٣) القول المفيد ٢/ ١٩٠ (٤) سبق تخريجه

قال سليمان آل الشيخ[1]:

قوله «من أحب فى الله» أى أحب المسلمين والمؤمنين فى الله . أهـ

قلـت: وتقدم فـى الباب الخـامس عـلاقة شهـادة أن لاإله إلا الله بالحـب فى الله، والبغض فى الله، وتقدم صوره هذه الموالاة والمعاداة فلـينظر فيه مع هذا الموضع تجد فوائد غزيرة والله المستعان.

قوله «وأبغض فى الله».

قال سليمان آل الشيخ[2]:

قوله: (وأبغض فى الله)أى: أبغض الكفار والفاسقين فـى الله لمخالفتهم لربهم وإن كانوا أقرب الناس إليه كما قال تعالى﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾ الآية.

قال ابن عيثمين[3]:

قوله: «وأبغض فى الله»

البغض الكره؛ أى: أبغض فى ذات الله إذا رأى من يعصى الله كرهه.

وفرق بين «فى» التى للسببية و«فى» التى للظرفية؛ فالسببيـة الحامل له على المحبة أو البـغضاء هـو الله، والظرفـية موضع الحـب أو الكراهـة هو فى ذات الله ـ عـزوجل ـ؛ فيبغض من أبغضه الله، ويحب من أحبه.

قوله «ووالى فى الله»

قال سليمان آل الشيخ[4]:

قوله: ووالى فى الله:هذا بيان لـلازم المحبة فى الله وهو الموالاة فيـه إشارة إلى أنه لا يكفى فى ذلـك مجرد الحب، بل لابد مع ذلك من الموالاة الـتى هى لازم الحب، وهى النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً. أهـ

قال ابن عثيمين[5]:

الموالاة: هى المحبة والنصرة وما أشبه ذلك أهـ.

قوله «وعادى فى الله»

قال سليمان آل الشيخ[6]:

قوله: (وعـادى فى الله) هذا بيان لـلازم البغض فى الله وهو المعاداة فـيه أى: إظهار

وذكره السـيوطى فى «الـدر المنثور» (٦/ ٢٧٤) ونـسبه لابن أ بى شـيبة و الحكـيم الترمـذى فى «نوادر الأصول» وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٤٠) بتخريجنا)

(٢) الجديد ٢٨٥. (٣) القول المفيد ٢/ ١٩٠ (٤) سبق تخريجه

العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراء منهم، والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفى مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

فهذا علامة الصدق فى البغض فى الله. أهـ

قال ابن عثيمين(١):

قوله: «**وعادى فى الله**»

المعاداة ضد الموالاة؛ أى : يبتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم فى الله.

قوله :«فإنما تنال ولاية الله بذلك»

قال سليمان آل الشيخ(٢):

قوله : (فإنما تنال ولاية الله بذلك):يجوز فتح الواو وكسرها أى: لايكون العبد من أولياء الله ولاتحصل له ولاية الله إلا بما ذكر من الحب فى الله، والبغض فى الله، والموالاة فى الله والمعاداة فى الله.

كما روى الإمام أحمد والطبرانى عن النبى ﷺ قال: «**لايجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية لله**»(٣).

وفى حديث آخر :«**أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله عز وجل**»(٤) رواه الطبراني وغيره. وينبغى لمن أحب شخصاً فى الله أن يأتيه فى بيته فيخبره أنه يحبه فى الله.

كما روى أحمد والضياء عن أبى ذر مرفوعاً: «**إذا أحبَّ أحدكم صاحبه فيأته فى منزله فليخبره أنَّه يحبه لله**»(٥) وفى حديث ابن عمر عند البيهقى فى «الشعب» «**فإنه يجد مثل الذى يجد له**»(٦).

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٩١ (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٥٧،٣٥٨

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٣٠) قال الهيثمى فى «المجمع»(١/ ٨٩): وفيه رشدين بن سعد وهو منقطع ضعيف - وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٤١) بتخريجنا

(٤) تقدم تخريجه فى مبحث الولاء والبراء وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٤٢) بتخريجنا

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٤٥) وفيه ابن لهيعة

(٦) أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٩٠١٠) عن ابن عمر به

قال ابن عثيمين[1]: قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك».

هذا جواب الشرط؛ أي: يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها؛ لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله.

وقوله «**ولاية**».

يجوز في الواو وجهان: الفتح والكسر، قيل: معناهما واحد، وقيل: بالفتح بمعنى النصرة، قال تعالى ﴿ **من ولايتهم من شيء** ﴾، بالكسر بمعني الولاية على الشيء.

قوله «**بذلك**».

الباء للسببية، والمشار إليه الحب في الله والبغض فيه، والموالاة فيه والمعاداة فيه.

وهذا الأثر موقوف، لكنه بمعنى المرفوع؛ لأن ترتيب الجزاء على العمل لايكون إلا بتوقيف، إلا أن الأثر ضعيف.

فمعنى الحديث: أن الإنسان لايجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك، ولوكثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلاً عن مؤمن أن يوالي أعداء الله، فيرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب، ثم يواليهم ويحبهم؟! فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام الدهر كله؛ فإنه لايمكن أن ينال طعم الإيمان، فلا بد أن يكون قلبك مملوءً بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوءً ببغض أعداء الله ومعاداتهم، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أَتُحِبُّ أعداءَ الحبيبِ وتَدَّعي ... حُباً له مَا ذاكَ فِي إِمْكَانِ

قلت: ولعل الشيخ ابن عثيمين: استفاد من كلام الشيخ سليمان الآتي بعده.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا رأيتُ النصراني أغمض عيني؛ كراهة أن أرى بعيني عدو الله».

هذا الذي يجد طعم الإيمان، أما - والعياذ بالله - الذي يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضي ومقبول عند الله بعد بعثة النبي ﷺ؛ فهو خارج عن الإسلام، مكذب بقول الله: ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾[2] وقوله: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ**﴾[3] وقوله﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[4] ولكثرة

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٩١، ١٩٢.
(٢) المائدة: ٣
(٢) آل عمران: ١٩
(٤) آل عمران: ٨٥

اليهود والنصارى والوثنيين صار في هذه المسألة خطر على المجتمع، وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر، ولايدرى أن غير المسلم عدو لله - عزوجل - ، بل هو عدو له أيضاً؛ لقوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾(١)؛ فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصداقة، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾(٢).

فالآن أصبحنا في محنة وخطر عظيم؛ لأنه يخشى على أبنائنا وأبناء قومنا أن يركنوا إلى هؤلاء ويوادوهم يحبوهم، ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم؛ فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لاأدع إلا مسلماً**»(٣)، وقال: «**أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»(٤)،وقال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»(٥)، وهذا كله من أجل أن لايشتبه الأمر على الناس ويختلط أولياء الله بأعدائه». أهـ

قوله : «ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك»

قال سليمان آل الشيخ(٦):

قوله :(ولن يجد عبد طعم الإيمان) إلى آخره، أى: لايجد عبد طعم الإيمان **وإن كثرت صلاته وصومه** حتى يحب في الله، ويبغض في الله، ويعادى في الله، ويوالى في الله، وهذا منتزع من حديث أنس السابق.

وفي حديث أبي أمامة مرفوعاً «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»(٧) رواه أبو داود. والعجب ممن يدعى محبة الله وهو على خلاف ذلك، وما أحسن ما قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حباً له ماذاك في إمكان

(١) الممتحنة: ١ (٢) المائدة: ٥١

(٣) [صحيح] أخرجه : مسلم في الجهاد (٦/ ٣٣٥/ ٦٣) عمر بن الخطاب عن به .

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٥٣)، ومسلم في الوصية (٦/ ١٠٠/ ٢٠) والحديث الذى بعده بلفظ الحديث

(٥) ما قبله (٦) تيسير العزيز الحميد ٣٥٨

(٧) أبو داود (٤٦٨١) عن ابى أمامة به وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٤٣) بتخريجنا)

قولـه «وقد صارت عامة مؤاخاة النـاس على أمر الـدنيا وذلك لايـجدى على أهـله شيئاً».

قال سليمان آل الشيخ(١):

أى :المؤاخاة على أمر الدنيا لايجدى على أهله شيئاً أي: لاينفعهم أصلا بل يضرهم كما قال تعالى ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾فهذا حال كل خلة ومحبة كانت فى الـدنيا على غير طـاعةالله فإنها تعـود عداوة وندامة يوم القيـامة بخلاف المحبة والخلة على طاعة الله فإنها من أعظم القربات كما جاء فى:

حديث السبعة الذين يظلهم الله فى ظُله يوم لاظل إلا ظله قال: «**ورجلان تحاباً فى الله اجتمعاً عليه وتفرقاً عليه**». (٢) اهـ

قال ابن عثيمين(٣):

قوله: «وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لايجدى على أهله شيئاً»

قوله «عامة»

أى: أغلبية.

وقوله: «مؤاخاة الناس».

أى: مودتهم ومصاحبتهم.

أى: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمـر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس، وهوبعيد العهد منا قريب العهد من النبوة، فإذا كان الـناس قد تغيروا فى زمنه؛ فما بالك بالناس اليوم؟

فقد صارت مـؤاخاة الناس ـ إلا النادر ـ علـى أمر الدنيا، بل صار أعـظم من ذلك، يبيعون دينهم بدنياهم، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾(٤)،ولما كان غالب مـايحمل على الخيانة هو المـال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾(٥). اهـ

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٧٩)، ومسلم فى الزكاة (٧/ ١٢٠ ـالنووي) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٧ ـ بتخريجنا).

(٣) القول المفيد ٢/ ١٩٣ـ١٩٥ (٤) الأنفال :٢٧

(٥) الأنفال : ٢٨

قلت: ومن صور الموالاة على أمر الدنيا أن يحب الرجل لأنه سيزوجه قريبه أو غريبه وإن كان هذا الرجل شيخاً أو عالماً يحب لعلمه أو دعوته أو يحبه لأنه يبحث له عن عمل أو سيعطيه مالا ولو على سبيل القرض أو المصلحة من مصالح الدنيا لا الدين مثل وجاهته ورياسته فى الدنيا أو وظيفته.

فوائد الأثر

قال ابن عثيمين ويستفاد من أثر ابن عباس رضى الله عنهما:

أن لله تعالى أولياء، وهوثابت بنص القرآن، قال تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢)، فلله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهويتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٣).

قال شيخ الإسلام: «من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً»، والولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة.

والولاية تنقسم إلى: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله؛ فمن الأولى قوله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٤)، ومن الثانية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾(٥).

والولاية التى من الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة؛ فالولاية العامة هى الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق؛ فالله هو الذى يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾(٦).

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة

---

(١) البقرة: ٢٥٧

(٢) المائدة: ٥٥

(٣) يونس: ٦٢

(٤) البقرة: ٢٥٧

(٥) المائدة: ٥٦

(٦) الأنعام: ٦٢

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾(١) قَالَ: (المَوَدَّةُ)(٢).

بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾(٣). وقال ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٤).

قال ابن باز (٥):

بل قد يضرهم إذا صدهم عن الحق وخالف شرع الله أما إذا اشتغلوا بالدنيا فى البيع والشراء وطلب الرزق وكان لايضر إيمانهم ولا يوقعهم فى المعاصى ويستعينون بذلك على طاعة الله فهذا لاحرج فيه. أهـ

●●●

قوله: [وقال ابن عباس فى قوله تعالى.......]

قال سليمان آل الشيخ(٦): هذا الأثر رواه عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه. أهـ

● مناسبة تفسير ابن عباس للباب والتوحيد:

قال القرعاوى (٧): حيث أفاد تفسير ابن عباس للآية أن المودة إذا لم تكن لله سيخسرها صاحبها يوم القيامة لأنها إشراك مع الله فى المحبة. أهـ

قوله: «وقال ابن عبّاس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ قال «المودة».

قلت: الأثر أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» وابن أبى حاتم فى «تفسيره»، والحاكم فى «المستدرك» وصححه.

---

(١) البقرة: ١٦٦.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/ ٤٣)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١/ ٢٧٨/ ح١٤٩٢)، والحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٢٧٢).

عن طريق أبى عاصم عن عيسى قال أخبرنى قيس بن سعد عن عطاء عن ابن عباس... فذكره.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (١/ ٣٠٤) ونسبه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه.

وانظر ابن أبى حاتم بتخريجنا و«فتح القدير» (ح١١٣٧) و«فتح المجيد» (ح٦٤٦) بتخريجنا

(٣) البقرة: ٢٥٧ (٤) يونس: ٦٢ (٥) التعليق المفيد ١٧٥.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٦٠. (٧) الجديد ٢٨٢.

قال ابن عثمين(١):

يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

الأسباب: جمع سَبَبَ، وهو كل ما يتُوصَّل به إلى شيء.

وفى اصطلاح الأصوليين: مايلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم؛ فكل ما يوصل إلى شيء، فهو سبب، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾، ومنه سُمِّي الحبل سبباً؛ لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر. اهـ

قلت وتقدم فى باب بيان أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم الغلو فى الصالحين.

قوله: «المودّة».

قال سليمان آل الشيخ(٢):

المودة: أي: المحبة التى كانت بينهم فى الدنيا تقطعت بهم وخانتهم أحوج ما كانوا إليها وتبرأ بعضهم من بعض. كما قال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: أنه قال لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ وهذه الآية وإن كانت نزلت فى المشركين عباد الأوثان الذين يحبون أندادهم وأوثانهم كحب الله، فإنها عامة لأن الإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولهذا قال قتادة: وتقطعت بهم الأسباب قال: أسباب الندامة يوم القيامة والأسباب المواصلة التى يتواصلون بها ويتحابون بها فصارت عداوة يوم القيامة، يلعن بعضهم بعضاً. رواه عبد بن حميد وابن جرير فهذا حال من كانت مودته لغير الله فاحذر من ذلك. اهـ

قال ابن عثيمين(٣):

هذا الأثر ضعفه بعضهم، لكن معناه صحيح؛ فإن جميع الأسباب التى يتعلق بها المشركون لتنجيهم تتقطع بهم، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها؛ فإنها

(١) القول المفيد ٢/١٩٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٠.

(٣) القول المفيد ٢/١٩٦و ١٩٧.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (البَقَرةِ).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءةٌ).

الثالثة: وُجُوبُ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَى النَّفْسِ وَالأَهْلِ وَالمَالِ.

لاتنفعهم، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما أخذ ذلك من سياق الآيات؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...﴾، ثم قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

وبه تعرف أن مراده المودة الشركية، فأما المودة الإيمانية كمودة الله تعالى ومودة ما يحبه من الأعمال والأشخاص؛ فإنها نافعة موصلة للمراد، قال الله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ...﴾ الآية.

●●●

قال ابن عثيمين(١):

قوله: فيه مسائل:

● **الأولى: تفسير آية البقرة.**

وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وسبق ذلك.

● **الثانية: تفسير آية براءة.**

وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

● **الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.**

وفي نسخة: «**وتقديمها على النفس والأهل والمال**».

ولعل الصواب: وجوب تقديم محبته كما هو مقتضى الحديث، وأيضاً قوله: «**على النفس**» يدل على أنها قد سقطت كلمة تقديم أو وتقديمها، وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

---

(٤) القول المفيد٢/ ١٩٧و١٩٩.

الرابعة: أَنَّ نَفى الإِيمَانِ لاَ يَدُلَّ عَلَى الخُرُوجِ مِنَ الإِسْلاَمِ.

الخَامسة: أَنَّ للإِيمَانِ حَلاَوَةٌ قَدْ يَجِدهَا الإِنْسَانُ وَقَدْ لا يَجِدهَا.

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فذكر الأقارب والأموال.

● **الرابعة: أن نفى الإيمان لايدل على الخروج من الإسلام.**

سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا فى ذلك حديث عمر رضى الله عنه لما قال للرسول ﷺ: **«والله إنك لأحب إليَّ من كل شئ إلا من نفسي. فقال له ومن نفسك. فقال: الآن، أنت أحب إليَّ من نفسي»**، وقوله: **«الآن»** يدل على حدوث هذه المحبة، وهذا أمر ظاهر، وفيه أيضاً أن نفى الإيمان المذكور فى قوله: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده...»** لايدل على الخروج من الإسلام؛ لقوله فى الحديث الآخر: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»**؛ لأن حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله؛ أي: إن الدليل مركب من الدليلين.

ونفى الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفى للوجود، وذلك مثل: **«لا إيمان لعابد صنم»**، فإن منع مانع من نفى الوجود؛ فهو نفى للصحة، مثل: **«لا صلاة بغير وضوء»**(١)، فإن منع مانع من نفى الصحة؛ فهو نفى للكمال، مثل: **«لا صلاة بحضرة طعام»**(٢)؛ فقوله: **«لا يؤمن أحدكم»** نفى لكمال الواجب لا المستحب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا ينفى الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع».

● **الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لايجدها.**

تؤخذ من قوله: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»**، وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٣/ ١٠٢ ـ النووي) عن ابن عمر به.
وانظر «منار السبيل» (١٤٨ ـ بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد (٥/ ٤٦/ ٥٦٠) عن عائشة به
وانظر «رياض الصالحين» (١٧٥٦ بتخريجنا)

السادسة: أَعْمَالُ القَلْبِ الأَرْبَعِ الَّتِى لاَ تُـنَالُ وِلاَيَةُ الله إلاَّ بِهَا، ولاَ يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ إلاَّ بِهَا.

السابعة: فَهْمُ الصَّحَابِيِّ لِلوَاقِعِ، أَنَّ عَامَّةَ المُؤَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

الثامنة: تَفْسِيرُ ﴿تقطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ مَنْ يحبُّ الله حُبًّا شَدِيدًا.

● **السادسة: أعمال القلب الأربعة التى لاتنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.**

وهي: الحب فى الله، والبغض فى الله، والولاء فى الله، والعداء فى الله.

لاتنال ولاية الله إلا بها، فلو صلى الإنسان وصام ووالى أعداء الله؛ فإنه لاينال ولاية الله، قال ابن القيم:

أَتُحِبُّ أعداءَ الحبيبِ وتَدَّعى ... حُباً له مَا ذاكَ فى إِمْكَانِ

وهذا لايقبله حتى الصبيان أن توالى من عاداهم.

وقوله: «**ولايجد أحد طعم الإيمان إلا بها**» مأخوذة من قول ابن عباس: «**ولن يجد عبد طعم الإيمان...**» إلخ.

● **السابعة: فهم الصحابى للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.**

الصحابى يعنى به ابن عباس رضى الله عنهما، وقوله: «**إن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا**»، هذا فى زمنه؛ فكيف بزمننا؟!اهـ

قلت: وفيه أن دراسة الواقع لفهمه أمر سلفى وليس بدعى وأنه لابد منه مع العلم الشرعى للضمان من الزلل فى الفتوى أو الحكم بوجه عام وعلى الناس بوجه خاص فإذا كان معه العلم الشرعى مع فهمه للواقع الذى يسقط عليه هذا العلم أصاب وإلا أخطأ والله أعلم.

● **الثامنة: تفسير قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.**

فسرها بالمودة، وتفسير الصحابى إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثال؛ لأن العبرة فى نصوص الكتاب والسنة بعموماتها، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم؛ فإنما يقصد ه التمثيل، أي: مثل المودة، لكن حتى الأسباب الأخرى التى يتقربون بها إلى الله وليست بصحيحة؛ فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيراً.

العاشرة: الوَعيدُ علَى مَنْ كَانَ الثمَانيَةَ أَحَبَّ إِلَيْه منْ دينه.

الحادية عَشرة: أَنَّ مَنِ اتَّخذَ نداًّ تَسوَى مَحبتَهُ مَحبَّةَ الله، فَهُوَ الشرْكُ الأَكْبَرُ.

[قلت]: وهذا مؤدى قول شيخ الإسلام فى «مقدمة التفسير» حيث قال فى اختلاف التنوع أنه نوعان الثانى أن يذكر كل واحد من المختلفين من الأسم العام بعض أفراده على سبيل التمثيل لاسبيل ذكر الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه

● **التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.**

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾، وهم يحبون الأصنام حباً شديداً، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا**﴾؛ فأشد: اسم تفضيل يدل على الاشتراك بالمعنى مع الزيادة؛ فقد اشتركوا فى شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حباً من هؤلاء لأصنامهم. اهـ

[قلت]: ومع حبهم الشديد لله لم ينفعهم ذلك لما أشركوا معه غيره فى هذه المحبة فما الظن بمن أحب الله حباً قليلاً بل بمن لم يحب الله أصلاً؟! بل ما الظن بمن يبغض الله ويعاديه؟!

● **العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه.**

الثمانية هى المذكورة فى قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾.

والوعيد فى قوله: ﴿**فَتَرَبَّصُوا**﴾؛ فأفاد المؤلف ـ رحمه الله ـ تعالى أن الأمر هنا للوعيد.

● **الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.**

لقوله تعالى: ﴿**يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾، ثم بَيَّنَ فى سياق الآيات أنهم مشركون شركاً أكبر، بدليل ما لهم من العذاب. أهـ

[قلت]: فمن باب أولى من أحب الشركاء أكثر من الله أو من لم يحب الله أو عاداه أشرك شرك أكبر والله أعلم.

● ● ●

باب (٣١)

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

ـ مناسبة الباب لما قبله:

قال ابن عثيمين [٢].

● مناسبة الباب لما قبله: أن المؤلف ـ رحمه الله ـ أعقب باب المحبة بباب الخوف؛ لأن العبادة ترتكز على شيئين: المحبة، والخوف.

فبالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهى، وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله، ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس.

فلو سألت من لا يزنى لماذا؛ لقال: خوفاً من الله.

ولو سألت الذى يصلى؛ لقال: طمعاً فى ثواب الله ومحبة له.

وكل منهما ملازم للآخر؛ فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمته. اهـ.

مناسبة الباب للتوحيد

قال ناصر السعدى[٣]: هذا الباب عقده المصنف ـ رحمه الله ـ لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده والنهى عن تعلقه بالمخلوقين وبيان أنه لايتم التوحيد إلا بذلك أهـ.

قال ابن عثيمين [٤]: ومناسبة الخوف للتوحيد أن من أقسام الخوف ما يكون شركاً منافياً للتوحيد . اهـ.

ـ ماذا أراد المصنف بهذا الباب

قال ابن باز [٥]: أراد المؤلف أن يبين وجوب خوف الله تعالى خوفاً يحمله على الإخلاص له وأداء ما فرض عليه والوقوف عند حدوده. أهـ

---

(١) آل عمران ١٧٥.

(٢) القول المفيد ٢/٢٠٢.

(٣) القول السديد /٨٩.

(٤) القول المفيد ٢/٢٠٦.

(٥) التعليق المفيد (١٧٧).

بيان منزلة الخوف وأنه من أعظم مقامات الدين

قال سليمان آل الشيخ (١): الخوف من أفضل مقامات الدِّين وأجلها فلذلك قال المصنف علىٰ وجوب إخلاصه لله تعالى وقد ذكره الله تعالى في كتابه عن سادات المقربين من الملائكة والأولياء والصالحين قال الله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾(٢)

وقال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾(٣)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾(٥) وأمر بإخلاصه له فقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(٦)

وقال تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾(٧)

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾(٨).

- هل الأفضلُ للإنسان أن يغلِّب جانب الخوف أو يُغلِّب جانب الرجاء؟

قال ابن عثيمين (٩): وهل الأفضل للإنسان أن يُغلِّب جانب الخوف أو يُغلِّب جانب الرجاء؟

اختلف في ذلك:

فقيل: ينبغي أن يغلب جانب الخوف؛ ليحمله ذلك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة.

وقيل: يغلب جانب الرجاء؛ ليكون متفائلاً، والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل.

وقيل: في فعل الطاعة: يغلب جانب الرجاء؛ فالذي منّ عليه بفعل هذه الطاعة سيمن عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء؛ فانتظر الإجابة لأن

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٦١)
(٢) الأنبياء :٢٨
(٣) النحل الآية: ٥٠.
(٤) المؤمنون: الآية ٥٧.
(٥) الأحزاب: الآية ٩٠
(٦) البقرة الآية: ٤٠
(٧) المائدة الآية: ٤٤
(٨) النحل الآية: ٥٢
(٩) القول المفيد ٢/ ٢٠٢- ٢٠٤

الله يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(1)، وفى فعل المعصية يغلب جانب الخوف؛ لأجل أن يمنعه منها ثم إذا خاف من العقوبة تاب.

وهذا أقرب شىء، ولكن ليس بذاك القرب الكامل؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾(2)؛ أى: يخافون أن لا يقبل منهم، لكن قد يقال بأن هذه الآية يعارضها أحاديث أخرى؛ كقوله ﷺ فى الحديث القدسى عن ربه: «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى»(3).

وقيل: فى حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفى حال الصحة يغلب جانب الخوف؛ فهذه أربعة أقوال.

وقال الإمام أحمد: ينبغى أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً؛ فأيها غلب هلك صاحبه؛ أى: يجعلهما كجناحى الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط. أهـ

وخوف الله تعالى درجات؛ فمن الناس من يغلو فى خوفه، ومنهم من يفرّط، ومنهم من يعتدل فى خوفه.

والخوف العدل هو الذى يَرُدّ عن محارم الله فقط، وإن زدت على هذا؛ فإنه يوصلك إلى اليأس من روْحْ الله.

ومن الناس من يفرط فى خوفه بحيث لا يردعه عما نهى الله عنه. أهـ

أقسام الخوف ودرجاته

قال الفقير:

والخوف فى الأصل ينقسم إلى قسمين:

أ- خوف السر، أو خوف العباد والتذلل والتعظيم والخضوع.

ب - الخوف الطبيعى.

فمن قسمه إلى أربعة أقسام كصاحب «التيسير» وعبدالله بن جار الله والقرعاوى فإنما ذلك باعتبار تقسيم كل قسم إلى قسمين، فخوف السر : ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول : الخوف من الله، أومن وعيده، وهو التأله والتعبد له، وهو من أعظم الواجبات الإيمانية.

---

(1) غافر الآية: 60.		(2) المؤمنون الآية: 60.

(3) تقدم تخريجه

القسم الثانى: إن كان لغير الله كالوثن أو الطاغوت أو غائباً فهو الشرك.

والخوف الطبيعى ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إن كان يحمل على ترك و اجب، كالجهاد، والأمر بالمعروف، وغير ذلك، فهو محرم.

القسم الثانى: إن كان لايحمل على ذلك فهو مباح، وإن كاوهماً فينبغى أن يدفعه المؤمن.

ومن قسمه إلى ثلاثة أقسام فقط كابن باز، فإنما ذلك باعتبار تقسيمه لقسم دون الآخر.

وإليك بيان ذلك:

قال سليمان آل الشيخ [(١)]: وهو - أى الخوف - على ثلاثة أقسام:-

أحدها: خوف السر وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك؛ بقدرته ومشيئته سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة أو على سبيل الإستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلاً لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله نداً يخافه هذا الخوف فهو مشرك. وهذا هو الذى كان المشركون يعتقدونه فى أصنامهم وآلهتهم ولهذا يخوفون بها أولياء الرحمن كما خوفوا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال لهم: ﴿**وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** *﴾[(٢)] وقال تعالى عن قوم هود إنهم قالوا له: ﴿**إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ**﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾[(٤)] وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت كما يخافون الله بل أشد.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٦١) ٥٢.

(٢) الأنعام الآية: ١٨.

(٣) هود الآية: ٥٤/٥٥.

(٤) الزمر الآية: ٣٦.

ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الإيمان كاذباً أو صادقاً فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون فى التراب أخوف عنده من الله ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين بل جهد أيمانهم اليمين بالله تعالى، وكذلك لو أصاب أحداً منهم ظلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين فى التراب. وإذا أراد أن يظلم أحداً فاستعاذ بالله أو ببيته لم يعذه، ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتربته لم يقدم عليه أحداً ولم يتعرض له بالأذى حتى أن بعض الناس أخذ من التجار أموالاً عظمية أيام موسم الحاج، ثم بعد أيام أظهر الإفلاس فقام عليه أهل الأموال، فالتجأ إلى قبر فى جدة يقال له المظلوم فما تعرض له أحد بمكروه خوفاً من سر المظلوم وأشباه هذا من الكفر، وهذا الخوف لا يكون العبد مسلماً إلا بإخلاصه لله تعالى وإفراده بذلك دون من سواه.

الثانى: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بغير عذر إلا لخوف من الناس فهذا محرم وهو الذى نزلت فيه الآية المترجم لها وهو الذى جاء فيه: الحديث: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ لاَ تُغَيِّرَهُ؟ فَيَقُولُ: يَارَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ فَيَقُولُ: إِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى**»(*) رواه أحمد

الثالث: خوف وعيد الله الذى توعد به العصاة وهو الذى قال الله فيه: ﴿**ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ**﴾ (١) وقال: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿**قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ**﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿**وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾(٤) وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان، ونسبة الأول إليه كنسبة الإسلام إلى الإحسان وإنما يكون محموداً إذا لم يوقع فى القنوط واليأس من روح الله، ولهذا قال شيخ الإسلام: هذا الخوف ما حجزك عن معاصى الله فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه.

(*) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٢٧)، وابن ماجه (٤٠٠٨) عن أبى سعيد به.
وانظر «فتح المجيد» (ح٦٤٧) بتخريجنا.

(١) إبراهيم الآية: ١٤ (٢) الرحمن الآية: ٤٦

(٣) الطور الآية: ٢٦ (٤) الإنسان الآية: ٧

بقى قسم رابع: وهو الخوف الطبيعي كالخوف من عدو وسبع وهدم وغرق ونحو ذلك، فهذا لا يذم وهو الذى ذكره الله عن موسى عليه الصلاة والسلام فى قوله: ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾(١) إذا تبين هذا فمعنى قوله تعالى ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ أى يخوف أولياءه ويوهمكم أنهم ذو بأس وشدة أهـ.

وتابعه على ذلك عبدالرحمن آل الشيخ(٢).

قال حامد بن محمد بن حسن(٣): واعلم أن الخوف خوفان:

الأول: خوف من الله وهذا الذى هو أحد جناحى طير الإيمان فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه. وهذا هو المأمور به وهو علامة الإيمان كما قال تعالى ﴿**وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ (٤).

والثانى: خوف مع الله بمعنى أنك تخاف من غيره مثل خوفه أوأشد كما ذكر الله فى شأن المنافقين إنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وهذا الخوف الشركى المنهى عنه الذى صاحبه يخلد فى النار ولا يكون هذا إلا لعدم إيمانه بالله وعظمته وجلاله وقهريته وملكوتيته على جميع الخلق وقد ذم الله الذين جعلوا فتنه الناس كعذاب الله فى قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**﴾(٥) ومعلوم بالضرورة أنه إذا لاحظ ما يجرى عليه من محن الناس وفتنتهم عند نطقه بالحق وجعله كعذاب الله سواء حينئذٍ أرضاهم بسخط الله فيسخط عليه الله ويسخط عليه الناس. أهـ

قال ناصر السعدى(٦): ولابد فى هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الإشتباه اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة وتارة يقع طبيعة وعادة وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته.

«فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سرى يزجر عن معصية من يخافه؛ كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله؛ لأنه

---

(١) القصص الآية: ٢١.

(٢) فتح المجيد (٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤)

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٣٥٣.

(٤) آل عمران الآية ١٧٥.

(٥) العنكبوت الآية: ١٠

(٦) القول السديد ٩٠و٩١.

أشرك فى هذه العبادة التى هى من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد على خوفه من غير الله على خوفه من الله».

وأيضا فمن خشى الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد ومن خشى غيره فقد جعل لله ندًا فى المحبه وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروهاً أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك مما هو واقع من عباد القبور وإن كان الخوف طبيعياً كمن يخشى من عدو أوسبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهرى فهذا النوع ليس عبادة وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولاينافى الإيمان.

وهذا إذا كان خوفا محققاً قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم وإن كان هذا خوفا وهمياً كالخوف الذى ليس له سبب أصلاً أوله سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه فى وصف الجبناء وقد تعوذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع حتى أن خواص المؤمنين وأقويائهم تنقلب المخاوف فى حقهم أمناًو طمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم القلبية وكمال توكلهم ولهذا أتبعه بهذا الباب. أهـ

قال عبدالله بن جار الله(١): وهو أربعة أنواع:

١ـ خوف الله تألهاً وتعبداً له وتقرباً إليه، وهو من أعظم واجبات الإيمان.

٢ـ خوف السر، وهو أن يخاف الإنسان من غير الله من وثن أو طاغوت أو ميت أو غائب أن يصيبه بما يكره، وهذا شرك أكبر ينافى التوحيد.

٣ـ أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافى لكمال التوحيد.

٤ـ الخوف الطبيعى، وهو الخوف من عدو أو سبع ونحو ذلك مما يخشى ضرره، فهذا جائز ولايذم فاعله. أهـ.

قال ابن باز(٢): الخوف ثلاثة أقسام:

الأول: الخوف من الله: وهو أعظمها وأوجبها، ويجب فيه الإخلاص، وصرفه لغيره شرك، شرك إن خاف منها أن تصيبه بمكروه.

الثاني: خوف يحمل على فعل معصية الله وترك الواجب وهو الخوف من المخلوق

---

(١) الجامع الفريد (١٣١)

(٢) التعليق المفيد (١٧٧، ١٧٨).

وهو معصية وفيه نزل قوله تعالى: ﴿فلا تخافوهم وخافون﴾ ويحمله على ترك الجهاد، والواجب أن لا يخاف الإنسان من المخلوق إلا خوفاً يحمله على ما شرعه الله، وأباحه ولايحمله على المعاصى، فالخوف من المخلوق فى الأشياء الحسية والطبيعة جائز لابأس به، فهو فطرى، ويشرع الحذرمن مقتضاه كالخوف من اللص فيغلق بابه أو يخاف من سبع فيحمل السلاح أو المرض أو نحوها.

والترجمة فى النوع الثانى، وهو الذى حدث فى أحد من بث الشيطان الخوف فى قلوب المؤمنين من الكافرين، والتثبيط عن الجهاد، فنهاهم الله وأمرهم بالثبات، فنفر إليهم النبى ﷺ بعد أحد ولم يحصل قتال.

الثالث: الخوف الطبيعى من اللص والسبع والمرض ونحوه .أهـ

والخوف أقسام:

والأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع، وهو ما يسمى بخوف السر.

وهذا لا يصلح إلا لله ـ سبحانه ـ، فمن أشرك فيه مع الله غيره؛ فهو مشرك شركاً أكبر، وذلك مثل: من يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم؛ كما يفعله بعض عُبَّاد القبور: يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله.

الثانى: الخوف الطبيعى والجِبِلِّى؛ فهذا فى الأصل مباح؛ لقوله تعالى عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (١)، وقوله عنه أيضا: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾(٢)، لكن إن حمل على ترك واجب أو فعل محرم؛ فهو محرم، وإن استلزم شيئاً مباحاً كان مباحاً، فمثلاً من خاف من شيء لا يؤثر عليه وحمله هذا الخوف على ترك صلاة الجماعة مع وجوبها؛ فهذا الخوف محرم، والواجب عليه أن لا يتأثر به.

وإن هدده إنسان على فعل محرم، فخافه وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به؛ فهذا خوف محرم لأنه يؤدى إلى فعل محرم بلا عذر، وإن رأى ناراً ثم هرب منها ونجا بنفسه؛ فهذا خوف مباح، وقد يكون واجباً إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه.

وهناك ما يسمى بالوهم وليس بخوف، مثل أن يرى ظل شجرة تهتز، فيظن أن هذا عدو يتهدده؛ فهذا لا ينبغى للمؤمن أن يكون كذلك، بل يطارد هذه الأوهام لأنه لا حقيقة لها، وإذا لم تطاردها؛ فإنها تهلكك. اهـ.

(١) القصص الآية: ٢١.

(٢) القصص الآية: ٣٣.

قال القرعاوى[1]: للخوف أربعة أقسام.

أولاً: خوف السر : وهو أن يخاف من غـير الله أن يصيبه بما شاء مـن مرض أو فقر ونحو ذلك بـقدرته ومشيئتـه، سوءاً أدعى أن ذلك كرامة للـمخلوق بالشفـاعة أو على سبيل الاستقلال فهذا الخوف لايجوز لأنه شرك أكبر.

ثانياً: الخوف من المخلوق : المؤدى إلى فعل محرم أو ترك واجب فهذا حرام.

ثالثاً: خوف وعيد الله : الذى وعد به العصاة، وهذا الخوف من أعلى امراتب الإيمان

رابعاً : الخوف الطبيعى : كخوف الإنسان من السبع ونحوه، وهذا جائز. أهـ

قوله: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَه﴾ الآية

ـ مناسبة الآية للباب

قال القرعاوى[2]: حيث دلت الآية على وجوب إخلاص الخوف لله تعالى. اهـ.

ـ مناسبة الآية للتوحيد:

قال عبدالله بن جار الله[3]: أنها دلت على وجوب إفراد الـله بالخوف لأنه عبادة فصرفه لغير الله شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال القرعاوى[4]: حيـث دلت الآية علـى وجوب إخلاص الخـوف لله لذا يـكون الخوف نوعاً من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

قوله: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَه﴾.

الإعراب:

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَه﴾ كلام مستأنف مسوق لبـيان القائل وإنما كافة ومكفوفة وذلكـم مبتدأ والشيطان مبتدأ ثان وجـملة يخوف خبر الشيطان والمـبتدأ الثانى وخبره خبر اسم الاشارة ويـجوز أن نعرب ذلكم مبتدأ والشيطان بـدلا من ذلكم وجملة

(١) الجديد / ٢٨٧.

(٢) الجديد / ٢٨٧

(٣) الجامع الفريد ١٣٠.

(٤) الجديد ٢٨٧.

يخوف خبر ذلكم ويجوز أيضاً أن نعرب ذلكم مبتدأ والشيطان خبره وجملة يخوف أولياءه مستأنفة أو حالاً. اهـ. [١].

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار

أخرج ابن جرير[٢] بسنده :ـ

وعن ابن عباس ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ يقول الشيطان يخوف المؤمنين بأوليائه[٣].

وعن عطاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه** ﴾[٤].

عن قتادة قوله : ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ يخوف والله المؤمن بالكافر ويرهب المؤمن بالكافر[٥].ـ

قال مجاهد: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ قال يخوف المؤمنين بالكفار[٦].

وعن ابن إسحق ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ أى أولئك الرهط يعنى النفر من عبدالقيس الذين قالوا لرسول الله ﷺ ما قالوا وما ألقى الشيطان على أفواههم يخوف أولياءه أى يرهبكم باوليائه [٧].

وعن سالم ألأقطس فى قوله: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ قال يخوفكم بأوليائه [٨] عن السدى قال ذكر أمر المشركين وعظمهم فى أعين المنافقين فقال: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ يعظم أولياءه فى صدور كم فتخافونهم[٩].

عن أبى مالك ﴿ **يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ قال: يعظم أولياءه فى أعينكم[١٠].

---

(١) إعراب القرآن ٢/ ١١٢.
(٢) «تفسير ابن جرير» (٤/ ١٢٢).
(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق من طريق العوفى عنه.
(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٨٢) ونسبه للفريابى، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وابن الأنبارى فى «المصاحف».
(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٨٢) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.
(٧) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(٨) المصدر السابق.
(٩) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(١٠) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٨٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم. وانظر الأخير بتخريجنا.

عن عكرمة فى الآية قال: تفسيرها يخوّفكم بأوليائه[١].

عن إبراهيم فى الآية قال: يخوّف الناس أولياءه [٢].

عن الحسن فى الآية قال: إنما كان ذلك تخويف الشيطان، ولا يخاف الشيطان إلا ولى الشيطان[٣].

● **ما جاء من أقوال المفسرين فى تفسير الآية:**

قال الطبرى[٤]: فإن قال قائل: وكيف قيل يخوف أولياءه وهل يخوف الشيطان أولياءه قيل: إن كان معناه يخوفكم بأوليائه يخوف أولياءه قيل: ذلك نظير قوله: ﴿**لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا**﴾ بمعنى: لينذركم بأسه الشديد وذلك أن البأس لاينذر وإنما ينذر به وقد كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول معنى ذلك يخوف الناس أولياءه كقول القائل هو يعطى الدراهم ويكسو الثياب بمعنى هو يعطى الناس الدراهم ويكسوهم الثياب فحذف ذلك للإستغناء عنه وليس الذى شبه ذلك بمشبه لأن الدراهم فى قول القائل هو يعطى الدراهم معلوم أن المعطى هى الدراهم وليس كذلك الأولياء فى قوله يخوف أوليائه مخوفين بل التخويف من الأولياء لغيرهم فلذلك افترقا. اهـ.

قال البغوى [٥]:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾. يعنى ذلك الذى قال لكم ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**﴾ من فعل الشيطان ألقى فى أفواههم لترهبوهم وتجبنوا عنهم. اهـ

قال ابن الجوزى [٦] :

قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾ قال الزجاج: معناه: ذلك التخويف كان فعل الشيطان، سوّله للمخوفين. اهـ.

وقال أيضاً [٧]: والذى نختاره فى الآية: أن المعنى: يخوفكم أولياءه. تقول العرب: قد أعطيت الأموال، يريدون: أعطيت القوم الأموال، فيحذفون القوم، ويقتصرون على

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٤) تفسير الطبرى ٣/ ٤/ ١٢٢.

(٥) معالم التنزيل(١/ ٥٨٨).

(٦) زاد المسير ١/ ٤٠٣.

(٧) زاد المسير ١/ ٤٠٤

ذكر المفعول الثانى. فهذا أشبه من ادعاء «باء» ما عليها دليل، ولا تدعوا إليها ضرورة. اهـ.

قال الرازى (١): اعلم أن قوله ﴿الشَّيْطَانُ﴾ خبر ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ بمعنى: إنما ذلكم المثبط هو الشيطان و﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ جملة مستأنفة بيان لتثبيطه، أو ﴿الشَّيْطَانُ﴾ صفة لإسم الإشارة و﴿يُخَوِّفُ﴾ الخبر، والمراد بالشيطان الركب، وقيل: نعيم بن مسعود، وسمى شيطاناً لعتوه وتمرده فى الكفر، كقوله (شياطين الإنس والجن) وقيل هو الشيطان يخوف بالوسوسة.

أما قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ ففيه سؤال: وهو أن الذين سماهم الله بالشيطان إنما خوفوا المؤمنين، فما معنى قوله ﴿ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ والمفسرون ذكروا فيه ثلاثة أوجه: **الأول** تقدير الكلام: ذلكم الشيطان يخوفكم بأوليائه فحذف المفعول الثانى وحذف الجار، ومثال حذف المفعول الثانى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أى فاذا خفت عليه فرعون، ومثال حذف الجار قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً﴾ معناه: لينذركم ببأس وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أى لينذركم بيوم التلاق وهذا قول الفراء، والزجاج، وأبى على. قالوا: ويدل عليه قراءة أبى بن كعب (يخوفكم بأوليائه).

القول الثانى: أن هذا على قول القائل: خوفت زيدا عمرا، وتقدير الآية: يخوفكم أولياءه، فحذف المفعول الأول، كما تقول: أعطيت الأموال، أى أعطيت القوم الأموال، قال إبن الأنبارى وهذا أولى من ادعاء جار لا دليل عليه وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْساً﴾أى لينذركم بأساً وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أى لينذركم يوم التلاق والتخويف يتعدى إلى مفعولين من غير حرف جر تقول: خاف زيد القتال، وخوفته القتال وهذا الوجه يدل عليه قراءة ابن مسعود (يخوفكم أولياءه).

القول الثالث: أن معنى الآية: يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين، والمعنى الشيطان يخوف أولياءه الذين يطيعونه ويؤثرون أمره، فأما أولياء الله، فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم ولا ينقادون لأمره ومراده منهم، وهذا قول الحسن والسدى، فالقول الأول فيه محذوفان.

والثانى فيه محذوف واحد.

والثالث لا حذف فيه.

---

(١) التفسير الكبير ٥ / ٩ / ١٠٥ و ١٠٦.

وأما الأولياء فهم المشركون والكفار. اهـ.

قال القرطبي [1]: وقال الحسن والسدى: المعنى يخوف أولياءه المنافقين؛ ليقعدوا عن قتال المشركين. فأما أولياء الله فإنهم لا يخافونه إذا خوّفهم. وقد قيل: إن المراد هذا الذى يخوّفكم بجمع الكفار شيطانُ من شياطين الإنس؛ إمّا نُعيم بن مسعود أو غيره، على الخلاف فى ذلك كما تقدم. اهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد :

قال عبد الرحمن آل الشيخ: ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ أى يخوفكم أولياءه. اهـ.

قال ابن عثيمين [2]: **وأوليائه**: أى: أنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك؛ فكل من نصر الفحشاء والمنكر؛ فهو من أولياء الشيطان، ثم قد يكون النصر فى الشرك وما ينافى التوحيد؛ فيكون عظيماً وقد يكون دون ذلك.

وقوله: ﴿**يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ من ذلك ما وقع فى الآية التى قبلها، حيث قالوا: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**﴾، وذلك ليصدوهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل فى نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فيُخوِّفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع فى قلب الداعية.

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقى الشيطان فى نفسك الخوف؛ فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذى يدنى الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذى يبعد الأجل؛ فكم من داعية صدع بالحق ومات على فراشه؟! وكم من جبان قتل فى بيته؟!

وانظر إلى خالد بن الوليد، كان شجاعاً مقداماً ومات على فراشه، وما دام الإنسان قائماً بأمر الله؛ فليثق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله هم الغالبون. اهـ.

قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) تفسير القرطبى ٣ / ١٥٢٤و١٥٢٥.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٠٦و ٢٠٧.

الإعراب[1]: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الفاء هي الفصيحة أي إذا وثقتم بهذا فلا تخافوهم وخافون عطف على لاتخافوهم والواو فاعل والنون للوقاية وحذفت ياء المتكلم جوازاً باتفاق القراء السبعة في الرسم، وإن شرطية، كنتم كان واسمها فعل الشرط في محل جزم بإن. والجواب محذوف دل عليه ما قبله، ومؤمنين خبر كنتم. اهـ.

● **ما جاء في تفسير الآية بالقرآن :**

قال ابن كثير[2]: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا عليَّ والجأوا إليَّ فإني كافيكم وناصركم عليهم كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

● **ما جاء في تفسير الآية بالسنة :**

وعن أبي سعيد مرفوعا: إن من ضعف اليقين أن ترضى بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على مالم يؤتك الله إن رزق الله لايجره حرص حريص ولا كراهية كاره[3].

وعن عائشة رضي الله عنها. أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط

---

(١) إعراب القرآن ٢/ ١١٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٧و٤٠٨.

(٣) وسيأتي تخريجه.

الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ومن التمس رضى الله بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[١].

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين :

قال البغوى[٢]: قوله تعالى: ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ فى ترك أمرى.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بوعدى لأنى متكفل لكم بالنصر والظفر. اهـ.

قال ابن الجوزى[٣]: قوله تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ يعنى أولياء الشيطان ﴿وَخَافُونِ﴾ فى ترك أمرى. **وفى «إنْ» قولان:**

أحدهما: أنها بمعنى: «إذ» قاله ابن عباس، ومقاتل.

والثانى: أنها للشرط، وهو قول الزجاج فى آخرين.

قال الرازى[٤]: وقوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ الكناية فى القولين الأولين عائدة إلى الأولياء، وفى القول الثالث عائدة إلى (الناس) فى قوله ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ ﴾ فتقعدوا عن القتال وتجبنوا ﴿وَخَافُونِ﴾ فجاهدوا مع رسولى وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعنى أن الإيمان يقتضى أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس. اهـ.

قال القرطبى[٥]: قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ﴾ أى خافون فى ترك أمرى إن كنتم مصدّقين بوعدى. والخوف فى كلام العرب الذُّعْر. وخاوَفَنى فلان فَخُفْتُه، أى كنتُ أشدّ خوفًا منه. والخَوْفاءُ المَفَازَةَ لا ماء بها. ويقال: ناقةٌ خَوْفَاء وهى الجَرْبَاء. والخافة كالخريطة من الأَدَم يُشْتَارُ فيها العَسَل.

قال سَهلُ بنُ عبدالله: اجتمع بعض الصدّيقين إلى إبراهيم الخَلِيلِ فقال: ما الخوفُ؟ فقال: لاتأمن حتى تبلغ المأمن.

قال سهل: وكان الربيع بن خثيم إذا مرّ بِكِيرٍ يُغْشَى عليه؛ فقيل لعلىّ ابن أبى طالب ذلك؛ فقال: إذا أصابه ذلك فأعلمونى. فأصابه فأعلموه، فجاءه فأدخل يده فى قميصه فوجد حركته عالية فقال: أشهد أنّ هذا أخوف زمانكم.

---

(١) سيأتى تخريجه.
(٢) معالم التنزيل ١/ ٥٨٩.
(٣) زاد المسير ١ / ٤٠٤.
(٤) التفسير الكبير ٥ / ٩ / ١٠٦.
(٥) تفسير القرطبى ٣ / ١٥٢٥و ١٥٢٦.

فالخائف من الله تعالى هو أن يخَافَ أن يُعاقبه إمّا فى الدنيا وإمّا فى الآخرة؛ ولهذا قيل: ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه، بل الخائفُ الذى يترك ما يخَافُ أن يُعذَّب عليه.

ففرض الله تعالى على العباد أن يخافوه فقال: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقال ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾. ومدح المؤمنين بالخوف فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾. ولأرباب الإشارات فى الخوف عبارات مرجعها إلى ما ذكرنا.

قال الأستاذ أبو علىّ الدَّقاق: دخلت على أبى بكر بن فُورَك رحمه الله عائدا، فلما رآنى دمعتْ عيناه، فقلت له: إنّ الله يعافيك ويَشفيك. فقال لى: أترانى أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت.

وفى سُنن ابن ماجه عن أبى ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنى أرى مالاترون وأسمع مالاتسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكُ واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعُدات تجأرون إلى ا لله والله لوددت أنى كنت شجرة تعضد**

أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن غريب ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال: لوددت أنى كنت شجرة تعضد. والله أعلم. اهـ.

قال الشوكانى(١): ﴿وَخَافُونِ﴾ فافعلوا ما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه؛ لأنى الحقيق بالخوف منى، والمراقبة لأمرى ونهيى لكون الخير والشر بيدى، وقيده بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضى ذلك. اهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(٢): قال ابن القيم: ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر فأخبر تعالى أن هذا من كيده وتخويفه، ونهانا أن نخافهم.

قال: والمعنى عند جميع المفسرين يخوفكم بأوليائه قال قتادة: يعظمهم فى صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوى خوفه منهم.

(١) فتح القدير ١ / ٤٨٣.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣٦٣.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾(١).

قلت: ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ فأمر تعالى بإخلاص هذا الخوف له، وأخبر أن ذلك شرط فى الإيمان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب؛ ففيه أن إخلاص الخوف لله من الفرائض. اهـ.

قال ناصر السعدى(٢): وفى هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله أهـ.

● ● ●

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ... ﴾. الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٣): أنها دلت على أن المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات أفردوا الله بالخوف والخشية دون سواه. اهـ.

قال القرعاوى(٤): حيث دلت على وجوب إخلاص خشية التعظيم لله. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى(٥): دلت الآية على وجوب إخلاص خشية التعظيم لله، لذا تكون هذه الخشية نوعاً من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

الإعراب(٦) : إنما كافة ومكفوفة ويعمر مساجد الله فعل مضارع ومفعول به مقدم والمراد بعمارتها رمّ ما استرم منها، وتنظيفها وتنويرها وتعظيمها وتأثيثها بالرياش الفاخر المقتنى، ومن اسم موصول فاعل يعمر وجملة آمن صلة وما بعده عطف عليه وإعرابه ظاهر. اهـ.

---

(١) التوبة: ١٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن.

(٣) الجامع الفريد ١١٣.

(٤) الجديد ٢٨٩.

(٥) الجديد ٢٨٩

(٦) إعراب القرآن (٦٩).

● **سبب نزولها كما قال ابن الجوزى: أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر** فيهم العباس بن عبد المطلب، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فعيَّروهم بالشّرك، وجعل على بن أبى طالب يوبخُ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقالوا: وهل لكم من محاسن؟ قالوا: نعم، لنَحن أفضل منكم أجراً؛ إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقى الحجيج، ونفك العانى، فنزلت هذه الآية(*)، قال مقاتل فى جماعة.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أحاديث الآثار:**

روى ابن جرير عن ابن عباس: قوله ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ يقول من وحد الله وآمن باليوم الآخر، يقول أقر بما أنزل الله ﴿**وَأَقَامَ الصَّلاةَ**﴾ يعنى الصلوات الخمس ولم يخش إلا الله يقول ثم لم يعبد إلا الله، قال ﴿**فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ**﴾ يقول أن ﴿**أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ كقوله لنبيه ﴿**يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ يقول إن ربك سيبعثك مقاما محمودا وهى الشفاعة وكل عسى فى القرآن فهى واجبة(١).

وابن إسحق قال ثم ذكر قول قريش إنا أهل الحرم وسقاة الحاج وعمار هذا البيت ولا أحد أفضل منا فقال: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ أى أن عمارتكم ليست على ذلك ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ**﴾ أى من عمرها بحقها ﴿ **مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ فأولئك عمارها ﴿ **فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ وعسى من الله حق(٢).

وهناك أحاديث كثيرة فى فضل بناء المساجد وتعميرها يُرجع إليها فى تفسير هذه الآية من كتاب الدر المنثور وغيره.

واقتصر على ما أخرجه البغوى فى «معالم التنزيل»(٣) فروى بإسناده عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله قال: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**»(٤).

(*) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٩٥) ونسبه لابن جرير، وأبى الشيخ عن الضحاك بنحوه.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٦ / ١٠، ٦٧).

(٢) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق. (٣) معالم التنزيل ٣/ ١٧.

(٤) أخرجه الترمذى (٢٦١٧)، وابن ماجة(٨٠٢) عن أبى سعيد بسند ضعيف وانظر «رياض الصالحين» وانظر «فتح المجيد» (ح٦٤٩) بتخريجنا.

وعن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: **«من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح»**(١).

وعن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أراد بنا المسجد فكره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه، فقال عثمان: سمعت النبى ﷺ يقول: **«من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً كهيئته فى الجنة»**(٢).

وعن أبى عاصم بهذا الإسناد وقال: بنى الله له بيتاً فى الجنة(٣).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن الجوزى(٤): **﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾** على الجمع. وقرأ عاصم، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائى على الجمع فيهما.

وفى المراد بالعمارة قولان:

أحدهما: دخوله والجلوس فيه.

والثانى: البناء له وإصلاحه؛ فكلاهما محظور على الكافر. اهـ.

قال الرازى(٥): إنه تعالى لما بين أن الكافر ليس له أن يشتغل بعمارة المسجد، بين أن المشتغل بهذا العمل يجب أن يكون موصوفا بصفات أربعة:

الصفة الأولى: قوله: **﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** وإنما قلنا إنه لابد من الإيمان بالله لأن المسجد عبارة عن الموضع الذى يعبد الله فيه، فمن لم يكن مؤمنا بالله، امتنع أن يبنى موضعا يعبد الله فيه، وإنما قلنا أنه لابد من أن يكون مؤمنا بالله واليوم الآخر لأن الاشتغال بعبادة الله تعالى إنما تفيد فى القيامة، فمن أنكر القيامة لم يعبد الله، ومن لم يعبد الله لم يبن بناء لعبادة الله تعالى.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يذكر الإيمان برسول الله؟.

قلنا فيه وجوه:

الأول: أن المشركين كانوا يقولون: إن محمداً إنما ادعى رسالة الله طلبا للرياسة

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٦٢٤)، ومسلم فى المساجد (٢/ ٥/ ١٧٠ - النووى) وانظر (ح١٢٥) رياض الصالحين بتخريجنا.

(٢) أخرجه البغوى فى «معالم التنزيل» (٣/ ١٧) وفى الباب عن واثلة بن الأسقع، وابن عباس، وغيرهما.

(٣) أخرجه البغوى فى «معالم التنزيل» (٣/ ١٧) بإسناده.

(٤) زاد المسير (١/ ٤٠٤).

(٥) التفسير الكبير (٨/ ١٦/ ١٠).

والملك، فههنا ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وترك النبوة كأنه يقول مطلوبى من تبليغ الرسالة ليس إلا الإيمان بالمبدأ والمعاد، فذكر المقصود الأصلى وحذف ذكر النبوة تنبيها للكفار على أنه لامطلوب له من الرسالة إلا هذا القدر.

الثانى: أنه لما ذكر الصلاة، والصلاة لاتتم إلا بالأذان والإقامة والتشهد، وهذه الأشياء مشتملة على ذكر النبوة كان ذلك كافيا.

الثالث: أنه ذكر الصلاة، والمفرد المحلى بالألف واللام ينصرف إلى المعهود السابق، ثم المعهود السابق من الصلاة من المسلمين ليس إلا الأعمال التى كان قد أتى بها محمد ﷺ، فكان ذكر الصلاة دليلا على النبوة من هذه الوجوه.

الصفة الثانية: قوله ﴿**وَأَقَامَ الصَّلاَةَ**﴾ والسبب فيه أن المقصود الأعظم من بناء المساجد إقامة الصلوات، فالإنسان مالم يكن مقرا بوجوب الصلوات امتنع أن يقدم على بناء المساجد. اهـ.

قلت: فما القول فيمن لا يصلى فى المسجد وبنى مسجداً. !

الصفة الثالثة: قوله ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

واعلم أن اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى عمارة المسجد كأنه يدل على أن المراد من عمارة المسجد الحضور فيه، وذلك لأن الإنسان إذا كان مقيما للصلاة فإنه يحضر فى المسجد فتحصل عمارة المسجد به، وإذا كان مؤتيا للزكاة فإنه يحضر فى المسجد طوائف الفقراء والمساكين لطلب أخذ الزكاة فتحصل عمارة المسجد به. وأما إذا حملنا العمارة على مصالح البناء فإيتاء الزكاة معتبر فى هذا الباب أيضاً لأن إيتاء الزكاة واجب وبناء المسجد نافلة، والإنسان مالم يفرغ عن الواجب لايشتغل بالنافلة والظاهر أن الإنسان مالم يكن مؤديا للزكاة لم يشتغل ببناء المساجد. اهـ.

قلت: وستأتى الصفة الرابعة عند تفسير قوله: ﴿**وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ**﴾.

قال القرطبى(١): قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ**﴾ دليل على أن الشهادة لعمار المساجد بالإيمان صحيحة؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها، وقد قال بعض السلف: إذا رأيتم الرجل يعمر المسجد فحسنوا به الظن.

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخُدْرِى أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم الرجل**

(١) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٢٩.

يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(١).

في رواية: «يتعاهد المسجد»(٢). قال: حديث حسن غريب.

قال ابن العربي: وهذا في ظاهر الصلاح ليس في مقاطع الشهادات؛ فإن الشهادات لها أحوال عند العارفين بها؛ فإن منهم الذكيّ الفَطِن المحصل لما يعلم اعتقادا وإخبارا، ومنهم المغفّل، وكل واحد ينزَّل على منزلته ويقدّر على صفته. اهـ.

قال الشوكاني(٣): واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده؛ لأن كل ذلك من لوازم الإيمان، وقد تقدّم الكلام في وجه جمع المساجد وفي بيان ماهية العمارة، ومن جوّز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٤): فأثبت لهم عمارة المسجد بعد أن نفاها عن المشركين، لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أو ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وما كان كذلك فالعدم خير منه فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي مُعظمه التوحيد، مع العمل الخالص من شوائب الشرك والبدع. وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة. اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، والمراد بالعِمارة العمَارة المعنوية، وهي عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها، وكذلك الحسية بالبناء الحسي؛ فإن عمارتها به حقيقة لاتكون إلا ممن ذكرهم الله؛ لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يعمرها حقيقةً؛ لعدم انتفاعه بهذه العمارة؛ فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ما قبله.
(٣) فتح القدير ٢/ ٣٦٤.
(٤) فتح المجيد ٢/ ٤٦٥ - ٤٦٦.
(٥) القول المفيد ٢/ ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠.

اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفاً؛ لأنها موضع عبادته.

قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾.

﴿مَنْ﴾: فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور، وهى:

- الإيمان بوجوده.
- وربوبيته.
- وألوهيته.
- وأسمائه وصفاته.

﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هو يوم القيامة، وسُمِّي بذلك؛ لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل فى الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه.

لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلى دار الجزاء.

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر كثيراً؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلى الامتثال، فإنه إذا آمن أن هناك بعثاً وجزاء؛ حمله ذلك على العمل لذلك اليوم، ولكن من لايؤمن باليوم الآخر لايعمل؛ إذ كيف يعمل لشيء وهو لايؤمن به؟!

قوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾.

أى: أتى بها على وجه قويم لانقص فيه، والإقامة نوعان:

إقامة واجبة: وهى التى يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.

وإقامة مستحبة: وهى التى يزيد فيها على فعل ما يجب فيأتى بالواجب والمستحب.

قوله: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

﴿آتَى﴾ تنصب مفعولين: الأول هنا الزكاة، والثانى: محذوف تقديره مستحقها.

﴿الزَّكَاةَ﴾: هى المال الذى أوجبه الشارع فى الأموال الزكوية وتختلف مقاديرها حَسَبَ ما تقتضيخ حكمة الله ـ عزوجل ـ.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾.

الإعراب[1]: الواو عاطفة ولم حرف وقلب وجزم ويخش مجزوم بلم والفاعل مستتر يعود على من آمن وإلا أداة حصر ولفظ الجلالة مفعول به.

قال الرازى[2]: قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ وفيه وجوه:

الأول: أنا أبا بكر رضى الله عنه بنى فى أول الإسلام على باب داره مسجدا وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن والكفار يوذونه بسببه، فيحتمل أن يكون المراد هو تلك الحالة، يعنى إنا وإن خاف الناس من بناء المسجد إلا أنه لايلتفت إليهم ولايخشاهم ولكنه يبنى المسجد للخوف من الله تعالى.

الثانى: يحتمل أن يكون المراد منه أن يبنى المسجد لا لأجل الرياء والسمعة وأن يقال إن فلاناً يبنى مسجدا، ولكنه يبنيه لمجرد طلب رضوان الله تعالى ولمجرد تقوية دين الله.

فإن قيل: كيف قال ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ والمؤمن قد يخاف الظلمة والمفسدين؟

قلنا: المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى فى باب الدين، وأن لايختار على رضا الله رضا غيره.

قال القرطبى[3]: **قوله تعالى**: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ إن قيل: ما من مؤمن إلا وقد خشى غير الله، ومازال المؤمنون والأنبياء يخشون الأعداء من غيرهم. قيل له: المعنى ولم يخش إلا الله مما يعبدك؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويخشونها ويرجونها جواب ثان ـ أى لم يخف فى باب الدين إلا الله.

قال الشيخ سليمان[4]: وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولامحالة أن الإنسان يخشى غيره، ويخشى المحاذير الدنيوية، وينبغى أن يخشى فى ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

قلت ـ أى سليمان ـ: ولهذا قال ابن عباس الآية: لم يعبد إلا الله فإن الخوف كما قال ابن القيم: عبودية القلب، فلايصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

قال ابن عثيمين[5]: **قوله**: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٦٩و ٧٠.

(٢) التفسير الكبير ٨/١٦/١١.

(٣) تفسير القرطبى ٤ / ٢٩٢٩.

(٤) تفسير العزيز الحميد ٣٦٤.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢١٠ و ٢١١.

فى هذه الآية حصر طريقة الإثبات والنفى.

﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ نفى، ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾ إثبات، والمعنى: إن خشيته انحصرت فى الله ـ عزوجل ـ؛ فلايخشى غيره.

والخشية نوع من الخوف، لكنها أخص منه، والفرق بينهما:

١ـ أن الخشية تكون مع العلم بالمخشى وحاله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، والخوف قد يكون من الجاهل.

٢ـ أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشى، بخلاف الخوف؛ فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخُوف.

قوله: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

الإعراب(١): الفاء الفصيحة وعسى فعل ماض من أفعال الرجاء وأولئك اسمها وأن يكونوا خبرها ومن المهتدين خبر يكونوا، أى فحال هؤلاء الموصوفين بالصفات الأربع مرجوة والعاقبة عند الله معلومة.

قال الرازى(٢): ثم أنه تعالى لما ذكر هذه الأوصاف قال ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وفيه وجوه:

الأول: قال المفسرون ﴿فَعَسَىٰ﴾من الله واجب لكونه متعاليا عن الشك والتردد.

الثانى: قال أبو مسلم ﴿فَعَسَىٰ﴾ ههنا راجع إلى العباد وهو يفيد الرجاء فكان المعنى إن الذين يأتون بهذه الطاعات إنما يأتون بها على رجاء الفوز بالاهتداء لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ والتحقيق فيه أن العبد عند الإتيان بهذه الأعمال لايقطع على الفوز بالثواب، لأنه يجوز على نفسه أنه قد أخل بقيد من القيود المعتبرة فى حصول القبول.

والثالث: وهو أحسن الوجوه ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن المراد منه تبعيد المشركين عن مواقف الاهتداء، وحسم إطماعهم فى الإنتفاع بأعمالهم التى استعظموها وافتخروا بها، فإنه تعالى بين أن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٧٠.

(٢) التفسير الكريم ٨/١٦/١١و١٢.

وضموا إليها الخشية من الله، فهؤلاء صار حصول الاهتداء لهم دائراً بين ـ لعل وعسى ـ فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون ويجزمون بفوزهم بالخير من عند الله تعالى وفى هذا الكلام ونحوه لطف بالمؤمنين فى ترجيح الخشية على الرجاء.

قال الشوكانى[1]: وفى قوله: **﴿فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾** حسم لأطماع الكفار فى الانتفاع بأعمالهم، فإن المصوفين بتلك الصفات إذا كان اهتداؤهم مرجوا فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشىء من تلك الصفات وقيل: «عسى من الله واجبة» وقيل: هى بمعنى خليق، أى فخليق أن يكونوا من المهتدين. وقيل: إن الرجاء راجع إلى العبادة.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: **﴿فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾**.

قال ابن عباس: «عسى من الله واجبة»[3] وجاءت بصيغة الترجى؛ لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف، وهذا كقوله تعالى: **﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُوْلَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾**؛ فالله لايكلف نفساً إلا وسعها؛ فالذين لايستطيعون حيلةً ولايهتدون سبيلاً جديرون بالعفو.

الشاهد من الآية: قوله: **﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾**، ولهذا قال تعالى: **﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾**، ومن علامات صدق الإيمان أن لايخشى إلا الله فى كل ما يقول ويفعل.

ومن أراد أن يصحح هذا المسير؛ فليتأمل قول الرسول ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك»[4]. ا هـ.

● ● ●

(١) فتح القدير ٢/ ٣٦٤.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢١١ و ٢١٢.

(٣) أخرجه البيهقى (٩/ ١٣) وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[1].

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا..... الآية﴾

● **مناسبة الآية للباب**

قال سليمان آل الشيخ: وإنما حمل ضعيف البصيرة على أن جعل فتنة الناس كعذاب الله، وهو الخوف منهم أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمان بالله، وذلك من جملة الخوف من غير الله، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة،

قال عبدالله بن جارالله[2]: هي أنه إذا كان الله هو الكافي لعبده وجب أن لايتوكل إلا عليه. اهـ.

وقال القرعاوي[3]: حيث دلت الآية على تحريم مساواة الخوف من الله بالخوف من المخلوق. اهـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوي[4]: دلت على وجوب تقديم خوف الله على خوف سواه لذا يكون الخوف عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● **الإعراب[5]:**

قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان حال المنافقين بعد أن بين حال المؤمنين والكافرين فيما تقدم ومن الناس خبر مقدم ومن نكرة موصوفة مبتدأ مؤخر أي ناس وهو أولى من جعلها موصولة وجملة يقول صفة لمن على اللفظ وجملة آمنا مقول القول وبالله متعلقان بآمنا. اهـ.

● **سبب نزول الآية**

وما جاء في تفسيرها من الآثار

روى ابن جرير[6] بسنده عن ابن عباس قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا

---

(1) العنكبوت: ١٠.

(2) الجامع الفريد ١٣٢.

(3)و(4) الجديد ٢٩١.

(5) إعراب القرآن ٧/ ٤٠٥.

(6) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/ ٨٥، ٨٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٧٥)عن ابن عباس به

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.

أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال فتنته أن يرتد عن دين الله إذا أوذى فى الله(١).

وعن مجاهد قوله : ﴿فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال أناس يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة فى أنفسهم افتتنوا فجعلوا ذلك فى الدنيا كعذاب الله فى الآخر(٢).

وبسنده عن الضحاك يقول قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت فى ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فإذا أوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر مخافة من يؤذيهم وجعلوا أذى الناس فى الدنيا كعذاب الله(٣).

وبسنده عن ابن زيد: فى قول الله ﴿فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال هو المنافق إذا أوذى فى الله رجع عن الدين وكفر وجعل فتنة الناس كعذاب الله وذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم من أهل الإيمان كانوا بمكة فخرجوا مهاجرين فأدركوا وأخذوا فأعطوا المشركين لما نالهم أذاهم ما أرادوا منهم (٤).

وبسنده عن ابن عباس قال كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بإسلامهم فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعهم قبل بعض فقال المسلمون كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاسغفروا لهم فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُم﴾ إلى آخر الآية قال فكتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية أن لاعذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير ثم نزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجا فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل(٥).

(١) العنكبوت: ١٠. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٧١٧١).

وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٢٧٠) وزاد نسبه للفريابي، وابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وأنظر الدر (٥/ ٢٧١).

وبسنده وعن قتادة قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال هذه الآيات أنزلت فى القوم الذين ردّهم المشركون إلى مكة وهذه الآيات العشر مدنية إلى ههنا وسائرها مكى(١).اهـ.

ـ سبب نزولها:

قال ابن الجوزى(٢): قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال:

أحدها: أنَّها نزلت فى المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدُّوا، رواه عكرمة عن ابن عباس(٣).

الثاني: نزلت فى قوم كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبة فى أنفسهم وأموالهم افتتنوا، قاله مجاهد(٤).

الثالث: نزلت فى ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا وأصابهم بلاءٌ من المشركين رجعوا إلى الشّرك، قاله الضحاك(٥).

الرابع: أنها نزلت فى عيَّاش بن أبى ربيعة، كان أسلم، فخاف على نفسه من أهله وقومه، فخرج من مكة هارباً إلى المدينة، وذلك قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجزعت أمُّه فقالت لأخويه أبى جهل والحارث ابنى هشام ـ وهما أخواه لأمّه: والله لا آوى بيتاً ولا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تأتيانى به، فخرجا فى طلبه فظفرا به، فلم يزالا به حتى تابعهما وجاءا به إليها، فقيَّدتْه، وقالت: والله لا أحُلُّك من وَثاقك حتى تكفُر بمحمد، ثم أقبلت تجْلِده بالسِّياط وتعذّبه حتى كفر بمحمد عليه السلام جزَعاً من الضَّرْب، فنزلت فيه هذه الآية، ثم هاجر بَعْد وحَسُنَ إسلامه، هذا قول ابن السائب، ومقاتل. وفى رواية عن مقاتل أنَّهما جَلَداه فى الطريق مائتى جلدة، فتبرأ من دين محمد، فنزلت هذه الآية. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٧١٧١).

(٢) زاد المسير ٦ / ١٢٨.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[(١)]: يقول تعالى ذكره ومن الناس من يقول أقررنا بالله فوحدناه فإذا آذاه المشركون فى إقراره بالله جعل فتنة النـاس اياه فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة فارتد عن إيمانـه بالله راجعا على الـكفر به ولئـن جاء نصر من ربـك يا محمد أهل الإيـمان به ليقولن هؤلاء المرتدون عن إيمانهم الجاعلون فـتنة الناس كعذاب الله إنا كنا أيها المؤمنون معكم ننصركم عـلى أعدائكم كذبا وإفكا يقول الله أوليس الله بأعـلم أيها القوم من كل أحد بما فـى صدور جميع خلـقه القائليـن آمنا بالله فإذا أوذى فى الله ارتـد عن دين الله وغيرهم فكيف يخادع من كان لايخفى عليه خافية ولايستتر عنه سر ولا علانية. اهـ.

قال الرازى[(٢)]: **أقسام المكلفيـن ثلاثة** مؤمن ظاهـر بحسن اعتقاده، وكافـر مجاهر بكفره وعناده، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمر الكفر فى فؤاده، والله تعالى لما بين الـقسمين بقولـه تعالى ﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ وبين أحوالهما بقوله: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ**﴾ إلى قوله ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ بين القسم الثالث وقال: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا**﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا**﴾ ولـم يقل آمنت مع أنه وحد الأفعال التى بعده كقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ**﴾ وقوله: ﴿**جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ**﴾ وذلك لأن المنافق كان يشبـه نفسه بالمؤمن، ويقول إيمانى كـإيمانك فقال ﴿**آمَنَّا**﴾ يعنى أنا والمؤمن حقاً آمنا، إشعاراً بأن إيمانه كإيمانه، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال فى القتـال، وهزموا خصومهـم يقول الجبان خرجـنا وقاتلناهـم وهزمناهم، فيـصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهـم حتى تقول خرجنا وقاتلنا؟ وهذا الرد يدل على أنه يفـهم من كلامه أن خروجه وقتالـه كخروجهم وقتالهم، لأنـه لا يصح الإنكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال، وكذا قول القائـل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر، لأن المفـهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظـهار كون إيمانهم كإيمـان المحقين كان الواحد يقول ﴿ **آمَنَّا**﴾ أى أنا والمحق. اهـ

قال ابن كثير[(٣)]: يقول تعالى مخبراً عن قوم من الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم

---

(١) الطبرى ١٠ / ٢٠ / ٨٥.
(٢) التفسير الكبير ١٣/ ٢٥ / ٣٨، ٣٩.
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣) وانظر تيسير العزيز الحميد (٢٦٥، ٢٦٦).

يثبت الإيمان فى قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة فى الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابن عباس يعنى فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذى فى الله.

وقال ابن القيم: الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول أحدهم آمناً، وإما أن لايقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر؛ فمن قال: آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة. الإبتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب؛ ومن لم يقل: آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه فمن آمن بالرسل وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتلى بما يؤلمه؛ ومن لم يؤمن بهم، ولم يطعهم، عوقب فى الدنيا والآخرة، وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم، فلابد من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة؛ والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير له الألم الدائم. والإنسان لابد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه، وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم؛ كمن عِنْدَهُ دِينٌ وَتُقى حَلَّ بين قوم فجار ظلمة، ولايتمكنون من فجورهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم فى الأبتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم، فلابد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم، فالحزم كل الحزم بما قالت أم المؤمنين لمعاوية. مَنْ ارضَى الله بِسَخْطِ النَّاسِ كَفَاهُ الله مَؤُنَةَ النَّاسِ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخْطِ الله لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ الله شَيْئاً. فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاهُ شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

قوله: ﴿فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

الإعراب[1]: **﴿فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾** الفاء حرف عطف وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وفى الله متعلقان بأوذى وجملة أوذى فى محل جر بإضافة الظرف إليها أى فى سبيل الله وجملة جعل لامحل لأنها جواب إذا وفتنة الناس مفعول جعل الأول وكعذاب الله فى موضع المفعول الثانى، أو الكاف اسم بمعنى

(١) إعراب القرآن (٤٠٥و ٤٠٦).

مثل فى موضع المفعول الثانى والمعنى جزع من أذى الناس، فأطاعهم كما يطيع الله من يخافه ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم وجاءهم فعل ماض فى محل جزم فعل الشرط والهاء مفعول به ونصر فاعل ومن ربك متعلقان بجاءهم أو بمحذوف صفة لنصر، ليقولن: اللام واقعة فى جواب القسم ويقولن فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالى الأمثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل وجملة إنا مقول القول وإن واسمها وجملة كنا خبرها ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر كنا.

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين :

قال البغوى[(١)]: أى: جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله فى الآخرة. أى: جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه، فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه، هذا قول السدى وابن زيد قالا: هو المنافق إذا أوذى فى الله رجع عن الدين وكفر ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: فتح ودولة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعنى: هؤلاء المنافين للمؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على عدوكم وكنا مسلمين، وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا، فكذبهم الله وقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من الإيمان والنفاق. اهـ.

قال ابن الجوزى[(٢)]: **قوله تعالى**: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أى: ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أى: ما يصيبه من عذابهم فى الدنيا ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ فى الآخرة؛ وإنما ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله تعالى لما يرجو من ثوابه ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يعنى دولة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعنى المنافقين للمؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على دينكم، فكذَّبهم الله عزوجل وقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾[(٣)] من الإيمان والنفاق. اهـ

قال الرازى[(٤)]: قوله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ هو فى معنى قوله ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ وقال ههنا ﴿أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ولم يقل فى سبيل الله واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة

---

(١) معالم التنزيل ٤/ ٣٦٧.
(٢) زاد المسير ٦/ ١٢٩.
(٣) العنكبوت/ ١٠.
(٤) التفسير الكبير ١٣ / ٢٥ / ٣٩و ٤٠.

المنافق الكافر فقال هناك أوذى المؤمن فى سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه، وأوذى المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الإيذاء إلى حد الإكراه، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان فلايترك الله، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية، والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة.

قوله: ﴿جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ قال الزمخشرى: جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله.

وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا فى الأمر، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذى من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام، واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولايكون التردد إلا عند التساوى ومن أين إلى أين تعذيب الناس لايكون شديداً، ولايكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الإنسان فى الحال فلا يدوم التعذيب، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لايكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده عذاب أليم، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولاتعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولاتعد عذاباً.

قال ﴿فتنة الناس﴾ ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الإنسان كالصبر على العبادات.

لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله، فنقول ليس كذلك، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً، بل فى باطنه الإيمان، ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ يعنى دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية، وفيه فوائد نذكرها فى مسائل:

الأولى: قال ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ ولم يقل من الله، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله ﴿أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ وقوله ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة.

المسألة الثانية: لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذا يقتضى أن يكونوا قائلين: إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين، فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر، لكن النصر لايجىء إلا للمؤمن، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم فى الحال، ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين، لايطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة، فكذلك المسلم وإن كسر فى الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم فى الحقيقة.

المسألة الثالثة: فى ليقولن قراءتان:

إحداهما: الفتح حملا على قوله ﴿مَن يَقُولُ آمَنَّا﴾ يعنى من يقول آمنا إذا أوذى يترك ذلك القول، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم.

وثانيهما: الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم. فإن المنافقين كانوا جماعة. اهـ.

قال ابن كثير(١): أخبر عن حال الداخل فى الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أُوذى فى الله جعل فتنة الناس له، وهى أذاهم له، ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذى لابد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك فى فراره منه وتركه السبب الذى يناله به كعذاب الله الذى فر منه المؤمنون بالإيمان. فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب، وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس فى الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله؛ وغبن كل الغبن إذا استجار من الرمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال إنى كنت معكم والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق انتهى. اهـ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٨٣.

● ما جاء فى تفسير الآية فى أقوال شراح كتاب التوحيد :

قال سليمان آل الشيخ[1]: وفى الآية رد على المرجئة والكرامية، وفيها الخوف على نفسك، والإستعداد للبلاء إذ لابد منه مع سؤال الله العافية. اهـ

قال صاحب الظلال[2]: ذلك النموذج من الناس يعلن كلمة الإيمان فى الرخاء يحبسها حقيقة الحمل هينة المؤونة لاتكلف إلا نطقها باللسان، «فإذا أوذى فى الله» بسبب الكلمة التى قالها وهو آمن معافى ﴿**جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**﴾ فاستقبلها فى جزع واختلت فى نفسه القيم واهتزت فى ضميره العقيدة وتصور أن لاعذاب بعد هذا الأمر الذى يلقاه حتى عذاب الله وقال فى نفسه: ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شىء فعلام أصبر على الإيمان وعذاب لايزيد على ما أنا فيه من عذاب؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر، وعذاب الله الذى لايعرف أحد مداه. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: قوله ﴿**كَعَذَابِ اللَّهِ**﴾ ومعلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله، فيوافق أمره؛ فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله؛ فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأَمْرِهم جعلاً لهذه الفتنة كالعذاب؛ فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله؛ لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله، ففر منه بموافقة أمرهم؛ فالآية موافقة للترجمة.

وفى هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهى ابتلاء الله للعبد لأجل أن يمحص إيمانه، وذلك على قسمين:

الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد؛ كقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ**﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[5].

الثانى: ما يقدره الله على أيدى الخلق من الإيذاء امتحاناً واختباراً، وذلك كالآية التى ذكر المؤلف.

وبعض الناس إذا أصابته مصائب لايصبر، فيكفر ويرتد أحياناً ـ والعياذ بالله ـ ،

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٦٦.
(٢) الظلال ٥/ ٢٧٢٣ ـ ٢٧٢٤.
(٣) القول المفيد ٢/٢١٣: ٢١٥.
(٤) الحج: ١١.
(٥) البقرة: ١٥٥/ ١٥٦.

وأحياناً يكفر بما خالف فيه أمر الله ـ عزوجل ـ فى موقفه فى تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصاً عظيماً؛ فليكن المسلم على حذر؛ فالله حكيم يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

قوله: «الآية».

أى: إلى آخر الآية: وهى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان، فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها. اهـ.

قوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

الإعراب(١):

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ الهمزة للاستفهام التقريرى التوبيخى والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق وليس فعل ماض ناقص والله اسمها والباء حرف جر زائد وأعلم مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ليس وبما متعلقان بأعلم وفى صدور العالمين صلة ما.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الرازى(٢): بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبيس ولايصح ذلك لهم. لأن التلبيس إنما يكون عندما يخالف القول القلب، فالسامع يبنى الأمر على قوله ولايدرى ما فى قلبه فيلتبس الأمر عليه. وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور، وهو أعلم بما فى صدر الإنسان من الإنسان فلايلتبس عليه الأمر، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما فى القلب، فالمنافق الذى يظهر الإيمان ويضمر الكفر كافر، والمؤمن المكره الذى يظهر الكفر ويضمر الإيمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين، ولما بين أنه أعلم بما فى قلوب العالمين، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم.

---

(١) إعراب القرآن (٦ـ٤٠).

(٢) التفسير الكبير ١٣/٢٥/ ٤٠.

- **ما جاء في تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :**

قال ابن عثيمين[1]: وقوله: ﴿**أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ**﴾.

قيل في مثل هذا السياق: إن الواو عاطفة على محذوف يُقدَّر بحسب ما يقتضيه السياق.

وقيل: إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعدها؛ أي: وأليس الله.

قوله: ﴿**أَعْلَمَ**﴾ مجرور بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل.

فالله أعلم بما في صدور العالمين، أي بما في صدور الجميع؛ فالله أعلم بما في نفسك منك، وأعلم بما في نفس غيرك، لأن علم الله عام.

وكلمة ﴿**أَعْلَمَ**﴾: اسم تفضيل، وقال بعض المفسرين ولاسيما المتأخرون منهم: ﴿**أَعْلَمَ**﴾ بمعنى عالم، وذلك فراراً من أن يقع التفضيل بين الخالق والمخلوق، وهذا التفسير الذي ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ؛ ففيه فساد المعنى؛ لأنك إذا قلت: أعلم بمعنى عالم، فإن كلمة عالم تكون للإنسان وتكون لله، ولاتدل على التفاضل؛ فالله عالم والإنسان عالم.

وأما تحريف اللفظ؛ فهو ظاهر، حيث حرفوا اسم التفضيل الدال على ثبوت المعنى وزيادة إلى اسم فاعل لا يدل على ذلك والصواب أن (أعلم) على بابها وانها اسم تفضيل، وإذا كانت اسم تفضيل؛ فهي دالة دلالة واضحة على عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق، وأن علم الخالق أكمل.

وقوله: ﴿**بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ**﴾.

المراد بالعالمين: كل من سوى الله؛ لأنهم عَلَم على خالقهم، فجميع المخلوقات دالة على كمال الله وقدرته وربوبيته.

والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك؛ لعموم الآية.

وفي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه، ولهذا لما تخلف كعب بن مالك في غزوة تبوك قال للرسول ﷺ حين رجع: «**إني قد أوتيت جدلاً، ولو جلست إلى غيرك من ملوك الدنيا؛ لخرجت منهم بعذر، لكن لا أقول شيئاً تعذرني فيه فيفضحني الله فيه**»[2].

---

(١) القول المفيد ٢/ ٢١٥: ٢١٦.

(٢) **[صحيح]** أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٩/ ١٠٠/ ٥٣) عن كعب به . وانظر «رياض الصالحين» (٢١ ـ بتخريجنا). .

عَن أَبِي سَعِيد رَضِيَ الله عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ أَن تُرضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ الله، وَأَنْ تَحْمَدَهُم عَلَى رِزْقِ الله، وَأَنْ تَذُمَّهُم عَلَى مَا لَمْ يُؤتِكَ الله، إِنَّ رِزْقَ الله لاَ يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلاَ يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»(١).

الشاهد من الآية: قوله: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾؛ فخاف الناس مثل خوف الله تعالى. اهـ.

● ● ●

قوله [عَن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ مَرْفُوعًا: ...].

ـ مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جارالله(٢): أن فيه ذم لمن خاف الناس وقدَّم رضاهم على رضى الله. اهـ.

وقال القرعاوي(٣): دل الحديث على تحريم ترك شيء من الواجب خوفاً من الناس. اهـ.

ـ مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي(٤): حيث أفاد الحديث أن الخوف نوع من العبادة، والعبادة لغير الله شرك. اهـ.

● شرح الحديث:

قوله: عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين...» الحديث.

[قلت]: لم يعزه المصنف ـ رحمه الله ـ لأحد من المصنفين والحديث أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «الشعب» من طريق عطية العوفي عن أبي سعيد به. وعطية العوفي ضعيف الحديث وكان يدلس. قال مسلم بن الحجاج: قال أحمد وذُكر عطية العوفي فقال: هو ضعيف الحديث. ثم قال: بلغني أن عطية العوفي كان يأتي الكلبي ويسأله عن التفسير وكان يكنيه بأبي سعيد فيقول: قال أبو سعيد، وكان هشيم

---

(١) [ضعيف] أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٠٦)، (١٠/٤١)، والبيهقي في «الشعب» (١/٢٢١/٢٢١) من طريق عطية العوفي، عن أبي سعيد به. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٥١) بتخريجنا.

(٢) الجامع الفريد ١٣٣.

(٣) الجديد ٢٩٣.

(٤) الجديد ٢٩٣.

يضعف حديثه عطية. وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال: سمعت الكلبى قال: كنانى عطية أبا سعيد (*). اهـ.

قوله[1]: «إنّ من ضعف اليقين».

«من»: للتبعيض، والضعف ضد القوة، ويقال: ضَعفٌ أو ضُعف، وكلاهما بمعنى واحد؛ أى: من علامة ضعف اليقين.

قال فى المصباح»: والضعف بفتح الضاد فى لغة تميم وبضمها فى لغة قريش خلاف القوة والصحة واليقين، المراد به الإيمان كله[2].

كما قال ابنُ مَسْعُودٍ: «اليَقِينُ الإِيمانُ كُلُّهُ، وَالصَّبْرُ نِصفُ الإِيمَانِ»[3]، رواه الطبرانى بسند صحيح ورواه أبو نعيم فى «الحلية» والبيهقى فى «الزهد» من حديثه مرفوعاً[4] ولايثبت رفعه. قاله الحافظ ويدخل فى ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق.

كما فى حديث ابن عباس مرفوعاً: «فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالرضى فى اليقينِ فَافْعَلْ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعِ فَإِنَّ فى الصَّبْرِ عَلى ما تَكْره خَيراً كثيراً»[5].

وفى رواية أخرى فى إسنادها ضعف: «قُلْتُ يَا رَسُولَ الله: كَيْفَ أَصْنَعُ بِاليَقِينِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْلَمَ أن مَا أَصَابَكَ لم يكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ»[6].

قوله: «أن ترضى الناس بسخط الله».

قال سليمان آل الشيخ[7]: قوله: أن ترضى الناس بسخط الله أى: تؤثر رضاهم

(*) تهذيب الكمال (٢٠/١٤٧).

(١) القول المفيد ٢/٢١٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٧.

(٣) علقه البخارى (١/ ٦٠ ـ الفتح) بالشطر الأول منه ووصله البرانى فى «اليد» (٩/١٠٧/١٥٤٤).

قال الهيثمى فى «المجمع» (١/٥٧): رجاله رجال الصحيح. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٥٣) بتخريجنا.

(٤) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية(٥/ ٣٤).

(٥) أخرجه الحاكم فى «الم تدرك» (٣/ ٥٤١) وتعقبه الذهبى بقو ه : لم يخرج الشيخان لابن خراش لاالقداح لأن القداح قالس أبو ح تم، : متروك والآخر مختلف فيه وعب الملك لم يسمع من ابن عباس فيما أرى، وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٥٤) بتخريجنا.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تف يره» (٢٨ / ٧٩ـ ٨٠) وانظر «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٢٦ و«فتح المجيد» (ح ٦٥٥) بتخريجنا).

(٧) تيسير العزيز الحميد ٣٦٧.

على رضى الله، فتوافقهم على ترك الأمور، أو فعل المحظور استجلاباً لرضاهم فلولا ضعف اليقين لما فعلت ذلك، لأن من قوى يقينه علم أن الله وحده هو النافع الضار وأنه لامعول إلا على رضاه، وليس لسواه من الأمر شيء، كائناً ما كان فلايهاب أحداً، ولايخشاه لخوف ضرر يلحقه من جهته كما قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

قوله: «أن ترضى».

قال ابن عثيمين[1]: اسم إن مؤخر، وخبرها مقدم: **«من ضعف اليقين»**، والتقدير: إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين.

قوله: **«بسخط الله»**.

الباء للعِوَض، يعنى: أى تجعل عوض إرضاء الناس سخط الله، فتستبدل هذا بهذا؛ فهذا من ضعف اليقين. اهـ.

قلت: وعن عائشة مرفوعاً «من أرض الناس ـ سخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ومن أرضى الله يسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس»*

قال ابن عثيمين[1]: واليقين أعلى درجات الإيمان، وقد يراد به العلم، كما تقول: تيقنت هذا الشيء، أى: علمته يقيناً لايعتريه الشك، فمن ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله؛ إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم؛ فتجد الإنسان يجيء إلى شخص فيمدحه، وقد يكون خالياً من هذا المدح، ولايُبيّن ما فيه من عيوب، وهذا من النفاق وليس من النصح والمحبة، بل النصح أن تبين له عيوبه ليتلافاها ويحترز منها، ولا بأس أن تذكر له محامده تشجيعاً إذا أُمِن فى ذلك من الغرور. أهـ

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله».

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله**: «وأن تحمدهم على رزق الله» أى: تحمدهم وتشكرهم على ما وصل إليك على أيديهم من رزق؛ بأن تضيفه إليهم وتنسى المنعم المتفضل على الحقيقة وهو الله رب العالمين الذى قدر هذا الرزق لك وأوصله إليك بلطفه ورحمته فإنه لطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم فإذا أراد أمراً قيض له أسباباً ولاينافى ذلك:

(*) سيأتى تخريج. (١) القول المفيد ٢/٢١٧. (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٨.

حديث: «مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ لاَ يَشْكُرُ اللهَ»(١) لأن المراد هنا إضافة النعمة إلى السبب ونسيان الخالق، والمراد بشكر الناس عدم كفر إحسانهم ومجازاتهم على ذلك بما استطعت فإن لم تجد فجازهم بالدعاء. اهـ.

قال ابن عثيمين(٢): الحَمْدُ: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

ولكنه هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم؛ لأنه يشمل المدح.

و**«رزق الله»**: عطاء الله؛ أى: إذا عطوك شيئاً حمدتهم ونسيت المُسبِّب وهو الله، والمعنى: أن تجعل الحمد كله لهم متناسياً بذلك المسبب، وهو الله؛ فالذى أعطاك سبب فقط، والمعطى هو الله، ولهذا قال النبى ﷺ: **«إنما أنا قاسم، والله يعطى»**.

أما إن كان فى قلبك أن الله هو الذى منّ عليك بسياق هذا الرزق، ثم شكرت الذى أعطاك؛ فليس هذا داخلاً فى الحديث، بل هو من الشرع؛ لقوله ﷺ: **«من صنع إليكم معروفاً؛ فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به؛ فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»**(٣).

إذن الحديث ليس على ظاهره من كل وجه؛ فالمراد بالحمد أن تحمدهم الحمد المطلق ناسياً المُسبِّب وهو الله ـ عزوجل ـ، وهذا من ضعف اليقين، كأنك نسيت المنعم الأصلى، وهو الله ـ عزوجل ، الذى له النعمة الأولى، وهو سفه أيضاً؛ لأن حقيقة الأمر أن الذى أعطاك هو الله، فالبشر الذى أعطاك هذا الرزق لم يخلق ما أعطاك، فالله هو الذى خلق ما بيده، وهو الذى عطف قلبه حتى أعطاك، أرأيت لو أن إنساناً له طفل، فأعطى طفله ألف درهم وقال له: أعطها فلاناً، فالذى أخذ الدراهم يحمد الأب؛ لأنه لو حمد الطفل فقط لَعَدّ هذا سفهاً؛ لأن الطفل ليس إلا مرسلاً فقط، وعلى هذا؛ فنقول: إنك إذا حمدتهم ناسياً بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء؛ فهذا هو الذى من ضعف اليقين، أما إذا حمدتهم على أنهم سبب من الأسباب، وأن الحمد كله لله ـ عزوجل ـ؛ فهذا حق، وليس من ضعف اليقين. أهـ

قلت: وقد تقدم الحديث القدسى« إنى والأنس والجن لفى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويُشكر سواى» وفيه ضعيف إلا أن معناه صحيح.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده(٢/ ٢٥٨)، وأبو داود (٤٨٠١١)، والترمذى (١٩٥٤) عن أبى هريرة به. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٥٦) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢١٨و ٢١٩.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٨، ٩٩، ١٢٧)، والبخارى فى «الأدب المفرد» (٢١٦)، وأبو داود (/ ٣١٠ ٢)، والنسائى (٥/ ٨٢).

وانظر «فتح المجيد» (ح٦٥٧) بتخريجنا.

قوله: «وأن تذمهم على مالم يؤتك الله».

قال سليمان آل الشيخ(١): **قوله: «وأن تذمهم على مالم يؤتك الله»** أى: إذا طلبتهم شيئاً فمنعوك ذممتهم على ذلك، فلو علمت يقيناً أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده وأن المخلوق مدبر لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وأن الله لو قدر لك رزقاً؛ أتاك ولو اجتهد الخلق كلهم فى دفعه، وأن أرادك بمنع لم يأتك مرادك ولو اجتمع الخلق كلهم فى إيصاله إليك لقطعت العلائق عن الخلائق وتوجهت بقلبك إلى الخالق تبارك وتعالى ولهذا قرر ذلك بقوله: **«إن رزق الله لايجره حرص حريص ولايرده كراهية كاره»** فلاترض الخلق بما يسخط الله، ولاتحمدهم على رزق الله، ولا تذمهم على مالم يؤتك الله طلباً لحصول رزق من جهتهم فـ **﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**

قال شيخ الإسلام: اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا ارضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لابوعد الله ولابرزق الله، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما فى أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم، ورجاء لهم وذلك من ضعف اليقين، وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر فى ذلك إلى الله لالهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشألم يكن، فإذا ذممتهم على ما يقدر كان ذلك من ضعف يقينك فلاتخفهم ولا ترجهم، ولاتذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمة الله ورسوله فهو المذموم.

ولَمَّا قَالَ بَعْضُ وَفْدِ بَنِى تَمِيم: أَىّ محمد أَعْطِنى فإِنَّ حَمْدِى زين وَذَمِّى شين قَالَ ﷺ، **«ذَاكَ الله»**(*) وفى الحديث: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال داخلة فى الإيمان وإلا لم تكن هذه الثلاث من ضعفه وأضدادها من قوته. أهـ

قال ابن عثيمين(٢): هذه عكس الأولى؛ فمثلاً: لو أن إنساناً جاء إلى شخص يوزع دراهم، فلم يعطه، فسبه وشتمه؛ فهذا من الخطأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٦٨و ٣٦٩.

(*) أخرجه الترمذى (٣٢٦٧) عن البراء به قال الترمذى : حسن غريب

وأنظر «فتح القدير» (١١٣٨٨ـ و«فتح المجيد» (ح٦٥٩) بتخريجنا)

(٢) القول المفيد ٢/ ٢١٩و ٢٢٠.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ التَمَسَ رِضَى اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ التَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِه[1].

لكن من قَصر بواجب عليه، فَيُذَم لأجل أنه قصّر بالواجب لا لأجل أنه لم يعط؛ فلايذم من حيث القَدَر؛ لأن الله لو قَدّر ذلك لوجدت الأسباب التى يصل بها إليك هذا العطاء.

وقوله: **«مالم يؤتك»**.

علامة جزمه حذف الياء، والمفعول الثانى محذوف؛ لأنه فضله، والتقدير: مالم يؤتكه. أهـ

قوله: «إنّ رزق الله لا يجره حرص حريص ولايرده كراهية كاره».

قال ابن عثيمين[2]: هذا تعليل؛ لقوله: **«أن تحمدهم وأن تذمهم»**.

و **«رزق الله»**: عطاؤه، لكن حرص الحريص من سببه بلا شك، فإذا بحث عن الرزق وفعلس الأسباب؛ فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستقل، وإنما الذى يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسباباً كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسباباً قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعى، كما لو وجد ركازاً فى الأرض أو مات له قريب غنى يرثه، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: **«ولايرده كراهية كاره»**.

أى: أن رزق الله إذا قَدّر للعبد، فلن يمنعه عن كراهية كاره؛ فكم من إنسان حسده الناس، وحاولوا منع رزق الله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

● ● ●

قوله: [وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «من التمس رضى الله...]

مناسبة الحديث للباب:

قال ابن عثيمين[3]: قوله: **«ومن التمس رضا الناس بسخط الله»**؛ أى: خوفاً منهم حتى يرضوا عنه؛ فقدم خوفهم على مخافة الله تعالى. أهـ

---

(١) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه»س (١/ ٢٤٧ـ الإحسان) من طريق واقد العمرى، عن أبيه، عن محمد بن المكندر ، عن عروة، عن عائشة به. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٦٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٢٠

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٢٢.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى[1]: حيث دل الحديث على وجوب إخلاص الخوف لله. لذا يكون الخوف نوعاً من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. أهـ

قوله: [رواه ابن حبان فى «صحيحه»].

قال ابن حبان فى «صحيحه» أخبرنا الحسن بن سفيان، قال: حدثنا عبد الله بن عمر الجعفى قال: حدثنى عبدالرحمن المحاربى، عن عثمان بن واقد العمرى، عن أبيه، عن محمد بن المنكدر، عن عروة، عن عائشة ... الحديث».

قوله: من التمس رضى الله بسخط الناس».

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله:** «من التمس» أى: طلب.

قال شيخ الإسلام: كتبت عائشة إلى معاوية وروى أنها رفعته «**من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن ارضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً**»[3] هذا لفظ المرفوع ولفظ الموقوف «من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أَرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً»[4] هذا اللفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه فى الدين والمأثور أحق وأصدق، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه. وكان عبده الصالح والله يتولى الصالحين وهو كاف عبده **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾** والله يكفيه مؤنة الناس بلاريب، **وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد يحصل ذلك**، لكن يرضون إذا سلموا من الاغراض، وإذا تبين لهم العاقبة، «**ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً**»، كالظالم الذى يعض على يديه، **وأما كون حامده ينقلب ذاماً** فهذا يقع كفراً ويحصل فى العاقبة، فإن العاقبة للتقوى لاتحصل ابتداء عند أهوائهم. **قلت:** وإنما يحمل الإنسان على إرضاء الخلق بسخط الخالق هو الخوف منهم. فلو كان خوفه خالصاً لله لما أرضاهم بسخطه، فإن العبيد فقراء عاجزون لاقدرة لهم على نفع ولا ضر البتة، وما بهم من نعمة فمن الله، فكيف يحسن بالموحد المخلص أن يؤثر رضاهم على رضاء رب العالمين؟ الذى له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، ومنه الخير كله، وإليه

---

(١) الجديد ٢٩٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٩و ٣٧٠

(٣) أخرجه الترمذى (٢٤١٤) عن عائشة به. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٦٢) بتخريجنا.

(٤) أخرجه الترمذى تحت الموضع السابق وموقوفاً وهو أشبه. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٦٣) بتخريجنا.

يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. وقد أخبر تعالى أن ذلك من صفات المنافقين فى قوله: **﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾** وما أحسن ما قيل:

إذا صح منك الود يا غاية المنى — فكل الذى فوق التراب تراب

قال ابن رجب: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟.

﴿إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾

وفى الحديث: عقوبة من خاف الناس واثر رضاهم على رضى الله، وأن العقوبة قد تكون فى الدين عياذاً بالله من ذلك. فإن المصيبة فى الأديان أعظم من المصيبة فى الأموال والأبدان.

وفيه شدة الخوف على عقوبات الذنوب، لاسيما فى الدين فإن كثيراً من الناس يفعل المعاصى ويستهين ولايرى أثراً لعقوبتها، ولايدرى المسكين بماذا أصيب؟ فقد تكون عقوبته فى قلبه كما قال تعالى: **﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، ويعفوك من عقوبتك، وبك منك، لانحصى إثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. أهـ

قال ابن عثيمين(١): «**التمس**»: طلب، ومنه قوله ﷺ فى ليلة القدر: «**التمسوها فى العشر**»(٢).

وقوله: «**رضا الله**».

أى: أسباب رضاه، قوله: «**بسخط الله**»: الباء للعوض؛ أى: إنه طلب ما يرضى الله ولو سخط الناس به بدلاً من هذا الرضا، وجواب الشرط: «**رضى الله عنه وأرضى عنه الناس**».

قوله: «**رضى الله عنه وأرضى عنه الناس**».

هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضا ربه بنية صادقة رضى الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقى فى قلوبهم من الرضا عنه ومحبته؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

---

(١) القول المفيد ٢/ ٢٢١و ٢٢٢.

(٢) تقدم تخريجه

قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله».

«التمس»: طلب؛ أى: طلب ما يرضى الناس، ولو كان بسخط الله؛ فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده، لهذا قال: **«سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»**؛ فألقى فى قلوبهم سخطه وكراهيته. أهـ

قال ابن عثيمين(١): فيستفاد من الحديث ما يلى:

١ـ وجوب طلب ما يرضى الله وإن سخط الناس؛ لأن الله هو الذى ينفع ويضر.

٢ـ أنه لايجوز أن يلتمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائناً من كان.

٣ـ إثبات الرضا والسخط لله على وجه الحقيقة، لكن بلا مماثلة للمخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل؛ فأنكروا حقيقة ذلك، قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لايليق بالله، وهذا خطأ؛ لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق، فنرد عليهم بأمرين: بالمنع، ثم النقض:

فالمنع: أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله ـ عزوجل ـ كغضب المخلوقين.

والنقض: فنقول للأشاعرة: أنتم أثبتم لله ـ عزوجل ـ الإرادة، وهى ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، والرب عز وجل لايليق به ذلك، فإذا قالوا: هذه إرادة المخلوق. نقول: والغضب الذى ذكرتم هو غضب المخلوق.

وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقيسة عقلية؛ فهذه الأقيسة باطلة لوجوه:

الأول: أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضى أن تكون هى الحق، ومدلول النصوص باطل، وهذا ممتنع.

الثانى: أنه تقوّلٌ على الله بغير علم؛ لأن الذى يبطل ظاهر النص يُؤوِّله إلى معنى آخر؛ فيقال له: ما الذى أدراك أن الله أراد هذا المعنى دون ظاهر النص؟ ففيه تقول على الله فى النفى والإثبات فى نفى الظاهر، وفى إثبات مالم يدل عليه دليل.

الثالث: أن فيه جناية على النصوص، حيث اعتقد أنها دالة على التشبيه؛ لأنه لم يعطل إلا لهذا السبب؛ فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفراً أو ضلالاً.

الرابع: أن فيها طعناً بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين؛ لأننا نقول: هذه المعانى التى صرفتم النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون بها أم لا؟

---

(١) القول المفيد ٢/ ٢٢٢: ٢٢٥.

فإن قالوا: لايعلمون؛ فقد اتهموهم بالقصور، وإن قالوا: يعلمون ولم يبينوها؛ فقد اتهموهم بالتقصير.

فلاتستوحش من نص دل على صفة أن تثبتها، لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما:

التمثيل والتكييف؛ لقوله تعالى: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾(١)، وقوله: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(٢)، فإذا أثبت الله لنفسه وجهاً أو يدين؛ فلاتستوحش من إثبات ذلك؛ لأن الذى أخبر به عن نفسه أعلم بنفسه من غيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً، وهو يريد لخلقه الهداية، وإذا أثبت رسوله ذلك له؛ فلاتستوحش من إثباته؛ لأنه ﷺ:

- أصدق الخلق.
- وأعلمهم بما يقول عن الله.
- وأبلغهم نطقاً وفصاحةً.
- وأنصح الخلق للخلق.

فمن أنكر صفة أثبتها الله لنفسه أو أثبتها له رسوله، وقال: هذا تقشعر منه الجلود وتنكره القلوب؛ فيقال: هذا لاينكره إلا إنسان فى قلبه مرض، أما الذين آمنوا؛ فلا تنكره قلوبهم، بل تؤمن به وتطمئن إليه، ونحن لم نُكَلَّف إلا بما بَلَغَنا، والله يريد لعباده البيان والهدى، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٣)؛ فهو لايريد أن يعمى عليهم الأمر، فيقول: إنه يغضب وهو لايغضب، ويقول: إنه يهرول وهو لايهرول هذا خلاف البيان. أهـ

● ● ●

قوله «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

قال ابن عثيمين(٤):

وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق.

---

(١) النحل: ٧٤.

(٢) الإسراء: ٣٦.

(٣) النساء: ٢٦.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٢٥و٢٢٦.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءةٌ).

الثالثة: تَفْسِير آيَةِ (العَنْكَبُوتِ).

الرابعة: أَنَّ اليَقِينَ يَضْعُفُ ويَقْوَى.

الخامسة: عَلاَمَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ: هَذِهِ الثَّلاثَ.

السادسة: أَنَّ إخْلاصَ الخَوْفِ لله مِنَ الفَرَائِضِ.

السابعة: ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ.

الثانية: تفسير آية براءة.

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، وسبق.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

تؤخذ من الحديث: «**إن من ضعف اليقين**...» الحديث.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

وهي: أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على مالم يؤتك الله.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

وتؤخذ من قوله في الحديث: «**من التمس**...» الحديث، ووجهه ترتيب العقوبة على من قدَّم رضا الناس على رضى الله تعالى.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

وهو رضا الله عنه، وأنه يرضى عنه الناس، وهو العاقبة الحميدة.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس، ولاينال مقصوده.

وخلاصة الباب:

أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالى بأحد فى شريعة الله تعالى، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه؛ فالعاقبة له، وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله انقلبت عليه الأحوال، ولم ينل مقصوده، بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس. أهـ.

قلت: وهو فى تعاسة وانتكاس دائماً وفيه قوله ﷺ تعس عبد الدرهم نعس عبدالدينا وفى الحديث أن اعطى رضى وإن عم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش وتقدم الحديث وشرحه.

● ● ●

باب (٣٢)

قَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾(١).

● **تمهيد:**

قال الفقير: تقدم فى باب (من حقق التوحيد دخل الجنة) شىء مما يتعلق بهذا الباب، فى حديث وصف السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب، فكان من وصفهم **«وعلى ربهم يتوكلون»**.

ونقلنا عن ابن حجر قول الجمهور فى معرفة التوكل وحقيقته وبيانه، حيث قالوا: التوكل يحصل بأن يثق بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولايترك اتباع السنة فى ابتغاء الرزق مما لابد له منه من مطعم، ومشرب، وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لاتجلب بذاتها نفعاً ولاتدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح فى توكله، وهم مع ذلك فيه على قسمين: واصل وسالك.

فالأول: صفة الواصل، وهو الذى لايلتفت إلى الأسباب ولوتعاطاها.

وأما السالك: فيقع له الالتفات إلى السبب أحياناً، إلا أنه يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية والأذواق الحالية إلى أن يرتقى إلى مقام الواصل. أهـ.

ثم ذكر ـ هناك ـ أدلة مشروعية الإكتساب وأنه من أفعال المتوكلين، كحديث أبى هريرة:

«أفضل ماأكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه»(**) وأيضاً الحذر لاينافى التوكل قال تعالى ﴿خذو حذركم﴾ ... وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالتوكل ذكرناها هناك بشىء من الإجمال، وهنا نتوسع عما سبق بما يناسب الباب، والله الموفق للصواب.

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال ناصر السعدى(*): إن كان هذا خوفاً وهمياً كالخوف الذى ليس له سبب أصلاً أوله سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه فى وصف الجبناء، وقد تعوذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا

---

(١) المائدة الآية: ٢٣.

(*) القول السديد (٩٠، ٩١)

(**) أخرجه البخارى (٢٠٧٢) عن المقدام بنحوه.

النوع حتى أن خواص المؤمنين وأقويائهم تنقلب المخاوف فى حقهم أمنا وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم القلبية وكمال توكلهم لهذا أتبعه بهذا الباب. أهـ.

وقال ابن عثيمين(١): ـ هى أن الإنسان إذا أفرد الله - سبحانه - بالتوكل؛ فإنه يعتمد عليه فى حصول مطلوبه وزوال مكروهه، ولا يعتمد على غيره. أ. هـ.

قلت: أى أن سبب تخويف الشيطان لأولياءه أنهم والوه وتركوا ولاية الله لهذا لم يعتمدوا عليه ولم يتوكلوا عليه فكانوا عرضة لتخويف الشيطان. والله أعلم.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(٢): فى الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة، وعلى أنه فرض، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك. اهـ.

وقال حامد بن محمد(٣): والتوكل هو الاعتماد على الله فى جلب منافعه ودفعه مضاره وهذا أمر يختص لله تعالى ومنحصر عليه فمن توكل على غيره أشرك الشرك الأكبر الذى يخلد صاحبه فى النار إن مات عليه. أهـ.

● مناسبة الآية لكتاب التوحيد:ـ

قال عبدالله بن جار الله(٤): أن التوكل على الله عبادة يجب إخلاصه لله فصرفه لغيره شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال ابن عثيمين(*): وهذه الآية تقتضى انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله، إلا إن حصل اعتماد كلى على غير الله، فهو شرك أكبر ينتفى له الإيمان كله. اهـ وسيأتى ذلك فى موضعه.

وقال القرعاوى(٥): حيث دلت الآية على أن التوكل على الله نوع من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. أهـ

ـ ماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال سليمان آل الشيخ(٦): ـ ومراد المصنف بهذه الترجمة النص على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما تقدم فى صفة السبعين ألفاً الذين

---

(١) القول المفيد (٢/٢٢٨).
(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٧١
(٣) فتح الله الحميد المجيد (٣٥٦).
(٤) الجامع الفريد ١٣٤.
(*) القول المفيد (٢/٢٣٦).
(٥) الجديد (٢٩٨)
(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٧١.

يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ ولذلك أمر الله به غير آية من القرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطاً فى الإيمان والإسلام ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه كما فى الآية المترجم لها. أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١): وأراد المصنف ـ رحمه الله ـ بهذه الترجمة للآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصها لله تعالى، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، أى: وعلى الله توكلوا لاعلى غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله فى جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى فهو من أعظم منازل ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ فلايحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله كما فى هذه الآية، وكما قال تعالى ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾ وقوله ﴿ **لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا**﴾ والايات فى الأمر به كثيرة جداً. أهـ.

قال عبدالعزيز بن باز(٢): أراد المصنف بهذه الترجمة بيان وجوب التوكل على الله، والاعتماد عليه فى جميع أمور الدين والدنيا، والتوكل هو التفويض إلى الله والثقة به والإيمان بأنه مسبب الأسباب وكل شيء بيده وماشاءه كان وما لم يشاءه لم يكن، ويعلم أن القدر قد سبقه بكل شيء، وليس للعبد قدرة على أى شيء لما يشاءه الله سبحانه وتعالى مع الأخذ بالأسباب. أهـ

● معنى التوكل لغة

قال أبو السعادات(٣): ـ يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمرى إلى فلان أى: ألجأته واعتمدت عليه فيه، وكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجز عن القيام بأمر نفسه انتهى.

وقال أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة(٤): اعلم أن التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلى فلان، أى فوض أمره واعتمد فيه عليه.

● حقيقة التوكل اصطلاحا

قال الغزالى(٥): التوكل منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالى درجات المقربين.

---

(١) فتح المجيد (٢/٤٧٦) (٢) التعليق المفيد(١٨١)
(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٢١) مادة: وكل
(٤) مختصر منهاج القاصدين (٣٣٢. (٥) إحياء علوم الدين (٥/ ١١٥)

وهو فى نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل.

ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع.

والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير فى وجه العقل وانغماس فى غمرة الجهل.

وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد أهـ.

وقدمنا من كلام ابن حجر قول الجمهور فى حقيقته.

قال أحمد عبدالرحمن بن قدامة(١): فالتوكل عبارة على اعتماد القلب على الموكل، ولايتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة. والقوة. والهداية.

فإذا عرفت هذا فقست عليه التوكل على الله سبحانه وإذا ثبت فى نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لامحالة ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك، فسببها أحد أمرين:

إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال.

وإما بضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ـ فإن القلب قد ينزعج بإبقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان فى اليقين، فإنه من كان يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه منه وتعذر عليه تناوله.

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً فى الحال، ولاينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن فى القلب، وهو نوع ضعف قلماً يخلو الإنسان منه، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً، حتى يخاف أن يبت فى البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذا لم يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً أهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٢): **قال الإمام أحمد**: التوكل عمل القلب. **وقال أبو إسماعيل الأنصارى**: التوكل كلة الأمر إلى مالكه والتعويل على وكالته. إذا تبين ذلك فمعنى الآية المترجم لها أن موسى عليه السلام أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم، ولا يرتدوا على أدبارهم خوفاً من الجبارين، بل يمضوا قدماً لا يهابونهم

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (٣٣٢). (٢) تيسير العزيز الحميد (٣٧١).

ولا يخشونـهم، متوكلين علـى الله فى هزيمتهم، مـصدقين بصحة وعده لـهم إن كانوا مؤمنين. أهـ

قال ناصر السعدى[1]: ـ وحقيقة التـوكل على الله: أن يعلم العـبد أن الأمر كله لله. وأنه ما شاء اللـه كان، وما لم يشألم يكـن، وأنه هو النافع الضار المعطى المانع، وأنه لا حول ولاقوة الا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه فى جلب مصالح دينه ودنياه، وفى دفع المضار ويـثق غايه الوثوق بربه فى حصول مطـلوبه، وهو مع هذا باذل جهده فى فعل الأسباب النـافعة. فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعـتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين

قال القرطبى[2]: التوكل الإعتمـاد على الله مع إظهار العجـز، والاسم التكلان. يقال منه: اتكلت عليه فى أمرى، وأصله «اوتكـلت» قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ثم أبدلت منها التاء وأدغمته فى تاء الافتعـال. ويقال وكلته بأمرى توكيلاً، والاسم الوكالة بكسر الواو وفتحها. أهـ

وقال ابن عثيمين[3]:

والتوكل

هو الاعتماد عـلى الله ـ سبحانه وتـعالى ـ فى حصول المطلـوب، ودفع المكروه، مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف له. أهـ

● **درجات التوكل:**

قال ابن القيم[4]:

الدرجة الأولى: فأول ذلك : معرفة بالرب وصفاته: من قـدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علـمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهـذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه فى مقام التوكل.

الدرجه الثانية: إثبات فى الأسباب والمسببات.

فإن من نـفاها فتوكلـه مدخول. وهذا عكس مـا يظهر فى بدوات الـرأى: أن إثبات الأسباب يقدح فى التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.

فالتوكل من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر

(١) القول السديد ٩٢ و ٩٣.
(٢) تفسير القرطبى٣/ ١٤٩٥.
(٣) القول المفيد ٢/٢٢٨.
(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥ ـ ١٢٨)

الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها. فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها. وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولايقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب فى مقام توحيد التوكل.

فإنه لا يستقم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة قلبه. فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لايصح إلابرفض الأسباب. وهذا حق. لكن رفضها عن القلب لاعن الجوارح. فالتوكل لايتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعاً منها متصلاً بها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه.

بحيث لايبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولاسكون إليها. بل يخلع السكون إليها من قلبه. ويلبسه السكون إلى مسببها.

وعلامة هذا : أنه لايبالى بإقبالها وإدبارها . ولايضطرب قلبه، ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره. لأن اعتماده على الله، وسكونه إليه، واستناده إليه، قد حصنه من خوفها ورجائها.

الدرجة الخامسة : حسن الظن بالله عزوجل.

فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له. يكون توكلك عليه. ولذلك فسَّرَ بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق : أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه. إذ لايتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لاترجوه. والله أعلم.

الدرجه السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته.

وبهذا فسره من قال: أن يكون العبد بين يدى الله. كالميت بين يدى الغاسل، يقلبه كيف أراد. لايكون له حركة ولا تدبير.

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير. يعنى الاستسلام لتدبير الرب لك. وهذا فى غير باب الأمر والنهى. بل فيما يفعله بك. لا فيما أمرك بفعله.

فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له. وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة السابعة: التفويض

وهو روح التوكل ولُبُّهُ وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلَفَهَا وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته.

فإذا وضع قدمه فى هذه الدرجة . انتقل منها إلى درجة «الرضى»

الدرجة الثامنة: الرضا

هى ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل: بها. فإنما فسر بأجلّ ثمراته، وأعظم فوائده. فإنه إذا توكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا ـ رضى الله عنه ـ يقول : المقدور يكتنفه أمران : التوكل قبله، والرضى بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل ورضى بالمقضى له بعد الفعل . فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

قلت ـ ابن القيم ـ: وهذا معنى قول النبى ﷺ فى دعاء الاستخارة «**اللهم إنى أستخيرك بعلمك. وأستقدرك بقدرتك . وأسألك من فضلك العظيم**» فهذا توكل وتفويض . ثم قال: «**فإنك تعلم ولا أعلم . وتقدر ولا أقدر. وأنت علام الغيوب**» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التى هى أحب ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً، أو آجلا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلا. فهذا هو حاجته التى سألتها . فلم يبق عليه إلا الرضى بما يقضيه له. فقال: « **وأَقدر لى الخير حيث كان . ثم رَضِّنِى به**»(١).

(١) البخارى تقدم تخريجه

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها: التوكل والتفويض . قبل وقوع المقدور. والرضى بعده. وهو ثمرة التوكل . والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له. فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل. وتثبت قدمه فيه. وهذا معنى قول بشر الحافى: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله. لو توكل على الله لرضى بما يفعله الله به.

وقول يحيى بن معاذ ـ وقد سئل : متى يكون الرجل متوكلاً؟ ـ فقال إذا رضى بالله وكيلاً. أهـ.

التوكل أصل لجميع مقامات الإسلام والإيمان والإحسان:ـ

قال سليمان آل الشيخ (١):ـ

قال ابن القيم: فجعل التوكل على الله شرطاً فى الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه وفى الآية الآخرى: ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾(٢) فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وقال: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾(٣) فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد. والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام. وبين التوكل والهداية. فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقوماته إلا على ساق التوكل.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ(٤): ـ وفى الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة، وعلى أنه فرض، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٢.

(٢) يونس: ٨٤.

(٣) إبراهيم: ١١ .

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٧١.

قال شيخ الإسلام: وما جاء أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (١). أهـ

«التوكل» من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى.

قال ابن القيم(*) : فإن التوكل له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار، والتواب ، والعفو ، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطى ، والمحسن» وتعلق باسم «المعز المذل، الحافظ. الرافع ، المانع» من جهة توكله عليه فى إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلق بأسماء «القدرة،والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل. وكلما كان بالله أعرف، كان توكله أقوى أهـ.

التوكل من أعظم واجبات التوحيد والإيمان.

قال ناصر السعدى(٢):- التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد الإيمان وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه ويتسع توحيده والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به فى كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه. أهـ

قال ابن عثيمين بعد ما بين أقسام التوكل(٣): -

ومما سبق يتبين أن التوكل من أعلى المقامات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحباً له فى جميع شؤونه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية»؛ لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى، والإنسان لا يعتمد إلا على من كل كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

---

(١) الحج: ٣١

(*) مدارج السالكين (٢/ ١٣٠)

(٢) القول السديد ٩١ و ٩٢

(٣) القول المفيد ٢٣٤ و ٢٣٥.

وكذلك القدرية؛ لأنهم يقولون: إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف فى أعمال العباد.

ومن ثمَّ نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين. أهـ

● دعاوى تشتبه بالتوكل والرد عليها:

قال ابن القيم(١): وكثيراً ما يشتبه فى هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشتبه التفويض بالإضاعة . فيضيع العبد حظه. ظناً منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هو تضييع لاتفويض. فالتضييع فى حق الله. والتفويض فى حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكَلِّ. فيظن صاحبه أنه متوكل. وإنما هو عامل على عدم الراحة.

وعلامة ذلك: أن المتوكل مجتهد فى الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد مستريح من غيرها لتعبه بها. والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة. وتسقط به عنه مطالبة الشرع. فهذا لون. وهذا لون.

ومنه : اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة. فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركون إليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه : اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله فى طلوع ثمرته، وتنمتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض. والمغتر العاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذلك المجهول.

ومنه : اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه. ولايميز بينهما إلا صاحب البصيرة. كما يذكر عن أبى سليمان الدارانى: أنه رأى رجلاً بمكة لايتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام . فقال له أبو سليمان يوماً : أرأيت لو غارت زمزم؛ أى شىء كنت تشرب؟ فقام وقبل رأسه، وقال : جزاك الله خيراً، حيث أرشدتنى. فإنى كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم .وهم يظنون أنه إلى الله. وعلامة

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٢٨، ١٢٩، ١٣٠)

ذلك: أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره هَمَّهُ وبَثُّه وخوفه. فعلم أن طمأنيته وسكونه لم يكن إلى الله.

ومنه: اشتباه الرضى عن الله بكل ما يفعله بعبده ـ مما يحبه ويكرهه ـ بالعزم على ذلك، وحديث النفس به. وذلك شيء والحقيقة شيء آخر. كما يحكى عن أبى سليمان أنه قال: أرجو أن أكون أعطيت طرفاً من الرضى، لو أدخلنى النار لكنت بذلك راضياً.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذا عزم منه على الرضى وحديث نفس به. لو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء. وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته.

ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله. فيظن أنه متوكل. وليس من أهل التوكل. فحال التوكل: أمر آخر من وراء العلم به. وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها. وحال المحب العاشق وراء ذلك، وكمعرفة علم الخوف وحال الخائف وراء ذلك وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً فى توكله، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله. ويمكنه نيلها بأيسر شيء. وتفريغ قلبه للتوكل فى زيادة الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير فى العالم خيراً فهذا توكل العاجز القاصر الهمة. كما يصرف بعضهم همته وتوكله. ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين. وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين والله أعلم. اهـ.

● أقسام التوكل على غير الله.

قال سليمان آل الشيخ(١):ـ

التوكل على غير الله قسمان.

أحدهما: التوكل فى الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت فى رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة؛ فهذا شرك أكبر فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٣.

الثانى: التوكل فى الأسباب الظاهرة العادية، كمن يتوكل على أمير أو سلطان، فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك. فهذا نوع شرك خفى.

والوكالة الجائزة: هى توكل الإنسان فى فعل مقدور عليه. ولكن ليس له أن يتوكل وإن وكله بل يتوكل على الله ويعتمد عليه فى تيسير ما وكله فيه كما قرره شيخ الإسلام. أهـ.

وقال ابن عثيمين(١): شارحاً ومفصلاً كلام سليمان آل الشيخ فى التوكل على غير الله.

والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر؛ فيعتمد عليه اعتماداً كاملاً، مع شعوره بافتقاره إليه؛ فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومَنْ صرفه لغير الله؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً فى الكون، فيعتمد عليهم فى جلب المنافع ودفع المضار.

الثانى: الاعتماد على شخص فى رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفى، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته فى حصول رزقه، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار؛ فتجد فى نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر؛ فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه، كما لو وكلت شخصاً فى بيع شىء أو شرائه، وهذا لا شىء فيه؛ لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا له فوقه؛ لأنه جعله نائباً عنه، وقد وكل النبى ﷺ على بن أبى طالب أن يذبح ما بقى من هديه (٢)، ووكل أبا هريرة على الصدقة (٣)، ووكل عروة بن الجعد أن يشترى له أضحية (٤)، وهذا بخلاف القسم الثالث؛ لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده على المُتَوكَل عليه اعتماد افتقار. أهـ

(١) القول المفيد ٢/ ٢٣٣ و ٢٣٤.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٤/ ٤٢٩/ ١٤٧) عن جابر به.

(٣) أخرجه البخارى تعليقاً وتقدم

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٤٣) وانظر «بلوغ المرام» بتخريجنا وانظر شرحى «لزاد المعاد» لابن القيم.

قال سليمان آل الشيخ (١):ـ «وكل سبب لم يأذن به الله باطل مضر لمتخذه؛ فلا يتعاطى، وإذا حقق المؤمن أن الله ـ سبحانه ـ رب كل شيء وخالقه ومليكه؛ فإنه لا ينكر ما خلقه الله تعالى من الأسباب، كما جعل المطر سبباً للنبات.

قال تعالى: ﴿**وما أنزلَ اللَّهُ منَ السَّمَاءِ من مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا من كُلِّ دَابَّةٍ**﴾ (٢)، وجعل الشمس والقمر سببين لما يخلقه بهما، والدعاء سبباً لما يحصل للمدعو له أو عليه، والدواء سبباً لذهاب الداء، قد نبه على ذلك النبى ﷺ بقوله: «**لم ينزل الله داءً إلا أنزل له شفاء**» (يعنى: دواء)، «**علمه من علمه، وجهله من جهله**»(٣).

رواه: الإمام أحمد فى «مسنده» من حديث أسامة بن شريك، وفى لفظ: «**إن الله لم يضع داء إلا وضع له دواءً أو شفاءً إلا داء واحداً**. قالوا: يارسول الله! وما هو؟ قال: **الهرم**»(٤).

وهذا يعم داء القلب والروح والبدن، أرشد ﷺ العرنيين لما شكوا له الوخم ووجع البطن أن يلحقوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها،(٥) وجعل الجهل داء ودواؤه سؤال العلماء.

قال رسول الله ﷺ فى قصة صاحب الشجة: «**قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذا لم يعلموا؛ فإنما شفاء العى السؤال**»(٦)، كما أن وجود الداء سبب للألم.

روى مسلم فى «صحيحه» من حديث سهل بن حنيف عن النبى ﷺ؛ أنه قال: «**العين حق، ولو أن شيئاً سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**»(٧)، وكذا السحر، قال تعالى: ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** ﴾ (٨)؛ فهو سبب لألم الفؤاد، ويوجب البغضاء والفرقة بين الزوجين، والنار سبب للإحراق، والسكين سبب للقطع، والحبل سبب لإظهار الماء فى الدلو، وأكل الطعام سبب لذهاب ألم الجوع، وشرب الماء سبب لذهاب ألم العطش، والكدح بالاجتهاد فى تحصيل العلم سبب للفهم، والمتاجرة بالمال سبب لفائدة الربح، وطاعة الله سبب لرضائه ورحمته،

---

(١) التوضيح عن توحيد الخلاّق للشيخ سليمان صـ١٦٩ ص ـ١٧٢ نقلاً عن حاشية القول المفيد ٢/٢٢٨و٢٣١.

(٢) البقرة: ١٦٤.　　(٣) تقدم تخريجه　　(٤) تقدم تخريجه

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦٨٦)، ومسلم فى القسامة (١١/ ٥٣ ـ النووى) عن أنس به وانظر «السلسبيل» (٢٥٣٠ ـ بتخريجنا) وانظر شرحى «لزاد المعاد».

(٦) تقدم تخريجه　　(٧) تقدم تخريجه　　(٨) البقرة: ١٠٢.

ومعصيته سبب لسخطه انتقامه؛ فالأسباب المنصوص عليها لا تنكر، ولا يتكل عليها؛ إذ فى إنكارها نقص فى العقل، وفى الاتكال عليها شرك فى الدين، وكل من الإنكار والاتكال منتفٍ شرعاً، لكن قد يتخلف المسبب عنه مع قيام السبب؛ إذ الضار والنافع والمعطى والمانع هو الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(٢)، وكتخلف إحراق النار عن إبراهيم عليه السلام حين وضع فيها، وحدة السكين حين أمرّها الخليل على حلقوم ولده إسماعيل عليهما السلام، ولا محيص عن الأخذ فى الأسباب؛ فليس المتوكل من فتح للسارق الباب، ولا من قال: أنا متوكل أستغنى عن الطعام والشراب.

قال أفضل الأحباب لمن سأل: أيعقل الناقة أو يتكل؟! قال: «**اعقلها وتوكل**»(٣)

وأفضل المتوكلين أشد عباد الله حرصاً على فعل الأسباب؛ فقد أمر بإطفاء السراج والتسمية وإغلاق الأبواب(٤)، ونفض الفرش وطى الثياب(٥)، وحفظ الصبيان أول الليل لانتشار الشياطين(٦)، وهذا الباب لا يحصيه العادون من سنن المرسلين؛ فالأخذ فيها لا ينافى التوكل؛ لأنه الانقطاع عن جميع الخلق، وتفويض الأمور إلى الملك الحق وحده، وحينئذ؛ فلا بد أن يعرف فيها ثلاثة أمور:

أحدها: أنها لا تستقل بالمطلوب، بل تتعاطى عن غير ركون إليها، ومع هذا؛ فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الخلق.

الثانى: أنه غير جائز اعتقاد أن الشىء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو بما يخالف الشريعة؛ كان مبطلاً فى إثباته، آثماً فى اعتقاداته.

---

(١) البقرة: ١٠٢

(٢) الأنفال: ١٧.

(٣) حسن أخرجه الترمذى (٧/ ٢٥) عن أنس به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٧١٩) وقلنا هناك (حسن).

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٥٦٥٣)، ومسلم فى الأشربة (٧/ ٢٠١/ ٩٦) عن جابر به.

(٥) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٠)، ومسلم فى الذكر والدعاء (١٧/ ٣٧ ـ النووى) عن أبى. هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٦٣ ـ بتخريجنا).

(٦) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى الأشربة (٧/ ٢٠٢/ ٩٧) عن جابر به.

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ شيء منها سبباً إلا أن يكون مشروعاً، إما استحباباً، أو مأذوناً؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف؛ فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن يقول على الله بلا علم، فيدعو غير الله بما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول غرضه لاعتقاده أن ذلك المدعو يشفع له فيما دعاه فيه؛ لأنه جنس ما اعتقده الأولون في آلهتهم، وكذلك لا يجوز أن يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول ما يطلبه من أغراض دنياه أو ثواب أخراه على زعم اعتقاده؛ فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، والرسول ﷺ إنما بعث لتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به؛ فمصلحته راجحة، وما نهى عنه؛ فمفسدته راجحة، ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ (١).

من ذلك: قول المحرمات وقول السخريات ليتوصل بها إلى تحصيل شيء من أمتعة الدنيا أو القرب لدى ملك من ملوكها، قال تعالى ﴿**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾ (٢)، وكل شرك زور ولا عكس، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ (٣).

ومنه: التداوي بالمحرمات، فلم يجعل الله الشفاء فيما حرمه، بل نزعه عنه وأوهنه، والبدع التي ليست من شريعة الإسلام في شيء، بل هي من شعب الشرك الظاهرة، كأتربة أضرحة القبور لا يحل استعمالها أدوية، ولا تعاطيها لما في استعمالها من الاعتقادات الباطلة، والمفاسد في الدين الظاهرة؛ فهي أشبه بما فعله المشركون الأولون بآلهتهم من تعظيم الأصنام والتبرك والتمسح بها في كل مشهد خاص وعام.

ومنه: ما اعتنى به بعض الأغبياء الجهال وعوام الضلال دعوتهم بدعاء تمخشياً وتمشيشاً، ودعوتهم في الشدائد بأسماء أصحاب الكهف، وشمبخ وغيرهم، وبالدعوات المجهولات، يزعمون أن هذه من الأسماء العظام والأدعية المستجابات، وأنه من الإنجيل والتوراة؛ فكل هذا من تلبيس إبليس على هؤلاء الجند الذين اختاروه واختارهم؛ فلسنا ملتزمين في شريعتنا - ملة الإسلام - بتلك الأدعية في الصباح والمساء، ولم يقله أحد من العلماء الأدباء، بل الأغبياء السفهاء من القصاص اختاروها لتعزير العوام وجمع الحطام؛

---

(١) النور: ٤٠ (٢) الحج: ٣١
(٣) هود: ١١٣.

فلم يعاملوا الله بالإخلاص، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾،[1] وأما الأسماء المنهى عنها؛ فإن الشيطان يظهر تأثيرات ويورى تلبيسه فيها منافع ظاهرة فى أكثر الأحيان، وهى حسرات، بل قد يكون التلفظ بتلك الكلمات كفراً لا يعرف معناها بالعربية، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[2]، وكل واسطة أو وسيلة نهى الشارع عنها لا يجوز اتخاذها فى جلب نفع أو كشف ضر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [3] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[5]، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دهلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا، فأمر الله المسلمين أن يخلصوا له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم[6]

وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التى يقع عليها السجود مخلوقة لله، فلا تسجدوا عليها لغيره فى كل ما أريد إبداءه من خير ينفعه أو ضر يضره، قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [7]، وقال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[8]،؛ أى لا أحد؛ فلا يدانيه سبحانه أحد، ولا يستقبل سواه تعالى بما أراده، ولا يعطى لما منعه؛ فهذه الأسباب التى تتخذ وسائط ووسائل فى الجلب والدفع الذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده منفية بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ إلا أسباباً وردت عن الله أو رسوله؛ كالتوحيد، والصلاة بحضور قلب وخشوع وذل وانكسار، والدعاء، والاستغفار بعد الإقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على ألا يعود إليه، والأعمال الصالحة؛ من صدقة، وصلة رحم، وطاعة الله وتقواه؛ فهى الأسباب فى جلب الخير، ودفع الشر، كما صرح به القرآن الكريم والسنة».

(١) الأعراف: ١٨٠

(٢) الأنعام: ٣٨.

(٣) يونس: ١٠٦

(٤) الأنعام: ١٧.

(٥) الجن: ١٨

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر»(٦/ ٤٣٦) ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر

(٧) الرعد: ١٤ (٨) البقرة: ٢٥٥

●ضوابط الأسباب المشروعة والممنوعة وعلاقة ذلك بالتوكل

قال ابن عثيمين: ولا بد ـ أي للتوكل ـ من أمرين (١) :

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتماداً صادقاً حقيقياً.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب؛ نقص توكله على الله، ويكون قادحاً فى كفاية الله؛ فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

ومن جعل اعتماده على الله ملغياً للأسباب؛ فقد طعن فى حكمة الله؛ لأن الله جعل لكل شيء سبباً، فمن اعتمد على الله اعتمادا مجردا؛ كان قادحاً فى حكمة الله؛ لأن الله حكيم، يربط الأسباب بِمُسَبَّباتها، كمن يعتمد على الله فى حصول الولد وهو لا يتزوج.

والنبى ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب؛ فكان يأخذ الزاد فى السفر، ولما خرج إلى أُحد ظاهر بين درعين؛ أى: لبس درعين اثنين، ولما خرج مهاجراً أخذ من يدله الطريق، ولم يقل سأذهب مهاجراً وأتوكل على الله، ولن أصطحب معى من يدلنى الطريق، وكان ﷺ يتقى الحر والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله.

ويذكر عن عمر رضى الله عنه أن قدِم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجئ بهم إلى عمر، فسألهم، فقالوا: نحن المتوكلون على الله. فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون.

والتوكل نصف الدين، ولهذا نقول فى صلاتنا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢)؛ فنطلب من الله العَوْن اعتماداً عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٤)، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل؛ لأن الإنسان لو وُكِل إلى نفسه وُكِل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة؛ فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه فى

---

(١) القول المفيد ٢/٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣.
(٢) الفاتحة: ٥.
(٣) هود: ١٢٣.
(٤) التوبة: ١٢٩.

أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد فى الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك؛ فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نُوفَّق إلى حصول المقصود كما هو الغالب، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها. أهـ

وانظر أيضاً كلام ابن القيم فى: (باب من الشرك لبس الحلقة). اهـ.

● ● ●

● **الإعراب** [2] ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّؤْمنِينَ﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة مسوقه لتوصيتهم بالإتكال على الله أولاً، والأخذ بأسباب الحيطة والحذر ثانياً، والفاء فى قوله، [فتوكلوا] جواب أمر محذوف لابد من تقديره: تنبهوا فتوكلوا على الله، وعلى الله متعلقان بتوكلوا كما قالت العرب: زيداً فاضرب، تقديره: تنبه فاضرب زيداً، وكثيراً ما يأتى معمول ما بعد الفاء متقدماً عليها. وإن شرطية، وكنتم فعل ماض ناقص فى محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمها ومؤمنين خبرها، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله، أى: فتوكلوا. أهـ.

وقال ابن عثيمين[3]: قوله تعالى: **﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾**

﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلقة بقوله: **﴿تَوَكَّلُوا﴾**، وتقديم المعمول يدل على الحصر؛ أى: على الله لا على غيره، **﴿فَتَوَكَّلُوا﴾**؛ أى: اعتمدوا.

والفاء لتحسين اللفظ وليست عاطفة؛ لأن فى الجملة حرف عطف وهو الواو، ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين؛ فتكون لتحسين اللفظ؛ كقوله تعالى: **﴿بل الله فاعبد﴾**، والتقدير: «بل الله اعبد».

قوله: **﴿إن كُنتُم مُّؤْمنِينَ﴾**

﴿إن﴾: شرطية، وفعل الشرط **﴿كُنتُم﴾**، وجوابه قيل: إنه محذوف دل عليه ما قبله، وتقدير الكلام: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا، وقيل: إنه فى مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب اكتفاء بما سبق؛ فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشئ، وهذا أرجح؛ لأن الأصل عدم الحذف.

---

(١) المائدة: ٢٣.

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٤٤

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٣٥ و ٢٣٦.

وقول أصحاب موسى فى هذه الآية يفيد أن التوكل من الإيمان ومن مقتضياته، كما لو قلت: إن كنت كريماً فأكرم الضيف. فيقتضى أن إكرام الضيف من الكرم.

وهذه الآية تقتضى انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله؛ إلا إن حصل اعتماد كُلِّى على غير الله؛ فهو شرك أكبر ينتفى له الإيمان كله. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى:(١) وهذا أيضاً خبر من الله جل وعز عن قول الرجلين اللذين يخافان الله أنهما قالا لقوم موسى يشجعانهم بذلك ويرغبانهم فى المضى لأمر الله بالدخول على الجبارين فى مدينتهم توكلوا أيها القوم على الله فى دخولكم عليهم ويقولون لهم ثقوا بالله فإنه معكم إن أطعتوه فيما أمركم من جهاد عدوكم، وعنيا بقولهما ان كنتم مؤمنين إن كنتم مصدقى نبيكم ﷺ فيما أنبأكم عن ربكم من النصرة والظفر عليهم وفى غير ذلك من أخباره عن ربه ومؤمنين بأن ربكم قادر على الوفاء لكم بما وعدكم من تمكينكم فى بلاد عدوه وعدوكم. اهـ.

قال ﴿الرازى﴾ (٢) **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** يعنى لما وعدكم الله تعالى النصر فلا ينبغى أن تصيروا خائفين من شدة قوتهم وعظم أجسامهم بل توكلوا على الله فى حصول هذا النصر لكم إن كنتم مؤمنين مقرين بوجود الإله القادر ومؤمنين بصحة نبوة موسى عليه السلام. اهـ.

قال: ابن كثير:(٣) **﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** أى إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم ودخلتم البلد التى كتبها لكم فلم ينفع ذاك فيهم شيئاً. اهـ.

قال السعدى:(٤) **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** فإن فى التوكل على الله - وخصوصاً فى هذا الموطن - تيسيراً للأمر ونصراً على الاعداء.

---

(١) الطبرى ٤/٦/١١٥.

(٢) الفخر الرازى ٦/١١/٢٠٤.

(٣) ابن كثير ٢/٣٧.

(٤) تفسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٤)

دل هذا على وجوب التوكل وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله. اهـ.

قال صاحب الظلال (٢):

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فعلى الله وحده - يتوكل المؤمن وهذه هى خاصية الإيمان وعلامته وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟ لبنى إسرائيل؟!. اهـ.

●●●

قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

● مناسبة الآية الباب:-

قال القرعاوى: (٣) حيث دلت الآية على وجوب التوكل على الله دون من سواه. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:-

قال القرعاوى (٤) حيث دلت الآية أن التوكل نوع من العبادة، وصدق العبادة لغير الله شرك. اهـ.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

● الإعراب: (٥).

إنما كافة ومكفوفة، والمؤمنون مبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان من أراد بالمؤمنين، بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث الآتية، والذين خبر، وإذا ظرف لما يستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة ذكر الله فى محل جر بالإضافة، والله نائب فاعل، وجملة وجلت قلوبهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم. اهـ.

---

(١) الأنفال: ٢

(*) تنبيه/ بعض شراح كتاب التوحيد أتى بالآية هكذا والبعض زاد ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

(٢) ظلال التفسير ٢/ ٨٧٠.

(٣ - ٤) الجديد ٣٠٠

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٥٢٧

فإن إيمان هذه الساعة زيادةٌ على إيمان أمس؛ فمن صدّق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدّم. وقيل: هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة؛ ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾ أي الذى استوى فى الإيمان ظاهرُهم وباطنهم. ودل هذا على أن لكل حق حقيقة؛ وقد قال عليه السلام لحارثة: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك»؟ الحديث.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد؛ أمؤمن أنت؟ فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن. وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾ فوالله ما أدرى أنا منهم أم لا.

وقال أبو بكر الواسطِىّ: من قال أنا مؤمن بالله حقا؛ قيل له: الحقيقة تشير إلى إشراف واطلاع وإحاطة؛ فمن فقده بطل دعواه فيها.

يريد بذلك ما قاله أهل السنة: إنّ المؤمن الحقيقى من كان محكوما له بالجنة، فمن لم يعلم ذلك من سرّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح. اهـ.

قال ابن كثير(١): قد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية، وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب كما هو مذهب جمهور الأمّة بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة. اهـ.

قلت: وهذا فيه رد على الرازى وغيره كالقرطبى الذين قالوا أن الإيمان هو التصديق فقط كما تقدم.

قال الشوكانى(٢): والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة، أو التعبير عن بديع صنعته، وكمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع، وعجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون. **قيل: والمراد بزيادة الإيمان** هو زيادة انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات. وقيل: المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل؛ لأن الإيمان شىء واحد لايزيد ولا ينقص والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه. اهـ.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٥.

(٢) فتح القدير ٢/ ٣٠٢.

قال ناصر السعدى[1]: ووجه ذلك، أنهم يلقون له السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم

لأن التدبر من أعمال القلوب، لأنه لابد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه ويتذكرون ما كانوا نسوه.

أو يحدث فى قلوبهم رغبة فى الخير واشتياقاً إلى كرامة ربهم.

أو وجلاً من العقوبات وازدجارا عن المعاصى، وكل هذا مما يزيد به الإيمان.

قال صاحب الظلال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

والقلب المؤمن يجد فى آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهى به إلى الاطمئنان.. إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشرى بلا وساطة، ولا يحول بينه وبينه شيء إلا الكفر الذى يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه؛ فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن.

لذلك يتكرر فى القرآن تقرير هذه الحقيقة فى أمثال قوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**.. ومن ذلك قول أحد الصحابة ـ رضوان الله عليهم: كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن.

وبهذا الإيمان كانوا يجدون فى القرآن ذلك المذاق الخاص. يساعدهم عليه ذلك الجو الذى كانوا يتنسمونه؛ وهم يعيشون القرآن فعلاً وواقعاً؛ ولا يزاولونه مجرد تذوق وإدراك؛ وفى الروايات الواردة فى نزول الآية قول سعد بن مالك وقد طلب أن ينفله رسول الله ﷺ السيف، قبل أن ينزل القران الذى يرد ملكية الأنفال للرسول ﷺ فيتصرف فيها بما يريد. وقد قال له: «**إن هذا السيف لا لك ولا لى، ضعه**» فلما نودى سعد من ورائه بعد وضعه السيف وانصرافه، توقع أن يكون الله ـ سبحانه ـ قد أنزل فيه شيئاً؛ قال: «قلت: قد أنزل الله فىّ شيئاً» قال رسول الله ﷺ: «**كنت سألتنى السيف وهو ليس لى، وإنه قد وهب لى، فهو لك**»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٨٤.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٩١) ونسبه لأحمد، وابن مردويه، وأبى داود، والترمذى وصححه، والنسائى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الإعراب[1]: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ صفة ثالثة داخلة فى نطاق الصلة للموصول، وعلى ربهم جار ومجرور متعلقان بيتوكلون، والتقديم يفيد الاختصاص، أى: عليه لا على غيره.

● ما جاء فى الآية من الآثار:

روى ابن جرير بسنده عن قتادة وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون قال هذا نعت أهل الإيمان فأثبت نعتهم ووصفهم فأثبت صفتهم[2].

عن سعيد بن جبير قال: التوكل على الله جماع الإيمان[3].

عن ابن عباس قال: التوكل جماع الإيمان[4].

عن سعيد بن جبير قال: التوكل على الله نصف الإيمان[5].

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[6]: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول والله يوقنون فى أن قضاءه فيهم ماض فلايرجون غيره ولايرهبون سواه. اهـ.

قال البغوى[7]: قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يفوضون إليه أمورهم ويثقون به، ولا يرجون غيره، ولايخافون سواه.

قال الرازى[8]: الصفة الثالثة: للمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ واعلم أن صفة المؤمنين أن يكونوا واثقين بالصدق فى وعده ووعيده، وأن يقولوا صدق الله ورسوله، وأن لايكون قولهم كقول المنافقين ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ثم نقول: هذا الكلام يفيد الحصر، ومعناه: أنهم لايتوكلون إلا على ربهم، وهذه الحالة

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٥٢٧.

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ١٢١).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٩٧) ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد فى «الزهد» وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى «الشعب».

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للبيهقى.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٩٨) ونسبه لابن أبى حاتم، فانظره بتخريجنا.

(٦) ابن جرير (٩/ ١٢٠).

(٧) معالم التنزيل ٢/ ٥٩٦.

(٨) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ١٢٤.

مرتبة عالية ودرجة شريفة. وهى: أن الإنسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد فى أمر من الأمور إلا على الله.

واعلم أن هذه الصفات الثلاثة مرتبة علـى أحسن جهات الترتيب، فإن المرتبة الأولى هى: الوجل من عقاب الله.

والمرتبة الثانية: هى الانقياد لمقامات التكاليف لله.

والمرتبة الثالثة: هى الانقطاع بالكلية عما سوى الله، والاعتماد بالكلية على فضل الله، بل الغنى بالكلية عما سوى الله تعالى. اهـ.

قال ابن كثير(١): ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ وأنه المتصرف فى الملك وحده لا شريك له ولا معقب لحكـمه وهو سـريع الحسـاب، ولهذا قـال سعيد بـن جبيـر: التوكـل على الله جـماع الإيمان. اهـ.

قال ناصر السعدى(٢): ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لاشريك له.

﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يعتـمدون فى قلـوبهم علـى ربهم، فى جـلـب مصالحـهم، ودفع مضارهـم الدينية، والدنـيوية، ويثقون بـأن الله تعالى سيـفعل. والتوكل: هـو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به. اهـ.

قال صاحب «الظلال»: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

عليه وحده.. كمـا يفيده بناء العبارة. لايشـركون معه أحداً يستعينـون به ويتوكلون علـيه.. أو كمـا عقب عـليهـا الإمام ابن كثـير فى الـتفسـير: «أى لايرجـون سواه»، ولايقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يـطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويـعلمون أنـه ما شاء كان ومـا لم يشأ لـم يكن، وأنه المـتصرف فى المـلك لاشريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد ابن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان(٣).

وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله؛ وإخلاص العبادة له دون سواه فما يمكن أن

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٥و ٢٧٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٨٤.

(٣) تقدم تخريجه.

يجتمع فى قلب واحد، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه. والذين يجدون فى قلوبهم الاتكال على أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء فى قلوبهم عن الإيمان بالله!

وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب. فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها؛ ولكنه لايجعل الأسباب هى التى تنشىء النتائج فيتكل عليها. إن الذى ينشىء النتائج ـ كما ينشىء الأسباب ـ هو قدر الله. ولا علاقة بين السبب والنتيجة فى شعور المؤمن اتخاذ السبب عبادة بالطاعة وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لايقدر عليه إلا الله.. وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها؛ وفى الوقت ذاته وهو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله فى استيفائها.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾.

وهنا نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة ـ بعد ما رأيناه فى الصفات السابقة مشاعر قلبية باطنة ـ ذلك أن الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل. فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان التى لابد من ظهورها للعيان، لتشهد بالوجود الفعلى لهذا الإيمان.

وإقامة الصلاة ليست مجرد أدائها. إنما هى الأداء الذى يحقق حقيقتها. الأداء الكامل اللائق بوقفة العابد فى حضرة المعبود ـ سبحانه ـ لامجرد القراءة والقيام والركوع والسجود والقلب غافل! وهى فى صورتها الكاملة تلك تشهد للإيمان بالوجود فعلاً.

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

فى الزكاة وغير الزكاة.. وهم ينفقون ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.. فهو بعض مما رزقهم الرازق.. وللنص القرآنى دائماً ظلاله وإيحاءاته. فهم لم يخلقوا هذا المال خلقا، إنما هو مما رزقهم الله إياه ـ من بين ما رزقهم وهو كثير لايحصى ـ فإذا أنفقوا فإنما ينفقون بعضه. ويحتفظون منه ببقية، والأصل هو رزق الله وحده!

تلك هى الصفات التى حدد الله بها ـ فى هذا المقام ـ الإيمان. وهى تشمل الاعتقاد فى وحدانية الله؛ والاستجابة الوجدانية لذكره؛ والتأثر القلبى بآياته؛ والتوكل عليه وحده؛ وإقامة الصلاة له، والإنفاق من بعض رزقه. اهـ.

●●●

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(١)

قوله: [﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾].

● **مناسبة الآية للباب.**

قال عبدالله بن جار الله(٢): هي أنه إذا كان الله هو الكافي لعبده وجب أن لايتوكل إلا عليه. اهـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوي(٣): حيث دلت الآية على أن التوكل نوع من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● **الإعراب(٤):**

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حسبك خبر مقدم والله مبتدأ مؤخر أو بالعكس ومن عطف على الله وجملة اتبعك صلة ومن المؤمنين حال.

والمعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون، أى كافيك الله وكافيك المؤمنون ويحتمل أن تكون بمعنى مع وما بعده منصوب، كما تقول: حسبك وزيداً درهم، والمعنى كافيك وكافى المؤمنين الله، لأن عطف الظاهر على المضمر فى مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر فى علم النحو، وأجازه الكوفيون، قال الفراء: ليس بكثير فى كلامهم أن تقول: حسبك وأخيك، بل المستعمل أن يقال: حسبك وحسب أخيك، بإعادة الجار فلو كان قوله ومن اتبعك مجروراً لقيل: حسبك الله وحسب من اتبعك، واختار النصب على المفعول معه النحاس. اهـ.

● **الفوائد اللغوية والنحوية:**

حسب: قال أبوحيان: وحسبك مبتدأ مضاف إلى الضمير وليس مصدراً ولا اسم فاعل.

قال سيبويه: «قالوا حسبك وزيداً درهم لما كان فيه من معنى كفاك وقبح أن يحملوه على المضمر نووا الفعل كأنه قال: حسبك وبحسب أخاك درهم ولذلك كفيك» كفيك

---

(١) الأنفال: ٦٤.

(٢) الجامع الفريد ١٣٦.

(٣) الجديد ٣٠١.

(٤) إعراب القرآن ٤/٣٨و ٣٩.

وهو من كفاه يكفيه، وكذلك قطك تقول: كفيك وزيداً درهم، وقطك وزيداً درهم، وليس هذا من باب المفعول معه وإنما جاء سيبويه به حجة للحمل على الفعل للدلالة. فحسبك يدل على كفاك ويحسبنى مضارع أحسبنى فلان إذا أعطانى حتى أقول حسبى. فالناصب فى هذا فعل يدل عليه المعنى، وهو فى: كفيك وزيداً درهم. أوضح لأنه مصدر للفعل المضمر أى ويكفى زيداً. وفى قطك وزيداً درهم التقدير فيه أبعد، لأن قطك ليس فى الفعل المضمر شىء من لفظه، إنما هو مفسر من حيث المعنى فقط. وفى ذلك الفعل المضمر فاعل يعود على الدرهم، والنية بالدرهم التقديم، فيصير من عطف الجمل، ولايجوز أن يكون من باب الإعمال لأن طلب المبتدأ للخبر وعمله فيه ليس من قبيل طلب الفعل أو ما جرى مجراه ولا عمله، فلايتوهم ذلك فيه.

وقال الزجاج: «حسب اسم فعل والكاف نصب والواو بمعنى مع»، فعلى هذا يكون الله فاعلاً لحسبك، وعلى هذا التقدير يجوز فى: ومن أن يكون معطوفاً على الكاف لأنها مفعول باسم الفعل لا مجرور، لأن اسم الفعل لايضاف، إلا أن مذهب الزجاج خطأ لدخول العوامل على حسبك، تقول: بحسبك درهم وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ ولم يثبت كونه اسم فعل فى مكان فيعتقد فيه أنه يكون اسم فعل واسماً غير اسم فعل كرويد. اهـ.

قال الشنقيطى: قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ فى محل رفع بالعطف على اسم الجلالة، أى حسبك الله، وحسبك أيضاً من ابتعك من المؤمنين.

وممن قال بهذا: الحسن، واختاره النحاس وغيره، كما نقله القرطبى، وقال بعض العلماء، هو فى محل خفض بالعطف على الضمير الذى هو الكاف فى قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وعليه.

فإن قيل: هذا الوجه الذى دل عليه القرآن، فيه أن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، ضعفه غير واحد من علماء العربية، قال ابن مالك فى [الخلاصة]:

وعود خافض لدى عطف على ... ضمير خفض لازماً قد جعلا

فالجواب من أربعة أوجه:

الأول: أن جماعة من علماء العربية صححوا جواز العطف من غير إعادة الخافض، قال ابن مالك فى [الخلاصة]:

وليس عندى لازماً إذ قد أتى ... فى النظم والنثر الصحيح مثبتا

وقد قدمنا فى «سورة النساء» فى الكلام على قوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾(١) شواهده العربية، ودلالة قراءة حمزة عليه، فى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾(٢).

الوجه الثانى: أنه من العطف على المحل، لأن الكاف مخفوض فى محل نصب، رد معنى ﴿حَسْبُكَ﴾ يكفيك، قال فى [الخلاصة]:

وجر ما يتبع ما جر ومن ... راعى فى الاتباع المحل فحسن

الوجه الثالث: نصبه بكونه مفعولاً معه، على تقدير ضعف وجه العطف، كما قال فى [الخلاصة]:

والعطف إن يمكن بلا ضعف أحق ... والنصب مختار لدى ضعف النسق

الوجه الرابع: أن يكون ﴿وَمَنِ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أى ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحسبهم الله أيضاً، فيكون من عطف الجملة، والعلم عند الله تعالى. اهـ

قال ابن عثيمين: و ﴿النَّبِيُّ﴾.

فعيل بمعنى مفعَل بفتح العين ومفعِل بكسرها؛ أى: مُنبَأ، ومُنْبِىء؛ فالرسول ﷺ منبأ من قبل الله، ومنبىء لعباد الله.

قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾.

أى: كافيك، والحَسْبُ: الكافى، ومنه قولهم: أعطى درهماً فحسب، وحسب خبر مقدم، والله مبتدأ مؤخر، والمعنى: ما الله إلا حسبك، ويجوز العكس؛ أى: أن تكون حسب مبتدأ والله خبره، ويكون المعنى: ما حسبك إلا الله، وهذا أرجح.

قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿مَنِ﴾: اسم موصوف مبنية على السكون، وفى عطفها رأيان لأهل العلم: قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين؛ فـ ﴿مَنِ﴾ معطوفة على الله لأنه أقرب، ولو كان العطف على الكاف فى حسبك؛ لَوَجَب إعادة الجار، وهذا كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيكونون حَسْباً له هنا كما كان الله حَسْباً له.

---

(١) النساء: ١٢٧. (٢) النساء: ١.

وهذا ضعيف، والجواب عنه من وجوه:

أولاً: قولهم: عطف عليه لكونه أقرب ليس بصحيح؛ فقد يكون العطف على شيء سابق، حتى إن النَّحْويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف على الأول.

ثانياً: قولهم: لو عطف على الكاف لوجب إعادة الجار، والصحيح أنه ليس بلازم، قال ابن مالك: إذ قد أتى فى النظم والنثر الصحيح مثبتاً.

ثالثاً: استدلالهم بقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾** فالتأييد لهم غير كونهم حسبه؛ لأن معنى كونهم حسبه أن يعتمد عليهم، ومعنى كونهم يؤيدونه أى ينصرونه مع استقلاله بنفسه، وبينهما فرق.

رابعاً: أن الله ـ سبحانه ـ حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه، قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾**؛ فَفَرَّق بين الحسب والإيتاء، وقال تعالى: **﴿قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾**، فكما أن التوكل على غير الله لايجوز؛ فكذلك الحسب لايمكن أن يكون غير الله حسباً، فلو كان؛ لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله، وهو الذى عليه يتوكل المتوكلون.

خامساً: أن فى قوله: **﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾** ما يمنع أن يكون الصحابة حسباً للرسول ﷺ، وذلك لأنهم تابعون؛ فكيف يكون التابع حسباً للمتبوع؟! هذا لايستقيم أبداً؛ فالصواب أنه معطوف على الكاف فى قوله: **﴿حَسْبُكَ﴾**؛ أى: وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعاً أنت ومن اتبعك. اهـ.

● تفسير القرآن بالقرآن:

قال الشنقيطى: فالمعنى حسبك الله أى كافيك وكافى من اتبعك من المؤمنين، وبهذا قال الشعبى، وابن زيد وغيرهما، وصدر به صاحب الكشاف، واقتصر عليه ابن كثير وغيره، والآيات القرآنية تدل على تعيين الوجه الأخير، وأن المعنى كافيك الله، وكافى من اتبعك من المؤمنين لدلالة الاستقراء فى القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده، كقوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾**(1)، فجعل الإيتاء لله، ورسوله، كما قال: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾**(2)، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل

(1) التوبة: ٥٩. (2) الحشر: ٧.

جعل الحسب مختصاً به وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[1]؟ فخص الكفاية التى هى الحسب به وحده، وتمدح تعالى بذلك فى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[3] ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده.

وقد أثنى سبحانه وتعالى على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[4] وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ﴾[5] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

أولاً: تفسيرها بما جاء عن الصحابة:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما أسلم عمر رضى الله عنه قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

عن ابن عباس قال: لما أسلم مع النبى ﷺ تسعة وثلاثون رجلا وامرأة، ثم أن عمر رضى الله عنه أسلم، فصاروا أربعين فنزل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[7].

ثانياً: تفسيرها بما جاء عن التابعين

عن سعيد بن جبير قال: لما أسلم مع النبى ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة، ثم أسلم مع النبى ﷺ عمر نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ...﴾ الآية[8].

---

(1) الزمر: ٣٦.
(2) الطلاق: ٣.
(3) الأنفال: ٦٢.
(4) آل عمران: ١٧٣.
(5) التوبة: ١٢٩.
(6) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٦٢) ونسبه للبزار. وانظر «الاتقان» للسيوطى بتخريجنا.
(7) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٦٢) ونسبته للطبرانى، وأبى الشيخ، وابن مردويه.
(8) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٩١٣٥) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٦٢) وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه.

عن سعيد بن المسيب قال: لما أسلم عمر رضى الله عنه، أنزل الله فى إسلامه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾(١).

عن الزهرى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: فقال: نزلت فى الأنصار(٢).

عن الشعبى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حسبك الله وحسبك من اتبعك(٣).

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: أسلمت رابع أربعين، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

عن مجاهد فى الآية قال: يقول: حسبك الله والمؤمنون(٥).

وروى ابن جرير عن الشعبى: فى قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال حسبك وحسب من معك(٦).

وعن الشعبى أيضاً بنحوه إلا أنه قال حسبك الله وحسب من شهد معك(٧).

عن ابن زيد فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال يا أيها النبى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين أن حسبك أنت وهم الله(٨).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٩١٣٦) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن إسحاق.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للبخارى فى «التاريخ»، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى محمد إسماعيل بن على الخطبى فى «الأول» من تحديثه.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٠/٢٦، ٢٧) وتقدم عنه بنحوه.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» ٦/١٠/٢٦و ٢٧.

قال ابن جرير: فمن من قوله ومن اتبعك من المؤمنين على هذا التأويل الذى ذكرناه عن الشعبى نصب عطفا على معنى الكاف فى قوله حسبك الله لاعلى لفظه لأنها فى محل خفض فى الظاهر وفى محل نصب فى المعنى؛ لأن معنى الكلام يكفيك الله ويكفى من اتبعك من المؤمنين. وقد قال بعض أهل العربية فى من أنها فى موضع رفع على العطف على اسم الله كأنه قال: حسبك الله ومتبعوك إلى جهاد العدو من المؤمنين دون القاعدين عنك منهم.

واستشهد على صحة قوله ذلك بقوله حرض المؤمنين على القتال.

قال الطبرى(١): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ الله يقول لهم - جل ثناؤه - ناهضوا عدوكم فإن الله كافيكم أمرهم ولايهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم فإن الله مؤيدكم بنصره. اهـ.

قال ابن الجوزى(٢): ﴿**حَسْبُكَ**﴾ فيها قولان:

أحدهما: حسبك الله وحسب من اتبعك، هذا قول أبى صالح عن ابن عباس وبه قال ابن يزيد ومقاتل، والأكثرون.

والثانى: حسبك الله ومتبعوك، قاله مجاهد وعن الشعبى كالقولين وأجاز الفراء والزجاج الوجهين.

قال أبوسليمان الدمشقى: هذا لايحفظ والسورة مدنية بإجماع، والقول الأول أصح. اهـ.

قال القرطبى(٣): ليس هذا تكريزا؛ فإنه قال فيما سبق: ﴿ **وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ**﴾ وهذه كفاية خاصة. وفى قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ**﴾أراد التعميم؛ أى حسبك الله فى كل حال. وقال ابن عباس: نزلت فى إسلام عمر؛ فإن النبى ﷺ كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلا وستُّ نسوة؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين. والآية مكية، كُتبت بأمر رسول الله ﷺ فى سورة مدنيّة، ذكره القُشيرى.

قلت: - يعنى القرطبى - ما ذكره من إسلام عمر رضى الله عنه عن ابن عباس؛ فقد

---

(١) تفسير الطبرى ٦/ ١٠/ ٢٦.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٨٦.

(٣) تفسير القرطبى ٤/ ٢٨٨١و ٢٨٨٢.

وقع فى السيرة خلافه. عن عبدالله بن مسعود قال: ما كنا نقدر على أن نُصلّى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

قال ابن إسحاق: وكان جميع من لِحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا أو ولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلا، إن كان عمّار بن ياسر منهم. وهو يُشكّ فيه. وقال الكَلْبى: نزلت الآية بالبَيْداء فى غزوة بدر قبل القتال.

قوله تعالى: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: المعنى حسبك الله، وحسبك المهاجرون والأنصار.

وقيل: المعنى كافيك الله، وكافى من تبعك؛ قاله الشَّعْبى وابن زيد. والأوّل عن الحسن. واختاره النحاس وغيره.

فـ «من» على القول الأوّل فى موضع رفع، عطفا على اسم الله تعالى. على معنى: فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين. وعلى الثانى على إضمار. ومثلهُ قوله ﷺ: «**يَكفِينيه الله وأبناء قَيْلة**».

وقيل: يجوز أن يكون «ومن اتبعهم مِن المؤمِنين» حسبهم الله؛ فيضمر الخبر. ويجوز أن يكون «من» فى موضع نصب، على معنى: يكفيك الله ويكفى من اتبعك. اهـ.

قال ابن كثير(*): يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال، ومناجزة الأعداد، ومبارزة الأقران ويخبرهم أنه حسبهم، أى كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم، وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. اهـ.

قال ناصر السعدى[1]: أى وكافى أتباعك من المؤمنين.

وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفالة والنصرة على الأعداء، فإذا أتوا بالسبب، الذى هو الإيمان والإتباع فلابد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

(*) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢١٠.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان الشيخ(1): **قال ابن القيم**: أى: الله وحده كافيك وكافى أتباعك، فلاتحتاجون معه إلى أحد، وقيل: المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم: وهذا خطأ محض لايجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة. قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(2) ففرق بين الحسب والتأييد؛ فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(3) ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك؟ وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله، فكيف يشرك بينه وبينهم فى حسب رسوله ﷺ؟ هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل. ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾(4).

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول كما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾(5) وجعل الحسب له، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ولم يقل وإلى رسوله؛ بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾(6) فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لايكون إلا له سبحانه وتعالى انتهى كلامه.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة، لأن الله تعالى أخبر أنه حسب رسوله، وحسب أتباعه. أى: كافيهم وناصرهم، فنعم المولى ونعم النصير، وفى ضمن ذلك أمر لهم بإفراده تعالى بالحسب، استكفاء بكفايته تبارك وتعالى وذلك هو التوكل. اهـ.

قال ابن عثيمين(7): المراد به الرسول ﷺ يخاطب الله رسوله بوصف النبوة أحياناً

---

(1) تيسير العزيز الحميد ٣٧٤و ٣٧٥.
(2) سورة الأنفال، الآية: ٦٢.
(3) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(4) سورة التوبة، الآية: ٥٩.
(5) سورة الحشر، الآية: ٧.
(6) سورة الشرح، الآية: ٨.
(7) القول المفيد ٢/٢٣٨و ٢٤٠.

وبوصف الرسالة أحياناً، فحينما يأمره أن يُبَلِّغ يناديه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة؛ فالغالب أن يناديه بـوصف النبوة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

●●●

قوله: [﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾] الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوي[2]: حيث دلت الآية على وجوب التـوكل على الله لأن الله بالتوكل يحفظ عبدة ويكفيه. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوي[3]: حيـث دلت الآية علـى أن التوكل نـوع من العبـادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● الإعراب:[4]

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ عطف على مـا تقدم ومن شرطية مبـتدأ ويتوكل فعل الشرط وعلى الله متعـلقان بيتوكل والفاء رابطة وهو مبتدأ وحسـبه خبر والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من.

● ما جاء في تفسير الآية من أحاديث وآثار:

أولاً: تفسيرها من السنة:

عن عمر بن الخطاب رضيى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»**[5].

---

(١) الطلاق: ٣.

(٢) الجديد: ٣٠٢.

(٣) الجديد: ٣٠٣.

(٤) إعراب القرآن ١٠/١٢١.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٣٥٧) ونسبه لسعيد بن منصور، والبيهقي في «الشعب». وانظر «فتح القدير» (١٣٠٣٢ ـ بتخريجنا).

عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ **«من رضى وقنع وتوكل كُفى الطلب»**(١).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقه فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل»**(٢).

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من جاع أو احتاج فكتمه الناس وأفضى به إلى الله كان على الله أن يفتح له قوت سنة من حلال»**(٣).

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أوحى الله إلى عيسى اجعلنى من نفسك لهمك، واجعلنى زخراً لمعادك وتوكل على أكفك ولا تول غيرى فأخذلك(٤).

ثانياً: تفسيرها من أقوال السلف (الصحابة والتابعين):

وأخرج أحمد فى الزهد عن عمار بن ياسر قال: كفى بالموت واعظاً. وكفى باليقين عنى وكفى بالعبادة شغلاً(٥).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: ليس المتوكل الذى يقول تقضى حاجتى، وليس كل من توكل على الله كفاه ما أهمه، ودفع عنه ما يكره، وقضى حاجته، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً(٦).

عن وهب قال: يقول الله تبارك وتعالى: **«إذا توكل على عبدى لو كاته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج»**(٧).

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى(٨): ومن يتوكل على الله فهو حسبه ومعنى ذلك أن الله بالغ أمره بكل حال توكل عليه العبد أولم يتوكل عليه وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: **ثم ذكر بسنده عن مسروق ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ**

---

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن مردويه.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٣٨٩)، وأبوداود (١٦٤٥)، والترمذى (٢٣٢٦) عن ابن مسعود به.

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٢٣٥٨) عن أبى هريرة به وانظر «الدر» (٦/ ٣٥٧).

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبدالله بن أحمد فى «زوائد الزهد».

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأحمد فى «الزهد».

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٥٦) ونسبه لابن مردويه.

وانظر «فتح القدير (١٣٥١ ـ بتخريجنا).

(٧) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٥٧) ونسبه لأحمد فى «الزهد» وتقدم.

(٨) تفسير الطبرى (١٢/ ٢٨/ ٩٠).

بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ توكل عليه أو لم يتوكل عليه غير أن المتوكل يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا[١].

وبسنده عن الشعبى قال تجالس شتير بن شكل ومسروق فقال شتير إما أن تحدث ما سمعت من ابن مسعود فأصدّقك وإما أن أحدث فتصدّقنى قال مسروق لا بل حدث فأصدّقك فقال سمعت ابن مسعود يقال أن أكبر آية فى القرآن تفوّضا ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ قال مسروق صدقت[٢]. اهـ.

قال الرازى[٣]: يدل على عدم الإحتياج للكسب فى طلب الرزق. اهـ.

قال القرطبى[٤]: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أى من فَوّض إليه أمره كفاه ما أهَمه. وقيل: أى من اتقى الله وجانب المعاصى وتوكّل عليه، فله فيما يعطيه فى الآخرة من ثوابه كفاية. ولم يرد الدنيا؛ لأن المتوكل قد يصاب فى الدنيا وقد يُقْتَل. اهـ.

قال ابن كثير[٥]: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يونس ثنا ليث ثنا قيس بن الحجاج عن حنش الصنعانى عن عبدالله بن عباس أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوما فقال له رسول الله ﷺ **«ياغلام إنى معلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»**[٦] وقد رواه الترمذى من حديث الليث بن سعد وابن لهيعة به وقال حسن صحيح، وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا بشير بن سلمان عن سيار أبى الحكم عن طارق بن شهاب عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ **«من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمنا أن لاتسهل حاجته، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل»**[٧] ثم رواه عن عبدالرزاق عن سفيان عن بشير عن سيار أبى حمزة ثم قال وهو الصواب، وسيار أبو الحكم لم يحدث عن طارق. اهـ.

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) التفسير الكبير ١٥/ ٣٠/ ٣٤.
(٤) تفسير القرطبى ١٠/ ٦٦٤٠.
(٥) ٤/ ٣٦٧.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) تقدم تخريجه.

قال ناصر السعدى[1]: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فى أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله فى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أى: كافيه الأمر الذى توكل عليه فيه.

وإذا كان الأمر فى كفالة الغنى القوى، العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شىء.

ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أى: لابد من نفوذ قضائه وقدره.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان الشيخ[2]: **قال ابن القيم**: أى: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه؛ فلا مطمع فيه لعدوه، ولايضره إلا أذى لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً؛ وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء، وهو فى الحقيقة إحسان إليه، واضرار بنفسه؛ وبين الضرر الذى يشتفى به منه.

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[3] ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال فى الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض ومَن فيهن، لجعل له مخرجاً، وكفاه، ونصره، انتهى.

وفى أثر رواه أحمد فى «الزهد» عن وهب بن منبه، قال الله عز وجل فى بعض كتبه: **«بِعِزَّتِى إِنَّهُ مَنْ اعتَصَمَ بى فَإِنْ كَادَتْهُ السموات وَمَنْ فيهنَّ، والأَرْضُونَ بِمَنْ فيهنَّ؛ فإِنى أَجْعَلُ لَهُ بِذَلِكَ مَخرَجاً، وَمَنْ لَمْ يَعْتَصِم بى، فإنى أَقْطَعُ يَدَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ السَّماءِ؛ وأَخْسِفُ مِنْ تَحتِ قَدَمَيهِ الأرضَ؛ فَأَجْعَلُهُ فى الهَوَاءِ ثُمَ أَكِلُهُ إلى نَفْسِه، كفَا بى لعَبْدى مآلاً، إذا كَانَ عَبْدى فى طَاعَتِى أَعْطِيهِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَنى، وأَسْتَجِيبُ لَهُ قَبل أَنْ يَدْعُونى، فَأَنَا أَعْلَمُ بِحاجَتِهِ التى تَرفَقُ بِهِ مِنْهُ»**[4]. وفى الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم

---

(1) تيسير الكريم الرحمن ٥/ ٢٥٣.

(2) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣٧٥و ٣٧٦.

(3) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(4) تقدم تخريجه.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قَالَهَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.(*)(١)

الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار؛ لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له، ذكره شيخ الإسلام. وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تبارك وتعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل، كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٢) فجعل التقوى الذى هو قيام بالأسباب المأمور بها، فحينئذ إذا توكل على الله، فهو حسبه، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فلا ينبغى للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التى لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكر معناه ابن القيم. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل على الله، فإن الله يكفيه مهماته وييسر له أمره؛ فالله حسبه ولو حصل له بعض الأذية، فإن الله يكفيه الأذى، والرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك يصيبه الأذى ولاتحصل له المضرة؛ لأن الله حسبه؛ فالنتيجة لمن اعتمد على الله أن يكفيه ربه المؤونة.

والآية تفيد بمفهومها أن من توكل على غير الله خُذِلَ؛ لأن غير الله لا يكون حسباً كما تقدَّم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه، وصار موكولاً إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله. اهـ.

●●●

قوله: [وعن ابن عباس قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم ...].

قوله: «قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار».

(*) آل عمران: ١٧٣.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ الآية (ح ٤٥٦٣، ٤٥٦٤). وانظر «فتح المجيد» (٦٧٠ ـ بتخريجنا).

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٤٠ و ٢٤١.

قال سليمان آل الشيخ[1]: رواه البخارى وقد ذكر الله القصة فى سورة الأنبياء. اهـ.

قال ابن حجر[2]: **قوله: (قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار)** فى الرواية التى بعدها «أن ذلك آخر ما قال» وكذا وقع فى رواية الحاكم المذكورة، ووقع عند النسائى من طريق يحيى بن أبى بكير عن أبى بكر كذلك، وعند أبى نعيم فى «المستخرج» من طريق عبيدالله بن موسى عن إسرائيل بهذا الإسناد «أنها أول ما قال» فيمكن أن يكون أول شيء وآخر شيء قال، والله أعلم. اهـ.

● **فائدة فى التوكل:**

قال سليمان آل الشيخ[3]: **قال ابن القيم**: وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يُؤَمِّنُ خوف الخائف ويجير المستجير وهو نعم المولى، ونعم النصير؛ فمن تولاه، واستنصر به، وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولاه، وحفظه وحرسه، وصانه. ومن خافه، واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[4]: قوله: (قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار) قال تعالى: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ**﴾ الآية. اهـ.

وقال ابن باز[5]: قالها إبراهيم فأنجاه الله من النار حين ألقاه النمرود، وقال ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ فكفاه شرهم ونجاه منهم، وصارت آية معجزة تدل على صدق رسالته. اهـ.

وقال ابن عثيمين[6]: وقول ابن عباس رضى الله عنهما (إن إبراهيم قالها حين ألقى فى النار) قول لامجال للرأى فيه، فيكون له حكم الرفع. اهـ. وسيأتى تتمة قول ابن عثيمين.

---

(١) (٣) تيسير العزيز الحميد (٣٧٥).

(٢) الفتح ٨/ ٧٧.

(٤) فتح المجيد (٢/ ٤٨٤).

(٥) التعليق المفيد (١٨٢).

(٦) القول المفيد (٢/ ٢٤٣).

قوله: «وقالها محمد ﷺ... إلى آخره».

قال ابن حجر(١): قوله: «حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم» فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحق مطولاً فى هذه القصة، وأن أبا سفيان رجع بقريش بعد أن توجه من أحد فلقيه معبد الخزاعى فأخبره أنه رأى النبى ﷺ فى جمع كثير، وقد اجتمع معه من كان تخلف عن أحد وندموا، فثنى ذلك أبا سفيان وأصحابه فرجعوا، وأرسل أبوسفيان ناساً فأخبروا النبى ﷺ أن أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم فقال: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾.

ورواه الطبرى من طريق السدى نحوه ولم يسم معبدا قال «أعرابيا» ومن طريق ابن عباس موصولاً لكن بإسناد لين قال «استقبل أبو سفيان عيراً واردة المدينة» ومن طريق مجاهد أن ذلك كان من أبى سفيان فى العام المقبل بعد أحد، وهى غزوة بدر الموعد، ورجح الطبرى الأول.

ويقال إن الرسول بذلك كان نعيم بن مسعود الأشجعى، ثم أسلم نعيم فحسن إسلامه.

قيل إطلاق الناس على الواحد لكونه من جنسهم كما قال فلان يركب الخيل وليس له إذ ذاك إلا فرس واحد. **قلت**: وفى صحة هذا المثال نظر. اهـ.

وقال نحو ذلك شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين(٢): قوله فى أثر ابن عباس رضى الله عنهما: **«قالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾».**

وهذا فى نص القرآن لما انصرف أبوسفيان من أُحُد أراد أن يرجع إلى النبى ﷺ وأصحابه ليقضى عليهم بزعمه، فلقى ركباً، فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة. قال: بلِّغوا محمداً وأصحابه أنّا راجعون إليهم فقاضون عليهم. فجاء الركب إلى المدينة، فبلغوهم؛ فقال رسول الله ﷺ ومن معه: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾. وخرجوا فى نحو سبعين راكباً، حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة(٣)، وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين؛ حيث اعتمدوا عليه تعالى. اهـ.

---

(١) الفتح ٨/ ٧٧و ٧٨. (٢) القول المفيد ٢/ ٢٤١و ٢٤٢.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٧٧) ونسبه لابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقى فى «الدلائل» وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

قال سليمان آل الشيخ(١): قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أى: نعم الموكول إليه المتوكل عليه؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ فقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة التوكل على الله والالتجاء إليه. اهـ.

قال ابن عثيمين(٢): قوله: «قال لهم الناس».

أى: الركب قوله: «إن الناس».

أى: أبا سفيان ومن معه، وكلمة الناس هنا يمثل بها الأصوليون للعام الذى أريد به الخصوص.

قوله: ﴿حَسْبُنَا﴾.

أى: كافينا، وهى مبتدأ والله خبره.

قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

﴿نِعْمَ﴾: فعل ماضٍ، ﴿الْوَكِيلُ﴾: فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: هو؛ أى: الله، والوكيل: المُعْتمد عليه سبحانه، والله ـ سبحانه ـ يطلق عليه اسم وكيل، وهو أيضاً مُوَكِّل، والوكيل فى مثل قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾، وأما الموكل؛ ففى مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيما يحتاج إلى الاستنابة فيه؛ فليس توكيله سبحانه من حاجة له، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف فى الأرض لينظر كيف يعملون. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٣): ففى هاتين القصتين فضل هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد.

ولهذا جاء فى الحديث: «إِذَا وَقَعْتُم فى الأَمْرِ العَظِيمِ فَقُولُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٦.
(٢) القول المفيد ٢/ ٢٤٢و ٢٤٣.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٧٧.

الوَكيلُ»[1] رواه ابن مردويه وأن القيام بالأسباب مع التوكل على الله لايتنافيان، بل يجب على العبد القيام بهما، كما فعل الخليلان عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى عن عوف بن مالك أنَّ النَّبىَّ ﷺ قَضى بَيْنَ رَجُلَيْنَ فَقَالَ المَقْضِىُّ عَلَيْه لَـمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِىَ الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ، فَقَال رسول الله ﷺ: **«رُدُّوا علىَّ الرجُل»** فَقَال مَا قلت؟ قالَ: قلتُ: حَسْبِىَ الله ونِعْمَ الوَكِيل. فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله يَلُومُ على العَجْزِ، ولَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ فإذا غَلَبَكَ أمْرٌ، فقل حَسْبِىَ الله وَنِعْمَ الوكيلُ»**[2] وفى الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص. قال مجاهد فى قوله: **﴿فَزَادَهُمْ إيمَانًا﴾** قال: الإيمان يزيد وينقص، وعلى أن ما يكرهه الإنسان قد يكون خيراً له، وأن التوكل أعظم الأسباب فى حصول الخير، ودفع الشر فى الدنيا والآخرة. اهـ.

قال حامد بن محمد[3]: فالتوكل معظم منازل السائرين إلى الله تعالى معتمدين عليه فيما ينوبهم لا ينظرون إلى غيره لعلمهم أنه الكافى فى جميع أمورهم، فهو حسبهم، **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾**. اهـ.

وقال عبدالله بن جار الله[4]: معنى (حسبنا) كافينا ومتول أمورنا، فلانتكل إلا عليه (ونعم الوكيل) أى نعم الموكول إليه والمعتمد عليه.

من فضل هذه الكلمة العظيمة أنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد وجاء فى الحديث **«إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»**[*] والله أعلم. اهـ.

وقال ابن باز[5]: وقال محمد ﷺ بعد أحد حين قالوا له أن المشركين قد جمعوا لكم ليكروا عليكم ثانية، فقال: **﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** فكفاه الله.

---

(1) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٨١) ونسبه لابن مردويه عن أبى هريرة به.
وانظر «فتح القدير» و«فتح المجيد» (ح٦٧٢) بتخريجنا.

(2) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ٢٤)، وأبوداود (٣٦٢٧)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٤٦٢) عن عوف بن مالك به.
وانظر «الأذكار للنووى» (٣٣٣ ـ بتخريجنا).

(3) فتح الله الحميد المجيد (٣٥٧).

(4) الجامع الفريد (١٣٧).

(*) سبق تخريجه قريباً.

(5) التعليق المفيد (١٨٢).

فيه مسائل

الأولى: أَنهَ التَوَكُّلَ مِنَ الفَرَائِضِ.

وهكذا ينبغي للـمسلم أن يقولها عند الشدائد، لكن هـذا لايمنع من الأخذ بالأسباب لأن النبي ﷺ قالها، وقد لبس الدرع وحـمل السلاح ووضع الخوذة على رأسه، وكذلك فعل أصحـابه، ويوم الأحزاب حفروا الخندق، قـال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: وقول ابن عباس رضي الله عنهما: **إن إبراهيم قالها حين ألقي في النار**» قول لامجال للرأي فيه؛ فيكون له حكم الرفع.

وابن عباس ممـن يروي عن بني إسرائـيل؛ فيحتمـل أنه أخذه منهم، ولـكن جزمه بهذا، وقرنه لما قاله الرسول ﷺ مما يبعد أن يكون أخذه من بني إسرائيل.

الشاهـد من الآية: قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾؛ حيث جـعلوا حسبهم الله وحده.

● **(تنبيه)**:

قولنا: «وابن عباس ممـن يروي عن بني إسرائيل» قول مشهور عند عـلماء المصطلح، لكن فيه نظر؛ فإن ابـن عباس رضي الله عنهما ممن ينكر الأخذ عن بـني إسرائيل؛ ففي «صحيح الـبخاري» أنه قال: «يا معشـر المسلمين! كيـف تسألون أهل الكتاب وكـتابكم الذي أنزل علـى نبيه ﷺ أحدث الأخبار بـالله تقرؤونه لم يُشَبْ، وقـد حدثكم الله أن أهل الكـتاب بَدَّلوا مـا كتب الله وغيـروا بأيديهـم الكتاب؟! فـقالوا: هذا مـن عند الله ليشتروا به ثـمناً قليلاً؛ أفلا ينهاكـم ما جاءكم من العلم عن مسـاءلتهم؟! ولا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم». اهـ[2].

●●●

قوله: «وفيه مسائل».

قال ابن عثيمن[3]:

● **الأولى: أن التوكل من الفرائض.**

---

(1) القول المفيد ٢/ ٢٤٣.

(٢) صحيح أخرجه البخاري (٢٦٨٥).

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٤٤و ٢٤٥.

الثانية: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الإِيمَانِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الأَنْفَالِ).

الرابعة: تَفْسِيرُ الآيَةِ فِى آخِرِهَا.

الخامسة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الطَّلاَقِ).

السادسة: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فِى الشَّدَائِدِ.

ووجهه أن الله علّق الإيمان بالتوكل فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق تفسيرها.

- **الثانية: أنه من شروط الإيمان.**

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

- **الثالثة: تفسير آية الأنفال.**

وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ الآية، والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا؛ فالإنسان يكون مؤمناً وإن لم يتصف بهذه الصفات، لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

- **الرابعة: تفسير الآية فى آخرها أى آخر الأنفال.**

وهى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أى: حَسْبُك وحَسْب من اتبعك من المؤمنين، وهذا هو الراجح على ما سبق.

- **الخامسة: تفسير آية الطلاق.**

وهى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، وقد سبق تفسيرها.

- **السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ فى الشدائد.**

يعنى قول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

وفى الباب مسائل غير ما ذكره المؤلف، منها:

زيادة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

ومنها: أنه عند الشدائد ينبغى اللإنسان أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ولكنهم فَوَّضوا الأمر إلى الله، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ومنها: أن اتباع النبى ﷺ مع الإيمان سبب لكفاية الله للعبد. اهـ.

قلت: ما ذكره المؤلف على الإجمال تضمن هذه المسائل وزيادة والله أعلم.

●●●

باب (٣٣)

قَوْلُ الله تَعَـالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[١].

● مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: ومناسبته لما قبله ظاهرة فى أن التوكل على الله والثقة به كان من أعظم ما يدفع عن المتوكل تخويف الشيطان إذا أراد أن يخوفه؛ لأنه بهذا التوكل دخل فى ولاية الرحمن وخرج من ولاية الشيطان فلا سبيل له عليه، وإن خوفه لم يخف إلا الله، لهذا كان من ثمرات التوكل على الله الخوف منه والرجاء فيه، ولهذا ناسب أن يورد المصنف هذا الباب بعد باب التوكل. وتقدم فى باب من حقق التوحيد ما حكاه النووى عن أبى جعفر الطبرى وغيره من السلف أنهم قالوا: لايستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد:-

قال سليمان آل الشيخ[٢]:

المراد بهذه الترجمة التنبية على الجمع بين الرجاء والخوف، ولذلك ذكر بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾[٣] هذا هو مقام الأنبياء والصديقين كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[٤] فابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب بحبه وطاعته، ثم ذكر الرجاء والخوف وهذه أركان الإيمان.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٥].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾[٦].

وقال إخبارًا عن شعيب: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا

---

(١) الأعراف: ٩٩.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٧٨ - ٣٨٠.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٨٠.

اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾[1] فوكلا الأمر إلى مالكه، وقال تعالى عن الملائكة عليهم السلام: **﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾**[2].

وقال النبي ﷺ: **«فو الله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»**[3] وكلما قوى إيمان العبد ويقينه قوى خوفه ورجاؤه مطلقًا. قال الله تعالى: **﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾**[4] وقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾**[5].

قالت عائشة: يارسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: **«لا يابنت الصديق هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»** رواه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه[6].

قال ابن القيم: «الخوف من أجل منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهم به أليق وله ألزم؛ فإن العبد إما أن يكون مستقيمًا أو مائلاً عن الاستقامة. فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف، فنشأ الخوف من الله عند المعصية **وهو ينشأ من ثلاثة أمور أحدها** معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

الثالث: أنه لا يعلم أنه يمنع من التوبة، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وسبب قوتها وضعفها يكون قوة الخوف، وضعفه، هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد. **وبالجملة** فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوقوف باتيانه بالتوبة النصوح؛ هاج من

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦١٠١) - ومسلم في الفضائل (٨/ ١١٧/ ١٢٧) عن عائشة به.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٥) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠.

(٦) أخرجه الترمذي (٣١٧٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٥)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٢). وانظر الإتقان للسيوطي (١٧٠٦ - بتخريجنا).

قلبه من الخوف ما لايملكه، ولا يفارقه حتى ينجو وأما إن كان مستقيمًا مع الله؛ فخوفه يكون من جريان الأنفاس لعلمه بأن الله مقلب القلوب **وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن - عز وجل - فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، كما ثبت عن النبي ﷺ**(١).

وكانت أكثر يمينه «لا ومقلب القلوب»(٢) ويكفى هذا قوله تعالى: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾**(٣) فأى قرار لمن هذه حاله ومن أحق بالخوف منه، بل خوفه لازم له فى كل حال، وإن توارى عنه بغلبة حال أخرى عليه، فالخوف حشو قلبه، لكن توارى عنه بغلبة غيره، فوجود الشىء غير العلم به، فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله عز وجل وعزته وجلاله، وأنه الفعال لما يريد، وأنه المحرك للقلب المصرف له كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم انتهى. فهذا الخوف الثانى هو من خوف المكر. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٤): قصد المصنِّف - رحمه الله - تعالى بهذه الآية، التنبيه على أنَّ الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافى كمال التوحيد، كما أنَّ القنوط من رحمة الله كذلك، وذلك يرشد إلى أنَّ المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة وأرشد إليه السلف والأئمة.

وقال أيضًا فى «قرة عيون الموحدين»(٥): أراد المصنِّف - رحمه الله تعالى - أن الأمن من مكر الله يدل على ضعف الإيمان فلا يبالى صاحبه بما ترك من الواجبات، وفعل المحرمات، لعدم خوفه من الله بما فعل أو ترك وهذا من أعظم الذنوب وأجمعها للعيوب. اهـ.

قال ناصر السعدى(٦): مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفاً من الله، راجياً له راغباً راهباً، إن نظر الى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشى ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٩١)، وأبو يعلى (٤٦٦٩) وانظر القواعد المثلى» (٧٨ - بتخريجنا). وأصله فى «الصحيح» وهو الذى بعده.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦١٧) وانظر القواعد المثلى» (٧٨ - بتخريجنا).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٤) فتح المجيد ٢/ ٥٩٧.

(٥) ١٧٥.

(٦) القول السديد ٩٣ - ٩٥.

تمام النعمة بقبولها وخاف من ردها بتقصيره فى حقها. وان ابتلى بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشى بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر ويخشى من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد فى كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع، وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خلقين رذيلين:

(أحدهما) أن يستولى عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه.

(الثانى) أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

● **أسباب القنوط من رحمة الله.**

قال ناصر السعدى[1]: وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

(أحدهما) أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التى تمنع الرحمة فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفاً وخلقاً لازمًا. وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد. ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوى.

(الثانى) أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ويظن بجهله أن الله لايغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها.

فلو عرف هذا ربه ولم يخلد الى الكسل لعلم أن أدنى سعى يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه.

● **أسباب الأمن من مكر الله.**

قال ناصر السعدى[2] : وللامن من مكر الله أيضاً سببان مهلكان:

(١) (٢) انظر الموضع السابق.

(أحدهما) إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضاً غافلاً مقصراً عن الواجبات منهمكاً فى المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى فى قلبه من الإيمان شىء لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوى والأخروى.

السبب الثانى: أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه مغروراً بعمله فلا يزال به جهله حتى يدل بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية فيصير آمنا من مكر الله متكلاً على نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق إذ هو الذى جنى على نفسه.

فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد. اهـ.

● **تعريف المكر:**

قال ابن الجوزى[1]: المكر من الخلق خبث وخداع، ومن الله - عز وجل - المجازاة. فسمى باسم ذلك. لأنه مجازاة عليه كقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**﴾، ﴿**وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ لأن مكره مجازاة ونصر للمؤمنين. اهـ.

قال الرازى[2]: أصل المكر فى اللغة السعى بالفساد فى خفية ومداجاة، قال الزجاج: يقال مكر الليل، وأمكر إذا أظلم: وقال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ**﴾ وقال: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه، ومنه امرأة ممكورة، أى مجتمعة الخلق.

وإحكام الرأى يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى: ﴿**فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ**﴾ فلما كان المكر رأيًا محكمًا قويًا مصونًا عن جهات النقص والفتور. لاجرم سمى مكرًا.

قال محيى الدين درويش[3]: المكر فى اللغة: الستر، يقال: مكر الليل أى أظلم وستر بظلمته ما فيه، واشتقاقه من المكر، وهو شجر ملتفّ كأنهم تخيلوا أنّ المكر يلف الممكور به. وامرأة ممكورة أى ملتفة ثم خصصوه بالخبث والخداع. اهـ.

---

(١) زاد المسير ١/ ٣٢١.

(٢) التفسير الكبير ٤/ ٨/ ٧٣.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٥١٧.

قَوْلُ الله تَعَـالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

قوله: وقول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ ـ الآية.

● **مناسبة الآية للباب:**

قال القرعاوى(٢): حيث دلّت الآية الكريمة على وجوب الخوف من مكر الله.

● **مناسبة الآية للتوحيد: -**

قال القرعاوى(٣): حيث دلّت الآية على تحريم الأمن من مكر الله لأن ذلك يستلزم تنقيص كمال الله المطلق وذلك منافٍ لكمال التوحيد. اهـ.

وبنحو ذلك ذكر عبد الله بن جار الله.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

● **الإعراب**(٤): الهمزة للاستفهام الاستنكارى التوبيخى والفاء عاطفة والتكرير لزيادة النكير والتوبيخ وقد تقدم القول فى المراد بمكر الله.

﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الفاء عاطفة ولا نافية و(يأمن مكر الله) فعل ومفعول به وإلا أداة حصر والقوم فاعل والخاسرون صفه.

● **ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:-**

عن هشام بن عروة قال: كتب رجل إلى صاحب له: إذا أصبت من الله شيئًا يسرك فلا تأمن أن يكون فيه من الله مكر **﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾**(٥).

عن زيد بن أسلم أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة «ما هذا الخوف الذى قد بلغكم وقد أنزلتكم المنزلة التى لم أنزلها غيركم؟ قالوا: ربنا لا نأمن مكرك، لا يأمن مكرك إلا القوم الخاسرون»(٦).

عن على بن أبى حليمة قال: كان ذر بن عبد الله الخولانى إذا صلى العشاء يختلف

---

(١) الأعراف: ٩٩.

(٢) الجديد: ٣٠٦.

(٣) الجديد: ٣٠٧.

(٤) الإعراب: ٣/ ٤١٤.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٩٣) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٦) نفس المصدر السابق.

في المسجد، فإذا أراد أن ينصرف رفع صوته بهذه الآية ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

عن إسماعيل بن رافع قال: من الأمن لمكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة[2].

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[3]: يقول تعالى ذكره: أفأمن يا محمد هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ويجحدون آياته، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم فى دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش كما استدرج الذين قص عليهم قصصهم من الأمم قبلهم فإن مكر الله لا يأمنه يقول لا يأمن ذلك أن يكون استدراج جامع مقامهم على كفرهم وإصرارهم على معصيتهم إلا القوم الخاسرون وهم الهالكون. اهـ.

قال البغوى[4]: ومكر الله استدراجه إياهم مما أنعم عليهم فى دنياهم.

وقال عطية: أخذه وعذابه. اهـ.

قال الرازى[5]: ويدل قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أن المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لايشعرون. قاله على وجه التحذير وسمى هذا العذاب مكراً توسعاً، لأن الواحد منا إذا أراد المكر بصاحبه، فإنه يوقعه فى البلاء من حيث لايشعر به، فسمى العذاب مكرا لنزوله بهم من حيث لايشعرون، وبين أنه لا يأمن نزول عذاب الله على هذا الوجه ﴿إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وهم الذين لغفلتهم وجهلهم لايعرفون ربهم، فلا يخافونه، ومن هذه سبيله، فهو أخسر الخاسرين فى الدنيا والآخرة، لأنه أوقع نفسه فى الدنيا فى الضرر، وفى الآخرة فى أشد العذاب. اهـ.

قال القرطبى[6]: قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أى عذابه وجزاءه على مكرهم وقيل: مكره استدراجه بالنعمة والصحة اهـ.

قال ابن كثير[7]: أى بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعة وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن اهـ.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٩٤) ونسبه لعبد الله بن أحمد فى «زوائد الزهد».
(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.
(٣) الطبرى ٦/٩/٧. (٤) معالم التنزيل ٢/ ٥١٤.
(٥) التفسير الكبير ٧/١٤/ ١٩٤. (٦) القرطبى ٤/ ٢٦٩٠. (٧) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٥.

قال الشوكانى(١): ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ للتقريع والتوبيخ وإنكار ماهم عليه من أمان مالا يؤمَن من مكر الله بهم وعقوبته لهم، وفى تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير، لإنكار ما أنكره عليهم، ثم بين حال من آمن مكر الله فقال: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أى الذين افرطوا فى الخسران، ووقعوا فى وعيده الشديده وقيل: مكر الله هنا: هو استدراجه بالنعمة والصحة والأولى حمله على ماهو أعم من ذلك. اهـ.

قال ناصر السعدى(٢): وهذه الآية الكريمة، فيها من التخويف البليغ، على أن العبد، لا ينبغى له أن يكون آمنا، على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفًا وجلاً، أن يبتلى ببلية، تسلب ما معه من الإيمان، وأن لايزال داعيًا بقوله: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك**».

وأن يعمل ويسعى، فى كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة. اهـ.

قال صاحب الظلال(٣): ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ وتدبيره الخفى المغيب عن البشر ليتقوه ويحذروه.

﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار ومن يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار!

أفأمنوا مكر الله وهم يرثون الارض من بعد أهلها الذاهبين، الذين هلكوا بذنوبهم، وجنت عليهم غفلتهم؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم. اهـ.

[قلت]: وكلام المفسرين السابق فى المكر المذكور فى الآية يحمل على تفسير وبيان معنى المكر لاعلى تأويل الصفة، وصرفها عن حقيقتها، كما قال مالك فى صفة الاستواء: الاستواء معلوم ـ أى معناه معلوم ـ والكيف مجهول ـ كذلك يقال فى صفة المكر وبيان معناه فإنه معلوم، وأما كيفيته مجهولة، والسؤال عنه بدعة. بل الأمر فى صفة المكر كما قال ابن عثيمين: لاتنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها فى مقام التى تكون مدحاً يوصف بها، وفى المقام التى لاتكون مدحاً لايوصف بها. اهـ وسيأتى كلامه كاملاً قريباً. والله أعلم.

---

(١) فتح القدير ٢/٢٣٨. (٢) تيسير الكريم الرحمن/ ١٣٦.

(٣) الظلال (٣/ ١٣٤٠).

● **ماجاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[١]: إذا علمت هذا فمعنى الآية المترجم لها أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بين أن الذى حملهم على ذلك هو الأمن من عذاب الله، وعدم الخوف منه، كما قال: ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ ثم بين أن ذلك بسبب الجهل والغرة بالله، فأمنوا مكره فيما ابتلاهم به من السراء والضراء، بأن يكون استدراجًا، فقال: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ أى: الهالكون. فدل على وجوب الخوف من مكر الله.

قال الحسن: من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعمتهم. فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر به إلا القوم الفاسقون. رواهما ابن أبى حاتم.

وفى الحديث «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِى العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»[٢] رواه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم. وقال إسماعيل بن رافع: من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب، يتمنى على الله المغفره. رواه ابن أبى حاتم. اهـ[٣].

قال حامد بن محمد[٤]: الأمن من مكر الله: اطمئنان القلب بعدم عقوبة الله وعدم مراقبتها والغفلة عنها وهو على معاصى الله ومساخطه فلا يحذر الله فيما هو عليه ولا يخافه فكأنه شك وأنكر اسمه القهار وأن لايكون له مظهر فإذا ما تدركه العقوبة فإذا هو من الخاسرين كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾[٥].

فالأمن من مكر الله من المهالك التى لانجاة منها إلا بفضل الله ورحمته وكذلك القنوط من رحمة الله لما يرى من رداءة نفسه وقلة طاعته له فييأس حينئذ من رحمة الله وذلك من المهالك لأنه يقنط من رحمته الواسعة ولم يتدارك لما فاته من التلف ولم يرجوا الله فى توفيقه إياه على ما يجب ويرضى وعفوه عما مضى فكأنه شك أو أنكر

(١) تيسير العزيز الحميد / ٣٨٠.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٤٥) عن عقبة بن عامر به، وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٣) تقدم تخريجه. (٤) فتح الله الحميد المجيد ٣٥٩ (٥) الأنعام ٤٤.

اسمه الغفور الرحيم العفو وأن يكون له مظهر فما يضل عن صراط الله الذى أرسل به الرسول ﷺ وهدى عليه أولياءه.

قال ابن عثيمين[(١)]: (أفأمنوا) الضمير يعود على أهل القرى؛ لأن ما قبلها قوله تعالى: **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾**.

فقوله: **﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾** يدل على كمال الأمن لأنهم فى بلادهم، وأن الخائف لاينام، وقوله: **﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾** يدل أيضًا على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق؛ لأنه لو كان عندهم ضيق فى العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا فى الضحى - فى رابعة النهار - يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء؛ فهم نائمون وفى رغد، ومقيمون على معاصى الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم، غافلون عن ذكر خالقهم؛ فهم فى الليل نَوْم، وفى النهار لعب، فبين الله - عز وجل - أن هذا من مكره بهم، ولهذا قال: **﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾**، ثم ختم الآية بقوله: **﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾** فالذى يَمُنُّ الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو فى الحقيقة خاسر.

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عرى؛ فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله، بل أنت خاسر؛ لأن هذا من مكر الله بك.

قوله: **﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾**.

الاستثناء للحصر، وذلك لأن ما قبله مُفَرَّغ له؛ فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم.

وفى قوله تعالى: **﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾** دليل على أن لله مكرًا، والمكر هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لايشعر، ومنه ما جاء فى الحديث: **«الحرب خدعة»**[(٢)].

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن الماكر فى محله محمود يدل على قوة المكر، وأنه غالب على خصمه،

---

(١) القول المفيد ٢/٢٤٦ - ٢٤٩.
(٢) تقدم تخريجه.

ولذلك لا يوصف الله بـه على الإطلاق؛ فلا يجوز أن تقول: إن الله مـاكر، وإنما تذكر هذه الصفة فى مقام تكون فيـه مدحًا، مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾[3]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، ولا تنفى عنه هـذه الصفة على سبيل الإطلاق، بـل إنها فى المقام التى تكون مدحًا يوصف بها وفى المقام التى لاتكون مدحًا لا يوصف بها.

وكذلك لايُسمَّى الله بها؛ فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة؛ فلا يوصف الله بها مطلقًـا لأنها ذم بكل حال؛ إذ إنها مكر فى موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾[4]، ولم يقل: فخانهم.

وأما الخـداع فهو كالمـكر يوصف الله بـه حيث يـكون مدحًا؛ لـقوله تعـالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[5]، والمكر من الصـفات الفعلية؛ لأنهـا تتعلق بمشيئة الله - سبحانه -.

● **ويستفاد من هذه الآية:**

١ - الحذر من النعم التى يجلبها الله للعبـد لئلا تكون استدراجًا؛ لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها، وهى القيام بطاعة المُنـعِم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم؛ فاعلم أن هذا من مكر الله.

٢ - تحريم الأمن من مكر الله، وذلك لوجهين:

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثانى: قوله تعالى: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

● ● ●

قوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾.

● **مناسبة الآية للباب.**

قال عـبدالله بـن جار الله[6]: أن القنـوط من رحمة الله ذنب عـظيم ينافـى كمال التوحيد كما أن الأمن من مكر الله كذلك.

---

(١) الحجر/ ٥٥.
(٢) الأنفال: ٣٠.
(٣) النمل: ٥٠.
(٤) الأنفال: ٧١.
(٥) النساء: ١٤٢.
(٦) الجامع الفريد.

● مناسبة الآية للتوحيد.

قال القرعاوى(١): حيث دلت الآية الكريمة على تحريم القنوط من رحمة الله لأن ذلك تنقيص لكرم الله المطلق وذلك مناف لكمال التوحيد.

● ما جاء فى تفسير الآية من وجوه القَراءات:

قال الطبرى(٢): واختلفت القراء فى قراءة قوله من القانطين فقرأته عامة قرآء الأمصار من القانطين بالألف.

وذُكر عن يحيى بن وثاب أنه كان يقرأ ذلك القنطين والصواب من القراءة فى ذلك ما عليه قراء الامصار لإجماع الحجة على ذلك وشذوذ ما خالفه وقوله قال **(ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)** يقول تعالى ذكره قال إبراهيم للضيف ومن ييأس من رحمة الله إلا القوم الذين قد أخطؤا سبيل الصواب وتركوا قصد السبيل فى تركهم رجاء الله ولا يخيب من رجاه فضلوا بذلك عن دين الله.

واختلفت القراء فى قراءة قوله **(ومن يقنط)** فقرأ ذلك عامة قراء المدينة والكوفة ومن يقنط بفتح النون إلا الأعمش والكسائى فإنهما كسرا النون من يقنط فأما الذين فتحوا النون منه ممن ذكرنا فإنهم قرؤا من بعد ماقنطوا بفتح القاف والنون وأما الاعمش فكان يقرأ ذلك من بعد ماقنطوا بكسر النون وكان الكسائى يقرؤه بفتح النون وكان أبو عمرو ابن العلاء يقرأ الحرفين جميعاً على النحو الذى ذكرنا من قراءة الكسائى وأولى القرآت فى ذلك بالصواب قراءة من قرأ من بعد ما قنطوا بفتح النون ومن يقنط بكسر النون لإجماع الحجة من القراء على فتحها فى قوله من بعد ما قنطوا فكسرها فى ومن يقنط أولى إذا كان مجمعاً على فتحها فى قنط لأن فعل اذا كانت عين الفعل منها مفتوحة ولم تكن من الحروف الستة التى هى حروف الحلق فإنها تكون فى يفعل مكسورة أو مضمومة فأما الفتح فلا يعرف ذلك فى كلام العرب. اهـ.

الإعراب(٣): الواو عاطفه و(من) اسم استفهام معناه النفى فى محل رفع مبتدأ.

وجمله **(يقنط)** خبره و**(من رحمة ربه)** متعلقان بيقنط و**(إلا)** أداة حصر و**(الضالون)** بدل من الضمير المستتر فى يقنط بدل بعض من كل ولم يؤت معه بضمير لقوة تعلق المستثنى بالمستثنى منه.

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث:

(١) الجديد ٨٠٣.

(٢) تفسير الطبرى ٧/ ١٤/ ٢٨.

(٣) إعراب القرآن ٥/ ٢٤٧.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**الفاجر الراجى لرحمة الله، أقرب منها من العابد القانط**»(١).

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن السدى ﴿ **مِّنَ الْقَانِطِينَ** ﴾ قال: الآيسين(٢).

الأعمش، عن يحيى أنه قرأها «**فلا تكن من القنطين**» بغير ألف. قال: وقرأ ﴿ **وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ** ﴾ مفتوحة النون(٣).

عن سفيان بن عيينة قال: من ذهب يقنط الناس من رحمة الله، أو يقنط نفسه فقد أخطأ، ثم نزع بهذه الآية ﴿ **وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ** ﴾(٤).

عن السدى ﴿ **وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ** ﴾ قال: من ييأس من رحمة ربه(٥).

عن موسى بن على، عن أبيه قال: بلغنى أن نوحًا عليه السلام قال لابنه سام: يابنى، لا تدخلن القبر وفى قلبك مثقال ذرةٍ من الشرك بالله؛ فإنه من يأت الله عز وجل مشركاً فلا حجة له. ويابنى، لا تدخل القبر وفى قلبك مثقال ذرةٍ من الكبر فإن الكبر رداء الله، فمن ينازع الله رداءه يغضب الله عليه. ويابنى، لاتدخلن القبر وفى قلبك مثقال ذرةٍ من القنوط؛ فإنه لايقنط من رحمة الله إلا ضال(٦).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.

قال البغوى(٧): «من رحمة ربه إلا الضالون».

أى الخاسرون والقنوط من رحمة الله كبيرة.

قال: أمن من مكره. اهـ.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ١٩١) ونسبه للحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول».

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٤١٠) فانظر بتخريجنا، وأنظر «الدر» (٤/ ١٩١).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ١٩١) ونسبه لأبى عبيد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم (١٢٤١١) وأنظر «الدر» (٤/ ١٩١).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم (١٢٤١٢) وأنظر «الدر» فى الموضع السابق.

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٤١٣) وزاد نسبته السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق لأحمد فى «الزهد».

(٧) معالم التنزيل ٣/ ٤٠٦.

قال الزمخشري[1]: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب أو إلا الكافرون. كقوله ﴿لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ يعني لم أشكو ذلك قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً له في العادة التي اجراها الله. اهـ.

قال ابن الجوزي[2]: والقنوط بمعنى اليأس ولم يكن إبراهيم قانطاً ولكنه استبعد وجود الولد. اهـ.

قال الرازي[3]: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا الكلام حق، **لأن القنوط من رحمة الله تعالى لايحصل إلا عند الجهل بأمور أحدها**: أن يجهل كونه تعالى قادراً عليه.

وثانيها: أن يجهل كونه تعالى عالماً باحتياج ذلك العبد إليه.

وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزهاً عن البخل والحاجة والجهل، فكل هذه الأمور سبب للضلال، فلهذا المعنى قال: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾. اهـ.

قال السعدي[4]: الذين لاعلم لهم بربهم وكمال اقتداره.

وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق، لرحمة الله شيئًا كثيراً.

قال صاحب الظلال[5]: قال: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾.

وبرزت كلمة «الرحمة» في حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع المقدمة في هذا السياق وبرزت معها الحقيقة الكلية: أنه لايقنط من رحمة ربه إلا الضالون. الضالون عن طريق الله، الذين لايستروحون روحه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته. فأما القلب الندي بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمت حوله الخطوب، ومهما غام الجو وتلبد، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر.. فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين. وقدرة الله تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج، وتغير الواقع كما تغير الموعود. اهـ.

● ● ●

(1) الكشاف ٢/ ٣١٥.
(2) زاد المسير ٤/ ٣٠٩.
(3) التفسير الكبير ١٠/ ١٩/ ٣٠٦.
(4) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ١٤.
(5) ٤/ ٢١٤٨.

- **ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾، نبه المصنف رحمه الله بهذه الآية على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط من رحمة الله، بل يرجوها مع العمل الصالح. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ذكر سبحانه أنهم يرجون رحمة الله مع الاجتهاد فى الأعمال الصالحة فأما الرجاء مع الإصرار على المعاصى، فذاك من غرور الشيطان؛ إذا تبين ذلك، فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ حكاية قول إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بولده إسحاق عليه السلام، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾[2] استبعادًا لوقوع هذا فى العادة مع كبر السن منه ومن زوجته قالوا: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: الذى لا ريب فيه ولا مثنوية، بل هو أمر الذى ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[3] وإن بعد مثله فى العادة التى أجراها فإن ذلك عليه يسير؛ إذا أراده، فلا تكن من القانطين، أى لا تيأس من رحمة الله، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ فأجابهم بأنه ليس بقانط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر، وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

قال السدى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ﴾ قال: من ييأس من رحمة ربه[*]. رواه ابن أبى حاتم: ﴿ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو الكافرون، كقوله: ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[4].

وفى حديث مرفوع «الفَاجِرُ الرَّاجِى لِرَحْمَةِ اللهِ أَقْرَبُ مِنهـا مِنَ العَابِدِ القَانِطِ» رواه الحيكم الترمذى والحاكم فى «تاريخه[5]».

● ● ●

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٨١.

(٢) الحجر ٥٤.

(٣) يس: ٨٢.

(*) تقدم.

(٤) يوسف: ٨٧.

(٥) ذكره الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير» (٤٠٢٢) ونسبه للحكم والشيرازى فى «الألقاب» وقال الألبانى: موضوع.

وَعَنْ ابنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائرِ؟ فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، واليَأْسُ مِنْ رَوحِ الله، وَالأَمْنُ مِنْ مَكرِ الله»(١).

قوله: [وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الكبائر؟.....إلخ].

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان متكئاً، فدخل عليه رجل، فقال: ما الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله» وذكر الحديث. ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر فقال ابن معين: ثقة، ولينه ابن أبي حاتم، ومثل هذا يكون حسناً. وقال ابن كثير: في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا. اهـ.

[قلت]: قوله لينه ابن أبي حاتم، وجدناه في «تهذيب الكمال» أبو حاتم وقوله (ومثل هذا يكون حسناً) لكنا رأينا جرحاً مفسراً ذكره في «تهذيب الكمال» قال ابن حبان: يخطئ كثيراً، وقال الحافظ: صدوق يخطئ، فمثل هذا لايحسن إلا بمتابع. لاسيما وابن كثير رجح وقفه مما يدل على احتمال الخطأ منه في هذه الرواية فهو رفعه، وغيره وقفه. والله أعلم.

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال القرعاوي(٣): حيث دل الحديث على وجوب الجمع بين الرجاء والخوف من الله سبحانه وتعالى. اهـ.

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القرعاوي(٤): حيث دلّ الحديث على وجوب الجمع بين الرجاء والخوف من الله لأن ذلك يثبت الكمال المطلق لله تعالى وهذا محقق لكمال التوحيد. اهـ.

قوله: «سئل عن الكبائر فقال».

قال ابن عثيمين(٥): الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد دلَّ على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، والكبائر ليست على درجة واحدة فبعضها أكبر من بعض.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق شبيب وانظر فتح المجيد (٦٧٦ - بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢. (٣ - ٤) الجديد ٣١٠.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢٥٢.

واختلف العلماء: هل هي معدودة أو محدودة؟

قال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك.

وقيل: إنها محدودة، وقد حدَّها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ فقال: «كل ما رُتِّب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه»، وهذا واسعٌ جداً يشمل ذنوبًا كثيرةً.

ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان: قسم نهى عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد؛ فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات؛ كقوله ﷺ: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»**(١)، وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة، والوضوء من تكفير الخطايا؛ فهذه من الصغائر.

وقسم رُتِّب عليه عقوبة خاصة؛ كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد في الدنيا، أو نفي الإيمان، وما أشبه ذلك؛ فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

والسائل في هذا الحديث إنما قَصْدُه معرفة الكبائر ليجتنبها، خلافًا لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط، ولذلك نقصت بركة علمهم. اهـ.

قلت: وقد تقدم في باب «ما جاء في السحر» في شرح حديث «اجتنبوا السبع الموبقات»(٢): حد الكبيرة واختلاف العلماء في ذلك والراجح.

قوله: «الشرك بالله».

قال سليمان آل الشيخ(٣): قوله: «الشرك بالله» هو أكبر الكبائر، إذ مضمونه تنقيص رب العالمين وإلههم ومالكهم وخالقهم الذي لا إله إلا هو، وعدل غيره به، كما قال: ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ فهو أظلم الظلم، وأقبح القبيح، ولهذا لايغفر إن لم يتب منه، بخلاف غيره من الذنوب، ففي مشيئة الله إن شاء غفرها، وإن شاء عذب بها. اهـ

قال ابن عثيمين(٤): قوله: «الشرك بالله».

ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الطهارة (٢/١١٨/١٤) عن أبي هريرة به.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢. (٤) القول المفيد ٢/٢٥٣، ١.

الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلىّ من أن أحلف بغيره صادقًا»(١)، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب؛ فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقًا.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته. اهـ.

قوله: «واليأس من روح الله».

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «واليأس من روح الله» أى: قطع الرجاء والأمل من الله فيما يرومه ويقصده قال تعالى: ﴿ **وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ وذلك إساءة ظن بكرم الله ورحمته وجوده ومغفرته. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): اليَأسُ: فَقْدُ الرجاء، والروح بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة. اهـ.

قوله: «الأمن من مكر الله».

قال سليمان آل الشيخ(٤): **قوله: «والأمن من مكر الله»** أى: من استدراجه للعبد أو سلبه ما أعطاه من الإيمان - نعوذ بالله من غضبه - وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يرد فيه حصر الكبائر فيما ذكر، بل الكبائر كثيرة، لكن ذكر ما هو أكبرها، أو من أكبرها، ولهذا قال ابن عباس: «هى إلى السبعين أقرب منها إلى السبع»(٥)، رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم. وفى رواية «هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»(٦). اهـ.

قال ابن عثيمين: بأن يعصى الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾(٧).

---

(١) تقدم تخريجه وسيأتى تخريجه.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢.
(٣) القول المفيد ٢/ ٢٥٣.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢.
(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٢٦١) ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى «الشعب».
وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.
(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٢٦١) ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.
وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.
(٧) الإعراف: ١٨٣.

وَعَنِ ابْنُ مَسْعُود، قَالَ: «أَكْبَرُ الكَبَائِر: الإِشْرَاكُ بِالله وَالأَمْنُ مِنْ مَكْر الله، وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله» رَوَاهُ عَبْدُ الرَزَّاق. (١)

وظاهر هذا الحديث: الحصر، وليس كذلك لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله؛ فلعله رأى هذا السائل عنده شئ من الأمن من مكر الله أو اليأس من روح الله، فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغى أن يفطن لها الإنسان فيما يأتى من النصوص الشرعية مما ظاهره التعارض، فيحمل كل واحد منها على الحال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية. اهـ.

● ● ●

قوله: «وعن ابن مسعود قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله...» إلخ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الأثر رواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود، قال ابن كثير: وهو صحيح إليه بلاشك، ورواه الطبرانى أيضاً. اهـ.

- **مناسبة الحديث للباب: قال القرعاوى(٣):** حيث دل على وجوب الرجاء والخوف من الله. اهـ.

- **مناسبة الحديث للتوحيد: قال القرعاوى(٤):** حيث دل على وجوب الجمع بين الرجاء والخوف من الله لأن ذلك مثبت لكمال الله المطلق وذلك محقق لكمال التوحيد. اهـ.

قوله: «أكبر الكبائر».

قال سليمان آل الشيخ(٥): قوله أكبر الكبائر: الإشراك بالله. أى: فى ربوبيته أو عبادته وهذا بالإجماع. اهـ.

قال ابن عثيمين(٦): قوله فى أثر ابن مسعود: «**الإشراك بالله**»: هذا أكبر الكبائر؛ لأنه انتهاك لأعظم الحقوق، وهو حق الله تعالى الذى أَوْجَدَكَ وأَعَدَّكَ وأَمَدَّكَ؛ فلا أحد أكبر عليك نعمةً من الله تعالى.

قوله: «الأمن من مكر الله» سبق شرحه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (١٠/ ٤٥٩ - ٤٦٠/ ١٩٧٠١) ومن طريقه الطبرانى فى «الكبير» (٩/ ١٧١/ ٨٧٨٤) عن معمر، عن أبى إسحاق، عن ويرة، عن عامر بن الطفيل، عن ابن مسعود به. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٧٨) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢.

(٣ - ٤) الجديد ٣١٢.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٨٣.

(٦) القول المفيد ٢/ ٢٥٤ و ٢٥٥.

قال سليمان آل الشيخ:

قوله. «والقنوط من رحمة الله». قال أبو السعادات: هو أشد اليأس من الشيء قلت: يعني سليمان آل الشيخ- فعلى هذا يكون الفرق بينه وبين اليأس كالفرق بين الاستغاثة والدعاء، فيكون القنوط من اليأس، وظاهر القرآن أن اليأس أشد لأنه حكم لأهله بالكفر، ولأهل القنوط بالضلال، وفيه التنبيه على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف، وفي المرض الرجاء، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فإذا كان الغالب عليه الرجاء فسد، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا خشيته في الغيب والشهادة إنه على كل شيء قدير. اهـ.

قال ابن عثيمين: المراد بالقنوط أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك؛ لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود.

والخلاصة: أن السائر إلى الله يعتريه شيئان يُعوِّقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب؛ تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله؛ فتجد الإنسان مقيمًا على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق فيستمر في باطله؛ فلا شك أن هذا استدراج. اهـ.

قلت: تقدم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية، والآية التي بعدها»(1).

وفي الحديث أيضاً عن أبي موسى مرفوعاً: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ الآيه(2) وهو في الصحيح وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ الآية.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، مسلم في البر والصلة (١٦/ ١٣٧ - النووي) عن أبي موسى به.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠٩ - بتخريجنا).

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسيرُ آيَةِ الأعْرَافِ.

الثانية: تَفْسيرُ آيَةِ الحِجْرِ.

الثالثة: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِيمَنْ أَمِنَ مَكْرَ الله.

الرابعة: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِي القُنُوطِ.

قوله: «وفيه مسائل».

● **الأولى: تفسير آية الأعراف**

قال ابن عثيمين[1]: قوله تعالى: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾، وقد سبق تفسيرها.

● **الثانية: تفسير آية الحجر.**

وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾، وقد سبق تفسيرها.

● **الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.**

وذلك بأنه من أكبر الكبائر؛ كما في الآية والحديث؛ وتؤخذ من الآية الأولى، والحديثين.

● **الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.**

تؤخذ من الآية الثانية والحديثين. اهـ.

● ● ●

---

(١) القول المفيد ٢/٢٥٦.

٣٤ بابٌ
مِنَ الإيمانِ باللهِ الصبرُ على أقدارِ الله

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال الفقير: ولما كان من ثمرات التوكل الخوف والرجاء - كما تقدم- ولذا جاء هذا الباب في الترتيب بعد التوكل أيضًا ناسب أن يأتي بعد التوكل الصبر على أقدار الله والرضا بها؛ لأن الرضا بالقدر، والصبر عليه من ثمرات التوكل أيضًا، بل هي حقيقته.

ـ مناسبة الباب للتوحيد

قال ناصر السعدي(١): وأما الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان بل هما أساسه وفرعه. فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله فإن الدين يدور على ثلاثة أصول.

تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما.

فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به. فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله، وإن لله أتم الحكمة في تقديرها وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، رضي بقضاء الله وسلَّم لأمره وصبر على المكاره، تقربا إلى الله ورجاء لثوابه وخوفا من عقابه واغتناما لافضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوى إيمانه وتوحيده. أهـ.

قال عبد الله بن جار الله(٢): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هي أن عدم الصبر على أقدار الله وتسخطها ينافي التوحيد والإيمان .اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): وخص المؤلف- رحمه الله- في هذا الباب الصبر على أقدار الله؛ لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية اللهتعالى. اهـ.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب؟:

قال ابن باز: أراد المصنف بهذا الباب أن يبين أن الصبر على ما يقدره الله من

(١) القول السديد ٩٥و ٩٦.

(٢) الجامع الفريد (١٤١)

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٥٩

الإيمان وأن المؤمن لا ينبغى له أن يجذع عند المصيبة فى نفسه أو ولده أو ماله أو أهله بل يتحمل . اهـ.

● **شرح التبويب :**

قال سليمان آل الشيخ(١): لما كان ببديع حكمته ولطيف رحمته، قضى أن يبتلى النوع الإنسانى بالأوامر والنواهى والمصائب التى قدرها عليهم أمرهم بالصبر على ذلك، وافترضه عليهم تسلية لهم وتقوية على ذلك، ووعدهم عليه الثواب بغير حساب اهـ.

ـ تعريف الصبر

قال ابن عثيمين(٢): **فى اللغة**: الحَبْس، ومنه قولهم: «قتل صبراً»؛ أى: محبوساً مأسوراً.

وفى الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء . اهـ.

ـ أنواعه(٣):

الأول: الصبر على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً** (٢٣) **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾(٥)، وهذا من الصبر على الأوامر؛ لأنه إنما نزل عليه القران ليبلِّغه؛ فيكون مأموراً بالصبر على الطاعة.

وقال تعالى: ﴿ **وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**٢٢٨٩ **وَاصْبِرْ**﴾(٧)؛ فهذا صبر عن معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله، قال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾، فيدخل فى هذه

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٨٣).
(٢) القول المفيد٢/٢٥٧
(٣) القول المفيد ٢/٢٥٧و ٢٥٩ .
(٤) طه: ١٣٢ .
(٥) الإنسان: ٢٣/ ٢٤ .
(٦) الكهف: ٢٨ .
(٧) يوسف: ٣٣ .

الآية حكم الله القدرى، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾(١)؛ لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: «مرها؛ فلتصبر ولتحتسب»(٢).

إذن الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا؛ فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة إذا فُتِن الإنسان مثلاً بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها فى مكان خال لايطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة؛ فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلى الإنسان مئة ركعة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة؛ فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جداً، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

وبهذا يندفع الإيراد الذى يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر؛ إذ بعض المعاصى يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق؛ فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هى بقطع النظر عن الصابر.

وكان الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزاماً وفعلاً، فتلزم نفسك الصلاة فتصلى، والصوم فتصوم، والحج فتحج... ففيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر عن المعصية لأن فيه كفاً فقط؛ أى: إلزاماً للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار؛ فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلاً ولاتركاً، وإنما هو من قدر الله المحض(٣). اهـ.

ـ منزلة الصبر:

قال سليمان آل الشيخ(٤): قال الإمام أحمد ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً.

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١٢٨٤)، ومسلم فى الجنائز (٦/ ٢٢٤، ٢٢٥ـ النووى) عن أُسامة بن زيد به وانظر «رياض الصالحين» (٣٠ ـ بتخريجنا).

(٣) القول المفيد ٢/٢٥٨و ٢٥٩.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٣و ٣٨٤.

وقال عليه السلام: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خيراً وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1] رواه البخاري ومسلم.

وفى حديث آخر: «الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمَان»[2] رواه أبو نعيم والبيهقى فى «الشعب».

وقال عمرُ: وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بالصَّبْر[3]. رواه البخارى. وقال على بن أبى طالب: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بار الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له.

والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة واشتقاقه من صبر إذا حبس ومنع، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكى والسخط، والجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب ونحوهما ذكره ابن القيم[3]. اهـ

قال ابن عثيمين[4]:

قوله: «على أقدر الله» جمع قَدَر، وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدِّر، وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل المقدر؛ فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور؛ فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

مثال ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدَّر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به؛ لأنه من تمام الرضا بالله ربّاً.

وأما بالنسبة للمقدور الذى هو احتراق السيارة؛ فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

والمقدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصى، وقد يكون من أفعال الله المحضة؛ فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصى لايجوز الرضا بها من حيث هى مقدور، أما من حيث كونها قدر الله؛ فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال، ولهذا قال ابن القيم:

فَلِذاكَ نَرضَى بالقضاء ونَسْخَطَ الـ ـمَقْضِيّ حين يكونُ بالعِصْيان

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية؛ فعليه الرضا لأن الله هو الذى قَدّر هذا، وله الحكمة فى تقديره، وإذا نظر إلى فعله؛ فلايجوز له أن يرضى به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور. اهـ

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٦٩)، ومسلم فى الزكاة (٧/ ١٤٤ ـ النووى) عن أبى سعيد به. وانظر «رياض الصالحين» (٢٧ ـ بتخريجنا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) علقه البخارى باب (١١/ ٣٠٩ ـ الفتح) قال الحافظ: ووصله أحمد فى «الزهد» بسند صحيح.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٥٩و ٢٦٠.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[1].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾

وأول الآية: قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ـ مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله بن جار الله[2]: أنها بينت ثواب الصبر والتحلى به والحث عليه.

قال القرعاوى[3]: حيث دلت الآية الكريمة على أن الصبر على أقدار الله وعدم الجزع من علامات الإيمان بالله. اهـ

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الإعراب[4]: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الواو) حرف عطف (ومن) اسم شرط جازم فى محل رفع مبتدأ (ويؤمن) فعل الشرط (وبالله) متعلقان (بيؤمن) (ويهد) جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة (وقلبه) مفعول به وفعل الشرط والجزاء خبر (من) والله مبتدأ (وبكل شىء) متعلقان (بعليم) (وعليم) خبر (الله). اهـ

● ما جاء فى تفسير الآية من أحاديث وآثار

وفى الحديث المتفق عليه «**عجبا للمؤمن لايقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»[5].

وقال أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن يزيد عن على بن رباح أنه سمع جنادة بن أبى أمية يقول سمعت عباده بن الصامت يقول إن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أى العمل أفضل قال «**إيمان بالله وتصديق به وجهاد فى سبيل الله**» قال أريد أهون من هذا يا رسول الله؟ قال: «**لا تتهم الله فى شىء قضى لك به**»[6].

---

(١) التغابن: ١١. (٢) الجامع الفريد ١٤٢. (٣) الجديد ٣١٤.

(٤) ١٠/ ١١٤ إعراب القرآن.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزهد (١٨/ ١٢٥ ـ النووى) عن صهيب بن سنان به. وانظر «رياض الصالحين» (٢٨ ـ بتخريجنا).

(٦) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣١٨) عن عبادة به وفيه ابن لهيعة وحاله معروف.

عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعنى يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه[1].

وعن أبى ظبيان قال كنا عند **علقمة** فقرىء عنده هذه الآية ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فسئل عن ذلك فقال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيسلم ذلك ويرضى[2].

وعن علقمة أيضاً مثله غير أنه قال فى حديثه فيعلم أنها من قضاء الله فيرضى بها ويسلم[3] وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول والله بكل شىء ذو علم بما كان ويكون وما هو كائن من قبل أن يكون[3].

عن ابن مسعود رضى الله عنه فى الآية قال: هى المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى[4]

عن ابن جريج فى الآية قال: من أصاب من الإيمان ما يعرف به الله فهو مهتدى القلب[5].

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[6]: يقول تعالى ذكره: لم يصب أحدا من الخلق مصيبة إلا بإذن الله يقول إلا بقضاء الله وتقديره ذلك عليه ومن يؤمن بالله يهد قلبه يقول ومن يصدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك يهد قلبه يقول يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه. اهـ.

قال البغوى[7]: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ فصدق أنه لايصيبه مصيبة إلا بإذن الله ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه فيسلم لقضاءه.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٨/ ٧٩، ٨٠)، وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٤٤) وزاد نسبته لابن المنذر.

وانظر «فتح القدير» (٤٠٠١٣ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٤٤) ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقى فى «الشعب».

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٤٤) ونسبه لسعيد بن منصور.

وانظر «فتح القدير» (٣٠٠١٣ـ بتخريجنا).

(٥) ذكره السيوطى فى الموضوع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٦) تفسير الطبرى ١٢/٢٨/٧٩.

(٧) معالم التنزيل ٥/٣٩٦.

قال ابن الجوزى[١]: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فيه ستة أقوال:

أحدها: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس[٢]. **وقال علقمة:** هو الرجل تصيبه المصيبة: فيعلم أنها من قبل الله تعالى، فيسلم، ويرضى[٣].

والثانى: يهد قلبه للاسترجاع، وهو أن يقول: إنا لله، وإنا إليه راجعون قاله مقاتل.

والثالث: أنه إذا ابتلى صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر، قاله ابن السائب، وابن قتيبة.

والرابع: يهد قلبه، أى: يجعله مهتدياً، قاله الزجاج.

والخامس: يهد وليَّه بالصبر والرضى، قاله أبو بكر الورَّاق.

والسادس: يهد قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه، قاله أبو عثمان الحيرى. وقرأ أبوبكر الصديق، وعاصم الجحدرى، وأبو نهيك: «يَهْدَ» بياءٍ مفتوحة. ونصب الدال «قَلْبُهُ» بالرفع. قال الزجاج: هذا من هدأ يهدأ: إذا سكن. فالمعنى: إذا سلَّم لأمر الله سكَنَ قلبُه. وقرأ عثمان بن عفان، والضحاك، وطلحة بن مصرف، والأزرق عن حمزة: «نَهْد» بالنون. وقرأ على بن أبى طالب، وأبو عبدالرحمن: «يُهْدَ» بضم الياء، وفتح الدال «قَلْبُهُ» بالرفع اهـ.

قال الرازى[٤]: قوله تعالى: ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أى عند المصيبة أو عند الموت أو المرض أو الفقر أو القحط، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع، فذلك قوله: ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أى للتسليم لأمر الله، ونظيره قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، قال أهل المعانى يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء، وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما يهد قلبه إلى ما يحب ويرضى وقرىء «نهد قلبه» بالنون وعن عكرمة «يهد قلبه» بفتح الدال وضم الياء، وقرىء «يهدأ» قال الزجاج هدأ قلبه يهدأ إذا سكن، والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب أن يكون مثل سفه نفسه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى اطمئنان القلب عند المصيبة، وقيل ﴿عَلِيمٌ﴾ بتصديق من صدق رسوله فمن صدقه فقد هدى قلبه. اهـ

---

(١) تقدم تخريجه قريباً (٢) الرازى ١٥/ ٣٠/ ٢٧.

(٣) تقدم تخريجه

قلت: وتأويل الرازى لقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يُشَمُّ من القول الأول تأويله لصفة العلم والقول الثانى الذى ذكره بصيغة التمريض هو الأقرب لإثبات صفة العلم لله كما قال القرطبى وابن كثير والسعدى وغيرهم من أهل العلم وتقدم من قول علقمة التصريح بذلك.

قال القرطبى[1]: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أى: يصدِّق ويعلم أنه لايصيبه مصيبة إلا بإذن الله.

﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للصبر والرضا. وقل: يُثَبِّته على الإيمان. وقال أبو عثمان الجيزى: من صح إيمانه يهد الله قلبه لأتباع السُّنة. وقيل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ عند المصيبة. فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ قاله ابن جبير. وقال ابن عباس: هو أن يجعل الله فى قلبه اليقين؛ ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال الكَلْبى: هو إذا ابتُلِىَ صَبَرَ، وإذا أنعِم عليه شكَرَ، وإذا ظُلم غفر. وقيل: يَهْدِ قلبه إلى نيل الثواب فى الجنة.

وقراءة العامة «يَهْدِ» بفتح الياء وكسر الدال؛ لذكر اسم الله أوّلاً. وقرأ السُّلَمِى وقتادة «يُهْدَ قَلْبُه» بضم الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء؛ لأنه اسم فعل لم يسمّ فاعله.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف والأعرج «نَهْدِ» بنونٍ على التعظيم «قلبَه» بالنصب. وقرأ عِكْرمة «يَهْدأُ قلبُه» بهمزة ساكنة ورفع الباء، أى يسكن ويطمئن. وقرأ مثله مالك بن دِينار، إلا أنه ليَّن الهمزة. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لايخفى عليه تسليم مَن انقاد وَسلّم لأمره، ولا كراهة من كرهه. اهـ

قال ابن كثير[2]: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه ويقينا صادقا وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرا منه.

---

(١) تفسير القرطبى ١٠/٦٦١٨و ٦٦١٩

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٢.

قال سليمان آل الشيخ(١): أخبر تعالى أن ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى الأنفس إلا بإذن الله ، أى: بقدر وأمره كما قال فى آية أخرى﴿**إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ قال ابن عباس فى قوله: ﴿**إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ إلا بأمر الله، يعنى : من قدره ومشيئته﴿**مَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله جازاه الله تعالى بهداية قلبه التى هى أصل كل سعادة وخير فى الدنيا والآخرة.

وقد يخلف عليه أيضًا فى الدنيا ما أخذه منه أو خيرًا منه كما قال: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ قال ابن عباس: يهد قلبه اليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه(*). اهـ.

قلت: وتقدم أثر ابن عباس.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٢) **مثل ما قاله سليمان**: وزاد : قوله ﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضا . اهـ.

قال عبد الله بن جار الله(٣) **مثل من سبقه وزاد**: ويستفاد من هذه الآية أن الصبر على المصيبة سبب لهداية القلوب، وطمأنينتها، وأنها من ثواب الصابرين . اهـ.

وقال ابن عثيمين(٤): ﴿**مَن**﴾ اسم شرط جازم، وفعل الشرط ﴿**يُؤْمِن**﴾ وجوابه ﴿**يَهْدِ**﴾ والمراد بالإيمان بالله هنا الإيمان بقدره اهـ.

وقال القرعاوى(٥): ﴿**يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ يهد قلبه للصبر والرضا بالمصيبة اهـ.

قوله: ﴿**يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٨٤، ٣٨٥).

(*) تقدم تخريجه.

(٢) فتح المجيد (٢/ ٤٩٤).

(٣) الجامع الفريد (١٤٢)

(٤) القول المفيد (٢/ ٢٦٠-٢٦١).

(٥) الجديد (٣١٣).

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»(١).

يرزقه الطمأنينة، وهذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، فإذا اهتدى القلب اهتدت الجوارح؛ لقوله ﷺ: **«إن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»(٢)**. اهـ.

قوله: قال علقمة: «هو الرجل...»

قال سليمان الشيخ(٣): هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن علقمة وهو صحيح، وعلقمة هو ابن قيس بن عبدالله النخعى الكوفى ولد فى حياة النبى ﷺ، وسمع من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم، وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين. اهـ

مناسبة الآثر للباب

قال القرعاوى(٤): حيث دلَّ الأثر على أن علقمة ـ رحمه الله تعالى ـ يرى أن الصبر على المصائب والتسليم من علامات الإيمان.

قوله: «هو الرجل تصيبه المصيبة».

تقدم قول ابن عباس فى قوله: **﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾** يعنى يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه(٥).

وعن ابن مسعود فى قوله: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** الآية هى المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيُسلم الأمر لله ويرضى بذلك(٦).

قال سليمان(٧): هذا تفسير للإيمان المذكور فى الآية لكنه تفسير باللازم وهو صحيح، لأن هذا لازم للإيمان الراسخ فى القلب، وقريب منه تفسير سعيد بن جبير ومن يؤمن بالله يهد قلبه يعنى: يسترجع يقول: **«إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»**. وفى الآية أن الصبر سبب لهداية القلب، وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وأن الأعمال من الإيمان وفيها إثبات القدر. اهـ

---

(١) تقدم تخريجه قريباً
(٢) تقدم تخريجه
(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٥.
(٤) الجديد ٣١٥.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) القول المفيد ٢/ ٢٦١.

وَفِى صَحِيحِ مُسْلِم. عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِى النَّاسِ هُمَا بِهِمَا كفرٌ: الطَّعْنُ فِى النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»(١).

قال ابن عثيمين(٢): وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان؛ لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله، فيرضى ويُسلِّم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر. اهـ.

قلت: وفيه اتباع المصنِّف لهدى السلف فى التفسير بالمأثور

قوله : وفى صحيح مسلم . عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان فى الناس هما بهما كفر...»

ـ **مناسبة الحديث للباب: قال عبدالله بن جار الله(٣):** أنه دل على تحريم النياحة لما فيها من التسخط على القدر المنافى للصبر اهـ وقال بنحوه القرعاوى فى الجديد.

قوله: «اثنتان»(٤).

قوله فى حديث أبى هريرة: **«اثنتان»**.

مبتدأ، وسَوَّغ الابتداء به التقسيم، أو أنه مفيد للخصوص.

قوله: «فى الناس هما» أى: الاثنتان(٥).

قلت: وفى المسند بلفظ : **«اثنتان من أمر الجاهلية لا يتركها الناس»**

قوله: «بهما كفر».

قال النووى(٦): وفيه أقوال أصحها: أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية.

والثانى: أنه يؤدى إلى الكفر.

والثالث: أنه كفر النعمة والإحسان.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن فى النسب والنياحة (١/ ٢/ ٥٧) وأحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٧٧) مختصراً وأيضاً فيه (٢/ ٤٣١) بلفظ اثنتان من أمر الجاهلية لا يتركها الناس. . .» من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وانظر «رياض الصالحين» (ح٢٦٦٩) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٦١.

(٣) الجامع الفريد ١٤٢.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٦٢.

(٥) قاله صاحب التيسير ٣٨٥.

(٦) النووى شرح مسلم ١/ ٣٣٤.

والرابع: أن ذلك فى المستحل.

وفى هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن فى النسب والنياحة، وقد جاء فى كل واحد منهما نصوص معروفة. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ(١): أى: هاتان الخصلتان هما كفر قائم فى الناس. فنفس الخصلتين حيث كانتا فى أعمال الكفار، وهما قائمتان بالناس، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان.

وفرق بين الكفر المعرف باللام كما فى قوله ﷺ: «**ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة**»(٢) وبين كفر منكر فى الإثبات. اهـ.

قال الشيخ ابن عثيمين(٣): قوله: «**بهما**»: الباء يحتمل أن تكون بمعنى «من»؛ أى: هما منهم كفر، ويحتمل أن تكون بمعنى «فى»؛ أى: هما فيهم كفر.

قوله: «كفر» أى: هاتان الخصلتان كفر ولايلزم من وجود خصلتين من الكفر فى المؤمن أن يكون كافراً، كما لايلزم من وجود خصلتين فى الكافر من خصال الإِيمان؛ كالحياء، والشجاعة، والكرم؛ أن يكون مؤمناً.

قال شيخ الإِسلام ابن تيمية- رحمه الله: أى فى شرح كلمة «بهما كفر»(*) «بخلاف قول رسول الله ﷺ: «**بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة**» فإنه هنا أتى بأل الدالة على الحقيقة؛ فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجىء «كفر» نكرة؛ فلايدل على الخروج عن الإِسلام. اهـ

قوله: «الطعن فى النسب».

قال سليمان آل الشيخ(٤): أى عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه فى ظاهر الشرع، ذكره بعضهم. اهـ.

(١) نقلاً عن كتاب تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ٢/٢٦٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

(*) وابين القوسين أضفناه للمنع من اللبس.

قوله: «النياحة على الميت».

قال سليمان آل الشيخ[1]: أى رفع الصوت بالندب بتعديد شمائله لما فى ذلك من التسخط على القدر والجزع المنافى للصبر، وذلك كقول النائحة: واعضداه واناصراه، واكاسياه ونحوه. وفيه دليل على أن الصبر واجب لأن النياحة منافيه له، فإذا حرمت دل على وجوبه، وفيه أن من الكفر مالاينقل عن الملة. اهـ

قال ابن عثيمين[2]: **قوله «النياحة»**. أى: أن يبكى الإنسان على الميت بكاء على صفة نَوْح الحمام؛ لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر، فهو مناف للصبر الواجب، وهذه الجملة هى الشاهد للباب.

والناس حال المصيبة على مراتب أربع:

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على قدر الله عليه، وقد يؤدِّى إلى الكفر، قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ** ﴾، وقد يكون باللسان؛ كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح؛ كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانى: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصَّبرُ مِثلُ اسمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لكِنْ عواقِبُهُ أحلى مِنَ العَسَلِ

فيرى الإنسان أن هذا الشىء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله ويتصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره وإن كان قد يحزن من المصيبة؛ لأنه رجل يسبح فى القضاء والقدر، أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جبل، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها؛ فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميت؛ بل لتمام رضاه بربه - سبحانه وتعالى - يتقلب فى تصرفات الرب - عزوجل -، ولكنها عنده سواء؛ إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٦٢و ٢٦٤.

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُود مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَن ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَى بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّة»[1].

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، وذلك يكون فى عباد الله الشاكرين حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك، قال النبى ﷺ: **«ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شىء إلا كفّر له بها، حتى الشوكة يشاكها»**[2].

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك. اهـ.

قوله: ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «وليس منا من ضرب الخدود ...» الحديث.

ذكره البخارى فى أربعة مواضع فى الصحيح الأولى: باب ليس منَّا من شقّ الجيوب.

ولفظه «ليس منّا من لَطَمَ الخدود، وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

الثانية: باب: ليس منّا من ضَرب الخدود.

الثالثة: باب: ما يُنهى عن الويل ودعوى الجاهلية.

الرابعة: باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية.

وذكر لفظة المصنف فى تبويبه.

مناسبة الحديث للباب

أنه أفاد تحريم هذه الأشياء وأنها تنافى الصبر والإيمان الواجب.

قوله: «ليس منا من شقّ الجيوب».

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الجنائز/ باب ليس منا من شق الجيوب (٣/ ١٩٥/ ١٢٩٤)، ومسلم فى الإيمان/ باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب (٢/ ١٠٩، ١١٠ ـ النووى).
عن عبدالله بن مسعود به.
وانظر «السلسبيل» (٩٥٤ ـ بتخريجنا). وانظر «فتح المجيد» (٦٨٧) بتخريجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٦٤٢)، ومسلم (فى البر والصلة (١٦/ ١٣٠ ـ النووى) وانظر «رياض الصالحين (٣٨ ـ بتخريجنا).

(٣) الجامع الفريد ١٤٣. وقال نحوه القرعاوى.

قال ابن حجر:

قال الزين[1] بن المنير:

أفرد ـ أى البخارى ـ هذا القدر بترجمة ليشعر بأن النفى الذى حاصله التبرى يقع بكل واحد من المذكورات لا بمجموعها.

قلت ـ يعنى ابن حجر ـ: ويؤيده رواية لمسلم بلفظ **«أو شق الجيوب، أو دعا»** إلخ.

قوله: «ليس منا».

قال ابن حجر[2]: أى من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدين، ولكن فائدة إيراده بهذا اللفظ المبالغة فى الردع عن الوقوع فى مثل ذلك كما يقول الرجل لولده عند معاتبته: لست منك ولست منى، أى ما أنت على طريقتى.

وقال الزين بن المنير ما ملخصه: التأويل الأول يستلزم أن يكون الخبر إنما ورد عن أمر وجودى، وهذا يصان كلام الشارع عن الحمل عليه، والأولى أن يقال: المراد أن الواقع فى ذلك قد تعرض لأن يهجر ويعرض عنه فلا يختلط بجماعة السنة تأديباً له على استصحابه حالة الجاهلية التى قبحها الإسلام، فهذا أولى من الحمل على مالايستفاد منه قدر زائد على الفعل الموجود.

وحكى عن سفيان أنه كان يكره الخوض فى تأويله ويقول: ينبغى أن يمسك عن ذلك ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ فى الزجر وقيل: المعنى ليس على ديننا الكامل، أى أنه خرج من فرع من فروع الدين وإن كان معه أصله، حكاه ابن العربى.

ويظهر لى ـ أى ابن حجر ـ أن هذا النفى يفسره التبرى الآتى فى حديث أبى موسى حيث قال «برىء منه النبى ﷺ» وأصل البراءة الانفصال من الشىء، وكأنه توعده بأن لايدخله فى شفاعته مثلا. وقال المهلب: قوله أنا برىء أى من فاعل ما ذكر وقت ذلك الفعل، ولم يرد نفيه عن الإسلام.

قلت: ـ يعنى ابن حجر ـ بينهما واسطة تعرف مما تقدم أول الكلام، وهذا يدل على تحريم ما ذكر من شق الجيب وغيره. وكأن السبب فى ذلك ما تضمنه ذلك من عدم الرضا بالقضاء، فإن وقع التصريح بالاستحلال مع العلم بالتحريم أو التسخط مثلا بما وقع فلا مانع من حمل النفى على الإخراج من الدين. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3] تبعاً لابن حجر: قوله: «ليس منا» هذا من نصوص

---

(١) الفتح ٣/ ١٩٥.　(٢) الفتح ٣/ ١٩٥.　(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثورى وأحمد كراهة تأويلها ليكون أوقع فى النفوس، وأبلغ فى الزجر، وقيل أى: ليس من أهل سنتنا وطريقتنا، لأن الفاعل لذلك ارتكب محرماً، وترك واجباً. ولس المراد إخراجه من الإسلام بل المراد المبالغة فى الردع عن الوقوع فى ذلك، كما يقول الرجل لولده عند معاقبته: لست منى ولست منك، فالمراد أن فاعل ذلك ليس من المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان. اهـ.

قوله: «لطم الخدود».

قال ابن حجر(١): خص الخد بذلك لكونه الغالب فى ذلك، وإلا فضرب بقية الوجه داخل فى ذلك. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): بل ولو ضرب غير الوجه كالصدر فكما لو ضرب الخد فيدخل فى معنى ضرب الخد إذ الكل جزع مناف للصبر فيحرم. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): «قوله: من ضرب **الخدود**» العموم يراد به الخصوص؛ أى: من أجل المصيبة. اهـ.

قوله: «وشق الجيوب».

قال الحافظ(٤): جمع جيب بالجيم والموحدة وهو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس والمراد بشقه إكمال فتحه إلى آخره وهو من علامات التسخط. اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): هوطوق القميص الذى يدخل منه الرأس، وذلك عند المصيبة تَسَخُّطاً. وعدم تحمل لما وقع فيه. اهـ.

قلت: ويشهد لمعنى الجيب قوله تعالى: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾.

قوله: «ودعى بدعوى الجاهلية».

قال ابن حجر(٦): فى رواية «**دعى بدعوى الجاهلية**» فى رواية مسلم «**بدعوى أهل الجاهلية**» أى من النياحة ونحوها، وكذا الندابة كقولهم: واجبلاه وكذا الدعاء بالويل والثبور. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٧).

قوله: «ودعى بدعوى الجاهلية» قال شيخ الإسلام: هو ندب الميت وقال ابن القيم:

---

(١) الفتح ٣/ ١٩٥. (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٧/ ٣٨٦.
(٣) القول المفيد ٢/ ٢٦٤. (٤) الفتح ٣/ ١٩٥.
(٥) القول المفيد ٢/ ٢٦٥. (٦) الفتح ٣/ ١٩٦. (٧) تيسير العزيز الحميد ٣٨٧و ٣٨٨.

الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية للإنسان، ومثله التعصب للمذاهب والطوائف، والمشايخ وتفضيل بعض على بعض فى الهوى والعصبية وكونه منتسباً إليه يدعو إلى ذلك، ويوالى عليه، ويعادى ويزن الناس به، فكل هذا من دعوى الجاهلية.

قلت: يعنى سليمان آل الشيخ: الصحيح أن دعوى الجاهلية يعم ذلك كله وقد جاء لعن من فعل ما فى هذا. الحديث عند ابن ماجة، وصححه ابن حبان عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ **«لَعَنَ الخَامِشَةَ وَجْهَهَا، وَالشَّاقَّةَ جَيْبَهَا، وَالدَّاعِيَةَ بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ»**(١) وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، لأنها مشتملة على التسخط على الرب وعدم الصبر الواجب، والإضرار بالنفس من لطم الوجه، وإتلاف المال؛ بشق الثياب وتمزيقها وذكر الميت بما ليس فيه، والدعاء بالويل والثبور والتظلم من الله تعالى وبدون هذا يثبت التحريم الشديد، فأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم، ولا تنافى الصبر الواجب.

نص عليه أحمد لما رواه فى «مسنده» عن أنس أن أبا بكر رضى الله عنه دخل على النبى ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يديه على صدغيه وقال: «وَانبيَاهُ واخَليلاهُ وَاصفيَاهُ»(٢).

وكذلك صح عن فاطمة رضى الله عنها أنها ندبت أباها ﷺ فقالت: **يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَباً دَعَاهُ**... الحديث(٣).

واعلم أن الحديث المشروح لايدل على النهى عن البكاء أصلاً، وإنما يدل على النهى عما ذكر فيه فقط. وكذلك يدل على النهى عما فى معناه كالبكاء برنة، وحلق الشعر، وخمش الوجوه، ونحو ذلك. أما البكاء على وجه الرحمة، والرقة ونحو ذلك فيجوز. بل قال شيخ الإسلام: البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ولا ينافى الرضى بقضاء الله، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه.

قلت: - يعنى الشيخ سليمان - ويدل لذلك قوله عليه السلام لما مات ابنه إبراهيم: «تَدْمَعُ العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلاَ نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا والله يا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمحزُونُونَ»(٤) وهو فى «الصحيح».

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٨٥) وابن حبان فى «صحيحه» (٥/ ٦٢- الإحسان).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦/ ٢١٩ - ٢٢٠) عن عائشة به.

(٣) [صحيح] أخرجه رواه البخارى (٤٤٦٢)...

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٠٣)، ومسلم فى الفضائل (١٥/ ٧٤- النووى) عن أنس به. وانظر «رياض الصالحين» (٩٢٩ - بتخريجنا).

وَعَنْ أَنَس، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْر، عَجَّلَ لَهُ بِالعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

وفي «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى أحد بناته ولها صبي في الموات. فَرُفِعَ إليه الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا في شَنَّة. فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ. فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»(٢).

قال ابن عثيمين(٣): قوله: «ودعى بدعوى الجاهلية».

دعوى مضاف والجاهلة مضاف إليه، وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم (**دعوى الجاهلية**)؛ لأنه مفرد مضاف فيعم.

الثاني: القرينة؛ لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة، مثل قولهم: وا ويلاه! وانقطاع ظهراه!

والأولى أن ترجح صيغة العموم، والقرينة لا تخصصه؛ فيكون المقصود بالدعوى كل دعوى منشؤها الجهل.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة؛ لأنها غالباً ما تكون عند المصائب، وإلا؛ فمثله هدم البيوت، وكسر الأواني، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة. اهـ.

وهذه الثلاثة من الكبائر؛ لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها.

ولايدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادية؛ مثل: ضرب الأب لابنه، لكن يكره الضرب على الوجه للنهي عنه، وكذلك شق الجيب لأمر غير المصيبة. اهـ.

قوله: «وعن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد بعبده الخير...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ(٤): هذا الأثر رواه الترمذي، والحاكم، وحسنه الترمذي

---

(١) أخرجه الترمذي في «الزهد»/ باب: ما جاء في الصبر على البلاء (٤/ ٦٠١ /ح٢٣٩٦) وابن ماجه في «الفتن» / باب: الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٨/ ح٤٠٣١) والبيهقي في «الشعب» (٧/ ١٤٤/ ح ٩٧٨٢).
من طريق: يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس.
وقال الترمذي: حسن غريب.
وهو عند الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٦٩٠).
من طريق حميد عن أنس بغير هذا اللفظ. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٩١ بتخريجنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم في الجنائز (٦/ ٢٢٤ـ النووي) عن أسامه بن زيد به.
وانظر «رياض الصالحين» (٣٠ـ بتخريجنا).

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٦٥. (٤) تيسير العزيز الحميد: ٣٨٩.

وفى: سناده سعد بن سنان. قال الذهبى فى موضع: سعد ليس حجة وفى أخر كأنه غير صحيح، وأخرجه الطبرانى. والحاكم عن عبد الله بن مغفل، وأخرجه ابن عدى عن أبى هريرة والطبرانى عن عمار بن ياسر وحسنه السيوطى. اهـ.

ـ **مناسبة الحديث للباب: قال عبدالله بن جار الله**(١). أنه دل على المصائب التى يبتلى بها الإنسان مكفرات لذنوبه إذا صبر واحتسب. اهـ.

قال القرعاوى(٢): حيث دل الحديث على أن من اتصف بالإيمان صبر على ما قدر عليه من المصائب لأنها خير له. اهـ.

قوله: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة فى الدنيا».

قال سليمان آل الشيخ(٣): قوله: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا**» قال شارح «الجامع الصغير»: أى: بصب البلاء والمصائب عليه جزاء لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة، كما يعلم من مقابله الآتى ومن فعل به فقد أعظم اللطف به، لأن من حوسب بعمله عاجلاً فى الدنيا خف جزاؤه عليه حتى يكفر بالشوكة يشاكها، حتى بالقلم يسقط من الكاتب فيكفر عن المؤمن بكل ما يلحقه فى دنياه حتى يموت على طهارة من دنسه.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ: وفى الصحيح «**لاَ يَزَالُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِى على الأَرْضِ وَلَيْسَ عَلَيْه خَطِيئَة**»(٤).

وفى «المسند» وغيره من حديث أبى هريرة مرفوعاً «**لاَ يَزَالُ البَلاَءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَة فى جَسَده وَمَاله وَفى وَلَده حَتَّى يَلْقَى الله وَمَا عَلَيْه خَطِيئة**»(٥) قال شيخ الإسلام: المصائب نعمة، لأنها مكفرات للذنوب؛ ولأنها تدعو إلى الصبر؛ فيثاب عليها؛ ولأنها تقتضى الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، ومعلوم أن هذا من أعظم النعم، ولو كان رجل من أفجر الناس فإنه لابد أن يخفف الله عنه عذابه بمصائبه. فالمصائب رحمة ونعمة فى حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها فى معاصى أعظم مما كان قبل ذلك؛ فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه فى دينه، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو جوع

(١) الجامع الفريد (١٤٣). (٢) الجديد ٣٢٠.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٩و ٣٩٠. (٤) انظر ما بعده
(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٨٧، ٤٥٠)، والترمذى (٢٣٩٩) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٥٠ـ بتخريجنا).

حصل له من الجزع والسخط والنفاق ومرض القلب، أو الكفر الظاهر، أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً فى دينه بحسب ذلك؛ فل هذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة المصيبة، كما من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت فى حقه نعمة دينية؛ فهى بعينها فعل الرب عزَّ وجل رحمة للخلق، والله تبارك وتعالى محمود عليها، فإن اقترن بها طاعة كان ذلك نعمة ثانية على صاحبها وإن اقترن بها للمؤمن معصية، فهذا مما تتنوع فيه أحوال الناس كما تتنوع أحوالهم فى العافية، فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة فى دينه، وحصل له بعدما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه حيث قال: ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ فحصل له غفران السيئات، ورفع الدرجات وهذا من أعظم النعم. فالصبر واجب على كل مصاب؛ فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك انتهى ملخصاً. اهـ.

قال ابن عثيمين(١): قوله فى حديث أنس: «**إذا أراد الله بعبده الخير**».

الله يريد بعبده الخير والشر، ولكن الشرَّ المراد لله تعالى ليس مراداً لذاته بدليل قول النبى ﷺ: «**والشر ليس إليك**»،(٢) ومن أراد الشر لذاته كان إليه، ولكن الله يريد الشر لحكمة، وحينئذ يكون خيراً باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: «**عجل له بالعقوبة فى الدنيا**».

العقوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه، وسميت بذلك؛ لأنها تعقب الذنب، ولكنها لاتقال إلا فى المؤاخذة على الشر.

وقوله: «**عجل له بالعقوبة فى الدنيا**».

كان ذلك خيراً من تأخيرها للآخرة؛ لأنه يزول وينتهى، ولهذا قال النبى ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**» (٣).

وهناك خير أولى من ذلك وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلى؛ لأن الله إذا لم يعاقبه فى الدنيا ولا فى الآخرة؛ فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ جعل تعجيل العقوبة خيراً باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة أشد؛ كما قال تعالى: ﴿**وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى**﴾(٤).

---

(١) القول المفيد ٢/٣٦٦و ٣٦٧. (٢) تقدم تخريجه من حديث على ـ رضى الله عنه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٣١٢)، ومسلم فى اللعان (١٠/ ١٢٤ ـ النووى) عن ابن عمر به. وانظر «السلسبيل» بتخريجنا.

(٤) طه: ١٢٧.

قلت: أو لأن فى التعجيل قطع برفع العذاب الأخروى الأشد أما إذا لم يعجل له فلا يقطع بالعفو بل هو فى خطر المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه وهناك ما يدل على أنه إلى الأخذ بالعقوبة أقرب من العفو مثل حديث أبى هريرة قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: «هل أخذتك أم ملدم قط؟ قال وما أم ملدم؟ قال: **حر يكون بين الجلد وللحم**. قال: ما وجدت هذا قط. قال: **فهل أخذلو الصداع قط؟** قال: وما الصداع؟ قال: عرق يضرب فى الرأس. قال: ما وجدت هذا قط. فقال رسول الله ﷺ - **من سره أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا**»(*).

والعقوبة أنواع كثير:

منها: ما يتعلق بالدِّين، وهى أشدها؛ لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان، أما هذه؛ فلا يتنبه لها إلا من وفَّقه الله، وذلك كما لو خفت المعصية فى نظر العاصى؛ فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغَيْرة على حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ**﴾.

ومنها: العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسية.

ومنها: العقوبة بالأهل؛ كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال؛ كنقصه أو تلفه وغير ذلك. اهـ.

قلت: ويشهد له قوله تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ الآية.

قوله: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه».

أى: أخرّ عنه العقوبة بذنبه(١).

قال ابن عثيمين(٢): «أمسك عنه»؛ أى: ترك عقوبته.

والإمساك فعل من أفعال الله، وليس معناه تعطيل الله عن الفعل، بل هو لم يزل ولا يزال فعّالاً لما يريد، لكنه يمسك عن الفعل فى شىء ما لحكمه بالغة؛ ففعله حكمة، وإمساكه حكمة. اهـ.

(*) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٣٢)، والنسائى فى «الكبرى» (٧٤٩١) عن أبى هريرة به.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٠.   (٢) القول المفيد ٢/ ٢٦٧و ٢٦٨.

قوله: «حتى يوافى به يوم القيامة».

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «حتى يُوافى به يوم القيامة» هو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى مبنياً للفاعل. قال العزيزى: أى: لايجازيه بذنبه فى الدنيا حتى يجىء فى الآخرة مستوفر الذنوب وافيها فيستوفى ما يستحقه من العقاب؟

قلت - يعنى سليمان الشيخ - وهذا مما يزهد العبد فى الصحة الدائمةخوفاً أن تكون طيباته عجلت له فى الحياة الدنيا، والله تعالى لم يرض الدنيا لعقوبة أعدائه، كما لم يرضها لإثابة أوليائه بل جعل ثوابهم أن أسكنهم فى جواره ورضى عنهم كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾.

لهذا لما ذَكَرَ النَّبى ﷺ الأَسْقَامَ قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله وَمَا الأَسْقَامَ؟ وَالله مَا مَرِضْتُ قَطِ. قَالَ: «**قُمْ عَنَّا فَلَسْتَ مِنَّا**» رواه أبوداود[2].

وهذه الجملة هى آخر الحديث فأما قوله: وقال النبى ﷺ: «**إن عظم الجزاء**» إلى آخره فهو أول حديث آخر لكن لما رواهما الترمذى بإسناد واحد عن صحابى واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه من الفوائد أن البلاء للمؤمن من علامات الخير خلافاً لما يظنه كثير من الناس، وفيه الخوف من الصحة الدائمة أن تكون علامة شر، وفيه تنبيه على رجاء الله وحسن الظن به فيما يقضيه لك مما تكره، وفيه معنى قوله تعالى: ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ الآية.

قلت: وتقدم حديث أبى هريرة فى الرجل الذى لم يمرض قط وتدعوه الرسول بالنار.

قال الشيخ ابن عثيمين[3]: قوله: «حتى يوافى بـه يوم القيامة». أى: يوافيه الله به: أى: يجازيه به يوم القيامة، وهو الذى يقوم فيه الناس من قبورهم لله رب العالمين.

وسمى بيوم القيامة لثلاثة أسباب:

١ـ قيام الناس من قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[4].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٨٩)

(٣) القول المفيد ٢/٢٦٨و ٢٧٠.

(٤) المطففين: ٦.

٢ـ قيام الأشهاد؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(١).

٣ـ قيام العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(٢).

والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لئلا يجزع، فإن ذلك قد يكون خيراً، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد الله أنه لو يؤخر عقوبته إلى الآخرة.

وعلى فرض أن أحداً لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة؛ فنقول له: إن هذا من باب إمتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لايجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطىء أن يقول: أنا لم أخطىء؛ فهذه تزكية، فلو فرضنا أن أحداً لم يصب ذنباً وأصيب بمصيبة؛ فإن هذه المصيبة لا تلاقى ذنباً تكفره لكنها تلاقى قلباً تمحصه؛ فيبتلى الله الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر ولا؟ ولهذا كان أخشى الناس لله - عزوجل - وأتقاهم محمد ﷺ، يوعك كما يوعك رجلان منا(٣)، وذلك لينال أعلى درجات الصبر فينال مرتبة الصابرين على أعلى وجوهها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند النزع، ومع هذه الشدة كان ثابت القلب، ودخل عليه عبدالرحمن بن أبى بكر وهو يستاك، فَأَمدَّه بصره (يعنى: ينظر إليه)، فعرفت عائشة رضى الله عنها أنه يريد السواك، فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم. فأخذت السواك وقضمته وألانته للرسول ﷺ، فأعطته إيَّاه، فاستن به، قالت عائشة: ما رأيته استن استناناً أحسن منه، ثم رفع يده وقال: «**فى الرفيق الأعلى**»(٤).

فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة، كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين، صبر لله، وصبر بالله، وصبر فى الله حتى نال أعلى الدرجات.

فمن أصيب بمصيبة، فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معائبه؛ فإنه يُدِلُّ على ربه بعمله ويمُنُّ عليه به، فليحذر هذا.

---

(١) غافر: ٥١.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) [**متفق عليه**] أخرجه: البخارى (٥٦٤٨)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/١٢٧ـ النووى)؛ عن حديث عبدالله بن مسعود به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٩ ـ بتخريجنا).

(٤) [**صحيح**] أخرجه البخارى (٤٤٣٨) عن عائشة به.

وَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُم فَمَن رَضِىَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ»(١) حَسَّنَهُ التِّرْمِذِى.

ومن ذلك يتضح لنا أمران:

١ـ إن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيراً لسيئاته وتعجيلاً للعقوبة فى الدنيا، وهذا خير من تأخيرها له فى الآخرة.

٢ـ قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. اهـ.

● ● ●

وقوله: وقال النبىّ ﷺ: «إن عظم الجزاء...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الحديث رواه الترمذى ولفظه حدثنا قتيبة، ثنا الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن سعد بن سنان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبده الخير»** الحديث الذى قبل هذا ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبى ﷺ قال: **«إن عظم الجزاء»** الحديث ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ورواه ابن ماجة وصححه السيوطى.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعاً: «إِذَا أَحَبَّ الله قَوْماً ابْتَلاهُمْ فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الجَزَعُ» قال المنذرى: رواته ثقات(٣).

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٤): أن فيه وعيد لمن سخط أقدار الله ولم يصبر على البلاء. اهـ.

قال القرعاوى: حيث حرَّم الحديث الجزع من أقدار الله وهذا يدل على أن الصبر على أقدار الله من الإيمان. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٤٣٨) عن عائشة به.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩١.

(٣) [جيد] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨) عن محمود بن لبيد به وجوده شيخنا الفاضل «محمد عمرو» فى تبيض الصحيفة (ص: ١٢).

(٤) الجامع الفريد ١٤٤.

قوله: «إنّ عظم الجزاء من عظم البلاء».

قال سليمان آل الشيخ (١): **قوله: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»** بكسر المهملة وفتح الظاء فيهما ويجوز ضمها مع سكون الظاء أى: من كان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم، فعظمة الأجر وكثرة الثواب مع عظم البلاء كيفية وكمية جزاء وفاقاً.

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ - ولما كان الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس جزاء كانوا أشد الناس بلاء.

كما فى حديث سَعد سُئِلَ النَّبى ﷺ: أىُ النَّاسِ أشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: **«الأَنْبِياءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأمثل يُبْتَلى الـرَّجُلُ عَلَى حَسْبِ دينه، فَإِنْ كَانَ فى دينه صَلباً اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فى دينه رقة ابْتُلِىَ عَلَى قَدْرِ دِينهِ، فَمَا يَبْرحُ البَـلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشى عَلى الأَرْضِ وَمَا عَلَيْه خطِيئَةٌ»**(٢) رواه الدارمى، وابن ماجة، والترمذى وصححه. وقد يحتج بقوله: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»** (و) من يقول: إن المصائب والأسقام (و) يثاب(*) عليها غير تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم وغيره أن ثوابها تكفير الخطايا فقط إلا أن كانت سبباً لعمل صالح كالتوبة، والإستغفار والصبر والرضى،فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها.

كما فى حديث **«إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها، أو قال: لم ينلها بعمله ابتلاه الله فى جسده، أو فى بلده، أو فى ماله، ثم صبره حتى يُبلغه المنزلة التى سبقت له من الله تبارك وتعالى»** رواه أبو داود فى رواية ابن داسة والبخارى فى «تاريخه» وأبو يعلى فى «مسنده» وحسنه بعضهم. وعلى هذا فيجاب عن الأول إن عظم الجزاء مع عظم البلاء أى: إذا صبر واحتسب أهـ.

قال ابن عثيمين(٤): **«إن عظم الجزاء من عظم البلاء»** يتقابل عظم الجزاء مع البلاء، فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم؛ لأن الله عَدْل لا يجزى المحسن بأقل من إحسانه، فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كسر، وهذا دليل على كمال عدل الله، وأنه لايظلم أحداً، وفيه تسلية المصاب. اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩١و ٢٩٢.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ١٧٢)، والترمذى (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبى وقاص به.

(*) كذا فى الكتاب والكلام يستقيم بحذفهما.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٧٢)، وأبو داود(٣٠٩٠) عن خالد السلمى عن أبيه به.

(٤) «القول المفيد».

قوله: «وإن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم»

قال سليمان آل الشيخ(١): **قوله: «وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم»** صريح فى حصول الابتلاء لمن أحبه الله ولما كان الأنبياء عليهم السلام أفضل الأحباب كانوا أشد الناس بلاء، وأصابهم من البلاء فى الله مالم يصيب أحدا لينالوا بذلك الثواب العظيم، والرضوان الأكبر وليأتسى بهم من بعدهم، ويعلموا أنهم بشر تصيبهم المحن والبلايا فلا يعبدونهم.

فإن قلت: كيف يبتلى الله أحبابه.

قيل: لما كان أحد لايخلو من ذنب كان الابتلاء تطهيراً لهم كما صحت بذلك الأحاديث وفى أثر إلهى «**أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب**» ولأنه زيادة فى درجاتهم لما يحصل مع المصيبة للمؤمن من الأعمال الصالحة كما تقدم فى حديث: «**إذا سبقت للعبد من الله منزلة**»(*) الحديث ولأن ذلك يدعو إلى التوبة فإن الله تعالى يبتلى العباد بعذاب الدنيا ليتوبوا من الذنوب كما قال تعالى: ﴿**لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾(٢) فمن رزقه الله التوبة بسبب المصيبة كان ذلك من أعظم نعم الله عليه، ولأن ذلك يحصل به دعاء الله والتضرع إليه؛ ولهذا ذم الله من لايستكين لربه ولا يتضرع عند حصول البأساء كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾(٣) ودعاء الله والتضرع إليه من أعظم النعم، فهذه النعمة والتى قبلها من أعظم صلاح الدين، فإن صلاح الدين فى أن يعبد الله وحده ويتوكل عليه، وأن لاتدع مع الله إلها آخر لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة. فإذا حصلت لك التوبة التى مضمونها أن تعبد الله وحده، وتطيع رسله بفعل المأمور، وترك المحظور، كنت ممن يعبد الله، وإذا حصل لك الدعاء الذى هو سؤال الله حاجاتك فتسأله ما تنتفع به وتستعيذ به مما تستضر به كان هذا من أعظم نعم الله عليك، وهذا كثيراً ما يحصل بالمصائب. وإذا كانت هذه النعم فى المصائب فأولى الناس بها أحبابه، فعليهم حينئذ أن يشكروا الله. لخصت ذلك من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أهـ.

قال ابن عثيمين(٢): **قوله: «وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم»**. أى: اختبرهم بما يقدر

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٢و ٣٩٣. (٢) الروم: ٤١.

(*) تقدم تخريجه قريباً

(٣) المؤمنون: ٧٦. (٤) القول المفيد ٢/ ٢٧١.

عليهم من الأمور الكونية؛ كالأمراض، وفقدان الأهل، أو بما يكلفهم به من الأمور الشرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر؛ لأن هذا الذى نُزل عليه تكليف يكلف به.

كذلك من الابتلاء الصبر عن محارم الله؛ كما فى الحديث: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إنى أخاف الله**»(١)؛ فهذا جزاؤه أن الله يظله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله. اهـ.

قوله: «فمن رضى فله الرضى»

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «فمن رضى فله الرضى» أى: من رضى بما قضاه الله وقدره عليه من الابتلاء فله الرضى من الله جزاءاً وفاقاً كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٣) وهذا دليل على فضيلة الرضى؛ وهو أن لايعترض على الحكم ولايتسخطه ولا يكرهه.

وقد وصى النبى ﷺ رجلاً فقال: «**لاَ تَتَّهِمِ اللهَ فِى شَىْءٍ قَضَاهُ لَكَ**»(٣) فإذا نظر المؤمن بالقضاء والقدر فى حكمة الله ورحمته وأنه غير متهم فى قضائه دعاه ذلك إلى الرضى. قال ابن مسعود: إن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط.

قال ابن عون: ارض بقضاء الله من عسر ويسر فإن ذلك أقل لهمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضى حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء كيف تستقضى الله فى أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاء مخالفاً لهواك؟ ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلاكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك؛ وذلك لقلة علمك بالغيب، إذا كنت كذلك ما أنصفت من نفسك، ولا أصبت باب الرضى ذكره ابن رجب قال: وهذا كلام حسن. اهـ.

قال ابن عثيمين(٤): قوله: «فمن رضى؛ فله الرضى، ومن سخط، فله السخط». «من»: شرطية، والجواب: «**فله الرضا**»؛ أى: فله الرضا من الله، وإذا رضى الله عن

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٧٩)، ومسلم فى الزكاة (٧/ ١٢٠ـ النووى) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٧ ـ بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٢.

(٣) البينة: ٨.

(٤) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/ ٥٩) ونسبه لأحمد قال: وفى إسناده ابن لهيعة

شخص أرضى الناس عنه جميعا، والمراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: «ومن سخط».

قوله: «ومن سخط فله السخط».

قال سليمان آل الشيخ: قوله: «ومن سخط» هو بكسر الخاء قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضى به أي: من سخط أقدار الله فله السخط أي: من الله وكفى بذلك عقوبة. قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ وفيه دليل أن السخط من أكبر الكبائر وقد يستدل به على إيجاب الرضى كما هو اختيار ابن عقيل. واختار القاضى عدم الوجوب ورجحه شيخ الإسلام، وابن القيم. قال شيخ الإسلام: ولم يجىء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم قال وأما ما جاء من الأثر **«من لم يصبر على بلائى، ولم يرض بقضائى فليتخذ رباً سواى»** فهذا إسرائيلى ليس يصح عن النبى ﷺ قلت - يعنى سليمان آل الشيخ - قد روى الطبرانى فى الأوسط معناه.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعاً: **«مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَاءِ الله وَيُؤْمِنُ بِقَدَرِ الله فَلْيَلْتَمِسَ إلهاً غَيْرَ الله»**(1) قال الهيثمى: فيه حزم بن أبى حزم وثقه ابن معين، وضعفه جمع وبقية رجاله ثقات فإن ثبت هذا دل على وجوبه.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك أى من الرضى أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله تعالى عليه بها انتهى.

واعلم أنه لاتنافى بين الرضى وبين الإحساس بالألم فكثير ممن له أنين من وجع وشدة مرض قلبه مشحون من الرضى والتسليم لأمر الله.

فإن قيل: ما الفرق بين الرضى والصبر؟

فالجواب: قال طائفة من السلف منهم عمر بن عبدالعزيز، والفضيل، وأبو سليمان، وابن المبارك، وغيرهم: إن الراضى لايتمنى غير حاله التى هو عليها بخلاف الصابر، وقال الخواص: الصبر دون الرضى، الرضى أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضى بأى ذاك كان، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر.

قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ -كلام الخواص هذا عزم على الرضى ليس هو الرضى فإنه إنما يكون بعد القضاء.

---

(1) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٧٢٧٣) عن أنس به وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٢٠٧): «رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه سهيل بن أبى حزم وثقه ابن معين وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات».

كما فى الحديث «**وَأَسْأَلُكَ الرِّضى بَعْدَ القَضَاء**»[1] لأن العبد قد يعزم على الرضى بالقضاء قبل وقوعه فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة، فمن رضى بعد وقوع القضاء فهو الراضى حقيقة قاله ابن رجب. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: «ومن سخط» فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا «فعليه السخط» مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه؛ كقوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**﴾[3].

فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنى على؛ كقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾؛ أى: عليهم اللعنة.

وقال آخرون: إن اللام على ما هى عليه، فتكون للاستحقاق؛ أى: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من «على»؛ كقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾؛ أى: حَقَّت عليهم باستحقاقهم لها، وهذا أصح.

● ويستفاد من الحديث:

إثبات المحبة والسخط والرضا لله ـ عزوجل ـ، وهى من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالى؛ لأن (إذا) فى قوله: «**إذا أحب قوماً**» للمستقبل، فالحب يحدث؛ فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض، وعلى هذا؛ فقد يكون هذا الشخص فى يوم من الأيام محبوباً إلى الله وفى آخر مُبْغَضاً إلى الله؛ لأن الحكم يدور مع علته.

وأما الأعمال؛ فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فيُؤَوِّلون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا: لأن إثبات هذه الصفات يقتضى النقص ومشابهة المخلوقين، والصواب ثبوتها لله ـ عزوجل ـ على الوجه اللائق به كسائر الصفات التى يثبتها من يقول بالتأويل.

---

(١) أخرجه أحمد «مسنده» (٤/ ٢٦٤)، والنسائى فى «الكبرى» (١٢٢٨) عن عمار بن ياسر به.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٧١و ٢٧٣.

(٣) فصلت: ٤٦.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.

الثانية: أَنَّ هَذَا مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ.

الثالثة: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.

الرابعة: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ.

ويجب في كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران:

١ـ إثباتها على حقيقتها وظاهرها.

٢ـ الحذر من التمثيل أو التكييف.

قلت: ويستفاد فيه أن الجزاء من جنس العمل.

أن العبد قد يحبه الله ثم يفعل ما يوجب سخطه تعالى فيسخط عليه.

قال ابن عثيمين[1]:

قوله: «فيه مسائل».

● **الأولى: تفسير آية التغابن:**

وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسيراً مناسباً للباب.

قلت: وابن عباس وابن مسعود - رضي الله عنهما - كذلك.

● **الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.**

المشار إليه بقوله: (هذا): هو الصبر على أقدار الله.

● **الثالثة: الطعن في النسب.**

وهو عيبة، وهو من الكفر، لكنه لا يُخْرج من الملة.

● **الرابعة:** شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية.

---

(١) القول المفيد ٢/ ٢٧٣: ٢٧٥.

الخامسة: علامة إرَادَة الله بِعَبْدِه الخَيْرَ.

السادسة: إرَادَة الله به الشَّرَّ.

السابعة: عَلَامَةُ حُبِّ الله لِلْعَبْد.

الثامنة: تَحْرِيمُ السَّخْط.

التاسعة: ثَوَابِ الرِّضَا بِالبَلَاء.

لأن النبى ﷺ تبرأ منه.

[قلت]: قوله ﷺ: «ليس منا» وينسبة ذلك العمل إلى الكفر تارة وإلى الجاهلية أخرى.

● **الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.**

وهو أن يُعجِّل له الله العقوبة فى الدنيا.

● **السادسة: إرادة الله به الشر.**

أى: علامة إرادة الله به الشر، وهو أن يؤخر له العقوبة فى الآخرة.

● **السابعة: علامة حب الله للعبد.**

وهى الابتلاء.

قلت: بقوله: **«إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم»** ويؤيده قوله ﷺ: فى الصحيح **«من يرد الله به خيراً يصب منه»**.

● **الثامنة: تحريم السخط.**

يعنى: مما يبتلى به العبد؛ لقوله ﷺ: **«ومن سخط؛ فله السخط»**، وهذا وعيد.

● **التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.**

وهو رضا الله عن العبد؛ لقوله ﷺ: **«من رضى؛ فله الرضا»**. اهـ.

● ● ●

باب ٣٥
ما جاء في الرياء

- **مناسبة الباب لما قبله.**

قلت: أن الرياء من أعظم الأسباب للجزع وعدم الصبر على أقدار الله ذلك لأن المنافق المرائى إنما قصد بعمله غير وجه الله تعالى من وجاهة ومشرف أو غير ذلك فإذا لم يجد ذلك بل وجد ضده من زلازل وفتن ومحن؛ تزلزل وقال فى جزع وخوف ﴿**مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾ وهم تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت».

مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ(١): ولما كان خلوص العمل من الشرك والرياء شرطاً فى قبوله لمنافاة الشرك والرياء للتوحيد نبه المصنف على ذلك تحقيقاً للتوحيد. اهـ.

قال ناصر السعدى(٢): اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين، وروح التوحيد، والعبادة وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله، وثوابه، وفضله، فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس، وحقائق الإيمان التى هى الإحسان بحقوق الله وحقوق عباده. مكملاً لها قاصداً بها وجه الله والدار الآخرة لايريد بذلك رياء ولاسمعة ولا رياسة ولا دنيا، وبذلك يتم إيمانه وتوحيده. اهـ.

قال عبدالله بن جار الله(٣): وعلاقة هذا الباب بكتاب التوحيد: أن الرياء شرك أصغر مناف لكمال التوحيد. اهـ.

ـ شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال ابن باز(٤): هذا الباب عقده المؤلف للتحذير من الرياء. اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ أطلق الترجمة، فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه. اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٤.

(٢) القول السديد ٩٧.

(٣) الجامع الفريد ١٤٥.

(٤) التعليق المفيد (١٨٩).

(٥) القول المفيد (٢/ ٢٧٦).

تعريف الرياء

قال ابن حجر[1]: الرياء بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به اظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها. ا.هـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: والرياء مصدر راءى يرائى مراءاة ورياء؛ وهو أن يرى الناس أنه يعمل عملا على صفة وهو يضمر فى قلبه صفة أخرى، فلا اعتداد ولا ثواب إلا بما خلصت فيه النية لله تعالى. ذكره القاضى أبو بكر بمعناه. ا.هـ.

قال ابن عثيمين[3]: مصدر رائى يرائى، أى: عمل عملاً ليراه الناس ويقال مراءاة كما يقال جاهد يجاهد مجاهده، ويدخل فى ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له مُسَمِّع، وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه: «**من راءى راءى الله به ومن سمَّع سمَّع الله به**»[4].

والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلًا** ﴾. ا.هـ.

قلت: وكذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ** ﴾ الآية.

حكم الرياء والعمل المخالط له.

قلت: سيأتى من كلام سليمان آل الشيخ نقلاً عن ابن رجب الحنبلى تفصيل أبسط وأدل فى شرح الحديث الأول لكن إليك كلام ناصر السعدى وابن عثيمين كالتوطئة قبل الدخول فى الباب وتفصيلاته وشروحه.

قال ناصر السعدى[5]: واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد مراءاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد فعمله حابط وهو شرك أصغر. ويخشى أن يتذرع به الشرك الأكبر.

---

(١) الفتح (١١/ ٣٤٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٤و ٣٩٥.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٧٦.

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٤٩٩)، ومسلم فى الزهد والرقائق (١٨/ ١١٦ - النووى) عن جندب بن عبد الله به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٢ - بتخريجنا).

(٥) القول السديد ٩٨و ٩٩.

وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس، ولم يقلع عن الرياء بعمله. فظاهر النصوص أيضاً بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد على العمل وجه الله وحده، ولكن عرض له الرياء فى أثناء عمله، فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره. وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام فى قلبه من الرياء، وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء.

والرياء آفة عظيمة ويحتاج إلى علاج شديد وتمرين النفس على الإخلاص ومجاهدتها فى مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة والإستعانة بالله على دفعها لعلَّ الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده ا. هـ.

قال ابن عثيمين[1]: موضحاً ومفصلاً لكلام ناصر السعدى والرياء يبحث فى مقامين:

المقام الأول: فى حكمه.

فنقول: الرياء من الشرك الأصغر؛ لأن الإنسان قصد بعبادته غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مَثَّل ابن القيم للشرك الأصغر؛ فقال: «مثل يسير الرياء»، وهذا يدل على أن الرياء كثير قد يصل إلى الأكبر.

المقام الثانى: فى حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهو على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل، كمن قام يصلى من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله؛ فهذا شرك والعبادة باطلة.

الثانى: أن يكون مشاركاً للعبادة فى أثنائها، بمعنى أن يكون الحامل له فى أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء فى أثناء العبادة.

فإن كانت العبادة لاينبنى آخرها على أولها؛ فأولها صحيح بكل حال، والباطل آخرها.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصاً وراءى فى الخمسين الباقية؛ فالأولى حكمها صحيح، والثانية باطلة.

أما إذا كانت العبادة يبنى آخرها على أولها؛ فهى على حالين:

---

(1) القول المفيد ٢/٢٧٦و ٢٧٩.

أ ـ أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنـه ويكرهه؛ فإنه لايؤثر عليه شيئاً؛ لقول النبى ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتى ما حَدَّثَتْ به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»(١).

مثال ذلك: رجل قام يصلـى ركعتين مخلصـاً لله، وفى الركعة الثانيـة أحس بالرياء فصار يدافعه؛ فإن ذلك لايضره ولا يؤثر على صلاته شيئاً.

ب ـ أن يطمئن إلى هذا الرياء ولايدافعه؛ فحينئذ تبطل جميع العبادة؛ لأن آخرها مبنى على أولها ومرتبط به.

مثال ذلك: رجل قام يصلى ركعتين مخلصاً لله، وفى الركعة الثانيـة طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه، فاطمأن لذلك ونزع إليـه؛ فتبطل صلاته كلـها لارتباط بعضها ببعض.

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة؛ فإنه لا يؤثـر عليها شيئاً، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان؛ كالمَنِّ والأذى بالصدقة، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾(٢) وسيأتى.

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم النـاس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس من الرياء أيضاً أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة فى نفسه، بل ذلك دليل على إيمانه، قال النبى ﷺ: «من سرَّته حسناته وساءته سيئاته؛ فذلك المؤمن»(٣) وقد سئل النبى ﷺ عن ذلك؛ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن». اهـ(٤).

وقد تقدم هذا أيضاً من كلام القرطبى عند تفسير قوله تعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

قلت: وليس من الرياء أن يحسن العمل كقراءة القرءان للشيخ وهو يعرضـه عليه للإختبار وليس من الريـاء تحسين العلـم فى هذه الحالة أيـضاً لهذا الغرض وليـس من الرياء أن يحسنه تحسينا لإرضاء الشيخ إذا علـم منه أنه يرضى ويفرح لذلـك فعند أبى

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٦٩)، ومسلم فى الإيمان (١/٤٢٣/٢٠١) عن أبى هريرة به..
(٢) البقرة: ٢٦٤.
(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/١٨)، والترمذى (٢١٦٥)، والنسائى فى «الكبرى» (٩٢٢٣) من عمر به.
(٤) [متفق عليه] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٤/١٨٩ - النووى) عن أبى ذر به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٤ - بتخريجنا).

يعلى من حديث أبى موسى حين مربه الرسول وهو يقرأ فى بيته فلما أصبح ﷺ قال لأبى موسى: لو رأيتنى وأنا استمع قراءتك البارحة فقال أبو موسى: **«أما إنى لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيراً»**(١) الحديث.

وليس من الرياء أن يظهر للكفار من القوة ما يرهبهم وإن كان الأمر على خلاف ذلك؛ لما ثبتت فى الصحيح(٢) أن النبى ﷺ أمرهم أن يرملوا فى الأشواط الثلاثة وأن يضطبعوا، وفى بعض الألفاظ فى الصحيح(٣) **«ليرى المشركين قوتهم»** وفى خارج **«الصحيح»** بلفظ **«رآينا المشركين»**.

قال ابن حجر(٤): ويؤجذ منه جواذ إظهار القوة بالعدة والسلاح ونحو ذلك للكفار إرهاباً لهم، ولا يعد ذلك من الرياء المذموم. أ.هـ.

الفرق بين الرياء والسمعة:

قال ابن حجر(٥): الرياء بكسر الراء التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها وقد تقدم.

والسمعة بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع - والمراد بها نحو ما فى الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر.

قال الغزالى: المعنى طلب المنزلة فى قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة، والمرائيى هو العامل.

وقال ابن عبدالسلام: الرياء أن يعمل لغير الله والسمعة أن يخفى عمله لله ثم يحدث به الناس. اهـ.

ونقل ذلك سليمان آل الشيخ بنحوه.

● ● ●

(١) [صحيح] أخرجه أبو يعلى فى «مسنده» (٧٢٤٢) عن أبى موسى به.
(٢) فتح البارى (ح ١٦٠٢).
(٣) فتح البارى (ح ٤٢٥٦).
(٤) فتح البارى (٣/ ٥٤٩). (٥) الفتح ١١/ ٣٤٤.

● فصل في ما جاء في ذم الرياء والترهيب منه:

عن أبي هريرة، أن رجلا قال: «**يا رسول الله، الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا؟ قال: لا أجر له. فأعظم الناس هذه فعاد الرجل، فقال: لا أجر له**»(١).

عن شداد بن أوس قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر(٢).

عن شداد بن أوس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك. ثم قرأ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾**(٣) الآية.

عن شداد بن أوس رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يخبر عن ربه عز وجل يقول: «**أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غني**»(٤).

عن عبدالرحمن بن غنم أنه قيل له: «أسمعت رسول الله ﷺ يقول: **من صام رياء فقد أشرك، ومن صلى رياء فقد أشرك، ومن تصدق رياء فقد أشرك**؟؟ قال: بلى، ولكن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾ فشق ذلك على القوم واشتد عليهم فقال: «**ألا أفرجها عنكم**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: «**هي مثل الآية التي في الروم ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾**(٥) فمن عمل رياء لم يكتب لا له ولا عليه.

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي لمكان رجل**»(٦).

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٧١) وصححه وزاد نسبته السيوطي وللبيهقي.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٢٩) وصححه، وذكره السيوطي في «الدر» وزاد نسبته لابن أبي الدنيا، وابن مردويه، والبيهقي.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٢٩) وذكره السيوطي وزاد نسبته لأحمد، وابن أبي الدنيا، وابن مردويه، والبيهقي.

(٤) ذكره السيوطي ونسبه للطيالسي، وأحمد، وابن مردويه.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ٤٦٠) ونسبه للبزار، وابن منده، والبيهقي، وابن عساكر.

(٦) سيأتي تخريجه.

وعن شداد ابن أوس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أخاف على أمتى الشرك والشهوة الخفية** قلت: أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: **نعم، أما إنهم لايعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم**. قلت: يارسول الله، فالشهوة الخفية؟ فقال: **يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته**»(١).

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ يرويه عن ربه قال: «**أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه، وهو للذى أشرك**»(٢).

عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **الرياء، يقول الله يوم القيامة: إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»(٣).

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعرض أعمال بنى آدم بين يدى الله عزوجل يوم القيامة فى صحف مختتمة، فيقول الله: القوا هذا واقبلوا هذا**. فتقول الملائكة: يا رب، والله ما رأينا منه إلا خيراً. **فيقول: إن عمله كان لغير وجهى ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى**»(٤).

عن الضحاك بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله: أنا خير شريك، فمن أشرك معى أحداً فهو لشريكى. يا أيها الناس، أخلصوا الأعمال لله فإن الله لايقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولاتقولوا هذا لله وللرحم، فإنه للرحم وليس لله منه شيء**»(٥).

عن عبدالله بن عمرو، أنه قال: **يا رسول الله، أخبرنى عن الجهاد والغزو**. قال: ياعبدالله، إن قاتلت صابراً محتسباً **بعثك الله صابراً محتسباً؛ وإن قاتلت مرائياً مكاثراً على أى حال قاتلت أو قتلت، بعثك الله على تلك الحال**»(٦).

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٣٠) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٧٥) وزاد نسبته لأحمد، والحكيم الترمذى والبيهقى.

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) ذكره السيوطى ونسبه لأحمد، والبيهقى.

(٤) ذكره السيوطى ونسبه للبزار، والبيهقى.

(٥) ذكره السيوطى ونسبه للبزار، وابن مردويه، والبيهقى بسند لابأس به.

(٦) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٨٥ - ٨٦) وصححه.

عن يحيى بن الوليد بن عبادة عن جده، أن النبى ﷺ قال: **«من غزا وهو لاينوى فى غزاته إلا عقالاً، فله ما نوى»**(١).

عن يعلى بن منبه قال: «كان النبى ﷺ يبعثنى فى سراياه، فبعثنى ذات يوم وكان رجل يركب فقلت له: **ارحل**. قال: ما أنا بخارج معك. قلت: **لم؟** قال: حتى تجعل لى ثلاثة دنانير. قلت: الآن حين ودعت النبى ﷺ ما أنا براجع إليه، ارحل ولك ثلاثة دنانير. فلما رجعت من غزاتى ذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال: **أعطها إياه فإنها حظه من غزاته»**(٢).

عن أبى أمامة قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: رسول الله ﷺ: **لا شىء له. فأعادها ثلاث مرات يقول** رسول الله ﷺ: **لا شىء له**. ثم قال: **إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه»**(٣).

عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: **«الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما ابتغى به وجه الله عزوجل»**(٤).

عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: **«من يسمع يسمع الله به، ومن يرائى يرائى الله به»**(٥).

عن عبدالله بن عمر: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قام بخطبة لايلتمس بها إلا رياء وسمعة، أوقفه الله عزوجل يوم القيامة فى موقف رياء وسمعة»**(٦).

عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: **«من يرائى يرائى الله به، ومن يسمع يسمع الله به»**(٧).

عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم وشرك السرائر. قالوا: وما**

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣١٥)، والنسائى (٦/ ٢٤ - السيوطى)، والحاكم فى «المستدرك» (١٠٩/٢)، وذكره السيوطى وزاد نسبته، للدارمى، والرويانى، وابن بيان، والطبرانى.

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ١١٠) وانظر «الدر» فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه النسائى (٦/ ٢٥ - السيوطى) والطبرانى فى «الكبير» (٨/ ١٦٥/ ٧٦٢٨)، وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٧٥) وزاد نسبته لأبى داود.

(٤) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للطبرانى بسند لا بأس به.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد.

(٧) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد عن أبى سعيد.

شرك السرائر؟ قال: أن يقوم أحدكم يريد صلاته جـاهداً لينظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر»(١).

عن ابن مسـعود قال: من صلى صلاة والنـاس يرونه، فليصل إذا خلا مـثلها، وإلا فإنما هى استهانة يستهين بها ربه(٢).

وعن حذيفة مثله(٣).

عن عمرو بن عبسة قال: إذا كان يوم القيامة؛ جىء بالدنيا فيميز منها ما كان لله وما كان لغير الله رمى به فى نار جهنم(٤).

عن أبى موسـى الأشعرى قال: خطبنا رسـول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**أيها الناس، اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل**. فقالوا: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسـول الله! قال: **قولوا: اللـهم إنا نعوذ بك أن نـشرك بك شيئاً نـعلمه ونستـغفر لما لانعلم»**(٥).

عن عبادة بن الصامت قال: **يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال: ميزوا ما كان لله فيميز، ثم يقول: القوا سائرها فى النار**(٦).

عن معاذ بن جبل: سـمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن يسيراً مـن الرياء شرك، وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين إن غابوا لم يفـتقدوا وإن حضروا لم يدعوا ولـم يعـرفوا، قلوبهم مصابيح الـدجى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»**(٧).

عن أبى الدرداء، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الاتقاء على العمل أشد من العمل، إن الرجل ليعمـل فيكتب له عمل صالح معـمول به فى السر، يضعف أجره سبـعين ضعفاً، فلايزال به الشيـطان حتى يذكره للناس، فيكـتب علانية ويمحى تضعـيف أجره كله، ثم**

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة وتقدم بنجوه.

(٢) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة عن ابن مسعود.

(٣) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة عن حذيفة.

(٤) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى.

(٥) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة.

(٦) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة، وابن المنذر، والبيهقى فى «الشعب».

(٧) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٣٢٩/٤) وصححه وذكره السيوطى فى «الدر» وزاد نسبته، والبيهقى فى «الشعب».

لايزال به الشيطان حتى يذكره للناس الثانية ويجب أن يذكر ويحمد عليه فيمحى من العلانية ويكتب رياء، فاتقى الله امرؤ صان دينه فإن الرياء شرك»(١).

عن أبى أمامة، عن النبى ﷺ قال: **«أن أحسن أوليائى عندى منزلة، رجل ذو حظ من صلاة.. أحسن عبادة ربه فى السر وكان غامضاً فى الناس لايشار إليه بالأصابع، عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه»**(٢).

عن أبى هند الدارى: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قام رياء أو سمعة، رايا الله به يوم القيامة وسمع به»**(٣).

عن عمر بن النضر قال: بلغنى أن فى جهنم وادياً تعوّذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة أعد ذلك للمرائين من القراء(٤).

عن أبى هريرة قال: خرج النبى ﷺ فقال: **«تعوّذ بالله من جب الحزن، قيل من يسكنه؟ قال: المراؤون بأعمالهم»**(٥).

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **يقول الله عزوجل: كل من عمل عملاً أراد به غيره فأنا منه برىء»**(٦).

عن أبى هريرة قال: رسول الله ﷺ: **«اتقوا الشرك الأصغر**، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: **الرياء يوم يجازى الله العباد بأعمالهم، يقول: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، انظروا... هل تصيبون عندهم جزاء؟»**(٧).

عن محمد بن الحنفية قال: كل مالا يبتغى به وجه الله يضمحل(٨).

عن أبى العالية قال: قال لى أصحاب محمد ﷺ: يا أبا العالية، لا تعمل لغير الله فيكلك الله عزوجل إلى من عملت له(٩).

عن ربيع بن خثيم قال: مالم يرد به وجه الله عزوجل يضمحل(١٠).

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى وضعفه.

(٢) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لأحمد، والبيهقى.

(٣) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن سعد، وأحمد، والبيهقى.

(٤) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى عن عمر.

(٥) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى عن أبى هريرة.

(٦) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى عن جابر.

(٧) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن مردويه.

(٨) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٤٦٢) ونسبه لأبى نعيم فى «الحلية».

(٩) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد فى «الزهد».

(١٠) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[١].

قوله الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...... ﴾ الآية.

ـ مناسبة الآية للباب والتوحيد

قال عبدالله بن جارالله[٢]: أن السعادة والخير والفلاح فى لقاء الله تبارك وتعالى وأن لقاء الله يحصل بالعمل الصالح الخالص من الرياء والسمعة. اهـ.

قال القرعاوى[٣]: دلت الآية الكريمة على أن العمل لايقبل إلا إذا كان خالياً من الشرك. ومن الشرك الرياء. اهـ.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

الإعراب[٤]: ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة.

وأنا مبتدأ و﴿بَشَرٌ﴾ و ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ صفة. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من آثار:

قال ابن عباس: علم الله رسوله المتواضع لئلا يزهو على خلقه، فأمره الله أن يقر، فيقول: أنا آدمى مثلكم، إلا أنى خصصت بالوحى وأكرمنى الله به[٥].

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[٦]: يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المشركين يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من بنى آدم لا علم لى إلا ما علمنى الله وأن الله يوحى إلى أن معبودكم الذى يجب عليكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً معبوداً واحد لاثانى له ولا شريك اهـ.

قال الشنقيطى[٧]: أمر جل وعلا نبيه ﷺ فى هذه الآية الكريمة أن يقول للناس:

---

(١) الكهف: ١١١.

(٢) الجامع الفريد ١٤٦.

(٣) الجديد ٣٢٤.

(٤) إعراب القرآن ٦/ ٥٠.

(٥) معالم التنزيل ٥/ ٦٠٦ وذكره بنحوه ابن الجوزى فى زاد المسير.

(٦) الطبرى (١٦/ ٣١ ـ ٣٢).

(٧) الأضواء ٤/ ١٥١و ١٥٢.

﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى لا أقول لكم إنى ملك ولا غير بشر، بل أنا بشر مثلكم أى بشر من جنس البشر، إلا أن الله تعالى فضلنى وخصنى بما أوحى إلىَّ من توحيده وشرعه. اهـ.

● **ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ[1]: يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: قل يا محمد للناس ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى فى البشرية، ولكن الله منَّ علىّ وفضلنى بالرسالة، وليس لى من الربوبية، ولا من الإلهية شئ، بل ذلك لله وحده لاشريك له. اهـ.

قال حامد بن محمد[2]: دلت هذه الآية مطابقة وتضمناً والتزاماً على فوائد جليلة:

الأولى: أن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأموال ولكن ينظر إلى القلوب العامرة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[4].

وفى رواية: «**ولكن ينظر إلى القلوب العامرة**».

الثانية: دلت على عمومية الحكم والأمر لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[5].

الثالثة: الإيمان الحقيقى الذى لا يزلزله شيء لأن الإيمان الذى لاثبات له لا ينفع معه العمل.

الرابعة: الإيمان باليوم الآخر لقوله تعالى: لقاء ربه.

الخامسة: الإيمان بالرسول والكتاب لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ والصالح لا

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٩٥).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٦٧ ـ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

(٣) سبأ: ٣٧.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر. والصلة (٨/ ٣٦٣/ ٣٤) عن أبى هريرة به.

(٥) الكهف: ١١٠.

يكون إلا على ما أمر الله تعالى وأمر الله لايتصور إلا بإرسال رسول معه كتاب من ربه فيه أوامره ونواهيه.

السادسة: الإيمان بالملائكة والأنبياء والرسل الذين من قبل والكتب لأنه منها أمره بالرسول المرسل والقرآن المنزل لزمه الإيمان بذلك كله لأنها مذكورة فيه وذكره الرسول ﷺ فالإيمان بهذه الأمور أصل الأعمال الدينية وهو كما قال الحسن: «**ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني بل ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال**»(١) أى أعمال الجنان واللسان والأركان؛ ولذا عقب الله تعالى العمل الصالح بفاء التفريع أى من كان يرجو لقاء ربه فليعمل فذلك دليل إيمانه صادقاً محققاً.

والعمل الصالح جنس يشمل أعمال الجوارح كلها فينبغى لداعى الإيمان: نية خالصة، وعمل خالص من الرياء، ولسان صادق، وأفعال جملية، وسمت مرضى، وخلق حسن، وطريقة مستقيمة، وسيرة مديمة، وبصيرة قوية، وذكر كثير، وتفكر وتدبر.

أما النية قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾(٢).

وأما العمل الخالص قوله تعالى: ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾(٣).

وأما اللسان الصادق قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾(٤).

وأما الأفعال الجميلة قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾(٥).

وأما السمت المرضى قوله تعالى: ﴿**وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ**

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الشورى: ٢٠.

(٣) الزمر: ٢، ٣.

(٤) التوبة: ١١٩.

(٥) التوبة: ٧١.

يتوكلون (٣٦) والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون (٣٧) والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (٣٨) والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾(١).

وأما الخلق الحسن قوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ﴾(٢).

وأما السيرة الدائمة قوله تعالى : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾(٣).

وأما الطريقة المستقيمة فمبناها على البصيرة القوية والبصيرة القوية مبناها على العلم اليقيني وقد ذكرها الله على الترتيب قال تعالى: ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾(٤). فبين الله أنه لا يعلم الحق من الباطل ولا يميزه إلا الذين أوتوا العلم فيستبصر بالبصيرة النافذة القوية ويميز حينئذ بين الحق والباطل ويخبت له قلبه، ثم بين أن ذلك هو الصراط المستقيم.

وأما الذكر قوله: ﴿والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾(٥).

وأما التفكر قوله تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾(٦).

ولما كان أصل الأعمال الدينية كلها التوحيد والإخلاص الذي لا يشوبه شرك قال تعالى: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾(٧) والشرك أكبر وأصغر، فالأكبر يحبط الأعمال

(١) الشورى: ٣٦ - ٣٩.
(٢) الفرقان: ٦٣.
(٣) فصلت: ٣٠.
(٤) الحج: ٥٤.
(٥) الأحزاب: ٣٥.
(٦) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.
(٧) الكهف: ١١٠.

كلها كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]. وأما الشرك الأصغر فهو الرياء والسمعة والتصنع للناس فى الأعمال الدينية، فذا يحبط العمل الذى راءى فيه أو سمع فيه لا غير. عن أبى هريرة مرفوعاً: قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه»[2]. رواه مسلم. وعن أبى سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى، قال: الشرك الخفى يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل»[3].

قال ابن عثيمين[4]: يأمر الله نبيه أن يقول للناس: إنما أنا بشر مثلكم، وهو قَصْر النبى ﷺ على البشرية، وأنه ليس ربّاً ولا مَلَكاً، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية. ا.هـ.

قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

الإعراب[5]: جملة ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة لبشر ﴿إِلَيَّ﴾ متعلقان بيوحى ﴿أَنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة ولكنها لم تخرج عن المصدرية فهى وما بعدها فى محل رفع نائب فاعل و﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ مبتدأ وإله خبر و﴿وَاحِدٌ﴾ صفة. ا.هـ.

قال ابن عثيمين[6]:

قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

أولاً: تعريف الوحى:

الوَحْيُ فى اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[7].

(١) الزمر: ٦٥.

(٢- ٣) سيأتى تخريجه.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٧٩.

(٥) إعراب القرآن ٦/ ٥٠.

(٦) القول المفيد ٢/ ٢٧٩و ٢٨٠.

(٧) مريم: ١١.

قلت: وهى مؤدى قول ابن تيمية فى «مقدمة التفسير»[1] حيث قال: «هو إعلام سريع خفى». ا.هـ.

وفى الشرع: إعلام الله بالشرع.

والوحى: هو الفرق بيننا وبينه ﷺ؛ فهو متميز بالوحى كغيره من الأنبياء والرسل. اهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى[2]: ﴿**يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ إن الله يوحى إلى أن معبودكم الذى يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً معبوداً واحداً لا ثانى له ولا شريك له وقد تقدم.

قال الشنقيطى[3]: وقوله هنا: ﴿**يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ أى فوحدوه ولاتشركوا به غيره. وهذا الذى بينه تعالى فى هذه الآية؛ أوضحه فى مواضع أخر. كقوله فى أول «فصلت»: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا**﴾[5].

وقوله: ﴿**قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ**﴾[6] الآية. وهذا الذى أمر الله به نبيه ﷺ فى هذه الآية من أنه يقول للناس أنه بشر، ولكن الله فضله على غيره بما أوحى إليه من وحيه جاء مثله عن الرسل غيره صلوات الله وسلامه عليهم فى قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾[7] الآية. فكون الرسل مثل البشر من حيث أن أصل الجميع وعنصرهم واحد، وأنهم تجرى على جميعهم الأعراض البشرية

---

(١) «النكت المتممة على مقدمة ابن تيمية» ص ٥٧ للمؤلف.

(٢) الطبرى (١٦/ ٣١ ـ ٣٢).

(٣) أضواء البيان ٤/ ١٥٢.

(٤) فصلت: ٦/ ٧.

(٥) الإسراء: ٩٣.

(٦) الأنعام: ٥٠.

(٧) إبراهيم: ١١.

لاينافى تفضيلهم على سائر البشر بما خصهم الله به من وحيه واصطفائه وتفضيله كما هو ضرورى.

وقال بعض أهل العلم: معنى هذه الآية قل يا محمد للمشركين: إنما أنا بشر مثلكم، فمن زعم منكم أنى كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإننى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به عما سألتم عنه من أخبار الماضين كقصة أصحاب الكهف. وخبر ذى القرنين. وهذا له اتجاه والله تعالى أعلم. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿**أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾. هذه الجملة فى تأويل مصدر نائب فاعل ﴿**يُوحَى**﴾، وفيها حصر طريقه ﴿**أنما**﴾؛ فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد، وهو الله، فإذا ثبت ذلك ؛ فإنه لايليق بك أن تشرك معه غيره فى العبادة التى هى خالص حقه، ولذلك قال تعالى بعد هذا: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾. ا.هـ

قوله: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» أ.هـ.

الإعراب(١): الفاء استئنافية و﴿**مَن**﴾ اسم شرط جازم فى محل رفع مبتدأ و﴿**كَانَ**﴾ فعل ماض ناقص واسمها يعود على ﴿**مَن**﴾ وجملة ﴿**يَرْجُو**﴾ خبرها و﴿**لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾ مفعول به، ﴿**فَلْيَعْمَلْ**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط واللام لام الأمرو ﴿**يعمل**﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الأمر و﴿**عَمَلاً**﴾ مفعول مطلق أو مفعول به و﴿**صَالِحًا**﴾صفة ﴿**وَلا يُشْرِكْ**﴾ لا ناهية و﴿**يُشْرِكْ**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية و ﴿**بِعِبَادَةِ رَبِّهِ**﴾ متعلقان بيشرك و﴿**أَحَدًا**﴾ مفعول يشرك. اهـ.

سبب نزول الآية وما جاء فى ذلك من أحاديث وآثار:

عن مجاهد قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصدق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله، وأحب أن يقال لى خيراً: فنزلت ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾ الآية(٢).

---

(١) إعراب القرآن ٦/ ٥٠.

(٢) ذكره السيوطى ونسبه لهناد فى «الزهد».

عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية. قال: نزلت فى المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، وليست هذه فى المؤمنين[1].

عن طاوس قال: قال رجل: يا نبى الله، إنى أقف مواقف أبتغى وجه الله، وأحب أن يرى موطنى. فلم يردّ عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2].

وموصولاً عن طاوس عن ابن عباس[3].

وعن مجاهد قال: كان من المسلمين من يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه، فأنزل الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾[4] الآية.

عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد فى ذلك لمقالة الناس، فلامه الله فنزل فى ذلك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[5].

● **التفسير بالمأثور.**

● **أولاً قول النبى ﷺ.**

قال النبى ﷺ: «**إن ربكم يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معى فى عمله أحداً من خلقى تركت العمل كله له ولم أقبل إلا ما كان لى خالصاً**». ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[6].

عن شداد بن أوس قال: قال النبى ﷺ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين ببقيع واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعى، قال: أنا خير شريك، كل عمل عمل لى فى دار الدنيا**

---

(1) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٣٠١٣) فانظره بتخريجنا، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٣٠) وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٦٩ ـ ٤٧٥) ونسبه لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب».

(2) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٣٠١٤) فانظره بتخريجنا، وذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبدالرزاق، وابن أبى الدنيا فى الإخلاص، وابن أبى حاتم، والطبرانى، والحاكم.

(3) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للحاكم وصححه، والبيهقى موصولاً.

(4) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٣٠١٥) وأنظر «الدر» (٤/ ٤٥٩).

(5) ذكره السيوطى فى الموقع السابق ونسبه لابن منده، وأبى نعيم فى «الصحابة»، وابن عساكر.

(6) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وانظر «الدر» (٤/ ٤٥٩).

كان لى فيه شريك، فأنا أدعه اليوم ولا أقبل اليوم إلا خالصاً» ثم قرأ. ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1].

عن أبى سعد بن أبى فضالة الأنصارى ـ وكان من الصحابة ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لاريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[2].

● ثانياً من أقوال التابعين:

عن سعيد فى قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ قال: ثواب ربه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ﴾ قال: لا يرائى ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[3].

عن سعيد بن جبير فى قوله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ قال: من كان يخشى البعث فى الآخرة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ من خلقه.

عن كثير بن زياد قال: قلت للحسن قول الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال: فى المؤمن نزلت. قلت: أشرك بالله؟ قال: لا، ولكن أشرك بذلك العمل عملاً يريد الله به والناس، فذلك عليه[4].

عن عبدالواحد بن زيد قال: قلت للحسن: أخبرنى عن الرياء، أشرك هو؟ قال: نعم يا بنى، وما تقرأ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[5].

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[6]: فى تفسير ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ

(١) أخرجه الطبرانى فى «الدر» (٧/ ٢٩٠/ ٧١٦٧) ذكره السيوطى ونسبه للطبرانى.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٦٦)، والترمذى (٣١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٠٣) وزاد نسبته السيوطى لابن سعد، والبيهقى.

(٣) نسبه السيوطى فى «الدر» لهناد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى.

(٤) ذكره السيوطى فى الموقع السابق ونسبه لابن أبى حاتم عن كثير بن زياد.

(٥) ذكره السيوطى فى الموقع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.

(٦) تفسير الطبرى ٨/ ١٦/ ٣١و ٣٢.

﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فمن كان يرجو لقاء ربه يقول فمن يخاف ربه يوم لقائه ويراقبه على معاصيه ويرجو ثوابه على طاعته فليعمل عملاً صالحاً يقول فليخلص له العبادة وليفرد له الربوبية. اهـ.

قال الشنقيطى[1]: اعلم أن الرجاء كقوله هنا ﴿يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يستعمل فى رجاء الخير، ويستعمل فى الخوف أيضاً. واستعماله فى رجاء الخير مشهور. ومن استعمال الرجاء فى الخوف قول أبى ذؤيب الهذلى:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عواسل

فقوله «لم يرج لسعها» أى لم يخف لسعها. ويروى حالفها بالحاء والخاء، ويروى عواسل بالسين، وعوامل بالميم.

فإذا علمت أن الرجاء يطلق على كلا الأمرين المذكورين ـ فاعلم أنهما متلازمان، فمن كان يرجوا ما عند الله من الخير فهو يخاف ما لديه من الشر كالعكس. ا.هـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ: قال شيخ الإسلام[2]: أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة والمشاهدة بعد السلوك والسير وقالوا: إن لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى وأطال فى ذلك واحتج له، وقال سعيد بن جبير: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ قال: من كان يخشى البعث فى الآخرة رواه ابن أبى حاتم. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة؛ لأن اللقيا على نوعين:

الأول: عامة لكل إنسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[4]، ولذلك قال مفرِّعاً على ذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ...﴾ الآية.

الثانى: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما فى هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم.

(١) أضواء البيان ٤/ ١٥٣.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣٩٥.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٠.

(٤) الانشقاق: ٩.

قوله[1]: ﴿**فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**﴾. الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر الإرشاد؛ أى: من كان يريد أن يلقى الله على الوجه الذى يرضاه سبحانه؛ فليعمل عملاً صالحاً.

والعمل الصالح: ما كان خالصاً صواباً.

وهذا وجه الشاهد من الآية.

فالخالص: ما قُصِد به وجه الله، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[2].

والصواب: ما كان على شريعة الله، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[3].

ولهذا قال العلماء: هذان الحديثان ميزان الأعمال.

فالأول: ميزان الأعمال الباطنة.

والثانى: ميزان الأعمال الظاهرة. اهـ.

قوله: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قال سليمان آل الشيخ[4]:

قال ابن القيم: كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده لاشريك له فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة انتهى. وهذان ركنا العمل المتقبل لابد أن يكون صواباً خالصاً فالصواب أن يكون على السُّنة وإليه الإشارة بقوله: ﴿**فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**﴾ والخالص أن يخلص من الشرك الجلى والخفى وإليه الإشارة بقوله: ﴿**وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾.

روى عبدالرزاق وابن أبى الدنيا فى كتاب «الإخلاص» وابن أبى حاتم والحاكم عن طاوس قال: قَالَ رَجُلٌ يَا نَبِيَّ الله إِنِّى أَقِفُ المَوَاقِفَ أَبْتَغِى وَجْهَ الله وَأُحِبُ أَنْ يُرى مَوْطِن فَلم يَرُدَّ عَليهِ شَيْئاً حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً**

---

(١) القول المفيد ٢٨٠، ٢٨١.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) تقدم تخريجه.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٩٥.

صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1] رواه الحاكم وصححه موصولاً عن طاوس عن ابن عباس[2] **وفى الآية دليل على الشهادتين**، وأن الله تعالى فرض على نبينا ﷺ أن يخبرنا بتوحيد الإلهية، وإلا فتوحيد الربوبية لم ينكره الكفار الذين كذبوه وقاتلوه ذكر المصنف، وفيها تسمية الرياء شركاً وفيها أن من شروط الإيمان بالله واليوم الآخر أن لايشرك بعبادة ربه أحداً، ففيه التصريح بأن الشرك الواقع من المشركين إنما هو فى العبادة لا فى الربوبية وفيها الرد على من قال: أولئك يتشفعون بالأصنام ونحن نتشفع بصالح لأنه تعالى قال: **﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فليس بعد هذا بيان افتتح الآية بذكر براءة النبى ﷺ الذى هو أقرب الخلق إلى الله وسيلة** أى: براءته من الإلهية وختمها بقوله: **﴿أَحَدًا﴾**. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]**: والشاهد من الآية**: أن الرياء من الشرك، فيكون داخلاً فى النهى عنه.

وفى هذه الآية دليل على ملاقاة الله تعالى، وقد استدلَّ بها بعض أهل العلم على ثبوت رؤية الله؛ لأن الملاقاة معناها المواجهة.

وفيها دليل على أن الرسول ﷺ بشر لايستحق أن يعبد، لأنه حصر حاله بالبشرية، كما حصر الألوهية بالله.

قال سليمان آل الشيخ[4]**: واعلم رحمك الله** أن هذه الآية المعرفة التى [تنفعه][5] إلا من ميز بين توحيد الربوبية وبين توحيد الإلهية تمييزاً تاماً وعرف ما عليه غالب الناس إما طواغيت ينازعون الله فى توحيد الربوبية الذى لم يصل إليه شرك المشركين، وإما مصدق لهم تابع لهم، وإما شاك لايدرى ما أنزل الله على رسوله، ولايميز بين دين الرسول ﷺ وبين دين النصارى، ذكره المصنف وفيها أن أصل دين النبى ﷺ الذى بعث به هو الإخلاص كما فى هذه الآية وقوله: **﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾** وذلك هو دعوة الرسل من

(١ - ٢) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد /٣٩٦.

(٥) هكذا فى المطبوع ولعلها (لاتنفع).

وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - مَرْفُوعًا: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِى غَيرِى تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(١)

أولهم إلى آخرهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وذلك هو الحنيفية الإبراهيمية جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه.

● ● ●

قوله: «عن أبى هريرة مرفوعاً. قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك..» الحديث.

قال الفقير: وهذا الحديث أخرجه مسلم فى الزهد والرقائق فى باب من أشرك فى عمله غير الله، وأحمد فى المسند وابن ماجه فى الزهد باب الرياء والسمعة والبيهقى فى الشعب جميعاً من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة.

قال ابن عثيمين(٢): هذا الحديث يرويه النبى ﷺ عن ربه، ويسمى هذا النوع بالحديث القدسى

ـ مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جار الله:(٣) أنَّ عمل المرائى باطل لاثواب له فيه بل يأثم به.

ـ مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوى:(٤) دلّ الحديث على بطلان العمل الذى وقع فيه شرك ومن الشرك الرياء.

ـ قوله (قال الله تعالى أنا أغنى).

قال ابن عثيمين(٥): «أغنى» اسم تفضيل وليست فعلاً ماضياً ولهذا أضيفت إلى الشركاء. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الزهد والرقائق»/ باب: من أشرك فى عمله غير الله (٢/ ٥٩٢ - الحلبى) وأحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٠١، ٤٥٣) وابن ماجه فى «الزهد»/ باب الرياء والسمعة (٢/ ٩٤٠٥/ ح ٤٢٠٢) والبيهقى فى «الشعب» (٥/ ٣٢٩/ ح٦٨١٥).

جميعاً من طريق العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه عن أبى هريرة.

وانظر «رياض الصالحين» (ح١٦١٩) «وفتح المجيد» (ح ٧٠٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٨٢. (٣) الجامع الفريد ١٤٦.

(٤) الجديد ٣٢٦. (٥) القول المفيد (٢/ ٢٨٢).

ـ **قوله: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك).**

قال النووى(١): أنا غنى عن المشاركة وغيرها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): **قوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»**، لما كان المرائى قاصداً بعمله الله تعالى وغيره، كان قد جعل الله تعالى شريكاً، فإذا كان كذلك فالله تعالى هو الغنى على الإطلاق والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار؛ فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذى جعل له فيه شريك، فإن كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه يوجب أن لايقبل ذلك ولايلزم من اسم التفضيل إثبات غنى للشركاء، فقد تقع المفاضلة بين الشيئين وإن كان أحدهما لا فضل فيه كقوله تعالى: **﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**(٣) وقوله تعالى: **﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾**(٤). اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): إذا كان بعض الشركاء يستغنى عن شركته مع غيره؛ فالله أغنى الشركاء عن المشاركة.

فالله لايقبل عملاً له فيه شرك أبداً، ولايقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه الخالق وحده؛ فكيف تصْرف شيئاً من حقه إلى غيره؟ فهذا ليس عدلاً، ولهذا قال الله عن لقمان: **﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**(٦)، فالله الذى خلقك وأعدَّك إعداداً كاملاً بكل مصالحك وأَمَدَّك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟! فلاشك أن هذا من أظلم الظلم. اهـ.

قال ابن عثيمين: قوله: (من عمل عملاً). قوله (عملاً) نكرة فى سياق الشرط فتعم أى عمل من صلاة أو صيام، أو حج، أو جهاد، أو غيره. اهـ.

قوله: (من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى).

---

(١) مسلم بشرح النووى ٩/ ٣٤٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٦، ٣٩٧.

(٣) النمل: ٥٩.

(٤) الفرقان: ٢٤.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢٨٢، ٢٨٣.

(٦) لقمان: ١٣.

قال النووى[1]: فمن عمل شيئاً لى ولغيرى لم أقبله بل تركته لذلك الغير والمراد أن عمل المرائى باطل لا ثواب عليه ويأثم به.

قال سليمان آل الشيخ [2]: **قوله: «من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى»** أى: من قصد بذلك العمل الذى يعمله لوجهى غيرى من المخلوقين تركته وشركه، وفى رواية عند ابن ماجه وغيره: **«فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِى أَشْرَكَ»**.

قال الطيبى: الضمير المنصوب فى تركته يجوز أن يرجع إلى العمل والمراد من الشرك الشريك.

قال ابن رجب: واعلم أن العمل لغير الله أقسام فتارة يكون رياءً محضاً فلا يراد به سوى مراءاة المخلوقين لغرض دنيوى، كحال المنافقين فى صلاتهم كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾** وكذلك وصف الله الكفار بالرياء فى قوله: **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾** وهذا الرياء المحض لايكاد يصدر من مؤمن فى فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر فى الصدقة الواجبة، أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التى يتعدى نفعها فإن الإخلاص فيها عزيز وهذا العمل لايشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه ثم ذكر أحاديث تدل على ذلك منها الحديث الذى ذكره المصنف.

[قلت]: وسبق ذكر الأحاديث والآثار فى ذلك فى فصل مستقل بعد تفسير قوله تعالى: **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾**.

قال ابن رجب: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شىء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهادهم ولم يبطل بالكلية.

وفى «صحيح مسلم» عن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: **«مَا مِنْ غَازِيَة تَغْزُو فِى سَبِيلِ الله فَيُصِيبُونَ الغنيمةَ، إلاَّ تعجَّلُوا ثُلثى أَجْرِهِمْ مِنَ الآخرَة. ويبقى لَهُمُ الثُّلثُ وإنْ لم يصيبوا غنيمة تمَّ لَهُمْ أجْرُهُم»**[3] قلت - يعنى سليمان آل الشيخ - هذا لايدل على أنهم غزوا لأجلها فلايدل على ثبوت الأجر لمن غزا يلتمس عرضاً قال: وقد ذكرنا فيما مضى

(١) شرح النووى ٩/ ٣٤٣. (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٧و ٤٠٠.
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٧/ ٥٩/ ١٥٣).

أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له وهى محمولة على أنه لم يكن له غرض فى الجهاد إلا الدنيا قلت. يعنى سليمان آل الشيخ ظاهر حديث أبى هريرة أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهَادَ فِى سَبِيلِ الله] وَهُوَ يَبْتَغِى عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: **«لا أَجْرَ لَهُ»** فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفَهِّمْهُ، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهَادَ فِى سَبِيلِ الله وَهو يبتغى عَرَضاً من عرض الدنيا؟ قال: **«لا أجر له»**. فقالوا للرجل عُدْ لِرَسُولِ الله ﷺ فقال له الثالثة فقالَ لهُ: **«لا أجر له»** فأعاد عليه ثلاثاً والنبى ﷺ يقول: **«لا أجر له»**(١) رواه أبو داود. يدل على أن نية الجهاد إذا خالطها نية أجرة الخدمة أو أخذ شىء من الغنيمة أو التجارة لم يكن له أجر، ويحتمل أن يكون معنى يريد الجهاد أى: يريد سفر الجهاد ولم ينو الجهاد إنما نوى عرض الدنيا.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد: التاجر والمستأجر والمكارى أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم فى غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه، وماله لايخلط به غيره.

وقال أيضاً: فيمن يأخذ جعلا على الجهاد إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس كأنه خرج لدينه فإن أعطى شيئا أخذه وكذا روى عن عبد الله بن عمرو قال: إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقا فلا بأس بذلك وإما أن أحدكم إن أعطى درهماً غزا وإن لم يعط درهماً لم يغز فلا خير فى ذلك.

قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - هذا يدل على الفرق بين ما كانت نية الدنيا مخالطة له من أول مرة، بحيث تكون هى الباعث له على العمل، أو من جملة ما يبعث عليه، كالذى يلتمس الأجر والذكر، فهذا الأجر له وبين ما كانت النية خالصة لله من أول مرة، ثم عرض له أمر من الدنيا لايبالى به، سواء حصل له أو لم يحصل، كالذى أجمع على الغزو سواء أعطى أو لم يعط. فهذا لا يضره ونحوه التجارة فى الحج كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ وعلى هذا ينزل ما روى عن مجاهد أنه قال فى حج الجمال وحج الأجير وحج التاجر: هو تام لاينقص من أجورهم شىء: أى: لأن قصدهم الأصلى كان هو الحج دون التكسب.

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٦) عن أبى هريرة به.

قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه؛ فلايضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لايضره ذلك، ويجازى على أصل نيته؟ فى ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبرى ورجحا أن عمله لايبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروى عن الحسن البصرى وغيره، ويستدل لهذا القول.

بما أخرجه أبوداود فى مراسيله عن عطاء الخراسانى أنَّ رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ بَنى سَلَمةَ كُلهم يُقَاتِلُ، فَمنهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ للدُّنْيَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ نَجْدَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، قَالَ: **«كُلُّهُمْ إذاً كَانَ أصل أَمْرِهِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْيَا»**(١). وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو عمل مرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه، كالقراءة والذكر، وانفاق المال ونشر العلم؛ فإنه ينقطع بنية الرياء، الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية. فأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله له الثناء الحسن فى قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك؛ لم يضره، وفى هذا المعنى جاء فى:

حديث أبى ذر عن النبى ﷺ أنه سُئلَ عَن الرجلِ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ فَقَالَ: **«تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ»**(٢). رواه مسلم انتهى ملخصاً وسبق من كلام ابن عثيمين.

إذا تبين هذا؛ فقد دل الكتاب والسنة على حبوط العمل بالرياء، وجاء الوعيد بالعذاب عليه، قال الله تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾**(٣) والآية بعدها.

وروى مسلم فى «صحيحه» حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار، المقاتل ليقال جرىء، والمتعلم ليقال عالم، والمتصدق ليقال جواد(٤).

فأما ما رواه البزار وابن مندة والبيهقى عن معاذ بن جبل مرفوعاً **«مَنْ عَمِلَ رِيَاءً لاَ يُكْتَبُ لاَ لَهُ، وَلاَ عَلَيْهِ»**(٥). ذكره السيوطى فى «الدر» ولم أقف على إسناده فما أظنه يثبت، والكتاب والسنة يدلان على خلافه، بل هو موضوع. اهـ.

وتقدم ذلك مختصراً فى أول الباب

---

(١) رواه أبوداود فى المراسيل (١, ٢).　(٢) تقدم تخريجه.
(٣) سورة هود، الآية: ١٥.
(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (١٣/ ٥٠ - النووى) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٠ - بتخريجنا).
(٥) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٥٤) وقال: رواه البزار وفيه محمد بن السائب الكلبى وهوكذاب».

قوله: (تركته وشركه).

قال النووى[1]: هكذا وقع فى بعض الأصول (وشركه)، وفى بعضها (وشريكه) وفى بعضها (وشركته). اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: أى: لم أثبه على عمله الذى أشرك فيه.

وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر، فيترك الله جميع أعماله؛ لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

والمراد بشركه، عمله الذى أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن الشريك الذى أشرك به مع الله قد لايتركه، كمن أشرك نبيّاً أو وليّاً؛ فإن الله لايترك ذلك النبى والولى. اهـ.

قلت: وهذا دليل الغنى الكامل من الله تعالى إذ أن المخلوق إن شاركه أحدٌ فى حقه عنوة بغير حق قبل ذلك وإن كان مستغنى عن هذه الشراكة إلا أنه قد يقبل هذا الوضع إما مضطر أو لحاجة أما الغنى الحميد بالذات العليم القدير بالذات فهو يجير ولا يجُار عليه لذا يتركه وشركه والله أعلم.

المستفاد من الحديث

قال ابن عثيمين[3]:

● ويستفاد من هذا الحديث:

١ـ بيان غنى الله تعالى؛ لقوله: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»**.

٢ـ بيان عظم حق الله وأنه لايجوز لأحد أن يشرك أحداً مع الله فى حقه.

٣ـ بطلان العمل الذى صاحبه الرياء؛ لقوله: **«تركته وشركه»**.

٤ـ تحريم الرياء؛ لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل على الغضب، وما أوجب الغضب؛ فهو مُحَرَّم.

٥ـ أن صفات الأفعال لا حصر لها؛ لأنها متعلقة بفعل الله، ولم يزل الله ولايزال فعالاً. اهـ.

● ● ●

(١) شرح مسلم ٩/ ٣٤٣.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٨٣.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

وَعَنْ أَبِى سَعِيد مَرْفُوعاً: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِى مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ «الشِّرْكُ الْخَفِىُّ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»(١). رَوَاهُ أَحْمَدُ.

قوله: [وعن أبى سعيد مرفوعاً ألا أخبركم بما هو أخوف.... الحديث]

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الحديث رواه أحمد كما قال المصنف، ورواه ابن ماجه، وابن أبى حاتم، والبيهقى، وفيه خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «ألا أخبركم» الحديث وفى سنده ضعف. ومعناه صحيح.

وروى ابن خزيمة فى صحيحه معناه عن محمود بن لبيد قَالَ خَرَجَ النَّبِىُّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكُ السَّرَائِرِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: «يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ جَاهِداً لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَيْهِ فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ»(٣). اهـ.

مناسبة الحديث للباب وللتوحيد

قال القرعاوى(٤): دل الحديث على أن النبى ﷺ أخوف ما يخاف علينا الشرك الخفى وهو الرياء، لذا يجب اجتنابه والحذر منه. ا.هـ.

قوله: (ألا).

قال ابن عثيمين(٥): أداة عَرْض، والغرض منها تنبيه الْمُخَاطَب؛ فهو أبلغ من عدم الإتيان بها. ا.هـ.

قوله: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال».

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٠)، وابن ماجة فى الزهد/ باب الرياء والسمعة (/ ٤٢٠٤ ١٤٠٦).

من طريق كثير بن زيد، عن ربيح بن عبدالرحمن بن أبى سعيد الخدرى، عن أبيه، عن أبى سعيد به. قال فى «الزوائد»: إسناده حسن، وكثير بن زيد وربيح بن عبدالرحمن مختلف فيهما. وانظر «فتح المجيد» (ح ٤٠٧) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الجديد ٣٢٧.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢٨٤.

قال سليمان آل الشيخ(١): **قوله: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال»** إنما كان الرياء كذلك، لخفائه وقوة الداعي إليه، وعسر التخلص منه لما [لا](*) يزينه الشيطان، والنفس الأمارة في قلب صاحبه. اهـ.

قوله: «بما هو».

قال ابن عثيمين(٢): ما: اسم موصول بمعنى الذي.

قوله: (أخوف عليكم عندي).

قال ابن عثيمين(٣): أي عند الرسول ﷺ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن خوف النبي ﷺ من فتنة هذا الشرك الخفي أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك؛ لأن التخلص منه صعب جداً، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»، وقال النبي ﷺ: **«أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**(*)»، ولايكفي مجرد اللفظ بها، بل لابد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله ـ عزوجل ـ.

قوله: (المسيح الدجال).

قال ابن عثيمين(٤): المسيح؛ أي: ممسوح العين اليمنى، فذكر النبي عيبين في الدجال:

أحدهما: حسي، وهو أن الدجال أعور العين اليمنى؛ كما قال النبي ﷺ: «**إن الله لايخفى عليكم، إنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى**»(٥).

والثاني: معنوي، وهو الدجال؛ فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبة إلى وصفه الملازم له، وهو الدَّجَل والكذب والتمويه، وهو رجل من بني آدم، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحكمته يخرجه ليفتن الناس به، وفتنته عظيمة؛ إذ ما في الدنيا منذ خُلِق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧.

(*) تقدم تخريجه.

(*) كذا بالأصل، ولعل الصواب حذفها؛ إظهاراً للمعنى.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧.

(٥) **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (٣٤٣٩)، ومسلم في الفتن (١٨/ ٥٩ - النووي) عن عبد الله بن عمر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٢٢ - بتخريجنا).

والمسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة؛ لأن النبي ﷺ أمر أمته أن يتعوذوا بالله منه في كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا: ما ورد من صفته متناقض ولايمكن أن يصدق به، لكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم، وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون: كيف يكون اليوم الواحد عن سنة والشمس لها نظام لاتتعداه؟ وهذا لاشك جهل منهم بالله؛ فالذى جعل هذا النظام وهو الله، وهو القادر على أن يُغَيِّره متى شاء؛ فيوم القيامة تُكَوَّر الشمس، وتَتَكَدَّر النجوم، وتُكْشَط السماء، كل ذلك بكلمة «كن»، ورَدّ هذه الأحاديث بمثل هذه التعاليل دليل على ضعف الإيمان وعدم تقدير الله حق قدره، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(1).

فالذى نؤمن به أنه سَيَخْرُج فى آخر الزمان، ويحصل منه كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن أن الله على كل شيء قدير، وأنه قادر على أن يبعث على الناس من يفتنهم عن دينهم؛ ليتميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب، مثل ما ابتلى الله بنى إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم شرعا ويوم لايبتون لاتأتيهم ومثل ما ابتلى الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حُرُم، تناله أيديهم ورماحهم ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يبتلى الله أفراد الناس بأشياء يمتحنهم بها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾. اهـ.

قوله: «قالوا: بلى».

قال سليمان آل الشيخ(2): قوله: قالوا: بلى. فيه الحرص على العلم، وأن من عرض عليك أن يخبرك بما فيك فلاينبغى لك رده، بل قابله بالقبول والتعلم.

قوله: (قال الشرك الخفى).

قال سليمان آل الشيخ(3): قوله: قال: «الشرك الخفى» سمى الرياء شركاً خفياً، لأن صاحبه يظهر أن عمله لله، ويخفى فى قلبه أنه لغيره، وإنما تزين بإظهاره أنه لله بخلاف الشرك الجلى. وفى حديث محمود بن لبيد الذى تقدم فى باب الخوف من الشرك تسميته بالشرك الأصغر.

---

(1) الزمر: ٦٧.

(2) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

(3) تيسير العزيز الحميد ٤٠١

وعن شداد بن أوس قال: كُنَّا نَعُدُّ الرِّيَاءَ عَلَى عَهْدِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، الشِّرْكَ الأَصْغَرَ[1]. رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب «الإخلاص» وابن جرير فى «التهذيب» والطبرانى والحاكم وصححه. فظاهره أنه من الأصغر مطلقاً» وهو ظاهر قول الجمهور.

وقال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر؛ فكيسير الرياء والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك ومالى إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده انتهى.

ففسر الشرك الأصغر باليسير من الرياء، فدل على أن كثيره أكبر، وضد الشرك الأكبر والأصغر التوحيد والإخلاص، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة باطنا وظاهراً كما قال تعالى: **﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾**[2] وقال تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾**[3] وقال تعالى: **﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾**[4].

وقيل: الإخلاص استواء أحوال العبد فى الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه أى: لملاحظة الخلق، والصدق فى الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره. اهـ.

وأوضح ذلك أكثر ابن عثيمين فقال[5]:

الشرك قسمان خفى وجلى:

فالجَلِيّ: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت، أو بالفعل مثل الانحناء لغير الله تعظيماً.

والخَفِيّ: ما كان فى القلب، مثل الرياء؛ لأنه لايبين؛ إذ لايعلم ما فى القلوب إلا الله، ويُسَمَّى أيضاً «شرك السرائر»، وهذا هو الذى بيَّنه الله بقوله: **﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾**؛

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الزمر: ٢/٣.

(٣) الزمر: ١١.

(٤) الزمر: ١٤.

(٥) القول المفيد ٢/٢٨٧و ٢٨٩.

لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، وفى الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولايفعله وينهى عن المنكر ويفعله: أنه «يلقى فى النار حتى تَنْدَلِقَ أقتاب بطنه، فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولايفعله، وينهى عن المنكر ويفعله»[1].

قلت: وهذا كقوله تعالى: **«يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر»** الآية.

قوله: **«يقوم الرجل، فيصلى، فيزين صلاته»**.

يتساوى فى ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص هنا يسمى مفهوم اللَّقب، أى أن الحكم يُعَلَّق بما هو أشرف، لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل. اهـ.

قوله: «فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل».

قال سليمان آل الشيخ[2]: قوله: «فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل» فسر الشرك الخفى بهذا أن يعمل الرجل العمل لله، لكن يزيد فيه صفة كتحسينه وتطويله ونحو ذلك، لما يرى من نظر رجل فهذا هو الشرك الخفى، وهو الرياء. والحامل له على ذلك هو حب الرياسة، والجاه عند الناس. اهـ.

قلت: لكن لا يدخل فيه حال أبى موسى مع النبى ﷺ وقوله: «لو علمت مكانك يارسول الله لحبرته لك تحبرًا»(*) لما تقدم ولأنه لم يطمع من ذلك فى رياسة ولا وجاهة بل إدخال السرور على الرسول ﷺ فإذا كان إدخاله على المسلم خير ويسر فالرسول ﷺ من باب أولى.

قال ابن عثيمين[3]: وقوله: «فيزين صلاته». أى: يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك.

قوله: **«لما يرى من نظر رجل إليه»**.

«ما» موصولة، وحذف العائد؛ أى: للذى يراه من نظر رجل، وهذه هى العلة لتحسين الصلاة؛ فقد زيَّن صلاته ليراه هذا الرجل فيمدحه بلسانه أو يُعظِّمه بقلبه، وهذا شرك. اهـ.

(١) تقدم تخريجه.

(*) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الكَهْفِ.

ـ **ما يستفاد من الحديث**: التحذير من هذا الريآء الخفى وهذه الشهوة الخفية:

قال سليمان آل الشيخ(١):

قال الطيبى: وهو من أضر غوائل النفس، وبواطن مكائدها، يبتلى به العلماء والعباد، والمشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات؛ عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير، وإظهار العلم والعمل. فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق. ولم يقتنع باطلاع الخالق تبارك وتعالى، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، فأحببت مدحهم، وتبركهم بمشاهدته وخدمته وإكرامه وتقديمه فى المحافل فأصابت النفس فى ذلك أعظم اللذات، وأعظم الشهوات، وهو يظن أن حياته بالله تعالى، وبعباداته، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التى تعمى عن دركها العقول النافذة، قد أثبت اسمه عند الله من المنافقين، وهو يظن أنه عندالله من عباده المقربين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة. انتهى كلامه. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: وفى الحديث من الفوائد شفقته ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال، والحذر من الرياء ومن الشرك الأكبر إذ كان ﷺ يخاف الرياء على أصحابه مع علمهم وفضلهم، فغيرهم أولى بالخوف. اهـ.

فيه مسائل:

قال ابن عثيمين(٢):

● **الأولى**: تفسير آية الكهف.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٢/٤٠٣ .

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

الثانية: الأَمْرُ العَظِيمُ فِى رَدِّ العَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَىْءٌ لِغَيْرِ اللهِ.

الثالثة: ذِكْرُ السَّبَبِ المُوجِبِ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الغِنَى.

الرابعة: أَنَّ من الأَسْبَابِ أَنَّهُ خَيْرُ الشُّرَكَاءِ.

الخامسة: خَوْفُ النبيِّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

وسبق الكلام عليها.

قلت: وهى قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولايشرك . .﴾ الآيه.

● **الثانية: الأمر العظيم فى رد العمل الصالح إذا دخله شىء لغير الله.**

وذلك لقوله: «**تركته وشركه**»، وصار عظيماً؛ لأنه ضاع على العامل خساراً، وفحْوَى الحديث تدل على غضب الله ـ عزوجل ـ من ذلك.

● **الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.**

يعنى: الموجب للرد هو كمال غنى الله ـ عزوجل ـ عن كل عمل فيه شرك، وهو غنى عن كل عمل، لكن العمل الصالح يقبله ويثيب عليه.

● **الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء.**

أى: من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحداً، أن الله خير الشركاء، فلا يُنَازَع من جعَل شريكاً له فيه.

قلت: لأن المشارك قد ينازع شريكه ليخلق لاسيما وقد دخل هذه الشركة عنوة بغير حق أما الله سبحانه فيترك ذلك من باب الخيرية المطلقة لا الضعف والغنى المطلق ولا العوز والحاجه والفقر والله أعلم.

● **الخامسة: خوف النبى ﷺ على أصحابه من الرياء.**

وذلك لقوله ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال**». وإذا كان يخاف ذلك على أصحابه؛ فالخوف على من بعدهم من ذلك من باب أولى.

قلت: فالخوف على غير العاملين من البطاليين إنما هو ابتداءً وانتهاءً من الدجال أم على الأوليآء والأصفياء والعمال إنما الخوف عليهم من الرياء أكبر من الدجال لأنهم أقدر

السادسة: أَنَّهَ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّ المَرْءَ يُصَلِّي لله، لِكَنْ يُزَيِّنُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

على صد فتنته من البطالين لكن نخشى علـى عملهم من الرياء وأما البطال فليس له من عمل يخشى عليه من الرياء إلا النذر اليسير إن وجد والله الموفق لارب سواه.

● **السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلى المرء، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.**

وهذا التفسير ينطبق تماماً على الرياء؛ فـيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال.

ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبى ﷺ عـلى أمته من المسيح الدجال؛ لأن المقام فى الرياء لا فيما يخافه النبى ﷺ على أمته. اهـ.

● ● ●

باب (٣٦)

من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

● **الفرق بين هذه الترجمة والتي قبلها، ومناسبتها للباب السابق:**

قال سليمان آل الشيخ(١): قد ظن بعض الناس أن هذا الباب داخل في الرياء، وأن هذا مجرد تكرير فأخطأ، بل المراد بهذا أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً يريد به الدنيا كالذي يجاهد للقطيفة والخميلة ونحو ذلك، ولهذا سماه النبي ﷺ، عبدًا لذلك بخلاف المرائي، فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المرائي، لأن ذلك عمل لدنيا يصيبها. والمرائي عمل لأجل المدح، والجلالة في أعين الناس، وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه. اهـ.

- **قال عبد الرحمن آل الشيخ**(٢): بينهما عموم وخصوص مطلق؛ يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه كحال المنافقين، وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام. ويفارقه الرياء بكونه عمل عملاً صالحاً أراد به عرضًا من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالاً كما في الحديث: «تعس عبد الدينار . . .أو يجاهد للمغنم او غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا**﴾ اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكررًا مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله أخص من هذا الباب؟ لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعًا مستقلاً عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر؛ لأن

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٠٣).

(٢) فتح المجيد (٢/ ٥١٢).

(٣) القول المفيد (٢/ ٢٩٣).

الإنسان فى الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح فى العبادة، فيقال: هو عابد، ولا يريد النفع المادى. اهـ.

● **مناسبة الباب للتوحيد.**

قال عبد الله بن جار الله[1]: هى أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافى كمال التوحيد الواجب ويحبط الأعمال. اهـ.

قال السعدى[2]: من أعظم ما ينافى هذا - التوحيد - مراءاة الناس، والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم، أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح فى الإخلاص والتوحيد. اهـ.

● **ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة:**

قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: أراد المصنف ـ رحمه الله ـ بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافى كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له فى عمل دون عمل، ولايسترسل معه، والمؤمن يكون حذرًا من هذا وهذا. اهـ.

● **شرح الترجمة:**

قال حسن بن محمد[4]: **باب** - فى بيان ما جاء أن - **من الشرك** - الأكبر الذى يخلد صاحبه فى النار، ولاينجى منه إلا من أراد الله نجاته، وهو الشرك فى النية.

قال ابن القيم: وهو البحر الذى لاساحل له وقل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجهه أو نوى شيئاً غير التقرب لله وطلب الجزاء منه فقد أشرك فى نيته والاخلاص أن يخلص لله فى أفعاله وأقواله وإراداته ونياته وهذه هى فى الحقيقة ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهى حقيقة الإسلام ومن يبتغ غير الاسلام دينا فهو فى الاخرة من الخاسرين وهى مله إبراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه أنتهى كلامه رحمه الله.

فإذا ثبت أن **من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا** فلتنظر نفس ماهى عليه حتى تتدارك

---

(١) الجامع الفريد (١٤٨).

(٢) القول السديد (٩٨)

(٣) فتح المجيد (٢/ ٥١٣).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٢/ ٣٧٣).

نفسها بالانكسار بين يدى الله، والتضرع إليه لأن ينجيه من هـذا الأمر العظيم والخطب الجسيم . اهـ.

وقال ناصر السعدى[1]: وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها؛ فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة؛ فهذا ليس له فى الآخرة من نصيب، وهذا العمل على هـذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن وإن كان ضعيف الإيمان لابد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان؛ فهذا وإن كان مؤمـنًا فإنه ناقـص الإيمان والتوحيد والإخلاص، وعملـه ناقص لفقـده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص فى عمله إخلاصاً تاماً، لكنه يأخذ على عمله **جُعلاً** معلوماً يستعين به على العمل والدين؛ **كالجُعالات** التى تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذى يرتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التى تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها؛ فهذا لا يضر أخذه فى إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معيناً على قيام الدين، ولهذا جعل الله فى الأموال الشرعية؛ كالزكوات وأموال الفىء وغيرها جزءً كبيراً لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة. اهـ.

وقال ابن عثيمين[2]**: قوله: ﴿من الشرك﴾.**

﴿من﴾ للتبعيض؛ أى: بعض الشرك.

قوله: ﴿**الدنيا**﴾ مفعول بإرادة؛ لأن إرادة مصدر مضاف إلى فاعله، وإذا أردت أن تعرف المصدر إن كان مضافًا إلى فاعلة أو مفعوله؛ فحوله إلى فعل مضارع مقرون بأن، فإذا قلنا: باب من الشرك أن يريد الإنسان بعمله الدنيا؛ فالإنسان فاعل، وعلى هذا؛ فإرادة مصدر مضاف إلى فاعله، والدنيا مفعول به.

وفى هذا الباب لايريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المراءاة، بل يعبد الله مخلصًا له، ولكنه يريد شيئاً من الدنيا؛ كالمال، والمرتبة، والصحة فى نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك، فهو يريد بعمله نفعاً فى الدنيا غافلاً عن ثواب الآخرة. اهـ.

---

(١) القول السديد (٩٩، ١٠٠).

(٢) القول المفيد (٢/ ٢٩٣، ٢٩٤).

● الفرق بين الرياء في العبادة والتشريك فيها:-

قال القرافي(١):

اعلم أن الرياء شرك وتشريك مع الله تعالى فى طاعته، وهو موجب للمعصية والإثم والبطلان فى تلك العبادة؛ فالرياء: أن يعمل العمل المأمور به المتقرب به إلى الله تعالى ويقصد به وجه الله تعالى، وأن يعظمه الناس أو يعظمهم؛ فيصل إليه نفعهم أو يندفع به ضررهم.

وأما مطلق التشريك كمن يجاهد لتحصيل طاعة الله بالجهاد وليحصل له المال من الغنيمة؛ فهذا لايضيره ولا يحرم عليه بالإجماع؛ لأن الله جعل له هذا فى العبادة، ففرق بين جهاده ليقول الناس: هذا شجاع، أو ليعظمه الإمام فيكثر عطاؤه من بيت المال، هذا ونحوه رياء وحرام، وبين أن يجاهد لتحصيل السبايا والكراع والسلاح من جهة أموال العدو مع أنه قد أشرك، ولا يقال لهذا: رياء بسبب أن الرياء أن يعمل ليراه غير الله من خلقه.

وكذلك من حج وأشرك فى حجة غرض المتجر، وكذلك من صام ليصح جسده، أو ليحصل له زوال مرض من الأمراض التى ينافيها الصوم، ولايقدح هذا فى صومه، بل أمر به صاحب الشرع فى قوله: «يامعشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»(٢) أى: قاطع، فأمر الرسول ﷺ بالصوم لهذا الغرض، ولو كان ذلك قادحاً لم يأمر به ﷺ فى العبادة.

فهذه الأغراض لايدخل فيها تعظيم الخلق، بل هى تشريك أمور من المصالح ليس لها إدراك، ولاتصلح للإدراك ولا للتعظيم، ولا يمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر وعظم الثواب».

وقال العز بن عبد السلام فى «قواعد الأحكام»: إن قيل: هل يكون انتظار الإمام المسبوق ليدركه فى الركوع شركًا فى العبادة أم لا؟ قلت: ظن بعض العلماء ذلك، وليس كما ظن، بل هو جمع بين قربتين؛ لما فيه من الإعانة على إدراك الركوع، وهى قربة أخرى؛ والإعانة على الطاعات من أفضل الوسائل عند الله.

---

(١) نقلاً من القول المفيد ٢/ ٢٩٤.

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١٩٠٥) ومسلم فى النكاح (٩/ ١٧٢، ١٧٥ - النووى) عن ابن مسعود به وأنظر «السلسبيل» (١٩٩٤ - بتخريجنا).

● **أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا.**

قال ابن عثيمين(١):

١ - أن يريد المال؛ كمن أَذَّنَ ليأخذ راتب المؤذن، أو حج ليأخذ المال.

٢ - أن يريد المرتبة؛ كمن تعلم فى كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.

٣ - أن يريد دفع الأذى والأمراض والآفات عنه؛ كمن تعبد لله كى يجزيه الله بهذا فى الدنيا بمحبة الخلق له ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.

٤ - أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير وهناك أمثلة كثيرة.

مسألة:

قال ابن عثيمين(٢): فإن قيل: هل يدخل فيه من يتعلمون فى الكُلِّيات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟

والجواب: إنهم يدخلون فى ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعياً، فنقول لهم:

أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادة وسيلة للعمل فى الحقول النافعة للخلق؛ لأن الأعمال فى الوقت الحاضر مبنية على الشهادات، والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.

ثانياً: أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلاَّ فى الكليات؛ فيدخل الكلية أو نحوها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة؛ فإنها لاتهمه.

ثالثاً: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين - حسنى الدنيا وحسنى الآخرة -؛ فلا شىء عليه لأن الله يقول: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾(٣)؛ فرغبه فى التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لايحتسب.

فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلاً؟

أجيب: إنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقاً، فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم، بل قصد أمرًا مادياً؛ فإخلاصه ليس كاملاً لأن فيه شركاً، ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بذلك، بل أراد شيئاً دنيئاً غيره.

قلت: ليستعين بهذا الشىء المادى أو الدنيوى على أمر الآخرة فهذا لاشىء عليه كما مر من كلام السعدى ثم قال ابن عثيمين:

(١، ٢) القول المفيد ٢٩٦ - ٢٩٨).

(٣) الطلاق : ٢/ ٣.

وقول الله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾(١).

ولا مانع أن يدعو الإنسان فى صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال، ولكن لايصلى من أجل هذا الشىء؛ فهذه مرتبة دنيئة.

أما طلب الخير فى الدنيا بأسبابه الدنيوية؛ كالبيع، والشراء، والزراعة؛ فهذا لاشىء فيه، والأصل أن لا نجعل فى العبادات نصيبًا من الدنيا، وقد سبق البحث فى حكم العبادة إذا خالطها الرياء فى باب الرياء.

● ملاحظة:

بعض الناس عندما يتكلمون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية.

فمثلاً يقولون: فى الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب، وفى الصيام فائدة إزالة الرطوبة وترتيب الوجبات، والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هى الأصل؛ لأن الله لم يذكر ذلك فى كتابه، بل ذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وعن الصوم أنه سبب للتقوى؛ فالفوائد الدينية فى العبادات هى الأصل والدنيوية ثانوية، لكن عندما نتكلم عند عامة الناس؛ فإننا نخاطبهم بالنواحى الدينية، وعندما نتكلم عند من لايقتنع إلا بشىء مادى؛ فإننا نخاطبه بالنواحى الدينية والدنيوية، ولكل مقام مقال أ هـ.

● ● ●

وقوله الله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ....﴾ الآيتين.

مناسبة الآيتين للباب.

قال عبد الله بن جار الله(٢): أن فيهما وعيد لمن قصد بعمله الدنيا بإحباط عمله ودخول النار. اهـ.

وقال ابن باز(٣): وهذا وعيد، والآية فى الكفار والذين عبدوا الله لأجل الدنيا كالمنافقين، وعمومه يوجب الحذر من إرادة الإنسان بعمله الدنيا ولو كان ذلك فى بعض الأمور. اهـ.

---

(١) هود / (١٥، ١٦).
(٢) الجامع الفريد (١٤٨).
(٣) التعليق المفيد (١٩١).

قـال القرعـاوى[1]: دلـت الآيـتان علـى أن طلب الدنيـا بعمل الآخره مـبطل لثوابها. اهـ.

قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾.

الإعراب:

قال القرطبى[2]:

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ﴾ زائدة، ولـهذا أجزم الجواب فـقال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ قاله الفراء.

وقال الزجاج: ﴿مَن كَانَ﴾ فى موضع جزء بالشرط وجوابه ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ أى من يكن يريد، والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل، كما قال زهير:

ومن هاب أسبابَ المنيةِ يَلْقَها ... ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ يُسلَّم

وقال صاحب الإعراب[3]: (من) اسم شرط جازم فى محـل رفع مبتدأ واسم كان ضمير مستتر يـعود على (من) وجملة (يريد الحياة الدنيا) خـبر كان (وكان) فعل الشرط مجزوم محـلاً (وزينتها) عطف علـى الحياة (ونوفّ) جواب الشرط مجـزوم بحذف حرف العلة (والـيهم) جار ومجرور مـتلعقان (بنوفّ) (وأعـمالهم) مفعـول به وفيها متـعلقان بمحذوف حـال وهم الواو حاليـة وهم مبتـدأ (وفيها) متـعلقان (بيـبخسون) وجـملة (لا يبخسون) خبر هم.

وقال الـفراء: (كان) هنـا زائدة وتقديـره (من يرد الحـياة الدنيـا)، وهو قول جمـيل وطريف لولا أنه غير مطرد ولا يسوغ حمل القرآن عليه. اهـ.

● سبب نزول الآية:

عن أنس رضى الله عنه فى قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ قال: نزلت فى اليهود والنصارى[4].

عن الضحاك فى الآية قال: نزلت فى أهل الشرك[5].

---

(١) الحديد (٣٢٩). (٢) تفسير القرطبى (٥/ ٣٢٤١).

(٣) إعراب القرآن (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٧٣٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤) وزاد نسبته لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن المردوية.

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٧٤٠) وأنظر «الدر» (٣/ ٥٨٤).

قال ابن الجوزى[1]: اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال.

أحدها: أنها عامة فى جميع الخلق، وهو قول الأكثرين.

والثانى: فى أهل القبلة، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أنها فى اليهود والنصارى قال أنس.

والرابع: أنها فى أهل الرياء أهـ.

وقال الفخر الرازى[2]: **المسألة الأولى**: اعلم أن فى الآية قولين:ـ

القول الأول:أنها مختصة بالكفار، لأن قوله: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق. لأن كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها، إلا أن آخر الآية يدل على أن المراد من هذا العام والخاص وهو الكافر، لأن قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ لايليق إلا بالكفار، فصار تقدير الآية: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط، أى تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالباً لسعادات الآخرة، كان حكمه كذا وكذا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه.

فمنهم من قال: المراد منهم منكروا البعث فإنهم ينكرون الآخرة ولايرغبون إلا فى سعادات الدنيا. وهذا قول الأصم وكلامه ظاهر.

والقول الثانى: أن الآية نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها.

والقول الثالث: أن المراد اليهود والنصارى؛ وهو منقول عن أنس.

والقول الرابع: وهو الذى اختاره القاضى أن المراد: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها أهـ.

القول الثانى: وهو أن تجرى الآية على ظاهرها فى العموم، ونقول: إنه يندرج فيه المؤمن الذى يأتى بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة، ويندرج فيه الكافر الذى هذا صفته، وهذا القول مشكل، لأن قوله: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ لايليق بالمؤمن، إلا إذا قلنا: المراد ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ بسبب

---

(١) زاد المسير (٤/٦٥٢٦٤).

(٢) التفسير الكبير (٩/١٧/٢٠٧٢٢٠٦).

هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء، ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخباراً كثيرة فى هذا الباب. روى أن الرسول عليه السلام قال «**تعوذوا بالله من جب الحزن** قل وما جب الحزن؟ قال عليه الصلاة والسلام «**واد فى جهنم يلقى فيه القراء المراؤن**»(١) وقال عليه الصلاة والسلام «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه**».

وقال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه».

قال القرطبى(٢): والصحيح العموم أهـ.

وقال ابن عثيمين(٣): اختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

١ـ قيل: نزلت فى الكفار؛ لأن الكافر لايريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لهذا سياقها والجزاء المُرتَّب على هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا، فكل من شاركهم فى شىء من ذلك؛ ففيه شىء من شركهم وكفرهم.

٢ـ وقيل: نزلت فى المرائين؛ لأنهم لايعملون إلا للدنيا؛ فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣ـ وقيل: نزلت فيمن يريد مالاً بعمله الصالح.

والسياق يَدلُّ للقول الأول؛ لقوله تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾. اهـ.

ثمر ذكر الحديث عن أبى هريرة المتقدم وماذا فعل معاويه عند ما سمعه.

● **تنبيه:**

اقتصر المؤلف ـ رحمه الله ـ على الإشارة إلى تكميل الآية الأولى، وزدنا الآية التالية سهواً وعسى أن يكون خيراً. هكذا قال ابن عثيمين اهـ.

● **التفسير بالقرآن.**

قال الشنقيطى(٤): ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الشورى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾(٥) ولكنه تعالى بين فى سورة بنى إسرائيل تعليق ذلك على مشيئته جل وعلا

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تفسير القرطبى (٥/ ٣٢٤٢).
(٣) القول المفيد (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١١).
(٥) الشورى: ٢٠.

بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾(١) الآية. اهـ.

[قلت] وكقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(٢).

● ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث والآثار:

● أولاً: التفسير بالمرفوع:

عن عقبة بن مسلم حدثه أن شفى بن مانع الأصبحى حدثه أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال من هذا فقالوا أبو هريرة فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس فلما سكت وخلى قلت أنشدك بحق وبحق لما حدثنى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته قال فقال أبوهريرة أفعل لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ ثم نشغ نشغة ثم أفاق فقال لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت ما فيه أحد غيرى وغيره ثم نشغ أبوهريرة نشغة شديدة ثم مال خارا على وجهه واشتد به طويلا ثم أفاق فقال حدثنى رسول الله ﷺ **أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضى بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله للقارىء ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى قال بلى يارب قال فماذا عملت فيما علمت قال كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله له بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يارب قال فماذا عملت فيما أتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقال له فيما ذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله له بل أردت أن يقال فلان جرىء وقد قيل ذلك ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال أباهريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر لهم النار يوم القيامة قال الوليد أبو عثمان فأخبرنى عقبة أن شفيا هو الذى دخل على معاوية فأخبره بهذا.** عن العلاء بن أبى حكيم أنه كان سيافا لمعاوية قال فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبى هريرة فقال أبو هريرة وقد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقى من الناس ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى

(١) الإسراء: ١٨.
(٢) آل عمران: ١٤٥.

ظننا أنه هلك وقلنا هذا الرجل شر ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال صدق الله ورسوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وقرأ إلى وباطل ما كانوا يعملون-[1].

عن أنس رضى الله عنه[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاثة فرق. فرقة يعبدون الله خالصا، وفرقة يعبدون الله رياء، وفرقة يعبدون الله يصيبون به دنيا، فيقول للذى كان يعبد الله للدنيا: بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى؟ فيقول: الدنيا. فيقول: لا جرم لاينفعك ما جمعت ولاترجع إليه انطلقوا به إلى النار، ويقول للذى يعبد الله رياء: بعزتي وجلالى ما أردت بعبادتى؟ قال: الرياء. فيقول: إنما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها لايصعد إلىّ منها شيء ولاينفعك اليوم انطلقوا به إلى النار، ويقول للذى كان يعبد الله خالصا: بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى فيقول: بعزتك وجلا لك لا أنت أعلم به منى كنت أعبدك لوجهك ولدارك. قال: صدق عبدى انطلقوا به إلى الجنة»[3].

وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بناس بين الناس إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها استنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فيقولون: يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من الثواب وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون. قال: ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظيم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ولم تجلونى، وتركتم للناس ولم تتركوا إلى، فاليوم اذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتم من الثواب»[4].

● **ثانياً: التفسير بأقوال السلف:**

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢/ ١٠، ١١)، والترمذى (٢٣٨٢) عن أبى هريرة به وتقدم بنحوه. وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤) وزاد نسبته لابن المنذر، والبيهقى فى «الشعب» وانظر «فتح المجيد» (ح ٧١٠) بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٥٨٤) ونسبه للنحاس فى «ناسخه»..

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٤) نفس المصدر السابق.

عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى ثوابها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ مالها[1].

عن السدى مثله[2].

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية فقال: من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوم أو صلاة، أو تهجد بالليل، لايعمله إلا لالتماس الدنيا[3].

عن عبدالله بن معبد قال: قام رجل إلى على ـ رضى الله عنه ـ فقال: أخبرنا عن هذه الآية ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال له: نعم. ويحك، ذاك من كان يريد الدنيا، ولايريد الآخرة[4].

عن مجاهد كان يقول فى هذه الآية: هم أهل الرياء، هم أهل الرياء[5].

عن مجاهد: ممن لاتقبل منه يصوم ويصلى، يريد به الدنيا، ويدفع عنها[6].

عن قتادة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يقول: من كانت الدنيا همته وسدمه وطلبته، ونيته[7].

وعنه أيضاً: من كان إنما همته الدنيا إياها يطلب[8].

وأخرج أيضاً عن مجاهد: ممن لايقبل منه[9].

وعن سعيد بن جبير، فى هذه الآية: هو الرجل يعمل عمل الدنيا، لايريد بها الله، وهى مثل الآية فى الروم ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾[10].

وعن الضحاك: يقول من عمل عملاً صالحاً يريد به وجه الله فى غير تقوى يعنى من أهل الشرك[11].

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» الدر المنثور (٣/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» الطبرى (١٢/ ١٠، ١١، ١٢) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن أبى حاتم.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسير» (ح١٠٧٣٨) وذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤) وزاد نسبته لأبى الشيخ.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع الأخير.

(٧) أخرجه ابن جرير فى الموضع الأخير وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٥) ونسبه لأبى الشيخ.

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٩ -١١) المصدر السابق.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

ـ **قال ابن جرير**[1]: يقول تعالى ذكره: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، وأثاثها، وزينتها يطلب به أهـ.

ـ **قال البغوى**[2]: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أى: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَزِينَتَهَا﴾ نزلت فى كل من عمل عملاً يريد به غير الله عزوجل. اهـ.

قلت: وتقدم فى أسباب النزول ذكر الاختلاف فى نزولها فانظره.

ـ **قال الفخر الرازى**[3]: اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمدا ﷺ فى أكثر الأحوال، فكانوا يظهرون من أنفسهم أن محمدا مبطل ونحن محقون، وإنما نبالغ فى منازعته لتحقيق الحق وإبطال الباطل، وكانوا كاذبين فيه، بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى.

ثم قال: أن المراد: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها، وعمل الخير قسمان: العبادات، وإيصال المنفعة إلى الحيوان، ويدخل فى هذا القسم الثانى البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعى فى دفع الشرور وإجراء الأنهار. فهذه الأشياء إذا أتى بها الكافر لأجل الثناء فى الدنيا، فإن بسببها تصل الخيرات والمنافع إلى المحتاجين، فكلها تكون من أعمال الخير. فلا جرم هذه الأعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم. وأما العبادات: فهى إنما تكون طاعات بنيات مخصوصة، فإذا لم يؤت بتلك النية، وإنما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا، وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات.

وإذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ المراد منه الطاعات التى يصح صدورها من الكافر أهـ.

---

(١) تفسير ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٠).

(٢) معالم التنزيل (٣/ ١٩٧).

(٣) التفسير الكبير (٩/ ١٧/ ٢٠٦).

ـ قال الشوكانى[1]: وإدخال ﴿كَانَ﴾ فى الآية يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم لايكادون يريدون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون فى الآخرة لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة أهـ.

قال صاحب الظلال[2]: ونحن نشهد فى هذه الأرض أفراداً اليوم وشعوباً وأمماً تعمل لهذه الدنيا، وتنال جزاءها فيها. ولدنياها زينة، ولدنياها انتفاخ!

فلايجوز أن نعجب ولا أن نسأل: لماذا؟ لأن هذه هى سنة الله فى هذه الأرض: ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لايجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله فى الكسب والمتاع فينالوا زينة الحياة الدنيا لايبخسون منها شيئا وينالوا كذلك متاع الحياة الآخرة إن العمل للحياة الأخرى لايقف فى سبيل العمل للحياة الدنيا. بل إنه هو هو مع الاتجاه إلى الله فيه. ومراقبة الله فى العمل لاتقلل من مقداره ولاتنقص من آثاره، بل تزيد وتبارك الجهد والثمر، وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة. إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام وهذه مردية لا فى الآخرى فحسب، بل كذلك فى الدنيا ولو بعد حين وهى ظاهرة فى حياة الأمم وفى حياة الأفراد. وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون. اهـ.

قال ناصر السعدى[3]: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾.

أى: كل إرادته، مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها، من النساء، والبنين والقناطيرالمقنطرة، من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث.

قد صرف رغبته، وسعيه، وعمله فى هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً. فهذا لايكون إلا كافراً، لأنه لو كان مؤمنا، لكان ما معه من الإيمان ما يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا.

بل نفس إيمانه، وما تيسر له من الأعمال، أثر من أثار إرادته الدار الآخرة. اهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[4]: **قال الضحاك**: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من

---

(1) فتح القدير (٢/ ٥٠١).

(2) الظلال (٤/ ١٨٦٢، ١٨٦٣).

(3) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٤٥/ ٣٤٦).

(4) تيسير العزيز الحميد ٤٠٣.

غير تقوى؛ عجل له ثواب عمله فى الدنيا، واختاره الفراء[1].

قال ابن القيم: وهذا القول أرجح. ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وقالت طائفة: هذه الآية فى حق الكفار. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

أى: البقاء فى الدنيا.

قوله: ﴿وَزِينَتَهَا﴾.

أى: المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيل المُسَوَّمة؛ كما قال تعالى: **﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**.

● **قوله: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾.**

● **التفسير بالمأثور من المرفوع والموقوف والمقطوع.**

عن محمد بن كعب القرظى أن النبى ﷺ قال: «**من أحسن من محسن، فقد وقع أجره على الله، فى عاجل الدنيا، وآجل الآخرة**»[3].

عن ابن عباس رضى الله عنهما: **﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾** نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة، والسرور فى الأهل، والمال، والولد[4].

عن قتادة قال: من كان إنما همته الدنيا إياها يطلب، أعطاه الله مالاً، وأعطاه فيها ما يعيش وكان ذلك قصاصاً له بعمله[5].

عن مجاهد رضى الله عنه **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** قال: من عمل للدنيا لايريد به الله وفاه ذلك العمل فى الدنيا أجر ما عمل[6].

عن سعيد بن جبير فى قوله **﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾** قال: ثواب ما عملوا فى الدنيا من خير أعطوه فى الدنيا، وليس لهم فى الآخرة إلا النار[7].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ٢/٢٩٨، ٢٩٩.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢/ ١١).

(٤ - ٧) تقدمت مصادرهم قرباً.

عنه أيضاً: وربما عملوا من خير أعطوه فى الدنيا، وليس لهم فى الآخرة إلا النار[1].

عنه أيضاً: من عمل للدنيا، وفيه فى الدنيا[2].

عن مجاهد قال: ممن لايقبل منه، جوزى به، يعطى ثوابه[3].

عن مجاهد: لايريد بها وجه الله أعطاه الله فى الدنيا ثواب ذلك مثل ما أنفق فذلك قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾[4].

وعن مجاهد فى قوله: قال: نعجل لمن لايتقبل منه[5].

وعن الضحاك فى قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ قال: يقول يعجل الله له ثواب عمله فى الدنيا، يوسع عليه فى المعيشة، والرزق، ويقر عينه فيما حوله، ويدفع عنه من مكاره الدنيا، فى نحو هذا، وليس له فى الآخرة من نصيب[6].

وعن الضحاك فى الآية يقول من عمل عملاً صالحاً فى غير تقوى، يعنى من أهل الشرك، أعطى على ذلك أجراً فى الدنيا يصل رحماً، يعطى سائلاً، يرحم مضطراً فى نحو هذا من أعمال البر، يعجل الله له ثواب عمله فى الدنيا، يوسع عليه فى المعيشة والرزق، ويقر عينه فيما حوله، ويدفع عنه من مكاره الدنيا فى نحو هذا، وليس له فى الآخرة من نصيب[7].

وعن الحسن فى قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ قال: طيباتهم[8].

● **أقوال أهل التفسير.**

- **قال ابن جرير**[9]: نوف إليهم أجور أعمالهم فيها، وثوابها أهـ.

- **وقال البغوى**[10]: قوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أى: نوف لهم أجور أعمالهم فى الدنيا بسعة الرزق، ودفع المكاره، وما أشبهها أهـ.

(١ـ ٣) تقدمت مصادرهم قريباً.

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢/ ١٠، ١١).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦/ ١٢/ ١٠،١١).

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢/ ١٠، ١١).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢/ ١٠).

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموقع السابق وانظر «الدر» (٣/ ٥٨٥).

(٩) المصدر السابق. (١٠) معالم التنزيل (٣/ ١٩٧).

ـ **وقال الزمخشرى**[1]: ﴿**نُوَفِّ إِلَيْهِمْ**﴾ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقونه فيها من الصحة والرزق وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرحم وتصدق فعلت حتى يقال فقيل ولمن قاتل فقتل قاتلت حتى يقال فلان جرىء فقد قيل.

وقرىء يوفّ بالياء على أن الفعل لله عزوجل توف إليهم أعمالهم بالتاء على البناء للمفعول وفى قراءة الحسن نوفى بالتخفيف بإثبات الياء لأن الشرط وقع ما فيا كقوله يقول لا غائب مالى ولا حرم اهـ.

ـ **وقال ابن الجوزى**[2]: ﴿**نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ**﴾ أى أجور أعمالهم اهـ.

ـ **وقال الفخر الرازى**[3]: المراد من توفية أجور تلك الأعمال هو أن كل ما يستحقونه بها من الثواب فإنه يصل إليهم حال كونهم فى دار الدنيا، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات، بل ليس لهم منها إلا النار.

واعلم أن العقل يدل عليه قطعا، وذلك لأن من أتى بالأعمال لأجل طلب الثناء فى الدنيا، ولأجل الرياء، فذلك لأجل أنه غلب على قلبه حب الدنيا، ولم يحصل فى قلبه حب الآخرة، إذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من السعادات لامتنع أن يأتى بالخيرات لأجل الدنيا ويسىء أمر الآخرة، فثبت أن الآتى بأعمال البر لأجل الدنيا لابد وأن يكون عظيم الرغبة فى الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فإذا مات فإنه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزاً عن وجدانها غير قادر على تحصيلها، ومن أحب شيئا ثم يحل بينه وبين المطلوب فإنه لابد وأن تشتعل فى قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلى، أن كل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل، ثم إذا مات فإنه لايحصل له منه إلا النار ويصير ذلك العمل فى الدار الآخرة محبطا باطلا عديم الأثر.

قال القرطبى[4]: قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه السلام: «**إنما الأعمال بالنيات**» وتدلك هذه الآية على أن من صام فى رمضان لا عن رمضان لايقع عن رمضان، وتدل على أن من توضأ للتبرد والتنظف لايقع قربة عن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان فى معناه.

---

(١) الكشاف (٢/ ٢١٠).
(٢) زاد المسير (٤/ ٦٤، ٦٥).
(٣) تفسير الكبير (٩/١٧/٢٠٧، ٢٠٨).
(٤) القرطبى (٥/ ٣٢٤٢).

وذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، وكذلك الآية التي في الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ الآية.

وكذلك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ قيدها وفسرها التي في «سبحان»: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ إلى قوله: ﴿مَحْظُوراً﴾ فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد. وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ منسوخة بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾.

والصحيح ما ذكرناه وأنه من باب الإطلاق والتقييد، ومثله قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داعٍ دائماً على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ والنسخ في الأخبار لايجوز، لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول وبنحو كلام القرطبي قال الشوكاني.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ: فقال إن السلف كانوا يسمون التقييد والتخصيص نسخاً وإلا فالآية محكمة أهـ.

قال ابن عثيمين(1): قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ فعل مضارع معتل الآخر مجزوم بحذف حرف العلة ـ الياء؛ لأنه جواب الشرط.

والمعنى: أنهم يُعطَون ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لايسعون إلا للدنيا وزينتها، فعجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

ولهذا لما بكى عمر حين رأى النبي ﷺ قد أثّر في جنبه الفراش، فقال: «ما يبكيك؟». قال: يا رسول الله! كسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذه الحال. فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك قوم عجِّلت لهم طيباتهم**»(2)، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم؛ لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم؛ صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا. أهـ.

---

(1) القول المفيد (٢/٢٩٨، ٢٩٩).

(2) أصله أخرجه مسلم في الطلاق (٥/٣٣٩/ ٣٠) عن عمر به.

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾.

● **التفسير بالمأثور**

أولاً من الموقوف.

عن ابن عباس فى قوله ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ قال: وهو فى الآخر من الخاسرين(١).

ثانياً من المقطوع.

عن مجاهد ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ أجر ما عملوا فيها(٢).

عن قتادة: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ يقول: لايظلمون - فى الآخرة -(٣).

عن الضحاك ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ ليس له فى الآخرة من نصيب(٤).

عن مجاهد: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ قال: لاينقصون(٥).

● **أقوال أهل التفسير.**

قال ابن جرير(٦): ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ وهم فى الدنيا ﴿لا يُبْخَسُونَ﴾ يقول: لاينقصون أجرها، ولكنهم يوفونه فيها أهـ.

- **وقال البغوى**(٧): أى فى الدنيا لاينقص حظهم أهـ.

- **وقال ابن الجوزى**(٨) بنحو ذلك.

- **وقال الشوكانى**(٩): قال القاضى: معنى الآية من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا، وهم ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والمنافع، فخص الجزاء بمثل ما ذكره، وهو حاصل لكل عاملاً للدنيا، ولو كان قليلاً يسيراً. أهـ.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢).

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق ونسبه السيوطى فى «آلدر» (٣/ ٥٨٥) لأبى الشيخ.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٥) المصدر السابق

(٦) ابن جرير فى الموضع السابق.

(٧) معالم التنزيل (٣/ ١٩٧).

(٨) زاد المسير (٤/ ٦٤، ٦٥).

(٩) فتح القدير (٢/ ٥٠٠).

ـ **وقال السعدى**[1]: لاينقصون شيئاً مما قدر لهم، ولكن هذا نعيمهم أهـ.

قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾.

الإعراب[2]: اسم الإشارة مبتدأ والذين خبره وجملة ليس صلة ولهم خبر مقدم لليس وفى الآخرة حال وإلا أداة حصر والنار اسم ليس المؤخر.

الواو عاطفة (وحبط) فعل ماض (وما) فاعله وجملة (صنعوا) صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية وهى مع مدخولها فى تأويل مصدر فاعل (حبط) وفيها متعلقان (بصنعوا أو بحبط وباطل والواو عاطفة وباطل خبر مقدم وما اسم موصول مبتدأ مؤخر ويجوز أن تكون ما مصدرية وهى مع مدخولها فى تأويل مصدر مبتدأ مؤخر وكانوا كان واسمها وجملة يعملون خبرها.

● **التفسير بالمأثور.**

عن الضحاك فى الآية: يقول: ما عملوا من عمل صالح فى شركهم عجل الله لهم ثوابه فى الدنيا، ولم يكن لهم فى الآخرة إلا النار[3].

● **أقوال أهل التفسير.**

ـ **قال ابن جرير**[4]: ذكر هؤلاء الذين ذكرت أنا نوفيهم أجور أعمالهم فى الدنيا ليس لهم فى الآخرة إلا النار يصلونها وحبط ما صنعوا فيها يقول وذهب ما عملوا فى الدنيا وباطل ما كانوا يعملون لأنهم كانوا يعملون لغير الله فأبطله الله وأحبط عامله أجره أهـ.

ـ **وقال البغوى**[5]، بنحوه **وكذا ابن الجوزى**[6]

وقال القرطبى: قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ إشارة إلى التخليد، والمؤمن لايُخلد، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ**﴾ الآية. فهو محمول على مالو كانت موافاة هذا المرائى على الكفر.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) إعراب القرآن (٤/ ٣٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦/ ٢٠١٠، ٢٠١١).

(٤) ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٠). (٥) معالم التنزيل (٣/ ١٩٧).

(٦) زاد المسير (٤/ ٦٤/ ١٦٥).

وقيل ليس لـهم إلا النار فى أيام معلومة ثـم يخرج؛ إما بالشفاعة، وإما بـالقَبضة. والآية تقتضى الوعيد بسلب الإيمان. اهـ.

ـ **وقال الشوكانى**[1]: الإشارة إلى المريدين المذكورين، ولابد مـن تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشىء من الأعمال المعتد بـها، الموجبة للجزاء الحسن فى الدار الآخرة، أو تكون خاصة بالكفار كما تقدم أهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد.**

ـ **وقال سليمان آل الشيخ**[2]: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ أى: أنهم لم يعملوا إلا للحياة الدنيا وزينتها.

قال ابن عثـيمين[3]: قوله: ﴿**أُوْلَئِكَ**﴾. المشار إلـيه الذين يـريدون الحياة الـدنيا وزينتها.

● قوله: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾.

فيه حصر طريقة النفى والإثبات، وهذا يـعنى أنهم لن يدخلوا الجنة؛ لأن الذى ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله.

● **قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾.**

● **قوله: ﴿وَحَبِطَ﴾**

● **التفسير بالمأثور.**

عن السدى عن أبى مالك ﴿**وَحَبِطَ**﴾ يعنى: بطل[4].

● **قوله: ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾.**

وعن ابن عباس: وحـبط عمله الذى كانَ يعـمل إلتماس الدنيا وهـو فى الآخرة من الخاسرين[5].

---

(١) فتح القدير (٢/ ٥٠١).

(٢) تيسير العزيز الحميد

(٣) القول المفيد (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦/ ٢٠١٢) وانظر «الدر» (٣/ ٥٨٦).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى الموضع السابق.

وعن ابن عباس: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ فى الدنيا[1].

وعن السدى ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ قال: وحبط ما عملوا من خير[2].

● **قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.**

الإعراب:

قال القرطبى[*]: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم: وحذف الهاء؛ ال النحاس: هذا لايحتاج إلى حذف؛ لأنه بمعنى المصدر؛ أى وباطل عمله. وفى حرف أبى وعبدالله ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وتكون «ما» زائدة؛ أى وكانوا يعملون باطلا. اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:**

وعن ابن عباس[3]: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا.

وعن السدى: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: وباطل فى الآخرة ليس لهم فيها جزاء[5].

وعن أبى بن كعب أنه قرأ ﴿وَبَاطِلاً مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6].

● **أقوال أهل التفسير.**

وقال الزمخشرى[7]: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى كان عملهم فى نفسه باطلا لأنه لم يعمل لوجه صحيح والعمل الباطل لاثواب له وقرىء وبطل على الفعل وعن عاصم وباطلا بالنصب وفيه وجهان أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون ومعناه وباطلا أى باطل كانوا يعملون وأن تكون بمعنى المصدر على وبطل بطلانا ما كانوا يعملون.

---

(1) انظر المصدر السابق.

(2) نفس المصدر.

(*) القرطبى (٦/ ٣٢٤٣).

(3) ابن أبى حاتم (٦/ ٢٠١٢).

(4) (5) نفس المصدر.

(6) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤، ٥٨٥) ونسبه لأبى عبيد، وابن المنذر.

(7) الكشاف.

- **أقوال شراح كتاب التوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ(١): ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾.

قال بعض المفسرين ـ **قلت**: هو الزمخشرى كما تقدم ولعله أبهمه لاعتزاله لكن هذا النقل حجة لى فى النقل عنه بعيداً عن بدعته واعتزاله. :أى: وحبط فى الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم يعنى: لم يكن لهم ثواب، لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفى إليهم ما أرادوا: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: كان عمله فى نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له. أنتهى.

قال ابن عثيمين(٢): الحُبوط: الزوال؛ أى: زال عنهم ما صنعوا فى الدنيا.

قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَبَاطِلٌ﴾: خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل فى الآيات والمبتدأ «ما» فى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار وأن ما صنعوا فى الدنيا قد حبط، وأن أعمالهم باطلة.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ مخصوصة بقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

مسألة/

قال سليمان آل الشيخ(٣): فإن قيل: الآية على القول الأول تقتضى تخليد المؤمن من المريد بعمله الدنيا فى النار.

[قلت]: وقد تقدم معنا هذا من قول القرطبى، حيث قال أن الآية فيها إشارة إلى ذلك أى التخليد ثم أجاب بقوله تعالى ﴿**إن الله لايغفر أن يشرك به.. الآيه**﴾وغير ذلك والله أعلم.

ثم قال ـ أى سليمان آل الشيخ ـ: قيل: إن الله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠٤.

(٢) القول المفيد ٢/٣٠٢.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٠٤، ٤٠٥.

وبطل؛ لم يبق معه ما ينجيه. فإن كان معه إيمان لم يرد به الحياة الدنيا وزينتها، بل أراد به الله والدار الآخرة، لم يدخل هذا الإيمان فى العمل الذى حبط وبطل. ونجاه هذا الإيمان من الخلود فى النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذى به النجاة المطلقة فالإيمان إيمانان إيمان يمنع دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله وحده يبتغى بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود فى النار، فإن كان مع المرائى شىء منه، وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد. **ذكره ابن القيم**.

وقد سئل **شيخ الإسلام** المصنف عن معنى هذه الآية فأجاب بما ملخصه: ذكر عن السلف من أهل العلم فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولايعرفون معناه.

فمن ذلك العمل الصالح الذى يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصاً لله، لكنه لايريد ثوابه فى الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظه أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همة له فى طلب الجنة، والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله فى الدنيا، وليس له فى الآخرة نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثانى: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذى ذكره مجاهد فى الآية أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالاً صالحة، ونيته رياء الناس لاطلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً مثل أن يحج لمال يأخذه، لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل الغنم، فقد ذكر أيضاً هذا النوع فى تفسير هذه الآية. وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكتبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم، لأنهم عملوا لمصلحة يحصلونها، والذين قبلهم عملوا من أجل المدح والجلالة فى أعين الناس. ولايحصل لهم طائل، والنوع الأول أعقل من هؤلاء. لأنهم عملوا لله وحده لاشريك له، لكن لم يطلبوا منه الخير الكثير الدائم وهو الجنة، ولم يهربوا من الشر العظيم وهو النار.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً فى ذلك لله وحده لاشريك له، لكنه على عمل يكفره كفراً يخرجه عن الإسلام مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام الكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة، يريدون بها ثواب الله فى الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم. فهذا النوع أيضا قد ذكر فى هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره. وكان السلف يخافون منها، قال

بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل منى سجدة واحدة لتمنيت الموت، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ثم قال: بقى أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله طالباً ثواب الآخرة ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا، كما هو واقع؛ فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلص، وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين وهو هذا وأمثاله. انتهى. وقد أجاد وأفاد رحمه الله.

قال ابن عثيمين(١): فإن قيل: لماذا لانجعل آية هود حاكمة على آية الإسراء ويكون الله توعد من يريد العاجلة فى الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

أجيب: إن هذا المعنى لايستقيم لأمرين:

أولاً: أن القاعدة الشرعية فى النصوص أن الأخص مُقَدَّم على الأعم، وآية هود عامة؛ لأن كل من أراد الحياة الدنيا وزينتها وفى إليه العمل وأعطى ما أراد أن يعطى، أما آية الإسراء؛ فهى خاصة: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، ولايمكن أن يُحكم بالأعم على الأخص.

الثانى: أن الواقع يشهد على ما تدل عليه آية الإسراء؛ لأن فى فقراء الكفار من هو أفقر من فقراء المسلمين؛ فيكون عموم آية هود مخصوصاً بآية الإسراء؛ فالأمر موكول إلى مشيئة الله وفيمن يريده.

قلت: وقد تقدم الكلام فى ذلك عن القرطبى وغيره.

قال سليمان آل الشيخ: وفى الآية من الفوائد.

الأولى: أن الشرك محبط للأعمال.

الثانية: وأن إرادة الدنيا وزينتها بالعمل كذلك.

الثالثة: وأن الله يجازى الكافر بحسناته.

الرابعة: وكذلك طالب الدنيا، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة.

الخامسة:

السادس: الفرق بين الحبوط والبطلان. اهـ.

● ● ●

(١) القول المفيد ٢/ ٣٠٠، ٣٠١.

وَفى الصَّحيحِ عَنْ أبى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ تعس عَبْدُ الدِّينَار، تَعس عَبْدُ الدِّرهَم، تَعس عَبْدُ الخَميصَة، تَعس عَبْدُ الخَمِيلَة، إن أُعطى، رضىَ، وَإنْ لَمْ يُعْطَ؛ سَخطَ، تَعس وَانتكس، وَإذَا شيك فَلاَ انتَقَش. طُوبَى لعَبد آخذ بعنَان فَرَسه فى سَبيلِ الله، أَشْعَث رَأسُهُ، مغبَّرةٌ قَدَمَاهُ إنْ كَانَ فى الحرَاسَة، كَانَ فِى الحرَاسَة وَإِنَ كَانَ فِى السَّاقَة كَانَ فِى السَّاقَة إن استَأذَنَ لم يؤذَن لَهُ. وَإن شَفَعَ لم يُشفَّعْ)(١).

قال الفقير: ذكره البخارى فى موضعين فى الصحيح. فى باب بالحراسة فى الغزو فى سبيل الله].

ولفظه: تعس عبدالدينار والدرهم والقطيفة والخميصه، وإن أُعطى رضى وإن لم يعط لم يرض.

وفى [باب ما يتقى من فتنة المال وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾].

ولفظه تعس عبدالدينار والدرهم والقطيفه والخميصة، إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرضى.

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٢): أن العمل الصالح إذا كان القصد منه طلب الدنيا فهو شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال القرعاوى(٣): دل الحديث على أن من كانت الدنيا غاية أمره ومنتهى قصده فقد عبدها واتخذها شريكا مع الله. اهـ.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الحديث: -**

قال ابن عثيمين(٤): وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يتبين أن من الناس من يعبد الدنيا؛ أى: يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته، فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب الحراسة فى الغزو (٣٨٨٧) وأطرافه (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) وتقدم تخريجه.

(٢) الجامع الفريد (١٤٩/ ١٥٠). (٣) الجديد (٣٣٢).

(٤) القول المفيد (٢/ ٣٠٣).

وجدت، ولهذا سمَّى النبى ﷺ من هذا شأنه عبداً لها، وهذا من يعنى بجمع المال من الذهب والفضة؛ فيكون مريداً بعمله الدنيا. اهـ.

قوله: [تعس].

ـ **قال ابن حجر**(١): بفتح أوله وكسر المهملة ويجوز فتحها وهوضد سعد، تقول تعس فلان أى شقى، وقيل معنى التعس الكب على الوجه، قال الخليل: التعس أن يعثر فلايفيق من عثرته وقيل التعس الشر وقيل البعد وقيل الهلاك، وقيل التعس أن يخر على رأسه، وقيل تعس أخطأ حجته. ويغيت. اهـ.

ـ **وقال فى موضع آخر**(٢): والمراد هنا هلك وقال ابن الأنبارى: التعس الشر، قال تعالى: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أراد ألزمهم الشر، وقيل التعس البعد أى بعداً لهم. وقال غيره قولهم تعسا لفلان نقيض قوله لعا له، فتعسا دعاء عليه بالعثرة ولعا دعاء له بالانتقاش. اهـ.

ـ **وقال سليمان آل الشيخ**(٣): قال أبو السعادات: يقال: تعس يتعس، إذا عثر، وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك أهـ.

ـ **قوله [عبدالدينار، تعس عبدالدرهم].**

الدينار من الذهب، والدرهم من الفضة أهـ(٤).

الدينار: هو النقد من الذهب، والدينار الإسلامى زنته مثقال، وسماه عبدالدينار؛ لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، ويقال فى عبدالدرهم ما قيل فى عبدالدينار، والدرهم هو النقد من الفضة، وزنة الدرهم الإسلامى سبعة أعشار المثقال؛ فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل أهـ(٥).

قال ابن حجر(٦): أى طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده.

قال الطيبى: قيل خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه فى محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذى لايجد خلاصاً، ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة.

---

(١) فتح البارى (٦/ ٩٧).
(٢) فتح البارى (١١/ ٢٥٩).
(٣) تيسير العزيز الحميد (٤٠٦).
(٤) التعليق المفيد (١٩٢).
(٥) القول المفيد (٢/ ٣٠٢، ٣٠٣).
(٦) فتح البارى (١١/ ٢٥٩).

وقال غيره: جعله عبداً لهما لشغفه وحرصه، فمن كان عبداً لهواه لم يصدق فى حقه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلايكون من اتصف بذلك صديقاً. اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ مهذباً لكلام ابن حجر ومختصراً له(١): **فإن قيل**: لم سماه النبى ﷺ عبدالدينار والدرهم.

قيل: لما كان ذلك هو مقصوده ومطلوبه الذى عمل له، وسعى فى تحصيله بكل ممكن حتى صارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضى له صار عبداً له.

قال شيخ الإسلام: فسماه النبى ﷺ عبدالدينار والدرهم، وعبدالقطيفة، وعبدالخميصة وذكر فيه ما هو دعاء وخبر وهو قوله (تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش).

وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه وهذه حال من عبدالمال. وقد وصف ذلك بأنه إن أعطى رضى وإن منع سخط كما قال تعالى: **﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾** فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من هواء نفسه إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده إلى أن قال: وهكذا أيضاً طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه.

وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيكون المال عنده، يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذى يركبه، وبساطه الذى يجلس عليه من غير أن يستعبدوه فيكون هلوعاً.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد فهذه ينبغى أن لايعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها، فلايبقى معه حقيقة العبودية لله، ولاحقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «**تعس عبدالدرهم، تعس عبدالدينار، تعس عبد الخميصة، تعس عبدالخميلة**» وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله، فإن الله إذا عطاه إياها رضى، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبدالله من يرضيه ما يرضى الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٠٦، ٤٠٧).

أبغض الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان، انتهى ملخصًا. اهـ.

قوله: [تعس عبد الخميصة]

قال ابن حجر(١): كساء مربع، له علمان. اهـ.

وقال أيضًا(٢): قال الأصمعي: الخمائص: ثياب خز أو صوف معلمة، وهي سود، كانت من لباس الناس.

وقال أبو عبيد: هو كساء مربع له علمان، وقيل: هي كساء رقيق من أي لون كان، وقيل: لا تسمى خميصة حتى تكون سوداء معلمة. اهـ.

وقول أبي السعادات بنحو هذا.

قوله [تعس عبد الخميلة]

قال أبو السعادات(٣): والخميلة بفتح الخاء المعجمة.

الخميل والخميلة: القطيفة، وهي ثوب له خمل من أي شيء كان.

وقيل: الخميل الأسود من الثياب. اهـ.

وقال في اللسان (٤): الخَميلة والخَمْل والخمالة: ريش النعام، والجمع الخَمِيل، والخَمْلة والخِمْلة والخَمِيلة: القطيفة.

قال أبو خراش:

وظلت تُراعي الشمس حتى كأنها ... فُويق البضيع في الشعاع خَمِيل

وقال السكري: الخميل: القطيفة ذات الخَمْل... اهـ.

وقال ابن عثيمين(٥): وهذا من يعنى بمظهره وأثاثه، لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فراش وثير، ليس له هَمٌّ إلا هذا الأمر، فإذا كان عابدًا لهذه الأمور لأنه صرف لها جهوده وهمته، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئًا من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا؟! فهذا أعظم. اهـ

قلت: وهذا هو عبدالموضه فلا يعمل إلا لها وعليها إذا قيل له أو قيل لها لم هذا الثياب الكاسي العاري قالت: الموضه كده لم هذا الأثاث الذي جاوز حد الاسراف ولم

(١) فتح الباري (١/ ٥٧٦)
(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٩١)
(٣) النهاية (٢/ ٨١)
(٤) اللسان (٢٢١/ مادة خمل)
(٥) القول المفيد (٢/ ٣٠٣).

تلقى من أجله آثاثاً فاخراً جديداً قـالوا لأن الموضة كده فإن قيل لهم هذا إسراف والله لا يحب المسرفيين قالـوا لكن الموضه العـام هنا كذا وكذا ولا يـجوز أن نتخلف عـنها أو نخالفها فهذا أو هذه هي أو هو المتـعوس لأن سيظل هكذا إلى ان يموت لا هو نال مراده لانه الموضه لاتثبت ولا دفع عنه المكروه.. والله أعلم.

قوله: [إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط]

تقدم أن ابن تيمية(١) قال: وُصِفَ بأنه إن أعطى رضى، وإن مُـنِعَ سخط، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهـكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من هواء نفسه إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له.

إلى أن قال : ولو طـلبها من الله، فإن الله إذا أعـطاه إياها رضى، وإن منـعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله، ويسخطه ما يسخط الله . . . اهـ.

وقال ابن حجر(٢): وعند ابن ماجه والإسماعيلـي بلفظ آخر «الوفاء عوض الرضا» وأحدهما ملزوم للآخر غالبًا .اهـ.

وقال حامد بن محمد(٣): أى سخطه ورضاه لأطماع الدنيا، إن حصلت رضى، وإن لم تحصل سخط قاطـعًا النظر عن رضى الله، وسخطه، فصار عـبد الدينار والدرهم والخميصة والخميلة بهذه الحيثية فدعا رسول الله ﷺ على من هذا حاله اهـ.

وقال ابن عثيمين (٤): يحتمل أن يكون المعطى هو الله فيكون الإعطاء قدريًا، أى: إن قدر الله له الرزق والـعطاء رضى وانشرح صدره، وإن مُـنِع وحُرِم المال سخط بـقلبه وقوله، كأن يقـول : لماذا كنت فقيرًا وهذا غنـيًا؟ وما أشبه ذلك، فيكون سـاخطًا على قضاء الله وقدره لأن الله منعه.

والله سبحانه وتعالى - يعطى ويمنع لحكمة، ويعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب.

---

(١) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد (٤٠٦، ٤٠٧)

(٢) فتح البارى (١١/٢٥٩)

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٣، ٣٧٤).

(٤) القول المفيد (٢/٢٠٣، ٢٠٤).

والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره، إن أعطى شكر، وإن مُنع صبر.

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الإعطاء الشرعى، أى : إن أعطى من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضى، وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له، ولهذا سماه الرسولُ ﷺ عبدًا له. اهـ.

قوله [تعس وانتكس]

قال ابن حجر(١): تقدم معنى التعاسة: وهى الشقاوة، والكب على الوجه، أو يعثر فلا يفيق من عثرته أو هو الهلاك...

وقوله «وانتكس» بالمهملة أى عاوده المرض، وقيل إذا سقط اشتغل بسقطته حتى يسقط أخرى، وحكى عياض أن بعضهم رواه «انتكش» بالمعجمة وفسره بالرجوع، وجعله دعاء له لا عليه، والأول أولى.

وقال فى موضع آخر(٢) : وقوله وانتكس فعلى ما تقدم من تفسير التعس بالسقوط يكون المراد أنه إذا قام من سقطته عاوده السقوط، ويحتمل أن يكون المعنى بانتكس بعد تعس انقلب على رأسه بعد أن سقط، ثم وجدته فى شرح الطيبى، قال فى قوله «**تعس وانتكس**» فيه الترقى فى الدعاء عليه لأنه إذا تعس انكب على وجهه فإذا انتكس انقلب على رأسه، وقيل التعس الخر على الوجه والنكس الخر على الرأس. اهـ.

وذكر سليمان آل الشيخ كلام ابن حجر بالنص، وزاد قول أبى السعادات وهو قريب من هذا.

وقال ابن عثيمين(٣): تعس أى : خاب وهلك، وانتكس، أى: انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فكلما أراد شيئًا انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد. اهـ.

قوله: [إذا شيك فلا انتقش]

قال ابن حجر(٤): قوله: «وإذا شيك فلا انتقش» : بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها كاف.

---

(١) الفتح ٦/ ٩٧

(٢) الفتح ١١/ ٢٥٩

(٣) القول المفيد ٢/ ٣٠٤

(٤) الفتح ٦/ ٩٧

وانتقش: بالقاف والمعجمة.

والمعنى إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش، تقول نقشت الشوك إذا استخرجته. وذكر ابن قتيبة أن بعضهم رواه بالعين المهملة بدل القاف ، ومعناه صحيح لكن مع ذكر الشوكة تقوى رواية القاف.

ووقع فى رواية الأصيلى عن أبى زيد المروزى **«وإذا شيت»** بمثناة فوقانية بدل الكاف وهو تغيير فاحش ، وفى الدعاء بذلك إشارة إلى عكس مقصوده لأن من عثر فدخلت فى رجله الشوكة فلم يجد من يخرجها يصير عاجزًا عن الحركة والسعى فى تحصيل الدنيا.

وقال ايضاً(١): وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعى والحركة، وسوغ الدعاء عليه، كونه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذى أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات.

قال الطيبى: وإنما خص انتقاش الشوكة بالذكر لأنه أسهل ما يتصور من المعاونة، فإذا انتفى ذلك الأسهل انتفى ما فوق بطريق الأولى. اهـ.

وقال بنحوه سليمان آل الشيخ وذكر نص كلام ابن حجر وزاد من كلام أبى السعادات بنحوه.

قال ابن عثيمين(٢): أى: إذا أصابته شوكة ، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن تكون خبرًا منه ﷺ عن حال هذا الرجل ، وأنه فى تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على مَنْ هذه حاله، لأنه لا يهتم إلا للدنيا، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئًا، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه، وقد يصل إلى الشرك عندما يصُدّه ذلك عن طاعة الله حتى أصبح لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له. اهـ .

قلت: وإن كان خبراً فهو الصدق وإن كان دعاءً فهو مستجاب ففى كلا الحالتين الوعيد محققه والدر أعلم.

قوله: [طوبى لعبد]

---

(١) الفتح ١١/ ٢٥٩

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٠٤

قال ابن حجر: إشارة إلى الحض على العمل بما يحصل به خير الدنيا والآخرة.

وقال سليمان ال الشيخ(1): **قال أبو السعادات:** طوبى اسم الجنة، وقيل: هى شجرة فيها.

وقد روى ابن وهب عن عمرو بن الحارث أن دراجاً حَدَّثَهُ أنَّ أبا الهيثم حدثه عن أبى سعيد فى حديث فقال رجل : يَا رَسُولَ الله وَمَا طُوبَى؟ قال: «**شَجَرَةٌ فِى الجَنَّةِ مَسِيرَةَ مَائَةَ سَنَة ثِيابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِها**» رواه حرملة عنه(2).

ورواه أحمد فى «مسنده» من حديث عتبة بن عبد السلمى جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الحَوْضِ وذَكَرَ الجَنَة، ثُمَّ قَالَ الأعْرَابِى وَفِيهَا فَاكِهَة. قال: «نَعَمْ وفيها شَجَرَةً تُدْعَى طُوبَى» الحديث(3).

قال الزجاج: فى قوله : طوبى لهم ومعناه : العيش الطيب.

وقال ابن الأنبارى: الحال المستطابة لهم لأنه فُعْلى من الطيب، وقيل: معناه هنيئًا بطيب العيش لهم وهذه الأقوال ترجع إلى قول واحد. اهـ.

قال ابن عثيمين(4): و«طوبى» فُعْلَى من الطيب، وهى اسم تفضيل، فأطيب للمذكر وطوبى للمؤنث، والمعنى : أطيب حال تكون لهذا الرجل، وقيل: إن طوبى شجرة فى الجنة، والأول أعم، كما قالوا فى ويل : كلمة وعيد، وقيل: وادٍ فى جهنم، والأول أعم.

وقوله [آخذ بعنان فرسه]

قال سليمان آل الشيخ(5): أى فى طريق الجهاد. اهـ.

قال ابن عثيمين(6): أى : ممسك بمقود فرسه الذى يقاتل عليه وهذا عكس الأول، فهو لا يهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة، فهو فى استعداد دائم للجهاد فى سبيل الله. اهـ.

(1) تيسير العزيز الحميد ٤٠٧، ٤٠٨

(2) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٧١) بإسناد ضعيف.

(3) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٨٣)

(4) القول المفيد ٢/ ٣٠٤، ٣٠٥.

(5) تيسير العزيز الحميد ٤٠٨

(6) القول المفيد ٢/ ٣٠٤، ٣٠٥.

قوله: [فى سبيل الله]

قال ابن عثيمين[1]: ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلداً إسلاميًا يجب الذود عنه، فهو فى سبيل الله، وكذلك من قاتل دفاعاً عن نفسه أو ماله أو أهله، فإن النبى ﷺ قال: «**من قتل دون ماله، فهو شهيد**»[2] فأما من قاتل للوطنية المحضة، فليس فى سبيل الله، لأن هذا قتال عصبية يستوى فيه المؤمن والكافر، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه أهـ.

قلت: أو تحمل الأدلة على حالين الأولى حالة الجماعة المسلمة فجهادها لايكون إلا لتكون كلمة الله هى العليا والحالة الثانية هى حالة الافراد فهم قد يقاتلون عن أموالهم وغير ذلك من ممتلكاتهم الشخصية التى لا يجوز للجماعة أن تحارب من أجلها إلا إذا كان ذلك فى سبيل الله ولله كأن يكون المال لله فقاموا لرده أو ليستيعنوا به على إعلاء كلمة الله وإذلا له الكفر وأهله كما خرج الصحابة فى بدر وهم يودون أن غير ذات الشوكه تكون لهم وهى العير والله أعلم.

قوله [أشعث رأسه، مغبرة قدماه]

قال ابن حجر[3]: قوله «أشعث» صفة لعبد وهو مجرور بالفتحة لعدم الصرف، و«رأسه» بالرفع الفاعل.

قال الطيبى «أشعث رأسه مغبرة قدماه» حالان من قوله «لعبد» لأنه موصوف.

قال الكرمانى: يجوز الرفع ولم يوجهه وقال غيره: ويجوز فى أشعث الرفع على أنه صفة رأس، أى رأسه أشعث، وكذا قوله «مغبرة قدماه». اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[4]: قوله: «أشعث الرأس» هو بنصب أشعث صفة لعبد لأنه غير مصروف للصفة ووزن الفعل، ورأسه مرفوع على الفاعلية لأشعث وهو مغبر الرأس وفيه فضل إصابة الغبار فى سبيل الله.

قوله: «**مغبرة قدماه**» هو كأشعث فى الإعراب والمراد به كثرة الغبار له فى سبيل الله لكثرة جهاده ومصابرته. اهـ.

---

(١) القول المفيد ٢/ ٣٠٥.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٤٨٠)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ١٦٤ - النووى) وانظر «رياض الصالحين» (١٣٥٨ - بتخريجنا).

(٣) الفتح ٦/ ٩٧.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٠٨

قال ابن عثيمين[1]: أى رأسه أشعث من الغبار فى سبيل الله، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه ما دام هذا الأمر ناتجًا عن طاعة الله- عز وجل- وقدماه مغبرة من السير فى سبيل الله، وهذا دليل على أن أهم شيء عنده هو الجهاد فى سبيل الله، أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفًا ، فليس له هم فيه.

قوله : [إن كان فى الحراسة ، فهو فى الحراسة، وإن كان فى الساقة، فهو فى الساقة]

قال ابن حجر[2]: هذا من المواضع التى اتحد فيها الشرط والجزاء لفظًا لكن المعنى مختلف، والتقدير إن كان المهم فى الحراسة كان فيها، وقيل معنى «فهو فى الحراسة» أى فهو فى ثواب الحراسة، وقيل هو للتعظيم أى إن كان فى الحراسة فهو فى أمر عظيم، والمراد منه لازمه أى فعليه أن يأتى بلوازمه ويكون مشتغلا بخويصة عمله.

وقال ابن الجوزى: المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو، فإن اتفق له السير سار، فكأنه قال: إن كان فى الحراسة استمر فيها وإن كان فى الساقة استمر فيها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله :«إن كان فى الحراسة» قال بعضهم : هو بكسر الحاء أى : حماية الجيش ومحافظتهم عن أن يهجم عليهم عدوهم.

قوله: «**كان فى الحراسة**» أى : امتثل غير مقصر فيها بالنوم والغفلة ونحوهما.

قوله: «**وإن كان فى الساقة كان فى الساقة**» أى: أن جعل فى مؤخرة الجيش صار فيها ولزمها .

وقال الخلخالى: والمعنى ائتماره لما أمر وإقامته حيث أقيم لا يفقد من مكانه، وإنما ذكر الحراهة والساقة لأنهما أشد مشقة وأكثر آفة.

قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - وفيه فضيلة الحرس فى سبيل الله.

قال ابن عثيمين[4]: الحراسة والساقة ليست من مُقَدَّم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة أن يكون فى مؤخرته، وللجملتين معنيان:

---

(١) القول المفيد ٢/٣٠٣

(٢) الفتح ٦/٩٧

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٠٨، ٤٠٩

(٤) القول المفيد ٢/٣٠٦

أحدهما: أنه لا يبالى أين وضع، وإن قيل له : احرس، حرس، وإن قيل: له: كن فى الساقة، كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلاً.

الثانى: إن كان فى الحراسة أدى حقها، وكـذا إن كان فى الساقة، والحديث الصالح لمعنيين، يحمل عليهما جميعًا إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا.

قوله: [إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع]

قال ابن حجر(١): فيه ترك حب الرياسة والشهرة وفضل الخمول والتواضع. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «إن استأذن لم يـؤذن له» أى: إن استأذن على الأمراء، ونحـوهم لم يأذنوا له، لأنـه ليس بذى جاه ولا يقـصد بعمله الـدنيا فيطلـبها منهم، ويتردد إليهم لأجلها بل هو مخلص لله.

قوله: «وإن شـفع» بفتح أولـه وثانيه مبـنى للفاعـل، ويشفع بتـشديد الفاء، مـبنى للمفعول، والمراد والله أعلم أنه لا يشفع عند المـلوك ونحوهـم، لعدم جاهه عندهم وعلى تقدير شفاعته، إن شفع لم يشفع بل يردون شفاعته.

قال بعضـهم: قيل : إن هذا إشارة إلـى عدم التفاته إلـى الدنيا وأربابهـا بحيث لا يبتغى مـالا ولا جاهًا عند الناس، بل يكون عـند الله وجيهًا ولم يقبل النـاس شفاعته، ويكون عند الله شفيعًا مشفعًا.

كما فى الحديث الذى رواه أحمد ومسلم عـن أبى هريرة مرفوعًا: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوع بالأَبْواب لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ»(٣). اهـ.

قال ابن عثيمين (٤): أى هو عنـد الناس ليـس له جاه ولا شرف، حـتى إنه إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليـس له مرتبة، فإن شفع لم يُشَفَّع، ولكنه وجيه عند الله وله المنزلة العالية، لأنه يقاتل فى سبيله.

والشفاعة: هى التوسط للغير بجلب منفعه أو دفع مضرة.

قلت وقد تقدم المعنى اللغوى والاصطلاحى فى باب الشفاعة.

---

(١) الفتح ٦/ ٩٨

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠٩

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

(٤) القول المفيد ٢/ ٣٠٣.

والاستئذان: طلب الإذن بالشيء.

والحديث قَسَّم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس لهم إلاَّ الدنيا، إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال، فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر هَمَّه الآخرة، فهو يسعى لها فى أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد فى سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث:

قال سليمان آل الشيخ(١): وفيه أن هذه الأمور ونحوها لا تكون لهوان المؤمن على الله بل لكرامته، وفيه الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات، قاله المصنف. اهـ.

قال ابن عثيمين(٢):

١- أن الناس قسمان كما سبق.

٢-أن الذى ليس له هم إلاَّ الدنيا قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهى الشوكة، بخلاف الحازم الذى لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدّره الله له.

٣- أنه ينبغى لمن جاهد فى سبيل الله ألاّ تكون همه المراتب بل، يكون همه القيام بما يجب عليه، إما فى الحراسة، أو الساقة، أو القلب، أو الجنب، حسب المصلحة.

٤- أن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله- عز وجل- فهذا الرجل الذى إن شفع لم يُشَفَّع وإن استأذن لم يُؤْذَنَ له قال فيه الرسول ﷺ «طوبى له» ولم يقل: إن سأل لم يُعْط، بل لا تهمه الدنيا حتى يسأل عنها، لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوى السلطة للمصالح العامة. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله(٣): ما يستفاد من هذا الباب:

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠٩

(٢) القول المفيد (٢/٣٠٧).

(٣) الجامع الفريد (١٥٠).

١- تحريم إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

٢- وعيد من قصد الدنيا بعمل الآخرة بإحباط عمله ودخوله النار.

٣- الحث على إخلاص العمل لله.

٤- ترك حب الرئاسة والشهرة.

٥- فضل الخُمول والتواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم .اهـ.

وقال قرعاوى[1]: الفوائد:

١- جواز الدعاء على أهل المعاصى على سبيل العموم .

٢- ذم شدة الحرص على الدنيا.

٣- من كانت الدنيا أكبر همه وقع فى المشاكل.

٤- استحبابه الاستعداد للجهاد وقيل يجب.

٥- فضل الجهاد فى سبيل الله.

٦- الانضباط العسكرى من تعاليم الإسلام.

٧- فضل حراسة الجيش.

٨- يقاس المرء بعمله لا بمظهره.

٩- لا يلزم من وجاهة الشخص عند الله وجاهته فى الدنيا .اهـ.

١٠ - **قلت**: وفيه فضل سقاية الجيش.

١١ - فيه معنى قوله ﷺ: «البذاذه من الإيمان»(*).

١٢ - فيه أن النهى عن عدم تسكين الشعر بالمشط ليس على إطلاقه فإذا كان ذلك فى سبيل الله فهى منقبه وإلا فهذا تشبه بالشيطان.

١٣ - أن على المجاهد أن يوجد حيث أمره إمامه وقائدة فلا يجوز أن يجاهد بشرط أن يوضع فى مقدمه أو مؤخره أو ميمنة أو ميسرة.

---

(١) الجديد (٣٣٢).

(*) أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٨١٣٥) عن كعب بن مالك به.

فيه مسائل:

الأولى: إِرادةُ الإِنسَانِ الدُّنيَا بِعَمَلِ الآخِرةِ.

الثانية: تَفْسيرُ آيَةِ هُودِ.

الثانية: تَسْمِيَةُ الإِنْسَانِ المُسْلِمِ عَبْدَ الدينَارِ وَالدِّرْهَمِ والخَمِيصَةِ.

الرابعة: تَفْسيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أَعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

---

١٤ - فيه معنى قوله ﷺ: «لاتحقرن من المعروف شيئاً»(١).

فيه مسائل:

قال ابن عثيمين(٢):

● **الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.**

وهذا من الشرك، لأنه جَعَلَ عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا، فيطغى على قلبه حب الدنيا حتى يقدمها على الآخرة ، والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة.

● **الثانية: تفسير آية هود.**

وقد سبق ذلك

● **الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة:**

وهذه العبودية لا تدخل فى الشرك ما لم يصل بها إلى حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل بالإخلاص، لأنه جعل فى قلبه محبة زاحمت محبة الله - عز وجل- ومحبة أعمال الآخرة.

● **الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط.**

هذا تفسير لقوله ﷺ: «عبد الدينار، عبد الدرهم، عبد الخميصة، عبد الخميلة إن

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٧٧/١٦ - النووى) عن أبى ذر به وانظر «رياض الصالحين» (١٢٢ - بتخريجنا).

(٢) القول المفيد (٣٠٨/٢، ٣٠٩).

الخامسة: قَوْلُهُ (تَعِسَ وَانْتَكَسَ).

السادسة: قَوْلُهُ «وَإِذَا شِيكَ، فَلاَ انْتَقَشَ».

السابعة: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

أعطى رضى وإن لـم يعط سخط» وهذه علامة عـبوديته لهذه الأشيـاء أن يكون رضاه وسخطه تابعًا لهذه الأشياء.

● **الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».**

قلت: تقدم المعنـى أنه لانال مراده ومطلوبه ولافـر من مكروهه فهو لهـذا فى شقآء كلما أراد أن يخرج فيه من غم أُعيد فيه.

● **السادسة: قوله: «إذا شيك فلا انتقش»**

يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبرًا أو دعاءً، وسبق شرح ذلك.

● **السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.**

فقوله فى الحديث «**طوبى لعبد..**» يدل على الثناء عليـه، وأنه هو الذى يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير، وأصحاب الفرش والمراتب.

● ● ●

(٣٧) بابٌ

مَنْ أطاعَ العلماءَ والأمراءَ في تحريمِ ما أحلَّ اللهُ أوْ تحليلِ ما حرّمهُ فقدِ اتخذهمْ أرباباً.

● **يحتوى هذا الباب على المسائل الآتية:**

● **ترجمة الباب:**

١ـ مناسبة الباب لما قبله ولكتاب التوحيد

٢ـ ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة.

٣ـ مسألة/ تعارض الترجمة مع قوله تعالى ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ والجواب عليه.

٤ـ شرح الترجمة .

● **أثر ابن عباس/ يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء:**

١ـ مناسبة الآثر للباب وللتوحيد.

٢ـ شرح الآثر.

٣ـ فوائد الآثر.

٤ـ وقوف السلف عند حكم رسول الله ﷺ والرجوع عن حكمهم إن خالف.

● **قــول الإمـام أحمـد/ عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأى سفيان.**

١ـ شرح قول الإمام أحمد.

٢ـ تفسير قوله تعالى ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ**﴾ـ التى ذكرها الإمام أحمد فى قوله ـ

٣ـ قول شراح التوحيد فى شرح الآثر فى التقليد والاتباع.

٤ـ فصل فى التقليد.

(١) تعريف التقليد لغة واصطلاحاً.

(٢) حكم التقليد.

(٣) فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع.

(٤) قبول قول الرسول والعمل به ليس تقليداً.

(٥) الفرق بين التقليدوالاتباع.

(٦) تقليد العامة للعلماء.

(٧) ماذا يقال للمقلد.

(٨) حجج المقلدين والجواب عليها من كلام ابن القيم.

● **تنبيهات مهمة تتعلق بالتقليد**

(٩) بعض أسباب رد الشرع لقول الشيخ ممن يقلده.

(١٠) هل للمقلد عذر فى الخطأ كما للمجتهد.

(١١) لايجوز للمقلد أن يفتى بما أفتاه به شيخه

(١٢) شبهة المقلدين، والرد عليها.

(١٣) الضرورة عذر فى التقليد للمضطر.

(١٤) نحب الأئمة جميعاً، وحبنا للحق أشد.

(١٥) الأعذار لمخالفة رسول الله ﷺ.

(١٦) لابد لمن يرى التقليد أن يفرق بين كلام إمامه وكلام ما ألحق بعده على قواعد مذهبه.

(١٧) الرد على من قال بإغلاق الاجتهاد.

(١٨) خطورة الإعراض عن الكتاب والسنة بكتب الفروع.

● **حديث عدى بن حاتم أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم﴾.**

١ـ مناسبة الحديث للباب وللتوحيد.

٢ـ شرح الحديث.

٣ـ مايستفاد من الحديث.

وفيه تقسيم اتباع العلماء أو الأمراء إلى ثلاثة أقسام. (وفيه كلام محمد بن إبراهيم فى رسالته تحكيم القوانين.

٤ـ فائدة (ومن لم يحكم بمن أنزل الله فأولئك هم الكافرون)و(الظالمون) و(الفاسقون)

- خلاصة القول فى شبهة التسوية بين العلمانية وبين انحرافات التطبيق الجزئية.

- شبهة وجوابها.

-فتاوى أئمة المسلمين فى علمانية التشريع.

● **مسائل الباب.**

- شرح المسائل.

● ● ●

بَابٌ
مَنْ أطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا.

● **مناسبة هذا الباب لماقبله.**

قال الفقير: وعلاقة هذا الباب بالذى قبله أنَّ الرياء وإرادة الدنيا بالعمل يجتمعان كما تقدم فى أن كلاً منهما تزين وتصع بالعمل عند الناس، وأغلب هذا التزين واشتباه إنما يكون للعلماء والامراء وربما جرَّ ذلك إلى مداهنتهم ومصانعتهم فى مخالفة أمر الله وأمر رسول الله ﷺ إما بالإقرار على المخالفة منهم أو بالمخالفة من أجلهم فإن كان التزبين للعلماء فالغالب على العمل المتزيَّن به لهم الصلاح وإن كان هو فى حقيقته فيه مخالفة إبتغاء طاعتهم، وذلك بخلاف العمل للأمراء لكسب عرض دنيوى منهم، فالغالب عليه الفساد كما فعل غياث بن إبراهيم حينما دخل على المهدى وهو يلعب بالحمام فوضع حديثاً على رسول الله ﷺ بلفظ «**لا سبق إلا فى نصل أو خفٍ أو حافُر أو جناح**» فزاد جناح وكذب على الرسول مداهنة للمهدى ببدرة(١).

فالأول الغالب عليه الرياء والثانى الغالب عليه إرادة الإنسان بعمله الدنيا وهما صورتان من صور طاعة العلماء والأمراء فى مخالفة الشرع. والله الموفق.

● **مناسبة الباب وللتوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ(٢): لما كانت الطاعة من أنواع العبادة، بل هى العبادة، فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله عليهم السلام.

نبه المصنف - رحمه الله تعالى - بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها، وأنه لا يُطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله وإلا فلا تجب طاعة أحد مِن الخلق استقلالاً.

والمقصود هنا الطاعة الخاصة فى تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقاً فى ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لاينطق عن الهوى فهو مشرك كما بينه الله تعالى فى قوله ﴿**إتَّخذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ**﴾ أى علماءهم ﴿**إتَّخذُوا أحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**

---

(١) الموضوعات لابن الجوزى (١/ ٤٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٠٩، ٤١٠).

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وفسرها النبى ﷺ بطاعتهم فى تحريم الحلال وتحليل الحرام، كما سيأتى فى حديث عدى(*). أهـ وتقدم ذلك أيضاً .

وقال عبدالله بن جار الله(١): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن طاعة الرؤساء فى تحريم الحلال، وتحليل الحرام، شرك أكبر ينافى التوحيد. أهـ.

قال ناصر السعدى(٢):ووجه ماذكره المصنف ظاهر، فإن الرب، والإله هو الذى له الحكم القدرى، والحكم الشرعى، والحكم الجزائى، وهو الذى يؤله ويعبد وحده لاشريك له، ويطاع طاعة مطلقة، فلايعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته. فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه، وجعل طاعتهم هى الأصل وطاعة الله ورسوله تبعاً لها، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله يتألههم، ويحاكم إليهم، ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله، فهذا هو الكفر بعينه، فإن الحكم كله لله، كما أن العبادة كلها لله . أهـ.

(قلت): وقد بيَّن المصنف فى أبواب الكتاب المتقدمة على التفصيل المتقدم، بعض أنواع الشرك، وهنا يذكر نوعاً آخر من أنواع الشرك وهو شرك التحليل والتحريم والحكمية فأفرده ليدلل على أن الطاعة التامة المطلقة لله ولما جاء به رسول الله ﷺ وأن هذه عبادة، وصرفها لغير الله شرك، وأكثر ما يقع هذا الشرك عند طاعة العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً.

● ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة.

قال ابن باز (٣): أراد المصنف بهذه الترجمة تحقيق التوحيد، واتباع الشريعة، وتعظيم أمر الله ونهيه، والحذر من تقليد الشيوخ والأمراء فى مايخالف شرع الله وهو التقليد الأعمى ـ إلى أن قال ـ فالطاعة إما تكون فى المعروف، فطاعتهم فى خلاف شرع الله حرام، ولاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فلا يطيع والده أو ولده أوزوجه فى خلاف الشرع من الحل والحرمة، وطاعتهم فيما يخالف الشرع، وهو اتخاذهم آلهة من دون الله . أهـ.

وقال حامد بن محمد(٤): باب ماجاء فى بيان أن من أطاع العلماء والأمراء فى

(*) سبق تخريجه.

(١) الجامع الفريد (١٥١).

(٢) القول السديد (١٠١، ١٠٢، ١٠٣).

(٣) التعليق المفيد (١٩٥).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٧)

تحريم ما أحل الله أو تحليل ماحرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله، لجعله إياهم المطاعون فى مخالفة الله وتغيير حكمه. أهـ.

مسألة:

فإن قيل : قد قال الله تعالى ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ وقيل: هم العلماء، وقيل هم الأمراء. وهما روايتان عن أحمد. وقال ابن القيم: والتحقيق: بأن الآية تعم الطائفتين.

الجواب: قال سليمان آل الشيخ(١): قيل : إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فكان العلماء مبلغين لأمر الله وأمر رسوله، والأمراء منفذين له فحينئذ تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله ، كما قال ﷺ:

«**لاطاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف**»(٢)وقال «**على المرء المسلم فيماأحب وكره، إلا أن يأمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة**»(٣) حديثان صحيحان، فليس فى هذه الآية ما يخالف آية براءة. أهـ.

قلت: وسبب ورود قوله ﷺ: إنما الطاعة فى المعروف من أقطع الأجوبة أيضاً على هذه المسألة حيث إن عبد الله بن حذافه كان أميراً أمره الرسول ﷺ على السرية فأمرهم بجمع الحطب ثم إضمار النار فيها ثم الدخول فى النار حتى قال بعضهم: منها فررتم فلم يدخلوا ولما رجعوا سألوا رسول الله ﷺ فقال: لو دخلتموها ما خرجتم إلى يوم القيامة إنما الطاعة فى المعروف(٤) وسيأتى الحديث وشرحه فى الصفحة القادمة أو بعدها.

وسيأتى مزيد بيان من كلام الشنقيطى فى الفرق بين التقليد والاتباع.

● شرح الترجمة:

قال ابن عثيمين (٥): قوله : «**من أطاع العلماء**».

«**من**» يحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله:«**فقد اتخذهم**»؛ لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة؛ أى «باب الذى أطاع العلماء».

وقوله : «**فقد اتخذهم**».

خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء؛ لأن الاسم الموصول كالشرط فى العموم ، وعلى الأول

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٠).

(٢) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٧١٤٥)، ومسلم فى الإمارة (٦/ ٤٦٧/ ٣٩) عن على به وتقدم.

(٣) [**متفق عليه**] أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم فى الإمارة (٦/ ٤٦٦/ ٣٨) عن ابن عمر به.

(٤) تقدم قبل حديث. (٥) القول المفيد (٢/ ٣١٠ـ ٣١٢).

تقرأ «باب» بالتنوين، وعلى الثانى بدون تنوين، و الأول أحسن.

والمراد بالعلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له، وهذان الصنفان هم المذكوران فى قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فجعل الله طاعته مستقلة وطاعة رسوله مستقلة، وطاعة أولى الأمر تابعة، ولهذا لم يكرر الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾؛ فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وأولو الأمر هم أولو الشأن، وهم العلماء؛ لأنه يستند إليهم فى أمر الشرع والعلم به، والأمراء؛ لأنه يستند إليهم فى تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء و الأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور؛ لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة، والأمراء أهل الإلزام والتنفيذ.

قوله: **«فى تحريم ماأحل الله»**.

أى: فى جعله حراماً؛ أى: عقيدة أو عملاً.

«أو تحليل ماحرم الله».

أى: فى جعله حلالاً عقيدة أو عملاً؛ فتحريم ما أحل الله لاينقص درجة فى الإثم عن تحليل ماحرم الله، وكثير من ذوى الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ماأحل الله أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين، وكلاهما خطأ، ومع ذلك؛ فإن تحليل الحرام فيما الأصل فيه الحل أهون من تحريم الحلال؛ لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبنى على الأصل، وهو الحل، ورحمة الله ـ سبحانه ـ سبقت غضبه؛ فلا يمكن أن نحرم إلاماتبين تحريمه، ولأنه أضيق وأشد، والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم.

أما فى العبادات فيشدد؛ لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع كما قيل:

والأصل فى الأشياء حل ... وأمنع عبادة إلا بإذن الشارع

قوله «أرباباً» جمع رب، وهو المتصرف المالك.

والتصرف نوعان: تصرف قدرى، وتصرف شرعى.

فمن أطاع العلماء فى مخالفة أمر الله ورسوله؛ فقد اتخذهم أرباباً من دون الله باعتبار التصرف الشرعى؛ لأنه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعاً يعمل به، وبالعكس الأمراء. أهـ.

قوله (.......... والأمراء).

تقدم الكلام على طاعة العلماء، وأما طاعة الأمراء، فقد بوب البخارى فى صحيحه. باب السمع والطاعة للإمام، مالم تكن معصية (١).

باب السمع والطاعة للإمام، مالم تكن معصية [1].

وأسند - عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ. **اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة»**[2].

وبسنده عن ابن عباس يرويه قال: قال النبى ﷺ: **من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»**[3].

وبسنده عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة»**[4].

وبسنده عن على رضى الله عنه قال: بعث النبى ﷺ سرية وأمَّر عليهم رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم وقال: أليس قد أمر النبى ﷺ أن تطيعونى؟ قالوا: بلى قال : قد عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها. فجمعوا حطباً فأوقدوا ناراً؛ فلما هموا بالدخول فقاموا ينظر بعضهم إلى بعض فقال بعضهم: إنما تبعنا النبى ﷺ فراراً من النار افندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه فذكرللنبى ﷺ فقال: **لو دخلوها ماخرجوا منها أبداً، إنما الطاعة فى المعروف»**[5].

قال ابن حجر[6]: قوله «باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية» إنما قيده بالإمام وإن كان فى أحاديث الباب الأمر بالطاعة لكل أمير ولو لم يكن إماما لأن محل الأمر بطاعة الأمير أن يكون مؤمراً من قبل الإمام.

قوله «**اسمعو واطيعوا وإن استعمل**» بضم المثناة على البناء للمجهول أى جعل عاملاً بأن أمر إمارة عامة على البلد مثلا أو ولى فيها ولاية خاصة كالإمامة فى الصلاة أو جباية الخراج أومباشرة الحرب، فقد كان فى زمن الخلفاء الراشدين من يجتمع له الأمور الثلاثة ومن يختص ببعضها.

قوله «**حبشى**»بفتح المهملة والموحدة بعدها معجمة منسوب إلى الحبشة. وفى الصلاة فى «باب إمامة العبد». عن محمد بن بشار عن يحيى القطان بلفظ «**اسمعو وأطيعوا وإن استعمل حبشى**» ومن رواية غندر عن شعبة بلفظ، قال النبى ﷺ لأبى ذر «**اسمع وأطع ولو لحبشى**».

---

(1) فتح البارى (١٣/ ١٣٠ ـ الفتح). (2) [صحيح] أخرجه البخارى (٧١٤٢).

(3) [متفق عليه] البخارى (٧١٤٣)، ومسلم فى الإمارة (٦/ ٤٨٠/ ٥٥).

(4) [صحيح] البخارى (٧١٤٤). (5) [صحيح] البخارى (٧١٤٥) وتقدم.

(6) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٦/ ٤٦٥/ ٣٦) عن أبى ذر بنحوه.

وقد أخرج مسلم من طريق غندر عن شعبة بإسناد آخر إلى أبى ذر أنه انتهى إلى الربذة فإذا عبد يؤمهم فذهب يتأخر لأجل أبى ذر فقال أبو ذر «أوصانى خليلى»(١) فذكر نحوه. وظهرت بهذه الرواية الحكمة فى تخصيص أبى ذر بالأمر فى هذه الرواية، وقد جاءت فى حديث آخر الأمر بذلك عموماً.

ولمسلم أيضاً من حديث أم الحصين **«اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله»**(٢).

قوله «كأن رأسه زبيبة» واحدة الزبيب المأكول المعروف الكائن من العنب إذا جف، وإنما شبه رأس الحبشى بالزبيبة لتجمعها ولكون شعره أسود، وهو تمثيل فى الحقارة وبشاعة الصورة وعدم الاعتداد بها.

نقل ابن بطال عن المهلب قال: قوله **«اسمعو وأطيعوا»** لايوجب أن يكون المستعمل للعبد إلا إمامة قرشى، لما تقدم أن الإمامة لاتكون إلا فى قريش، وأجمعت الأمة على أنها لاتكون فى العبيد.

قلت - أى ابن حجر - : ويحتمل أن يسمى عبداً باعتبار ماكان قبل العتق، وهذا كله إنما هو فيما يكون بطريق الاختيار، وأما لوتغلب عبد حقيقة بطريق الشوكة فإن طاعته تجب إخماداً للفتنة مالم يأمر بمعصية كما تقدم تقريره.

وقيل المراد أن الإمام الأعظم إذا استعمل العبد الحبشى على إمارة بلد مثلا وجبت طاعته، وليس فيه أن العبد الحبشى يكون هو الإمام الأعظم.

وقال الخطابى: قد يضرب المثل بما لايقع فى الوجود، يعنى وهذا من ذاك أطلق العبد الحبشى مبالغة فى الأمر بالطاعة وإن كان لايتصور شرعاً أن يلى ذلك.

● حرمة طاعة الامام والأمير فى المعصية والأدلة على ذلك.

قوله «مالم يؤمر بمعصية» هذا يفيد ما أطلق فى الحديثين الماضيين من الأمر بالسمع والطاعة ولو حبشى، ومن الصبر على مايقع من الأمير مما يكره، والوعيد على مفارقة الجماعة.

قوله «فإذا أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة» أى لايجب ذلك بل يحرم على من كان قادراً على الامتناع، وفى حديث معاذ عند أحمد **«لاطاعة لمن لا يطع الله»**(٣).

(١) فتح البارى (١٣/ ١٣٠ : ١٣٢)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة ـ(٦/ ٤٦٦) عن أم الحصين به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٢١٣) عن أنس أن معاذاً.. الحديث.

قال الهيثمى فى «المجمع» (٥/ ٣٢٥): رواه أحمد، وأبو يعلى وفيه عمرو بن زينب ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح.

وعنده وعند البزار فى حديث عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفارى **«لاطاعة فى معصية الله»**(١) وسنده قوى.

وفى حديث عبادة بن الصامت عند أحمد والطبرانى **«لاطاعة لمن عصى الله تعالى»**(٢) وحديث عبادة فى الأمر بالسمع والطاعة **«إلاأن تروا كفرأبواحاً»**(٣).

ثم قال ابن حجر: وملخصه أنه ينعزل بالكفر إجماعاً فيجب على كل مسلم القيام فى ذلك، فمن قوى على ذلك فله الثواب، ومن داهن فعليه الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض.

ومن صور الأمر من الأمير فى المعصية ما أمر به عبد الله ابن حذافه السريه(٤).

وبقوله: (فأوقدوا ناراً) كذا وقع فى المغازى والأحكام: أن أميرهم غضب منهم فقال أوقدوا ناراً، وبقوله **«قد عزمت عليكم لما فعلتم»** بالتخفيف وجاء بالتشديد قيل إنها بمعنى «إلا».

لذا قال ﷺ: **«لو دخلوها ماخرجوا منها»** قال الداودى: يريد تلك النار لأنهم يموتون بتحريقها فلا يخرجون منها أحياء.

قال : وليس المراد بالنار نار جهنم ولا أنهم مخلدون فيها لأنه قد ثبت فى حديث الشفاعة **«يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان»**(٥).

قال : وهذا من المعاريض التى فيها مندوحة، يريد أنه سيق مساق الزجر والتخويف ليفهم السامع أن من فعل ذلك خلد فى النار، وليس ذلك مراداً وإنما أريد به الزجر والتخويف.

وقد قيل إنه لم يقصد دخولهم النار حقيقة وإنما أشار لهم بذلك إلى أن طاعة الأمير واجبة ومن ترك الواجب دخل النار، فإذا شق عليكم دخول هذه النار فكيف بالنار الكبرى، وكأن قصده أنه لو رأى منهم الجد فى ولوجها لمنعهم. أهـ.

وقال ابن حجر: فى موضع آخر (٦): وفيه أن الأمر المطلق لايعم الأحوال لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى فى حال الغضب وفى حال الأمر بالمعصية فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته مقصور على ماكان منه فى غير معصية واستنبط منه الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة أن الجمع من هذه الأمة لايجتمعون

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/٦٦) قال الهيثمى فى «المجمع» (٥/٢٢٦): ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٢٥) عن عبادة بن الصامت به.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٦/٤٦٨/٤٢) عن عبادة به.

(٤) تقدم تخريجه. (٥) تقدم فى باب الشفاعة. (٦) فتح البارى (٧/٦٥٧)

على خطأ لانقسام السرية قسمين: منهم من هان عليه دخول النار فظنه طاعة و منهم فهم حقيقه الأمر وأنه مقصور على ماليس بمعصية، فكان اختلافهم سبباً لرحمة الجميع.

وبوب البخارى فى الجهاد باب السمع والطاعة للإمام، وزاد الكشميهنى (مالم يأمر بمعصية).

قال ابن حجر: والإطلاق محمول عليه قوله ﷺ **«السمع والطاعة حق مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة»**. والمراد نفى الحقيقة الشرعية لاالوجودية. أهـ.(١).

قال ابن حجر(٢): فى تفسير قوله **﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾** الآية.

بعد أن ذكر الاشكال الذى أورده الداودى فى سبب نزول الآية في عبدالله بن حذافة أمير السرية: وينتفى الإشكال الذى أبداه لأنهم تنازعوا فى إمتثال ما أمرهم به، وسببه أن الذين هموا أن يطيعوه وقفوا عند إمتثال الأمر بالطاعة، والذين إمتنعوا عارضه عندهم الفرار من النار، فناسب أن ينزل فى ذلك مايرشدهم إلى مايفعلونه عند التنازع وهو الرد إلى الله ورسوله، أى إن تنازعتم فى جواز الشيء وعدم جوازه فارجعوا إلى الكتاب والسنة، والله أعلم. أهـ.

قلت: فعلى هذا إن أمر بمعصية أو كفر فلاطاعة له كما تقدم وإن أمر بالمعروف فله السمع والطاعة، وإن أمر بأمر معروف من وجه ومنكر من وجه فهنا يقع التنازع فوجب الرد إلى كتاب الله وهكذا يظهر أن طاعة الأمراء والرؤساء ليست مطلقة إنما هى فى طاعة الله وهذ مؤدى كلام ابن القيم حيث قال فى تفسير قوله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾**: فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمربه على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا، سواء ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول إيذاناً بأنهم يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ماجاء به الرسول فلاسمع ولاطاعة. أهـ.(٣).

● ● ●

(١) فتح البارى (٦/ ١٣٥)   (٢) فتح البارى (٨/ ١٠٢)   (٣) إعلام الموقعين(١/ ٣٩).

وَقَالَ ابنُ عَبَّاس: «يُوشِكُ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!».(١)

قوله: «وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة....».

● **مناسبة الأثر للباب وللتوحيد:**

قال ابن باز(٢): فهذا يدل على أن لايجوز مخالفة أمر الله ورسوله بقول أبى بكر وعمر، ولوقال أبو بكر وعمر ـ وهم خير الناس بعد الأنبياء ـ فمن دونهم من باب أولى أن لايطاعوا فيما يخالف الشرع. أهـ.

وقال القرعاوى(٣): حيث دل الأثر على أن رأى ابن عباس تحريم تقديم رأى المخلوقين على سنه رسول الله ﷺ، وإنما حرم ذلك ابن عباس؛ لأنه شرك مع الله فى الطاعة أهـ.

● **مناسبة ورود هذا القول:**

قال سليمان وتبعه عبدالرحمن آل الشيخ(٤): هذا القول من ابن عباس رضى الله عنهما جواب لمن قال له إن أبابكر وعمر رضى الله عنهما، لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، أو ماهو معنى هذا،وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: «إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبى» لحديث سراقة بن مالك حين أمرهم النبى ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويحلوا إذا طافوا البيت، وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة يارسول الله ﷺ: ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال «للأبد»(٥) والحديث فى الصحيحين.

---

(١) أخرجه الخطيب فى «الفقيه والمتفقه» (٣٧٩، ٣٨٠) عن ابن عباس به.
وانظر «فتح المجيد (٧٢١) بتخريجنا.

(٢) التعليق المفيد (١٩٥).

(٣) الجديد (٣٣٤).

(٤) فتح المجيد (٢/٥٢٨) والمعنى لسليمان، واللفظ لعبد الرحمن إلا آخره..

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٥٠٥)، ومسلم فى الحج (٤/٤٠٦/١٤١) عن جابر به.

وحينئذ فلاعذر لمن استفتى أن ينظر فى مذاهب العلماء، وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم، مادل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك كما قال تعالى ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾

وللبخارى ومسلم وغيرهما أن النبى ﷺ قال: «**لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معى الهدى لأحللت**»[1] هذا لفظ البخارى فى حديث عائشة رضى الله عنها. ولفظه فى حديث جابر: «**افعلوا ما أمرتكم به، فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم**»[2] فى عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

وبالجملة: فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء...» الحديث.

فقال هذا الكلام الصادر عن محض الإيمان، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ وإن خالفه من خالفه كائناً من كان . أهـ.

الشرح:

قوله: «يوشك»

قال سليمان آل الشيخ[3]: (يوشك) بضم أوله وكسر الشين العجمة. قال أبو السعادات: أى يقرب ويدنو ويسرع.

وقوله (أن تنزل عليكم حجارة من السماء)

قال حامد بن محمد[4]: غضباً من الله تعالى ومقتاً. أهـ.

وقال ابن باز[5]: وعيد لهم بالعقوبة. أهـ.

وقال ابن عثيمين[6]: أى من فوق تنزل عليكم عقوبة لكم، ونزول الحجارة من السماء ليس بالأمر المستحيل، بل هو ممكن، قال تعالى فى أصحاب الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ وقال تعالى فى قوم لوط ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ والحاصب الحجارة تحصبهم من السماء

---

(١) سيأتى تخريجه فى باب ما جاء فى اللو.
(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الحج (٤/٤٠٧/١٤٣) عن جابر به.
(٣) تيسير العزيز الحميد (٤١٠)
(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٧)
(٥) التعليق المفيد (١٩٥)
(٦) القول المفيد (٢/٣١٢)

قوله« أقول (قال رسول الله ﷺ)وتقولون (قال ابو بكر وعمر)؟!»

قال سليمان آل الشيخ[١]: قال الشافعي أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبى بكر وعمر، وهما من هما، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنة رسول الله ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذى ينتسب إليه؟!

ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة، فما وافقه قَبِلَهُ، وما خالفه رده أو تأوله فالله المستعان.

وما أحسن ما قال بعض المتأخرين:

فإن جاءهم فيه الدليل فيه موافقاً ... لماكان للآبا إليه ذهاب

رضوه وإلا قيل هذا مؤول ... ويركب للتأويل فيه صعاب

ولاريب أن هذا داخل فى قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الاية أهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ[٢]: وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «مامنا إلاّ راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبرﷺ». وكلام الأئمة فى هذا المعنى كثير[٣]:

ومازال العلماء رحمهم الله يجتهدون فى الوقائع: فمن أصاب منهم فله أجران،ومن أخطأ فله أجر، كما فى الحديث[٤]. لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبى ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك. فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد.

وفى عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هى عنده باللقى والسماع،ويسافر الرجل فى طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين. ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها،وبينوا صحيحها من حسنها من

(١) تيسيرالعزيز الحميد (٤١١)

(٢) فتح المجيد(٢/٥٢٩، ٥٣٠)

(٣) راجع فى ذلك: إيقاظ همم أولى الأبصار للقلانى، ومقدمة صفة صلاة النبى ﷺ للألبانى.

(٤) سبق تخريجه

ضعيفها والفقهاء صنفوا في كل مذهب. وذكروا حجج المجتهدين. فسهل الأمر على طالب العلم. وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده.

وفى كلام ابن عباس رضى الله عنهما ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به - تقليداً لإمامه - فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ؛ لمخالفته الدليل. وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمر البزاز، حدثنا زياد بن أيوب، حدثناأبو عبيدة الحداد، عن مالك بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع، غير النبى ﷺ».

وعلى هذا: فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء، كائنا من كان ونصوص الأئمة على هذا. وأنه لايسوغ التقليد إلا فى مسائل الاجتهاد التى لادليل فيها يرجع إليه من كتاب ولاسنة، فهذا هو الذى عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار فى مسائل الاجتهاد. وأما من خالف الكتاب والسنة: فيجب الرد عليه، كما قال ابن عباس والشافعى ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه. كما تقدم فى كلام الإمام الشافعى رحمه الله تعالى أهـ.

● وسيأتى مزيد نقل عن سليمان وعبد الرحمن آل الشيخ فى مسألة اتباع الدليل وذم التقليد. وفى مسألة الاجتهاد، بعد تفسير الآية. والله المستعان.

وقال حامد بن محمد(١): (أقول قال رسول الله ﷺ) ومع هذا تقابلون قول رسول الله ﷺ بقول غيره (وتقولون قال أبو بكر وعمر).

قلت: فإذا كان هذا المقت العظيم فيمن يقابل قول رسول الله ﷺ بقول خليفتيه أبى بكر وعمر، فكيف بمن يقابل قول الله وقول رسوله بغيرهما، ويرد حكم الله ورسوله بقول غيرهما؟! أهـ.

وقال ابن باز(٢): المعنى احتجُ عليكم فى المسألة بأمر الله ورسوله، فتخالفون وتردون على بخلاف أمر الله ورسوله، بقول أبى بكر وعمر؟

وهذا حث من ابن عباس على اتباع الشرع والحذر من تعظيم الرجال فيما يخالف الشرع. أهـ.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٣٣٧)

(٢) التعليق المفيد (١٩٥)

وقال ابن عثيمين [(1)]: قوله «أقول قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!»

أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب، قال النبى ﷺ: «**إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا**». رواه مسلم[(2)]، وروى عنه ﷺ ؛ أنه قال «**اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكروعمر**»[(3)]، وقال ﷺ: «**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**»[(4)]. ولم يعرف عن أبى بكر أنه خالف نصاً فى رأيه، فإذا كان قول أبى بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ، فإنه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء؛ فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن هو دون أبى بكر وعمر؟! والفرق بين ذلك كما بين السماء والأرض؛ فيكون هذا أقرب للعقوبة.

وفى الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبى الذى ليس مبنياً على أساس سليم.

وبعض الناس يرتكب خطأ فاحشاً إذا قيل له: قال رسول الله ﷺ، قال: لكن فى الكتاب الفلانى كذا وكذا؛ فعليه أن يتقى الله الذى قال فى كتابه: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ**﴾[(5)]، ولم يقل ماذا أجبتم فلاناً وفلاناً، أما صاحب الكتاب، فإنه إن علم أنه يحب الخير ويريد الحق؛ فإنه يدعى له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ، ولايقال: إنه معصوم، يعارض بقوله قول الرسول ﷺ.

وقال القرعاوى[(1)]: الفوائد من الحديث:

(١) بيان فضل ابن عباس، ودقة فهمه.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٣١٢)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد، (٣/ ١٩٧/ ٣١١) عن أبى قتادة به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٨٢)، والترمذى (٣٦٦٢) ، وابن ماجه (٩٧) عن حذيفة به وحسنه الترمذى.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٢٦) ، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٦٧)، وابن ماجه (٤٤) عن العرباض بن سارية به

وأنظر «رياض الصالحين» (١٥٩ - بتخريجنا)

(٥) القصص: ٦٥.

(١) الجديد (٣٣٣)

(٢) لايلتفت لأى رأى يخالف الكتاب والسنة مهما كان مصدره.

(٣) وجوب الغضب من أجل الله ورسوله. أهـ.

(قلت) وفيه أيضاً.

١ـ شدة خوف الصحابة من عقوبة الله إذا خالفوا.

٢ـ احتمال نزول حجارة من السماء على المخالفين للكتاب والسنة، ولما أخرجه البخارى فى «صحيحه» عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه سمع النبى ﷺ يقول: **ليكونن أقوام من أمتى يستحلون الحرّ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم . يعنى الفقير ـ لحاجته فيقولوا أرجع إلينا غداً فيبينهم الله، ويضع العلم، ويسمخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة.**(١)

قال ابن حجر(٢): (يبيتهم الله) أى يهلكهم ليلاً، (ويمسخ آخرين. . . .» قال ابن العربى يحتمل على الحقيقة كما وقع للأمم السابقة، ويحتمل أن يكون كناية عن تبدل أخلاقهم.

قلت: والأول أليق بالسياق.

(ويضع العلم) قال ابن بطال إن كان العلم جبلاً فيدكدكه، وإن كان بناء فيهدمه، ونحو ذلك. أهـ.

قلت والأخير موضع الشاهد والله أعلم.

٣ـ الاتباع فيه النجاة من عذاب الله وسخطه وغضبه، فى الدنيا والآخرة.

٤ - الانكار على المخالف بالشدة والإغلاظ عليه أحياناً لا يخالف الحكمة التى أُمر بها الداعى إلى الله ولا يقع تحت قوله تعالى: **﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾** الآية.

وفى الباب عن سالم بن عبدالله بن عمر قال «إنى لجالس مع ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ فى المسجد، إذ جاءه رجل من أهل الشام، فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحج؟ فقال ابن عمر: حسن جميل. فقال: فإن أباك كان ينهى عن ذلك؟! فقال: ويلك! فإن كان أبى قد نهى عن ذلك، وقد فعله رسول الله ﷺ وأمر به، فبقول أبى تأخذ أم بأمر رسول الله ﷺ؟! قال: بأمر رسول الله ﷺ، فقال: فقم عنى(٣).

(١) علقه البخارى (٥٥٩٠) عن أبى مالك به.

(٢) فتح البارى (١٠/٥٩، ٦٠)

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٩٥)، والترمذى (٨٢٤) عن ابن عمر بنحوه.

وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبل: «عَجِبْتُ لقَومٍ عَرَفُوا الإسْنَادَ وَصحَّتَهُ يَذْهَبُونَ إلى رأى سُفْيَانَ، واللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخَالفُونَ عَنْ أَمْرِه أَنْ تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصيبَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ﴾، أَتَدْرِى مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ. لَعَلَّهُ إذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِه أَنْ يَقَعَ فِى قَلْبِه شَىْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ!!

وقوف السلف عند حكم رسول الله ﷺ
والرجوع عن حكمهم إن خالفه

عن ابن أبى ذئب قال: قضى سعد بن إبراهيم: يعنى ابن عبد الرحمن بن عوف - على رجل برأى ربيعة الرأى بن أبى عبدالرحمن، فأخبرته عن رسول الله ﷺ بخلاف ماقضى به فقال سعد لربيعة، هذا ابن أبى ذيب، وهو عندى ثقة، يحدث عن النبى ﷺ بخلاف ماقضيت به، فقال له ربيعة، قد اجتهدت ومضى حكمك فقال سعد: واعجباً! أنفذ قضاء سعد، ولا أنفذ قضاء رسول الله ﷺ ؟بل أرد قضاء سعد بن أم سعد، وأنفذ قضاء رسول الله ﷺ فدعا سعد بكتاب القضية فشقه، وقضى للمقضى عليه[1].

● ● ●

● **شرح قول الإمام أحمد**

قوله «وقال أحمد بن حنبل».

قال سليمان آل الشيخ[2]: هذا الكلام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب، قال الفضل عن أحمد: نظرت فى المصحف فوجدت طاعة الرسول فى ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخَالفُونَ عَنْ أَمْرِه أَن تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾[3]، الآية وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة إلا الشرك لعله إذا أراد بعض قوله: أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيزيغ قلبه؛ فيهلكه وجعل يتلو هذه الآية ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾»[4]، قال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأى سفيان، فقال: عجبت لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره . قال الله: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخَالفُونَ عَنْ أَمْرِه أَن تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصيبَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ**﴾ وتدرى ما الفتنة؟ الكفر . قال الله تعالى

---

(١)ذكره الألبانى فى حاشية «صفة الصلاة» (٥٤) وعزاه لابن عساكر (٧/ ٥١/ ١)

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤١١)　　(٣) سورة النور: ٦٣.

(٤) النساء: ٦٥.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(1) فيدعون الحديث عن رسول الله وتغلبهم أهواءهم إلى الرأى. ذكر ذلك شيخ الإسلام .

قلت: وكلام أحمد فى ذمه التقليد وإنكار تأليف كتب الرأى كتب كثيرة مشهور أهـ.

قوله(عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته).

قال سليمان آل الشيخ: قوله: عرفوا الإسناد أى: إسناد الحديث وصحته أى: ـحكمه، وسلم إلى فلان فى كذا، أى تركـح

[قلت]: وصحته كدليل يستدل به لابغيره.

وقال حامد بن محمد(2): علموا أنه عن رسول الله ﷺ وثبت عندهم، أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ (3): أى: إسناد الحديث وصحته، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء. أهـ.

وقال عبدالله بن جار الله(4):عجب الإمام أحمد بمعنى الإنكار على أولئك الذين يعرفون إسناد الحديث، وأنه صحيح عن رسول الله ﷺ، لامجال للكذب والطعن فيه، ويتركونه، ويأخذون برأى بعض الناس، كسفيان الثورى.أهـ.

وقال ابن باز(5): بنحو ماتقدم.

وقال ابن عثيمين (6): قول أحمد رحمه الله: «عجبت».

العجب نوعان:

الأول: عجب استحسان؛ كما فى حديث عائشة رضى الله عنها: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيامن فى تنعله وترجله وطهوره وفى شأنه كله»(7).

الثانى: عجب إنكار؛ كما فى قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾(8)، والعجب فى كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار.

قوله«**الإسناد**». المراد به هنا رجال السند لانسبة الحديث إلى روايه؛ أى: عرفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله أهـ.

قلت: أى مع سائر الشروط الأخرى كما لا يخفى إذ ليس شرطًا لصحة الحديث

---

(1) سورة البقرة : 191.

(2) فتح الله الحميد المجيد (377)

(3) فتح المجيد (2/ 531)

(4) الجامع الفريد (152)

(5) التعليق المفيد (196)

(6) القول المفيد (2/ 365)

(7) تقدم تخريجه

(8) الصافات: 12

صحة الإسناد فقط بل قد يكون الحديث صحيحاً الإسناد وهو ضعيف فكم من حديث صحيح الإسناد ولكن متنه معلول.

فمثلاً: حديث علي رضي الله عنه في صلاة أربع ركعات ومعها دعاء لحفظ القرآن[1]، فإن الحافظ الذهبي قال فيه: مع نظافة سنده، حديث منكر جدًا في نفسي منه شيء. اهـ. كذا في «الميزان»، وقال في «تلخيصه على المستدرك»: وقد حيرني والله جودة إسناده. اهـ.

وقد بين علم «علل الأحاديث» الأحاديث الموضوعة التي رُكِّبت على متون صحيحة الإسناد عن طريقة مخالفة أو معارضة المتن للقرآن أو لأحاديث متواترة صحيحة أو بأخطاء في التواريخ أو عن طريق سماجة ألفاظه أو ركاكته وغير ذلك من طرق بيان علل الأحاديث سواء صحت أسانيدها أو لا، وذكر جملة من ذلك ابن القيم في كتاب «المنار المنيف» والله أعلم.

قوله «سفيان»

قال سليمان آل الشيخ [2]: الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب ومذهب مشهور فانقطع. أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ[3]: الإمام الزاهد، العابد الثقة الفقيه[4]. وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، «كالتمهيد» لابن عبد البر، و«الاستذكار» له، وكتاب «الإشراف على مذاهب الأشراف» لابن المنذر، و«المحلى» لابن حزم، و«المغني» لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة الحنبلي، وغير هؤلاء. أهـ.

قلت: وله ترجمة تقدمت.

وقبل الشروع في شرح الموضوع وهو كلام الإمام نفسر الآية لما في ذلك من بيان لغرض الإمام والله المستعان.

تفسير الآية

تمام الآية ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5].

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤١٢)

(٣) فتح المجيد (٢/ ٥٣١)

(٤) ترجمته في: السير (٧/ ٢٢٩) وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٣) وحلية الأولياء (٦/ ٣٥٦:٧/ ١٤٤).

(٥) سورة النور (٦٣)

سبب نزول الآية:

عن عروة ومحمد بن كعب القرظى قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأسيال من بئر رومة بالمدينة قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بتغمين إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر، وضرب الخندق على المدينة وعمل فيه، وعمل المسلمون فيه، وابطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة من الحاجة التى لابد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه فى اللحوق لحاجته، فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله فى أولئك المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ...﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١)

وعن مقاتل بن حيان فى قوله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال: هم المنافقون . كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة ـ ويعنى بالحديث الخطبة ـ فيلوذون ببعض الصحابة حتى يخرجوا من المسجد، وكان لايصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبى ﷺ فى يوم الجمعة بعدما يأخذ فى الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبى ﷺ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى يخطب بطلت جمعته(٢).

وعن مقاتل قال: كان لايخرج أحد لرعاف، أو أحداث، حتى يستأذن النبى ﷺ يشير إليه بأصبعه التى تلى الإبهام، فيأذن له النبى ﷺ يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس فى المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج، فأنزل الله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾(٣).

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١١٠) ونسبه لابن إسحاق ، وابن المنذر، والبيهقى فى «الدلائل».

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٧) فأنظره بتخريجنا

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١١١) ونسبه لابى داود فى مراسيله.

وعن الضحاك فى قوله ﴿لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(1) قال: كان لا يستأذنه إذا غزا إلا المنافقون. فكان لايحل لأحد أن يستأذن رسول الله ﷺ أو يتخلف بعده إذا غزا، ولاتنطلق سرية إلا بإذنه. ولم يجعل الله للنبى ﷺ أن يأذن لأحد حتى نزلت الآية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يقول: أمر طاعة ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ فجعل الاذن إليه يأذن لمن يشاء . فكان إذا جمع رسول الله ﷺ الناس لأمر يأمرهم وينهاهم صبر المؤمنون فى مجالسهم، وأحبوا ما أحدث لهم رسول الله ﷺ بما يوحى إليه، وبما أحبوا وكرهوا، فإذا كان شيء مما يكره المنافقون، خرجوا يتسللون يلوذ الرجل بالرجل يستتر لكى لايراه النبى ﷺ . فقال الله تعالى: إن الله تعالى يبصر الذين يتسللون منكم لوذا(2).

هذا فى سبب نزول الآية عامة، وأما موضع الشاهد منها الذى استشهد به الإمام أحمد فهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

فقوله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾

قال القرطبى (3): احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية، ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها أهـ.

تفسير الآية بما جاء فى القرآن.

وقال الشنقيطى(4): الضمير فى قوله: عن أمره راجع إلى الرسول ﷺ أو إلى الله والمعنى واحد، لأن الأمر من الله والرسول مبلغ عنه، والعرب تقول: خالف أمره وخالف عن أمره: وقال بعضهم: يخالفون: مضمن معنى يصدون، أى يصدون عن أمره.

وهذه الآية الكريمة قد استدل بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضى

(1) التوبة: ٤٤.

(2) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١١٢) ونسبه لأبى الشيخ.

(3) تفسير القرطبى (٧/ ٤٧١٥)

(4) أضواء البيان (٦/ ١٧٢)

الوجوب، **لأنه جل وعلا توعد المخالفين عن أمره بالفتنة أو العذاب الأليم وحذرهم من مخالفة الأمر. وكل ذلك يقتضي أن الأمر للوجوب، مالم يصرف عنه صارف، لأن غير الواجب لايستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير**».

(وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة من اقتضاء الأمر المطلق الوجوب دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ**﴾ فإن قوله: ﴿**ارْكَعُوا**﴾ أمر مطلق، وذمه تعالى للذين لم يمتثلوه بقوله: ﴿**لا يَرْكَعُونَ**﴾ يدل على أن أمتثاله واجب. وكقوله تعالى لإبليس ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾(١) فإنكاره تعالى على إبليس موبخاً بقوله: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾ يدل على أنه تارك واجباً .وأن امتثال الأمر واجب مع أن الأمر المذكور مطلق، وهو قوله تعالى: ﴿**اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾(٢)وكقوله تعالى عن موسى ﴿ **أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي**﴾(٣) فسمى مخالفة الأمر معصية، وأمره المذكور مطلق، وهو قوله: ﴿**اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾(٤) وكقوله تعالى: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾(٥) وإطلاق اسم المعصية على مخالفة الأمر يدل على أن مخالفة عاص، ولايكن عاصياً إلابترك واجب، أو ارتكاب محرم. وكقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾(٦) فإنه يدل على أنها أمر الله،وأمر رسوله مانع من الاختيار موجب للامتثال، وذلك يدل على اقتضائه الوجوب كما ترى. وأشار إلى أن مخالفته معصية بقوله بعده: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا**﴾(٧).

اعلم أن اللغة تدل على اقتضاء الأمر المطلق الوجوب بدليل أن السيد لو قال لعبده اسقنى ماء مثلاً، ولم يمتثل العبد أمر سيده فعاقبه السيد فليس للعبد أن يقول: عقابك

(١) الأعراف : ١٢
(٢) البقرة : ٣٤
(٣) طه :٩٣
(٤) الأعراف :١٤٢
(٥) التحريم : ٦
(٦) الأحزاب : ٣٦
(٧) الأحزاب : ٣٦

لى ظلم لأن صيغة الأمر فى قولك: اسقنى ماء لم توجب عَلَىَّ الامتثال فقد عاقبتنى على ترك ما لايلزمنى، بل يُفهم من نفس الصيغة أن الامتثال يلزمه، وأن العقاب على عدم الامتثال واقع موقعه. أهـ.

تفسير الآية بما جاء من أقوال السلف.

أخرج ابن جرير[1] عن ابن زيد، قال: هؤلاء المنافقون الذين يرجعون بغير إذن رسول الله.

وأخرج ابن أبى حاتم[2] عن ابن حيان: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يعنى المنافقون

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن صالح قال: إنى لخائف على من ترك المسح على الخفين أن يكون داخلاً فى هذه الآية **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**

وأخرج ابن ابى حاتم عن ابن زيد: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الذين يصنعون هذا.

تفسير الآية بما جاء من أقوال السلف

قال ابن جرير[3]: فليتق من يفعل ذلك منكم الذين يخالفون أمر الله فى الإنصراف عن رسول الله ﷺ إلا بإذنه، أن تصيبهم فتنة من الله أو عذاب أليم. أهـ.

ثم قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ وأدخلت (عن)؛ لأن معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره، ويدبرون عنه معرضين. هـ.

وقال البغوى[4]: بنحو قول ابن جرير.

قال الزمخشرى[5]: الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين، وهم المنافقون، فحذف المفعول؛ لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه.

---

(١) تفسير ابن جرير(٩/ ١٨/ ١٣٥

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٨/ ٢٦٥٧)

(٣) تفسير ابن جرير(٩/ ١٨/ ١٣٥)

(٤) معالم التنزيل (٤/ ٢٢٣، ٢٢٤)

(٥) الكشاف (٣١/ ٨٧)

والضمير فى (أمره) لله سبحانه وتعالى أو لرسول الله ﷺ والمعنى عن طاعته ودينه أهـ.

وقال ابن الجوزى [(١)]: فى هاء الكناية قولان ـ فذكر ما قاله الزمخشرى، وعزى الأول لمجاهد والثانى لقتادة ـ ثم قال وفى (عن) قولان:

أحدهما أنها زائدة. قاله الأخفش،

والثانى هو ماذكره الطبرى سابقاً . أهـ.

وقال الفخر الرازى [(٢)]: كما تقدم ذكر الرسول فقد تقدم ذكر الله تعالى لكن القصد هو الرسول فإليه ترجع الكناية وقال أبو بكر الرازى الأظهر أنها لله تعالى لأنه يليه، وحكم الكناية رجوعها إلى مايليها دون ما تقدم أهـ. .

قلت : ورجح ابن عثيمين أن الضمير يعود على الرسول ﷺ.

وقال ابن كثير [(٣)]: أى عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله، ومنهاجه، وطريقته، وسنته، وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبل، وماخالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(*)] أى : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً. أهـ.

وقال الشوكانى [(٤)]: (فليحذر) الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها، أى يخالفون أمر النبى ﷺ بترك العمل بمقتضاه، وعدى فعل المخالفة بـ (عن) مع كونه متعدياً بنفسه؛ لتضمينه معنى الإعراض أو الصد، وقيل الضمير لله سبحانه؛ لأنه الآمر بالحقيقة. أهـ وسبق كلام الزمخشرى عن الضمير هنا.

وقال ناصر السعدى [(٥)]: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ**﴾ أى يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونه؟! وإنما ترك أمر الله من دون شغل له. أهـ

قوله(أن تصيبهم فتنة)

تفسيرها من القرآن

قال الشنقيطى [(٦)]: قد دل استقراء القرآن العظيم أن الفتنة فيه أطلقت على أربعة معان.

---

(١) زاد المسير (٥/ ٤٠١)

(٢) التفسير الكبير (١٢/ ٢٣/ ٤١)

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٢)

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٨)

(*) تقدم تخرجه

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٨٤)

(٦) أضواء البيان (٦/ ١٧٢)

(٧)الذاريات/ ١٣

الأول: أن يراد بها الإحراق بالنار كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾(٧) وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾(١) الآية. أى أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك.

الثاني: وهو أشهرها إطلاق الفتنة على الإختبار كقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(٢) الآية وقوله تعالى: ﴿لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾(٣).

والثالث: إطلاق الفتنة على نتيجة الإختيار إن كانت سيئة كقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾(٤). وفى الأنفال ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾(٥) فقوله ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾(٦). أى حتى لايبقى شرك على أصح التفسيرين، ويدل على صحته قوله بعده: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، لأن الدين لايكون كله لله حتى لايبقى شرك كما ترى، ويوضح ذلك قوله ﷺ، «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الله»(*) كما لايخفى.

والرابع: إطلاق الفتنة على الحجة فى قوله تعالى :﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٧)، أى لم تكن حجتهم، كما قال به بعض أهل العلم.

والأظهر عندى : أن الفتنة فى قوله هنا: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أنه من النوع الثالث من الأنواع المذكورة.

وأن معناه أن يفتنهم الله أى يزيدهم ضلالاً بسبب مخالفتهم، عن أمره، وأمر رسوله ﷺ.

وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، كقوله جل وعلا: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٨) وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٩) وقوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾(١٠) الآية. وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾(١١) الآية والآيات بمثل ذلك كثيرة والعلم عند الله تعالى.

---

(١) البروج: ١٠ (٢) الأنبياء : ٣٥
(٣) الجن ١٦-١٧ (٤) البقرة: ١٩٣
(٥) الأنفال: ٣٩ (٦) البقرة: ١٩٣ (*) تقدم تخريجه
(٧) الأنعام: ٢٣ (٨) المطففين: ١٤
(٩) الصف: ٥ (١٠) البقرة: ١٠ (١١) التوبة : ١٢٥

تفسيرها بما جاء عن السلف والمفسرين

قال ابن جرير(1): الفتنة ههنا: الكفر. أهـ.

وذكر ابن أبي حاتم(2) **هذا القول عن**: مقاتل، وروى عن السدى، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك.

وقال البغوى(3): قال مجاهد: بلاء فى الدنيا أ هـ.

وقال الزمخشرى (4): الفتنة : محنة فى الدنيا.

وعن ابن عباس (فتنة) : قتل. وعن عطاء :زلازل وأهوال. وعن جعفر بن محمد: يسلط عليهم سلطاناً جائراً. أهـ.

وقال ابن الجوزى(5): فى الفتنة هنا ثلاثة أقوال:

أحدها: الضلالة. قالها ابن عباس.

والثاني والثالث تقدما.

وقال الفخر الرازى (6): قال الحسن: الفتنة هى ظهور نفاقهم. أهـ.

وقال القرطبى (7): الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول . أهـ.

وقال ابن كثير(8): (فتنة) أى فى قلوبهم من كفر، أو نفاق، أو بدعة. أهـ.

وقال الشوكانى(9):الفتنة هنا غير مقيدة. أهـ ثم ذكر بعض هذه الأقوال.

وقال السعدى (10):(فتنة) أى شرك، وشر. أهـ.

قلت: وخلاصة الأقوال فى الفتنة اثنا عشرة قولاً:

(1) الكفر (2) النفاق (3) بلاء فى الدنيا ومحنة (4) زلازل وأهوال

(5) سلطان جائر (6) الضلالة (7) ظهور نفاقهم (8) الطبع على القلوب

(9) بدعة (10) شرك (11) شر (12) مطلقة غير مقيدة (فتنة) أى عامة.

---

(1) تفسير ابن جرير (19/18/133، 134)

(2) تفسير ابن أبى حاتم (8/2657)

(3) معالم التنزيل (4/224) (4) الكشاف (3/87)

(5) زاد المسير (5/401) (6) التفسير الكبير (12/23/43)

(7) تفسير القرطبى (7/4715)

(8) تفسير ابن كثير (3/292) (9) فتح القدير (4/58)

(10) تيسير الكريم الرحمن (3/384).

فائدة :

وقال الفخر الرازى [(١)]: إنما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين ﴿**فتنة أو عذاب إليم**﴾ لأن ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك فى الدنيا، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد أهـ.

قال ابن عثيمين [(٢)]: الفتنة فسرها الإمام أحمد بالشرك، وعلى هذا يكون الوعيد بأحد أمرين: إما الشرك، وإما العذاب الأليم. أهـ.

قلت : ولامانع من إعمال هذه المعانى جميعاً لأن هذا من قبيل اختلاف التنوع لا التضاد لأن الآية تحتمل ذلك كله وهذا مؤدى قول الشوكانى والله أعلم.

قوله تفسيرها بالماثور

أولاً من السنة ﴿أو يصبهم عذاب أليم﴾

عن يحيى بن أبى كثير قال: نهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يقاتلوا ناحية من خيبر، فانصرف الرجال عنهم وبقى رجل، فقاتلهم، فرموه، فقتلوه، فجيء به إلى النبى ﷺ فقال: أبعد ما نهينا عن القتال؟ فقالوا: نعم . فتركه ولم يصل عليه[(٣)].

وعن مجاهد قال: أشد حديث سمعناه عن النبى ﷺ قوله فى سعد ابن معاذ فى أمر القبر. ولما كانت غزوة تبوك قال: «**لايخرج معنا إلا رجل مُقْوٍ**» فخرج رجل على بكر له صعب، فصرعه، فمات فقال الناس: الشهيد الشهيد. فأمر النبى ﷺ بلالاً أن ينادى فى الناس «**لايدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولايدخل الجنة عاص**»[(٤)].

وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ذات يوم وهو مستقبل العدو: **لا يقاتل أحد منكم**، فعمد رجل منهم ورمى العدو وقاتلهم، فقتلوه، فقيل للنبى ﷺ استشهد فلان فقال: **أبعد مانهيت عن القتال؟** قالوا : نعم قال «**لايدخل الجنة عاص**»[(٥)].

عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «**مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها، جعل الفراش، وهذه الدواب اللائى يقعن فى النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال : فذلك مثلى ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبونى وتقتحمون فيها**»[(٦)] أخرجاه من حديث عبد الرزاق. أ. هـ

(١) التفسير الكبير (١٢/ ٢٣/ ٤٣)   (٢) القول المفيد (٢/ ٣١٦)

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١١١) ونسبه لعبد الرزاق فى «المصنف»

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١١٥) ونسبه لعبد الرزاق.

(٥) نفس المصدر السابق   (٦) تقدم تخريجه

ثانيًا من السلف وأقوال المفسرين

(١) القتل : أخرج ابن أبى حاتم[١] عن مقاتل. وذكره ابن الجوزى [٢].

(٢) . أويصيبهم فى عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على صنيعهم ذلك. أخرجه ابن جرير[٣] عن الضحاك.

(٣) وجيع فى الآخرة. قاله البغوى[٤]، والزمخشرى[٥]، وابن الجوزى، والشوكانى[٦].

(٤) عذاب فى الدنيا بقتل، أو حد، أو حبس، أونحو ذلك . قاله ابن كثير[٧]

وقال الشوكانى) **وكلمة (أو) لمنع الخلو. أهـ**

وهذا أوان الشروع فى الموضوع وهو شرح كلام الامام أحمد

قال سليمان آل الشيخ [٨]: ومراد أحمد الإنكار على من يعرف إسناد الحديث وصحته ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة إما بأن الأخذ بالحديث اجتهاد والاجتهاد انقطع منذ زمان، وإما بأن هذا الإمام الذى قلدته أعلم منى فهو لايقول إلا بعلم. ولايترك هذا الحديث مثلاً إلا عن علم، وإما بأن ذلك اجتهاد ويشترط فى المجتهد أن يكون عالماً بكتاب الله عالماً بسنة رسول الله ﷺ، وناسخ ذلك ومنسوخه، وصحيح السنة وسقيمها، عالماً بوجوه الدلالات، عالماً بالعربية والنحو والأصول، ونحو ذلك من الشروط التى لعلها لاتوجد تامة إلا فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، كما قاله المصنف. فيقال له: هذا إن صح فمرادهم بذلك المجتهد المطلق، أما أن يكون ذلك شرطاً فى جواز العمل بالكتاب والسنة فكذب على الله، وعلى رسوله ﷺ، وعلى أئمة العلماء بل الفرض والحتم على المؤمن إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلم معنى ذلك فى أى شيء كان أن يعمل به ولو خالفه من خالفه؛ فبذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى ونبينا ﷺ.

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٨/ ٢٦٥٧)
(٢) زاد المسير (٥/ ٤٠١)
(٣) تفسير ابن جرير (٩/ ١٨/ ١٣٥)
(٤) معالم التنزيل (٤/ ٢٢٤)
(٥) الكشاف (٣/ ٨٧)
(٦) فتح القدير (٤/ ٥٨)
(٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٢).
(٨) تيسير العزيز الحميد (٤١٢)

وأجمع على ذلك العلماء قاطبة إلا جهال المقلدين وجفاتهم، ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم كما حكى الإجماع على أنهم ليسوا من أهل العلم، منهم - أبو عمر بن عبد البر وغيره. قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾(٢) فشهد تعالى لمن اطاع الرسول ﷺ بالهداية. وعند جفاة المقلدين أن من أطاعه ﷺ ليس بمهتدى إنما المهتدى من عصاه، وعدل عن أقواله، ورغب عن سنته إلى مذهب أو شيخ ونحو ذلك.

وقد وقع فى هذا التقليد المحرم خلق كثير ممن يدعى العلم والمعرفة بالعلوم ويصنف التصانيف فى الحديث والسنن ثم بعد ذلك تجده جامداً على أحد هذه المذاهب يرى الخروج عنها من العظائم.

وفى كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لايذم، إنما المذموم المنكر الحرام الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة، نعم وينكر الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإقبال على تعلم الكتب المصنفة فى الفقه استغناء بها عن الكتاب والسنة، بل إن قرأوا شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله فإنما يقرأون تبركاً لاتعلماً وتفقهاً، أو لكون بعض الموقفين وقف على من قرأ البخارى مثلاً؛ فيقرأونه لتحصيل الوظيفة لالتحصيل الشريعة؛ فهؤلاء من أحق الناس بدخولهم فى قول الله تعالى ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾(٣) وقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾(٤) إلى قوله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾(٥).

فإن قلت فماذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة فى المذاهب؟

قيل: يجوز من ذلك قراءتها على سبيل الاستعانة بها على فهم الكتاب والسنة وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية أما أن تكون هى المُقدمة على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه، المدعو إلى التحاكم إليها دون

(١) سورة الأعراف: ٣
(٢) سورة النور: ٥٤
(٣) سورة طه: ٩٩، ١٠٠، ١٠١
(٤) طه: ١٢٤
(٥) طه: ١٢٧

التحاكم إلى الله والرسول ﷺ؛ فلا ريب أن ذلك مناف للإيمان مضاد له قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾(١) فإن كان التحاكم عند المشاجرة إليها دون الله، ورسوله، ثم إذا قضى الله ورسوله أمراً وجدت الحرج فى نفسك، وإن قضى أهل الكتاب بأمر لم تجد حرجاً، ثم إذا قضى الرسول ﷺ، بأمر لم تسلم له، وإن قضوا بأمر سلمت له. فقد أقسم الله تعالى أنك لست بمؤمن والحالة هذه وبعد ذلك؛ فقد قال الله تعالى: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴿١٤﴾ ولو ألقى معاذيره﴾(٢) على أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم، قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السنة؛ فكلام أحمد الذى ذكره المصنف كاف عن تكثير النقل عنه.

وقال أبو حنيفة: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين؛ فنحن رجال وهم رجال.

وفى «روضة العلماء» سئل أبو حنيفة إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه قال: اتركوا قولى لكتاب الله، قيل: إذا كان قول الرسول يخالفه قال: اتركوا قولى لخبر الرسول ﷺ، قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه قال: اتركوا قولى لقول الصحابة، فلم يقل: هذا الإمام مايدعيه جفاة المقلدين له أنه لا يقول قولاً يخالف كتاب الله، حتى أنزلوه بمنزلة المعصوم الذى لاينطق عن الهوى.

وروى البيهقى فى «السنن» عن الشافعى أنه قال: إذا قلت قولا وكان عن النبى ﷺ خلاف قولى فما يصح من حديث رسول الله ﷺ أولى فلا تقلدونى. وقال الربيع: سمعت الشافعى يقول: إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله، ودعوا ما قلت:

وتواتر عنه أنه قال: إذا صح الحديث - أى: بخلاف قولى - فاضربوا بقولى الحائط.

وقال مالك كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وكلام الأئمة مثل هذا كثير.

[قلت]: مثل ما سيأتى من نقل الإمام الشنقيطى أهـ ثم قال: فخالف المقلدون ذلك وجمدوا على ما وجدوه فى الكتب المذهبية، سواء كان صواباً أم خطأ مع أن كثيراً من هذه الأقوال المنسوبة إلى الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوصاً عليها، وإنما هى تفريعات ووجوه واحتمالات وقياس على أقوالهم.

(١) النساء ٦٥ (٢) القيامة: ١٤، ١٥

ولسنا نقول: إن الأئمة على خطأ بل هم إن شاء الله على هدى من ربهم. وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ ومتابعته، ولكن العصمة منتفية عن غير الرسول، فهو الذى قال فيه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فما العذر فى اتباعهم وترك اتباع الذى لا ينطق عن الهوى؟!.

قال الشنقيطى(١): إعلم أن الأئمة الأربعة رحمهم الله، متفقون على منع تقليدهم، التقليد الأعمى الذى يتعصب له من يدعون أنهم أتباعهم.

ولو كانوا أتباعهم حقا لما خالفوهم فى تقليدهم الذى منعوا ونهوا عنه.

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه:

أخبرنا عبدالله بن محمد بن عبد المؤمن، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد القاضى المالكى، قال حدثنا موسى بن إسحاق، قال حدثنا إبراهيم بن المنذر، قال حدثنا معن بن عيسى، قال سمعت مالك بن أنس يقول: إنما أنا بشر أخطىء وأصيب، فانظروا فى رأيى، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه. أ هـ. محل الغرض منه بلفظه.

فمالك ـ رحمه الله ـ مع علمه وجلالته وفضله يعترف بالخطأ وينهى عن القول بما خالف الوحى من رأيه.

فمن كان مالكياً فليمتثل قول مالك ولا يخالفه بلا مستند.

وقال أبو عمر بن عبدالبر ـ رحمه الله ـ فى «جامعه» أيضاً:

أخبرنى أحمد بن عبد الله بن محمد بن على حدثنى أبى حدثنا محمد بن عمر بن لبابة قال: حدثنا مالك بن على القرشى، قال أنبأنا عبدالله بن مسلمة القعنبى قال:

دخلت على مالك فوجدته باكياً فسلمت عليه فرد على ثم سكت عنى يبكى، فقلت له:

يا أبا عبدالله ما الذى يبكيك؟ فقال لى يا ابن قعنب إنا لله على مافرط منى، ليتنى جلدت بكل كلمة تكلمت بها فى هذا الأمر بسوط. ولم يكن فرط منى ما فرط من هذا الرأى، وهذه المسائل قد كانت لى سعة فيما سبقت إليه. أهـ محل الغرض منه بلفظه.

ومن المعلوم بالضرورة أن مالكاً ـ رحمه الله ـ لايسرُه ولايرضيه تقديم رأيه هذا الذى

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٣٥٦: ٣٥٧)

يسترجع ويبكى ندماً عليه، ويتمنى لو ضرب بالسياط ولم يكن صدر منه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فليتق الله وليستحى من الله من يقدم مثل هذا الرأى على الكتاب والسنة زاعماً أنه متبع مالكاً فى ذلك.

وهو مخالف فيه لمالك، ومخالف فيه لله ورسوله، ولأصحابه ولكل من يعتد به من أهل العلم.

وقال ابن القيم - رحمه الله - فى «أعلام الموقعين».

وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة.

فقال الشافعى: مثل الذى يطلب العلم بلا حجة، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لايدرى، ذكره البيهقى.

وقال إسماعيل بن عيسى المزنى فى أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعى، ومن معنى قوله لأقربه على من أراده مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه، ويحاط فيه لنفسه إلى أن قال:

وقال أحمد بن حنبل: لاتقلدنى، ولاتقلد مالكاً، ولا الثورى ولا الأوزاعى، وخذ من حيث أخذوا.

وقال : من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال.

وقال بشر بن الوليد: قال أبو يوسف: لايحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا.

وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعى أنه يستتاب، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله أهـ محله الغرض منه.

ومما لاشك فيه أن الأئمة الأربعة- رحمهم الله - نهوا عن تقليدهم فى كل ما خالف كتاباً أوسنة كما نقله عنهم أصحابهم.

كما هو مقرر فى كتب الحنفية عن أبى حنيفة.

وكتب الشافعية عن الشافعى القائل: إذا صح الحديث فهو مذهبى .

وكتب المالكية، والحنابلة عن مالك وأحمد رحمهم الله جميعاً.

وكذلك كان غيرهم من أفاضل العلماء يمنعون من تقليدهم فيما لم يوافق الكتاب والسنة وقد يتحفظون منه ولايرضون.

قال أبو عمر بن عبد البر- رحمه الله- فى جامعه.

وذكر محمد بن حارث فى أخبار سحنون بن سعيد عن سحنون، قال كان مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبى سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز، فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما.

وإذا سأله محمد بن إبراهيم بن دينار وذووه لم يجبهما.

فقال له:

يسألك مالك وعبدالعزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذوى فلاتجيبنا؟

فقال:

أوقع ذلك يا ابن أخى فى قلبك؟

قال: نعم :فقال له:

إنى قد كبرت سنى ورق عظمى، وأنا أخاف أن يكون خالطنى فى عقلى مثل الذى خالطنى فى بدنى.

ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا منى حقاً قبلاه، وإذا سمعا خطأ تركاه.

وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه.

قال محمد بن حارث: وهذا والله هو الدين الكامل، والعقل الراجح.

لاكمن يأتى بالهذيان، يريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن. أهـ. منه.

قال سليمان آل الشيخ(١): قوله: **[لعله]** أى: لعل الإنسان الذي تصح عنده سنة رسول الله ﷺ.

قوله: **[إذا رد بعض قوله]**أى قول النبى ﷺ.

قوله **[أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك]** هذا تنبيه على أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب الذى هو سبب الهلاك فى الدنيا والآخرة، فإذا كانت إساءة الأدب معه فى الخطاب سبباً لحبوط الأعمال كما قال تعالى **﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾**(٢) ﷺ**﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾**(٣) فما ظنك برد أحكامه وسنته لقول أحد من الناس كائناً من كان؟

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٢)

(٢) سورة الحجرات: ٢

(٣) الحجرات : ٢

قال شيخ الإسلام: فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من استخفاف بحق الآمر كما فعل إبليس لعنه الله. فإذا علمت أن المخالفة عن أمره ﷺ سبب للفتنة، التى هى الشرك والعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة علمت أن من رد قوله وخالف أمره لقول أبى حنيفة، أو مالك أو غيرهما: لهم النصيب الكامل، والحظ الوافر من هذه الآية، وهذا الوعيد على مخالفة أمره ﷺ، وقد استدل بهذه الآية كثير من العلماء على أن أصل الأمر للوجوب حتى يقوم دليل على استحبابه. أهـ. وتقدم ذكر ذلك من قول الشنقيطى.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ(١): فقول الإمام أحمد رحمه الله: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته. .إلخ» إنكار منه لذلك. وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذى يكون به المرء كافراً.

وقد عمت البلوى بهذا المنكر، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل فى الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه، فمن ذلك قولهم: لايستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع. ويقول: هذا الذى قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التى غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ، الذى لاينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذى معه بعض العلم لا كله.

فالواجب على كل مكلف، إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك: أن ينتهى إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾(٢) وقال تعالى ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾(٣).

قلت - عبد ارحمن آل الشيخ - :ولاويخالف فى ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنهما، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة، فإنهم فى الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم، كما قدمنا من قول مالك والشافعى وأحمد أهـ

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٥٣١ : ٥٣٣) مختصراً (٢) الأعراف: ٣ (٣) العنكبوت (٥١)

فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على مافى الكتاب والسنة. فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لابد أن يذكر دليله، والحق فى المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر فى كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً، وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التى يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه.

والأدلة على هذا الأصل فى كتاب الله أكثر من أن تحصر، وفى السنة كذلك، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ: «أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: كيف تقضى **إذا عرض لك قضاء**؟ قال: أقضى بكتاب الله تعالى، قال: **فإن لم تجد فى كتاب الله**؟ قال: فبسنة رسول رسول الله ﷺ. قال: فإن لم تجد فى سنة **رسول الله ﷺ ولافى كتاب الله**؟ قال: أجتهد رأيى ولا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: **الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله**». وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضى الله عنه: «أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن...» بمعناه(١).

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا فى البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير، كما لايخفى على من نظر فى أقوال العلماء. أ هـ.

● ولأهمية مسألة التقليد وعلاقتها بالتوحيد سنفرد لها فصلاً يحوى معناه لغة واصطلاحاً وحكمه والفرق بينه وبين الاتباع وشبه من قال به مطلقاً ومن منعه مطلقاً والراجح فى هذا الأمر مع صور للتقليد المذموم إجمالاً وتنبيهات مهمة على هذا الأمر والله الموفق لارب سواه.

فصل فى التقليد

تعريف التقليد لغة:

قال الشوكانى(٢): أما التقليد: فأصله فى اللغة مأخوذ من القلادة، التى يقلد غيره

---

(١)[ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣٠)، وأبو داود (٣٥٩٣) عن معاذ به.
وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى فتح تخريج أحاديث الظلال» (٨٥٨)

(٢) إرشاد الفحول (١/ ٣٤٥)

بها، ومنه تقليد الهدى فكأن المقلد جعل ذلك الحكم، الذى قلد فيه المجتهد كالقلادة فى عنق من قلده(1). أهـ.

قال الشنقيطى(2): تقليد الولاة هو جعل الولايات قلائد فى أعناقهم ومنه قول لقيط الأيادى:

وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا أهـ.

تعريف التقليد المذموم اصطلاحاً:

قال الشوكانى(3): وفى الاصطلاح: هو العمل بقول الغير من غير حجة.

وقال ابن الهمام فى «التحرير» : التقليد العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بلاحجة. وهذا الحد أحسن من الذى قبله.

وقال القفال : هو قبول قول القائل، وأنت لاتعلم من أين قاله.

وقال الشيخ أبو حامد، والأستاذ أبو منصور: هو قبول القول من غير حجة تظهر على قوله .

وقيل : هو قبول قول الغير دون حجته، أى حجة القول.

والأولى أن يقال : هو قبول رأى من لاتقوم به الحجة بلا حجة (4). وفوائد هذه القيود معروفة بما تقدم(5).

وقال الشنقيطى(6): هو الأخذ بمذهب الغير من غير معرفة دليله.

والمراد بالمذاهب: هو مايصح فيه الاجتهادخاصة، ولايصح الاجتهاد البته فى شيء يخالف نصاً من كتابه أو سنة ثابتة، سالماً من المعارض؛ لأن الكتاب والسنة حجة على كل أحد كائناً من كان، لاتسوغ مخالفتهما البتة لأحد كائناً من كان فيجب التفطن، لأن المذهب الذى فيه التقليد يختص بالأمور الاجتهادية ولايتناول ماجاء فيه نص صحيح من الوحى سالم من المعارض

---

(1) انظر: فى تعريف التقليد :(الحدود للباجى ص ٦٤، الإحكام لابن حزم ٣٧/١) ،المستصفى ٣٨٧/٢، البرهان ١٣٥٧/٢، تيسير التحرير ٢٤١/٤).

(2) أضواء البيان (٣١٧/٧)

(3) إرشاد الفحول (٣٤٥/١)

(4) انظر تيسير التحرير (٢٤١/٤)

(5) انظر: الإحكام للآمدى (٢٢١/٤)، مختصر ابن الحاجب مع شرح العضد (٣٠٥/٢)

(6) أضواء البيان (٣١٨،٣١٧/٧)

قال الشيخ الحطاب فى شرحه لقول خليل فـى مختصره: مختصراً على مذهب الإمام مالك بن أنس مانصه:

(والمذهب لغة الطريق ومكان الذهاب، ثم صار عند الـفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية) أهـ. محل الغرض منه بلفظه.

فقـوله : من الأحـكام الاجتـهادية تدل عـلى أن اسم المـذهب لم يـتناول مـواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض.

وذلك أمر لاخلاف فـيه لإجماع العلـماء على أن المجتهـد المطلق إذا أقام باجـتهاده دليلاً، مخالفاً لنص من كتاب أو سنة أو إجماع، أن دليله ذلك باطل بلا خلاف.

وأنه يرد بالقادح المسمى فى الأصول بفساد الاعتبار.

وفساد الاعتبار الذى هـو مخالفة الدليل لنص أو إجماع مـن القوادح التى لانزاع فى إبطال الدليل بها. وإليه الإشار بقول صاحب مراقى الصعود فى القوادح.

والخلف للنص أو إجماع دعا فسادا لاعتبار كل من وعى أهـ.

حكم التقليد

وبما ذكرنا تعلم أنه لا اجتهاد أصلاً ولاتقلـيد أصلاً فى شىء يخالف نصاً من كتاب أو سنة أو إجماع.

وإذا عرفت ذلك فـاعلم أن بعض النـاس من المتأخرين أجـاز التقليد، ولـو كان فيه مخالفة نصوص الوحى.

وعليه أكثر المقلدين للمذاهب فى هذا الزمان وأزمان قبله.

وبعض العـلماء **منع التقلـيد مطلقاً**،وممن ذهـب إلى ذلـك ابن خويـز منـداد من المالكية، والشوكانى فى القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد.

- **والتحقيق أن التقليد**

منه ماهو جائز.

ومنه ماليس بجائز.

ومنه مـاخالف فيه المـتأخرون المتقـدمين من الـصحابة وغيـرهم من القرون الـثلاثة المفضلة.

وسنذكر كل الأقسام هنا إن شاء الله مع بيان الأدلة.

النوع الأول :

أما التقليد الجائز: الذى لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامى عالماً أهلاً للفتيا فى نازلة نزلت به، وهذا النوع من التقليد كان شائعاً فى زمن النبى ﷺ ولاخلاف فيه.

فقد كان العامى، يسأل من شاء من أصحاب رسول الله ﷺ، عن حكم النازلة تنزل به فيفتيه فيعمل بفتياه.

وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابى الذى أفتاه أولاً بل يسأل عنها من شاء من أصحاب رسول الله ثم يعمل بفتياه.

قال صاحب نشر البنود فى شرحه لقوله فى «مراقى الصعود».

رجوعه لغيره فى آخر   يجوز للإجماع عند الأكثر

مانصه: يعنى أن العامى يجوز له عند الأكثر، الرجوع إلى قول غير المجتهد الذى استفتاه أولاً فى حكم آخر لإجماع الصحابة رضى الله عنهم، على أنه يسوغ للعامى السؤال لكل عالم، ولأن كل مسألة لها حكم نفسها.

فكما لم يتعين الأول للإتباع فى المسألة الأولى إلا بعد سؤاله، فكذلك فى المسألة الأخرى. قاله الحطاب شارح مختصر خليل.

قال القرافى : انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر.

وأجمع الصحابة على أن من استفتى أبا بكر وعمر وقلدهما فله أن يستفتى أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما، ويعمل بقولهم بغير نكير.

فمن أدعى رفع هذين الإجماعين فعليه الدليل أهـ. محل الغرض منه.

وما ذكره من انعقاد الإجماعين صحيح كما لايخفى، فالأقوال المخالفة لهما من متأخرى الأصوليين كلها مخالفة للإجماع.

وبعض العلماء يقول: إن تقليد العامى المذكور للعالم وعمله بفتياه من الاتباع لا من التقليد.

والصواب : أن ذلك تقليد مشروع مجمع على مشروعيته.

النوع الثانى: التقليد الذى لايجوز

أما ما ليس من التقليد بجائز لاخلاف فهو تقليد المجتهد الذى ظهر له الحكم باجتهاده، مجتهداً آخر يرى خلاف ماظهر له هو، للإجماع على أن المجتهد إذا ظهر له الحكم باجتهاده لايجوز له أن يقلد غيره المخالف لرأيه.

النوع الثالث:

وأما نوع التقليد الذى خالف فيه المتأخرون، الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير، فهو تقليد رجل واحد معين دون غيره، من جميع العلماء.

فإن هذا النوع من التقليد، لم يرد به نص من كتاب ولاسنة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير.

وهو مخالف لأقوال الأئمة- رحمهم الله- ، فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره، من جميع علماء المسلمين.

فتقليد العالم المعين من بدع القرن الرابع، ومن يدعى خلاف ذلك، فليعين لنا رجلاً واحداً من القرون الثلاثة الأول، التزم مذهب رجل واحد معين ولن يستطيع ذلك أبداً، لأنه لم يقع ألبتة. أهـ.

فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والإتباع.

قال ابن عبدالبر: قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد فى غير موضع من كتابه، فقال: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾(١).

وروى عن حذيفة وغيره قالوا : «لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم».

وقال عدى بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ، وفى عنقى الصليب فقال لى: «**ياعدى: ألق هذا الوثن من عنقك**، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ قال قلت يا رسول الله: إنا لم نتخذهم أرباباً. قال بلى **أليس يحلون لكم ماحرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ماأحل الله لكم فتحرمونه**؟ فقلت بلى فقال :**تلك عبادتهم**».

---

(١) التوبة ٣١.

(٢) تقدم تخريجه

حدثنا عبدالوارث بن سفيان ثم ساق السند إلى أن قال عن أبى البخترى فى قوله عزوجل: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكنهم أمروهم، فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية(١).

قال وحدثنا ابن وضاح، ثم ساق السند إلى أن قال عن أبى البخترى قال: قيل لحذيفة فى قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ فقال لا، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه(٢).

وقال جل وعز: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾(٣).

فمنعهم الإقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(٤).

وفى هؤلاء ومثلهم قال الله عزوجل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾(٥).

وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾(٦).

وقال عزوجل عائباً لأهل الكفر وذاماً لهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾(٧).

وقال ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾(٨).

ومثل هذا فى القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء.

وقد احتج العلماء بهذه الآيات، فى إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر.

---

(١) أخرجه ابن عبدالبر فى «جامع بيان العلم» (٢/١٠٩)

(٢) المصدر السابق

(٣) الزخرف: ٢٣، ٢٤

(٤) سبأ: ٣٤

(٥) الأنفال: ٢٢

(٦) البقرة: ١٦٦، ١٦٧

(٧) الأنبياء: ٥٢، ٥٣

(٨) الأحزاب: ٦٧

وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغيرحجة للمقلد، كما لو قلد رجل فكفر وقلد آخر فأذنب وقلد آخر فى مسألة دنياه فأخطأ وجهها ، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة.

لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الآثام فيه.

وقال الله عزوجل: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾**.

وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا فى الباب هذا، وفى ثبوته إبطال التقليد أيضاً.

فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التى يجب التسليم لها، وهى الكتاب والسنة أو ماكان فى معناهما بدليل جامع بين ذلك.

أخبرنا عبدالوارث ثم ساق السند إلى أن قال: حدثنا كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إنى لأخاف على أمتى من بعدى من أعمال ثلاثة، قال وماهى يارسول الله ؟ قال : أخاف عليهم من زلة العالم ومن حكم جائر، ومن هوى متبع**»(١).

وبهذا الإسناد عن النبى ﷺ أنه قال :«**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله**»(٢). هذا لفظ أبى عمر فى «جامعه».

وكثير بن عبدالله المذكور فى الإسناد ضعيف، وأبوه عبدالله مقبول.

ولكن المتنين المرويين بالإسناد المذكور كلاهما له شواهد كثيرة تدل على أن أصله صحيح.

ثم ذكر أبو عمر بن عبدالبر فى «جامعه» بإسناده عن زياد بن حدير عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: ثلاث يهدمن الدين : زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون(٣).

ثم ذكر بالإسناد المذكور عن ابن مهدى عن جعفر بن حبان، عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: إن فيما أخشى عليكم زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، والقرآن حق وعلى القرآن منار كأعلام الطريق(٤).

ثم أخرج بإسناده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه كان يقول فى مجلسه كل يوم، قلما يخطئه أن يقول ذلك «الله حكم قسط هلك المرتابون إن وراءكم فتنا يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمن والمنافق، والمرأة والصبى والأسود والأحمر

---

(١) أخرجه ابن عبدالبر فى «جامع بيان العلم» (٢/ ١١٠)

(٢) المصدر السابق (٣) المصدر السابق (٣) المصدر السابق

فيوشك أحدهم أن يقول : قد قرأت القرآن، فما أظن أن يتبعونى حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم(١).

إلى آخر ماذكره ـ رحمه الله ـ من الآثار الدالة على نحو ماتقدم من أن زلة العالم من أخوف المخاوف على هذه الأمة.

وإنما كانت كذلك لأن من يقلد العالم تقليداً أعمى يقلده فيما زل فيه فيتقول على الله أن تلك الزلة التى قلد فيها العالم من دين الله، وأنها مما أمر الله بها ورسوله، وهذا كما ترى والتنبيه عليه هو مراد ابن عبدالبر ومرادنا أيضاً بإيراد الآثار المذكورة.»

ثم قال أبو عمر بن عبدالبر ـ رحمه الله ـ فى «جامعه» مانصه:

وشبه الحكماء زلة العالم بانكسار السفينة ، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير.

وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطىء، لم يجز لأحد أن يفتى ويدين بقول لايعرف وجهه.

حدثنا عبدالرحمن بن يحيى ثم ساق السند إلى أن قال: عن ابن مسعود أنه كان يقول : «**اغد عالماً أومتعلماً ولاتغد إمعة فيما بين ذلك**»(٢).

ثم ساق الروايات فى تفسيرهم الإمعة.

ومعنى الإمعة معروف.

قال الجوهرى فى«صحاحه»: يقال الإمع والإمعة أيضاً للذى يكون لضعف رأيه مع كل أحد، ومنه قول ابن مسعود: لايكونن أحدكم إمعة. أهـ. منه.

ولقد أصاب من قال:

شمر وكن فى أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قِيد فانقادا

وذكر ابن عبدالبر بإسناده عن ابن مسعود فى تفسير الإمعة أنه قال:

كنا ندعو الإمعة فى الجاهلية الذى يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره، وهو فيكم اليوم المحقب دينه الرجال.

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال:

ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل كيف ذلك؟ قال :يقول العالم شيئاً برأيه ثم يجد من هو أعلم برسول الله ﷺ منه فيترك قوله ذلك ثم تمضى الأتباع(٣).

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل بن زياد النخعى، وهو حديث مشهور

(١) أخرجه ابن عبدالبر فى «جامع بيان العلم» (٢/ ١١١)
(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٢) (٣) المصدر السابق

عند أهل العلم، يستغنى عن الإسناد لشهرته عندهم: ياكميل إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة : فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، إلى آخر الحديث[1].

وفيه : أف لحامل حق لايصيره له، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة، لا يدرى أين الحق، إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدر، مشغوف بما لايدرى حقيقته، فهو فتنة لمن افتتن به، وإن من الخير كله من عرفه الله دينه،وكفى بالمرء جهلاً أن لايعرف دينه.

ولا شك أن المقلد غيره تقليداً أعمى يدخل فيما ذكره على رضى الله عنه فى هذا الحديث، ، لأنه لايدرى عن دين الله شيئاً إلا أن الإمام الفلانى عمل بهذا.

فعلمه محصور فى أن من يقلده من الأئمة ذهب إلى كذا ولايدرى أمصيب هو فيه أم مخطىء.

ومثل هذا لم يستضىء بنور العلم ولم يلجأ إلى ركن وثيق لجواز الخطأ على متبوعه، وعدم ميزه هو بين الخطأ والصواب.

ثم ذكر أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله فى «جامعه» بإسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال:

ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة فى الشر.

وقال فى «جامعه» أيضاً رحمه الله : وثبت عن النبى ﷺ مما قد ذكرناه فى كتابنا هذا أنه قال: **«تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالاً يسألون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون»**.

وهذا كله نفى للتقليد، وإبطال له لمن فهمه وهدى لرشده.

ثم ذكر رحمه الله آثاراً نحو ما تقدم ثم قال:

وقال : عبيد الله بن المعتمر: لافرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد.

وهذا كله لغير العامة، فإن العامة لابد لهامن تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها.

لأنها لاتتبين موقع الحجة ولاتصل لعدم الفهم إلى علم ذلك، لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها.

(١) المصدر السابق

وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة. والله أعلم.

ولاشك أن المقلد أعمى عما يفتى به لأن علمه به محصور فى أن فلاناً قاله مع علمه بأن فلاناً ليس بمعصوم من الخطأ والزلل.

ثم قال أبو عمر رحمه الله: وقال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ماهو به، فمن بان له الشيء فقد علمه.

قالوا: والمقلد لا علم له. ولم يختلفوا فى ذلك إلى أن قال رحمه الله، وقال أبو عبدالله بن خويز منداد البصرى المالكى.

التقليد: معناه فى الشرع الرجوع إلى قول لاحجة لقائله عليه.

وذلك ممنوع منه فى الشريعة.

والاتباع: ماثبت عليه حجة.

وقال فى موضع آخر من كتابه : كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله لدليل يوجب عليك ذلك فأنت مقلده.

والتقليد فى دين الله غير صحيح.

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه.

والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع.

وقال أبو عمر فى آخر كلامه فى هذا الباب مانصه.

ولا خلاف بين أئمة الأمصار فى فساد التقليد فأغنى ذلك عن الإكثار.

قال الشنقيطى: اعلم أن مما لابد منه معرفة، الفرق بين الاتباع والتقليد وأن محل الاتباع لايجوز التقليد فيه بحال.

وإيضاح ذلك: أن كل حكم ظهر دليله من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، أوإجماع المسلمين، لايجوز فيه التقليد بحال.

لأن كل اجتهاد يخالف النص، فهو اجتهاد باطل، ولاتقليد إلا فى محل الاجتهاد.

لأن نصوص الكتاب والسنة، حاكمة على كل المجتهدين، فليس لاحد منهم مخالفتها كائنا من كان.

ولايجوز التقليد فيما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً إذ لا أسوة فى غير الحق.

فليس فيما دلت عليه النصوص إلا الاتباع فقط.

ولا اجتهاد، ولاتقليد فيما دل عليه نص، من كتاب أو سنة، سالم من المعارض.

والفرق بين التقليد والاتباع أمر معروف عند أهل العلم، لايكاد ينازع فى صحة معناه أحد من أهل العلم.

كلام ابن خويز منداد الذى نقله عنه ابن البر فى «جامعه».

وهو قوله: التقليد معناه فى الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه فى الشريعة، والاتباع ما ثبت عليه حجة.

وقال فى موضع آخر من «كتابه»

كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد فى دين الله غير صحيح.

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه والاتباع فى الدين مسوغ والتقليد ممنوع. أهـ.

• الفرق بين التقليد والإتباع والأدلة على ذلك

وقال ابن القيم رحمه الله فى «اعلام الموقعين».

وقد فرق الإمام أحمد رحمه الله ـ بين التقليد والاتباع.

فقال أبو داود:

سمعته يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبى ﷺ وعن أصحابه، ثم هو من بعد فى التابعين مخير. انتهى محل الغرض منه.

قال مقيده عفا الله عنه، وغفر له: أما كون العمل بالوحى اتباعاً لاتقليداً فهو أمر قطعى

والآيات الدالة على تسميته اتباعاً كثيرة جداً.

كقوله تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

---

(١) الأعراف: ٣ (٢) الزمر: ٥٥ (٣) الأعراف: ٢٠٣.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وقوله تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى : ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٤).

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

فالعمل بالوحى، هو الاتباع كما دلت عليه الآيات.

ومن المعلوم الذى لاشك فيه، أن اتباع الوحى المأمور به فى الآيات لايصح اجتهاد يخالفه من الوجوه، ولايجوز التقليد فى شىء يخالفه.

فاتضح من هذا الفرق بين الاتباع والتقليد، وأن مواضع الاتباع ليست محلاً أصلاً للاجتهاد ولا للتقليد.

فنصوص الوحى الصحيحة الواضحة الدلالة السالمة من المعارض لا اجتهاد ولاتقليد معها ألبتة.

لأن اتباعها والإذعان لها فرض على كل أحد كائناً من كان كما لايخفى.

وبهذا تعلم أن شروط المجتهد التى يشترطها الأصوليون إنما تشترط فى الاجتهاد

وموضع الاتباع ليس محل اجتهاد.

فجعل شروط المجتهد فى المتبع مع تباين الاجتهاد والاتباع وتباين مواضعهما خلط وخبط، كما ترى .

والتحقيق أن اتباع الوحى لايشترط فيه إلا علمه بما يعمل به من ذلك الوحى الذى يتبعه.

وأنه يصح علم حديث والعمل به، وعلم آية والعمل بها.

---

(١) يونس : ١٥
(٢) الأنعام : ١٥٥
(٣) الأنعام : ١٠٦
(٤) الأحقاف : ٩

ولايتوقف ذلك على تحصيل جميع شروط الاجتهاد.

فيلزم المكلف أن يتعلم ما يحتاج إليه من الكتاب والسنة، ويعمل بكل ما علم من ذلك، كما كان عليه أول هذه الأمة، من القرون المشهود لها بالخير.

قبول قول الرسول صلى الله عليه وسلم والعمل به ليس تقليداً

قال الشوكانى (١): وقد عرفت من حد المقلد، على جميع الحدود المذكورة أن قبول قول النبى ﷺ ، والعمل به ليس من التقليد فى شىء؛ لأن قوله صلى الله عليه وآله وسلم وفعله نفسه الحجة.

قال القاضى حسين فى «التعليق»: لاخلاف أن قبول قول غير النبى صلى الله عليه وآله وسلم، من الصحابة، والتابعين، يسمى تقليدا، وأما قبول قوله صلى الله عليه وآله وسلم، فهل يسمى تقليدا؟ فيه وجهان يبنيان على الخلاف فى حقيقة التقليد ماهو؟

وذكر الشيخ أبو حامد أن الذى نص عليه الشافعى أنه يسمى تقليدا، فإنه قال فى حق قول الصحابى لما ذهب إلى أنه لايجب الأخذ به، مانصه: «وأما أن يقلده، فلم يجعل الله ذلك لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(٢) انتهى.

ولايخفاك أن مراده بالتقليد ههنا غير ما وقع عليه الاصطلاح، ولهذا قال الرويانى فى «البحر»: أطلق الشافعى على جعل القبول من النبى صلى الله عليه وآله وسلم تقليدا، ولم يرد حقيقة التقليد، وإنما أراد القبول من غير السؤال عن وجهه، وفى وقوع اسم التقليد عليه وجهان.

قال: والصحيح من المذهب أنه يتناول هذا الاسم.

قال الزركشى فى «البحر»: وفى هذا إشارة إلى رجوع الخلاف إلى اللفظ، وبه صرح إمام الحرمين فى «التلخيص» حيث قال: وهو اختلاف فى عبارة يهون موقعها عند ذوى التحقيق انتهى.

وبهذا تعرف أن التقليد بالمعنى المصطلح عليه لايشمل ذلك، وهو المطلوب.

قال ابن دقيق العيد: إن قلنا إن الأنبياء لايجتهدون؛ فقد علمنا أن سبب أقوالهم الوحى، فلا يكون تقليدا، وإن قلنا إنهم يجتهدون؛ فقد علمنا أن السبب أحد الأمرين:

---

(١) إرشاد الفحول (١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٨)

(٢) انظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٠) المستصفى (٢/ ١٢٢)

إما الوحى، أو الاجتهاد، وعلى كل تقدير، فقد علمنا السبب، واجتهادهم اجتهاد معلوم العصمة انتهى.

وقد نقل القاضى فى «التقريب» الإجماع على أن الآخذ بقول النبى صلى عليه وآله وسلم والراجع إليه ليس بمقلد، بل هو صائر إلى دليل وعلم يقين انتهى(١).

تقليد العامة للعلماء

ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول الله عزوجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

وأجمعوا على أن الأعمى لابد له من تقليد غيرهم ممن يثق بميزه فى القبلة إذا أشكلت عليه.

فكذلك من لاعلم له ولابصر بمعنى مايدين به لابد من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لايجوز لها الفتيا.

وذلك والله أعلم لجهلها بالمعانى التى منها يجوز التحريم والتحليل، والقول فى العلم.

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: **من قال على مالم أقل فليتبوأ مقعده من النار، ومن استشار أخاه فأشار عليه بغير رشده فقد خانه، ومن أفتى بفتيا من غير ثبت فإنما إثمها على من أفتاه**»(٣)

ثم ذكر بسنده أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: من أفتى بفتيا وهو يعمى عنها كان إثمها عليه(٤) . أهـ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٠)

(٢) النحل: ٤٣. والأنبياء: ٧

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٥٧)، وابن عبد البر فى «الجامع» (٢/ ١١٦)

(٤) أخرجه ابن عبد البر فى «الجامع» (٢/ ١١٦)

حجج المقلدين

قال الشنقيطى ملخصاً لكلام ابن القيم فى «إعلام الموقعين».

واعلم أن حاصل جميع حجج المقلدين منحصر فى قولهم.

(١) نحن معاشر المقلديـن ممتثلون قول الله تعالى : ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾

فأمر سبحانه من لاعلم له أن يسأل من هو أعلم منه، وهذا نص قولنا.

(٢) وقد أرشد النبى ﷺ من لايعلم إلى سؤال مـن يعلم، فقال فى حديث صاحب الشجة : «**ألا سألوا إذا لم يعلموا، إنما شفاء العيى السؤال**»(١).

(٣) وقال أبو العسيف الذى زنى بامرأة مستأجرة: «وإنى سألت أهل العلم فأخبرونى أن ماعلى ابنى جلد مائة وتغريب عام، وأن على امـرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه تقليد من هو أعلم منه»(٢).

(٤) وهذا عالم الأرض عمر قد قلد أبا بكر.

فروى شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبى أن أبا بكر قال فى الكلالة: أقضى فيها فإن يكن صواباً فمـن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطـان، والله منه برىء: هو ما دون الولد والوالد، فقال عمر بن الخطاب إننى لأستحيى من الله أن أخالف أبا بكر(٣).

(٥) وصح عنه أنه قال له:

رأينا لرأيك تبع.

(٦) وصح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر.

(٧) وقال الشعبى عـن مسروق: كان ستة من أصحاب رسول الله ﷺ يـفتون الناس ابن مسعود وعمر بن الخطاب وعلى وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وأبو موسى.

وكان ثلاثة منهم يدعون قولهم لقول ثلاثة.

كان عبدالله يدع قولـه لقول عمر، وكان أبو موسى يدع قول لـقول على، وكان زيد يدع قوله لقول أبى بن كعب.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٦٩٥)، ومسلم فى الحدود (١١/ ٢٠٥ ـ النووى) عن أبى هريرة به. وأنظر «منار السبيل» (بتخريجنا

(٣) أخرجه الدارمى فى سننه ٢/ ٣٦٥ـ ٣٦٦)

وقال جندب : ماكنت أدع قول ابن مسعود لقول أحد من الناس.

(٨) وقد قال النبى ﷺ **«إن معاذاً قد سن لكم سنة فكذلك فافعلوا»** فى شأن الصلاة حيث أخر فصلى مافاته من الصلاة مع الإمام بعد الفراغ، وكانوا يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام.

وقال المقلدة أيضاً :

(٩) وقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر وهم العلماء أو العلماء والأمراء، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به.

فإنه لولا التقليد لم يكن هناك طاعة تختص بهم

ثم نقل الشنقيطى عن ابن القيم بقية أدلتهم التى بلغت خمسا وخمسين دليلاً ثم قال:

مقدمة بين يدى الرد على حجج المقلدة:

قال فى «إعلام الموقعين» بعد ذكره حجج المقلدين التى ذكرناها آنفاً مانصه:

قال أصحاب الحجة:

عجباً لكم معاشر المقلدين، الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من أهله، ولامعدودين فى زمرة أهله.

كيف أبطلتم مذهبكم، بنفس دليلكم، فما للمقلد وما للاستدلال؟

وأين منصب المقلد من منصب المستدل؟

وهل ماذكرتم من الأدلة إلا ثياباً استعرتموها، من صاحب الحجة فتجملتم بها، بين الناس، وكنتم فى ذلك متشبهن بما لم تعطوه، ناطقين من العلم بما شهدتم على أنفسكم أنكم لم تؤتوه، وذلك ثوب زور لبستموه، ومنصب لستم من أهله غصبتموه.

فأخبرونا، هل صرتم إلى التقليد لدليل قادكم إليه، وبرهان دلكم عليه، فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل، وكنتم به عن التقليد بمعزل، أم سلكتم سبيله اتفاقاً، وتخميناً من غير دليل.

وليس إلى خروجكم عن أحد هذين القسمين، سبيل، وأيهما كان فهو بفساد مذهب التقليد حاكم، والرجوع إلى مذهب الحجة منه لازم.

ونحن إن خاطبناكم بلسان الحجة، قلتم لسنا من أهل هذا السبيل، وإن خاطبناكم بحكم التقليد، فلامعنى لما أقمتموه من الدليل.

والعجب أن كل طائفة من الطوائف، وكل أمة من الأمم، تدعى أنها على حق، حاشا فرقة التقليد، فإنهم لايدعون ذلك، ولو ادعوه لكانوا مبطلين، فإنهم شاهدون على أنفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلك الأقوال لدليل قادهم إليها، وبرهان دلهم عليها، وإنما سبيلهم محض التقليد.

والمقلد لايعرف الحق من الباطل، ولا الحالى من العاطل.

وأعجب من هذا أن أئمتهم نهوهم عن تقليدهم فعصوهم وخالفوهم، وقالوا نحن على مذاهبهم، وقد دانوا بخلافهم فى أصل المذهب الذى بنوا عليه.

فإنهم بنوا على الحجة ونهوا عن التقليد وأوصوهم إذا ظهر الدليل أن يتركوا أقوالهم ويتبعوه، فخالفوهم فى ذلك كله.

وقالوا نحن من أتباعهم، تلك أمانيهم، وما أتباعهم إلا من سلك سبيلهم، واقتفى اثارهم فى أصولهم وفروعهم.

وأعجب من هذا أنهم مصرحون فى كتبهم ببطلان التقليد، وتحريمه، وأنه لايحل القول به فى دين الله.

ولو أشترط الإمام على الحاكم أن يحكم بمذهب معين لم يصح شرطه ولاتوليته.

ومنهم من صحح التولية وأبطل الشرط.

وكذلك المفتى عليه الإفتاء بما لايعلم صحته باتفاق الناس.

والمقلد لا علم له بصحة القول وفساده إذ طريق ذلك مسدودة عليه.

ثم كل منهم يعرف من نفسه أنه مقلد لمتبوعه لايفارق قوله، ويترك له كل ماخالفه من كتاب أوسنة أو قول صاحب، أو قول من هو أعلم من متبوعه أونظيره.

وهذا من أعجب العجب.

وأيضاً فإنا نعلم بالضرورة، أنه لم يكن فى عصر الصحابة، رجل واحد اتخذ رجلاً منهم يقلده فى جميع أقواله، فلم يسقط منها شيئاً وأسقط أقوال غيره، فلم يأخذ منها شيئاً.

ونعلم بالضرورة، أن هذا لم يكن فى عصر التابعين، ولاتابعى التابعين.

فليكذبنا المقلدون برجل واحد، سلك سبيلهم الوخيمة، فى القرون الفضيلة على لسان رسول الله ﷺ.

وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسانه ﷺ.(*)

فالمقلدون لمتبوعهم في جميع ما قالوه، يبيحون به الفروج، والدماء والأموال، ويحرمونها، ولايدرون أذلك صواب أم خطأ على خطر عظيم، ولهم بين يدى الله موقف شديد يعلم فيه من قال على الله مالا يعلم أنه لم يكن على شيء أهـ. محل الغرض منه بلفظه.

وعلى كل حال فأنتم أيها المقلدون: تقولون إنه لايجوز العمل بالوحى إلابخصوص المجتهدين فلم سوغتم لأنفسكم الاستدلال على التقليد بآية: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(١) وآية ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾(٢).

هل رجعتم عن قولكم بأن الاستدلال بالوحى لايجوز لغير المجتهد، أو ارتكبتم ما تعتقدون أنه حرام من استدلالكم بالقرآن مع شدة بعدكم عن رتبة الاجتهاد؟

وفى هذا رد إجمالى لما استدللتم به على التقليد الذى أنتم عليه.

ثم يقال: أليست هذه الآيات التى استدللتم بها فى زعمكم، من ظواهر الكتاب، التى سن لكم الصاوى وأمثاله، أن العمل بها من أصول الكفر.

فإنه لم يستثن شيئاً من ظواهر القرآن يكون العمل به ليس من أصول الكفر.

فلم تجرأتم على شيء هو من أصول الكفر وسوغتم لأنفسكم الاستدلال بالقرآن، مع أنه لايجوز عندكم إلا للمجتهدين.

وسنذكر رد استدلال المقلدين تفصيلاً، بإيجاز إن شاء الله تعالى.

(١) أما استدلالهم بآية ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ فهو استدلال فى غير محله.

فإن الآية لاتدل على هذا النوع من التقليد الأعمى الذى هو عليه من التزم جميع أقوال رجل واحد وترك جميع ما سواها.

ولاشك أن المراد بأهل الذكر أهل الوحى الذين يعلمون ماجاء من عند الله كعلماء الكتاب والسنة .

فقد أمروا أن يسألوا أهل الذكر ليفتوهم بمقتضى ذلك الذكر الذى هو الوحى.

ومن سأل عن الوحى وأعلم به، وبين له كان عمله به اتباعاً للوحى لا تقليداً واتباع الوحى لانزاع فى صحته.

(*) تقدم ذلك فى حكم التقليد فى النوع الثالث (١) النحل: ٤٣ (٢) التوبة: ١٢٢.

وإن كانت الآية تدل على نوع تقليد فى الجملة، فهى لاتدل إلا على التقليد الذى قدمنا أنه لاخلاف فيه بين المسلمين، وهو تقليد العامى الذى تنزل به النازلة عالماً من العلماء، وعمله بما أفتاه به من غير التزام منه لجميع ما يقوله ذلك العالم، ولاتركه لجميع مايقوله غيره.

(٢) وأما استدلالهم بالحديث الوارد فى الرجل الى أصابته شجة فى رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه: هل يعلمون له رخصة فى التيمم؟

فقالوا : مانرى لك رخصة وأنت قادر على الماء، فاغتسل فمات.

فبلغ النبى ﷺ فقال «**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العيى السؤال**»(١).

فهو استدلال أيضاً فى غير محله، وهو حجة أيضاً على المقلدين لا لهم.

قال فى إعلام الموقعين فى بيان وجه ذلك مانصه:

إن النبى ﷺ إنما أرشد المستفتين، كصاحب الشجة بالسؤال عن حكمه، وسنته فقال: .

«**قتلوه قتلهم الله**»، فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم.

وفى هذا تحريم الإفتاء بالتقليد.

فإنه ليس علماً باتفاق الناس.

فإنما دعا رسول الله ﷺ على فاعله، فهو حرام وذلك أحد أدلة التحريم .

فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم.

(٣) وكذلك سؤال أبى العسيف الذى زنى بامرأة مستأجرة لأهل العلم (٢).

(٤) وأما استدلالهم بأن عمر قال فى الكلالة: إنى لأستحيى من الله أن أخالف أبا بكر(٣)،وأن ذلك تقليد منه له. فلا حجة لهم فيه أيضاً.

وخلاف عمر لأبى بكر رضى الله عنهما أشهر من أن يذكر .

كما خالفه فى سبى أهل الردة فسباهم أبو بكر، وخالفه عمر.

وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلهن إلا لمن ولدت لسيدها منهن.

ونقص حكمه، ومن جملتهن خولة الحنفية أم محمد بن على .

---

(١) سبق تخريجه (٢) سبق تخريجه (٣) سبق تخريجه

وخالفه فى أرض العنوة فقسمها أبو بكر ووقفها عمر.

وخالفه فى المفاضلة فى العطاء، فرأى أبو بكر التسوية، ورأى عمر المفاضلة.

وخالفه فى الاستخلاف، فاستخلف أبوبكر عمر على المسلمين، ولم يستخلف عليهم عمر أحداً إيثاراً لفعل رسول الله ﷺ على فعل أبى بكر رضى الله عنهم(١).

وخالفه فى الجد والإخوة، مع أن خلاف أبى بكر الذى استحيى منه عمر هو خلافه فى قوله: إن يكون صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان، والله منه بريء، هو مادون الولد والوالد (٢) فاستحيى عمر من مخالفة أبى بكر فى اعترافه بجواز الخطأ عليه، وأنه ليس كلامه كله صواباً مأموناً عليه الخطأ.

ويدل على ذلك أن عمربن الخطاب رضى الله عنه أقر عند موته أنه لم يقض فى الكلالة بشيء.

وقد اعترف أنه لم يفهمها(٣)، قاله فى «إعلام الموقعين».

ومن العجب: استدلال المقلدين على تقليدهم، باستحياء عمر من مخالفة أبى بكر، مع أنهم لم يستحيوا من مخالفة أبى بكر وعمر، وجميع الصحابة، ومخالفة الكتاب والسنة إذا كان ذلك، لايوافق مذهب إمامهم، كما هو معلوم من عادتهم.

وكما أوضحه الصاوى فى الكلام على قوله تعالى **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾**(٤).

فقد قال: إن من خرج عن المذاهب الأربعةفهو ضال مضل، ولو وافق الصحابة، والحديث الصحيح والآية.

وربما أداه ذلك إلى الكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر!

فمن هذا مذهبه ودينه، كيف يستدل باستحياء عمر من مخالفة أبى بكر(٥)؟

بل كيف يستدل بنص من نصوص الوحي، أو قول أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؟

مع أن أبا بكر خليفة راشد أمر النبى بالاقتداء به فى قوله: **«عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»** (٦). الحديث.

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى الأحكام حديث (٧٢١٨)، ومسلم فى الإمارة (٦/٤٤٤/١١) عن ابن عمر به

(٢) سبق تخريجه

(٣)**[صحيح]** أخرجه مسلم فى الفرائض (٦/٦٣/٩)

(٤) الكهف: ٢٣، ٢٤

(٥) سبق تخريجه

(٦) تقدم تخريجه

فليس الاقتداء بالخلفاء كالإقتداء بغيرهم.

(٥)وأما استدلالهم على تقليدهم بقول عمر لأبى بكر رضى الله عنهما: رأينا لرأيك تبع.

فيكفى فى رده ما قدمنا قريباً، من مخالفة عمر لأبى بكر، مع القصة التى قال له فيها رأينا لرأيك تبع، رد فيها على أبى بكر بعض ما قاله.

وأيد الصحابة ما قال عمر فى رده على أبى بكر رضى الله عنهما.

لأن الحديث المذكور فى وفد بزاخة من أسد وغطفان حين قدموا على أبى بكر يسألونه الصلح، فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية والسلم المخزية.

فقالوا هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية؟

قال: تنزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا لكم وتردون لنا ما أصبتم منا؟ وتدون لنا قتلانا إلى آخر كلامه.

وفيه : فقام عمر بن الخطاب فقال: قد رأيت رأياً سنشير عليك.

أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ماذكرت.

وما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم،وتردون ما أصبتم منا، فَنِعمَ ماذكرت.

وأما ما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم فى النار.

فإن قتلانا قد قاتلت فقتلت على ما أمر الله أجورها على الله، ليس لها ديات.

فتتابع القوم على ما قال عمر رضى الله عنه.

فهذه القصة الثابتة: هى التى فى بعض ألفاظها ورأينا لرأيك تبع.

وأنت ترى عمر رضى الله عنه لم يقلد فيها أبا بكر رضى الله عنه، إلا فيما يعتقد صوابه.

فإنما ظهر له أنه صواب قال له فيه: نعم ماذكرت.

وما ظهر له أنه ليس بصواب رده على أبى بكر، وهو قول أبى بكر بدفع ديات الشهداء.

لان عمر يعتقد أن الشهيد فى سبيل الله لادية له، لأن الله يقول: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**(١).

(١) التوبة: ١١١

وذلك يوضح ذلك أن الصحابة رضى الله عنهم لايعدلون عن الكتاب والسنة إلى قول أحد.

(٦) وأما احتجاجهم بتقليد ابن مسعود لعمر فهو ظاهر السقوط، ولو وافق عمر فى بعض المسائل فهو من قبيل موافقة بعض العلماء لبعض، لاتفاق رأيهم لالتقليد بعضهم لبعض.

وقد خالف ابن مسعود عمر رضى الله عنهما فى مسائل كثيرة جداً، كمخالفته له فى أم الولد، لأن ابن مسعود يقول فيها إنها تعتق من نصيب ولدها، ومن ذلك أن ابن مسعود كان يطبق فى ركوعه إلى أن مات، وعمر كان يضع يديه على ركبتيه.

وكان ابن مسعود يقول فى الحرام هى يمين وعمر يقول: إنه طلقة واحدة.

وكان ابن مسعود يحرم النكاح بين الزانيين وعمر يتوبهما، وينكح أحدهما الآخر.

وكان ابن مسعود يرى بيع الأمة طلاقها، وعمر يرى عدم ذلك وأمثال هذا كثيرة معلومة.

مع أن ابن مسعود يقول: إنه أعلم الصحابة بكتاب الله وأنه لو كان أحداً أعلم منه به لرحل إليه.

ولم ينكر عليه أحد من الصحابة .

وقد قدمنا عنه قوله: كن عالماً أومتعلماً ولا تكن إمعة.

فليس ابن مسعود من أهل التقليد، مع أن المقلدين المحتجين بتقليد ابن مسعود لعمر، لايقلدون ابن مسعود، ولاعمر ولاغيرهما من أصحاب رسول الله ﷺ.

ولايأخذون بقول الله ولا رسوله وإنما يفضلون على ذلك كله تقليد أحد الأئمة أصحاب المذاهب رحمهم الله.

(٧) وأما استدلالهم على التقليد بأن عبدالله كان يدع قوله لقول عمر.

وأبو موسى كان يدع قوله لقول على.

وزيد يدع قوله لقول أبى بن كعب فهو ظاهر السقوط أيضاً

لأنه من المعلوم أن الصحابة المذكورين رضى الله عنهم لايدعون سنة رسول الله ﷺ لقول أحد، وهذا لاشك فيه.

وكان ابن عمر يدع قول عمر، إذا ظهرت له السنة.

وكان ابن عباس يقول: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول : قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر[1].

قلت: وهذا الأثر هو الذى معنا فى هذا الباب من كتاب التوحيد

(٨) وأما استدلالهم على التقليد بأن معاذاً رضى الله عنه صلى مسبوقاً فصلى ماأدرك مع الإمام أولاً ثم قضى ما فاته بعد سلام الإمام، وكانوا قبل ذلك يصلون مافاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام فى الباقى.

وأن النبى ﷺ قال فى ذلك «**إن معاذاً قد سن لكم سنة، فكذلك فافعلوا**» فهو ظاهر السقوط أيضاً، لأن ذلك لم يكن سنة إلا بأمر رسول الله ﷺ كما لايخفى.

فلاحجة قطعاً فى قول أحد كائناً من كان، ورسول الله ﷺ موجود

وإنما العبرة بقوله ﷺ وفعله وتقريره.

وهذا معلوم بالضرورة من الدين.

(٩) وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[2] .

قائلين إن المراد بأولى الأمر العلماء، وأن طاعتهم المأمور بها فى الآية هى تقليدهم، فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأنه لايجوز طاعة أولى الأمر إجماعاً فيما خالف كتاباً أوسنة، ولاطاعة لهم إلا فى المعروف كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عنه ﷺ.

ولانزاع بين المسلمين فى أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

والتحقيق فى معنى الآية الكريمة أن المراد بأولى الأمر: ما يشمل الأمراء والعلماء.

لأن العلماء مبلغون عن الله وعن رسوله، والأمراء منفذون، ولاتجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه.

لأن ما أمر به أولو الأمر لايخلو من أحد أمرين.

أحدهما : أن يكون طاعة لله ولرسوله من غيرنزاع، وطاعة أولى الأمر فى مثل هذا من طاعة الله ورسوله

والثانى: أن يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله أو لا؟

---

(١) تقدم تخريجه

(١) النساء : ٥٩

وفى هذه الحالة لاتجوز الطاعة العمياء لأولى الأمر ولا التقليد الأعمى كما صرح الله تعالى بذلك فى نفس الآية.

لأنه تعالى لما قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ واتبع ذلك بقوله ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(١)

فالآية صريحة فى رد كل نزاع إلى الله ورسوله.

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله ﷺ، هو الرد إليه فى حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته ﷺ.

وبعض الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق، كحديث ابن عمر أن النبى ﷺ قال «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة»(٢).

وحديث على رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال فى السرية الذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا فى النار «لو دخلوها ماخرجوا منها أبداً إنما الطاعة فى المعروف»(٣).

وفى الكتاب العزيز: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

ولايخفى أن طاعة الله وطاعة رسوله المأمور بها فى الآية لا يتحقق وجودها إلا بمعرفة أمر الله ورسوله ونهى الله ورسوله.

والمقلدون مقرون على أنفسهم بأنهم لايعلمون أمر الله ولانهيه، ولا أمر رسوله ولا نهيه.

وغاية مايدعون علمه هو أن الإمام الذى قلدوه قال كذا، مع عجزهم عن التمييز بين ما هوخطأ وماهو صواب، بل أكثرهم لايميزون بين قول الإمام وبين ما ألحقه أتباعه بعده مما قاسوه على أصول مذهبه.

ولاشك أن طاعة العلماء هى اقتفاء ما كانوا عليه من النظر فى كتاب الله وسنة رسوله وتقديمها على كل قول وعلى كل رأى كائناً ماكان.

فمن قلدهم التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنة لأقوالهم، فهو المخالف لهم المتباعدعن طاعتهم كما تقدم.

---

(١) النساء: ٥٩ (٢) تقدم تخريجه (٣) تقدم تخريجه

ردود عقلية على المقلدين

وقال أبو عمر بن عبد البر ـ رحمه الله ـ ، فى كلامه عن التقليد مانصه:

وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعدما تقدم.

فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزنى ـ رحمه الله ـ، وأنا أورده قال:

يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما حكمت به؟

فإن قال: نعم، أبطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد.

وإن قال: حكمت به بغير حجة.

قيل له : فلم أرقت الدماء، وأبحت الفروج وأتلفت الأموال، وقد حرم الله ذلك إلا بحجة.

قال الله عزوجل ﴿**إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا**﴾ أى من حجة بهذا؟

فإن قال: أنا أعلم أنى قد أصبت وإن لم أعرف الحجة، لأنى قلدت كبيراً من العلماء وهو لايقول إلا بحجة خفيت على .

قيل له: إذا جاز تقليد معلمك لأنه لايقول إلابحجة خفيت عليك، فتقليد معلم معلمك أولى لأنه لايقول إلا بحجة خفيت على معلمك: كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك.

فإن قال : نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه.

وكذلك من هو أعلا حتى ينتهى الأمر إلى أصحاب رسول الله ﷺ.

وإن أبى ذلك نقض قوله.

وقيل له: كيف تجوز تقليد من هو أصغر، وأقل علماً؟

ولاتجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علماً، وهذا تناقض؟

فإن قال: لأن معلمى وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك.

قيل له : كذلك من تعلم من معلمك، فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمه، فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك.

وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك. لأنك جمعت علم معلمك وعلم من هو فوقه إلى علمك.

فإن أعاد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء، أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه فى قياس قوله. و الأعلى للأدنى أبداً.

وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً أهـ.

ثم قال أبو عمر رحمه الله بعد هذا ما نصه:

يقال لمن قال بالتقليد: لم قلت به، وخالفت السلف فى ذلك فإنهم لم يقلدوا؟

فإن قال: قلدت لأن كتاب الله لا علم لى بتأويله وسنة رسولهﷺ لم أحصها والذى قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم منى.

قيل له: أما العلماء، إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية عن سنة رسوله ﷺ، أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لاشك فيه.

ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض.

فما حجتك فى تقليد بعضهم دون بعض.

وكلهم عالم، والعالم الذى رغبت عن قوله، أعلم من الذى ذهبت إلى مذهبه.

فإن قال: قلدته لأنى أعلم أنه صواب.

قيل له: علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع؟

فإن قال: نعم أبطل التقليد وطولب بما إدعاه من الدليل.

وإن قال: قلدته لأنه أعلم منى.

قيل له: فقلد كل من هو أعلم منك.

فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً ولاتخص من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك.

فإن قال: قلدته لأنه أعلم الناس.

قيل له: فإنه إذاً أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً.

فإن قال: أنا أقلد بعض الصحابة.

قيل له: فما حجتك في ترك من لم تقلد منهم، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله؟

على أن القول لايصح لفضل قائله، وإنما يصح بدلالة الدليل عليه.

وقد ذكر ابن مزين بن عيسى بن دينار، عن ابن القاسم عن مالك، قال ليس كل ما قال رجل قولاً وإن كان له فضل يتبع عليه لقول الله عزوجل: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ . فإن قال قصرى وقلة علمى يحملنى على التقليد.

قيل له: أما من قلد فيما ينزل؛ من أحكام شريعته عالماً يتفق له على علمه، فيصدر فى ذلك عما يخبره فمعذور، لأنه قد أدى ماعليه وأدى مالزمه فيما نزل به لجهله ولابد له من تقليد عالم، فيما جهله، لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره فى القبلة لأنه لايقدر على أكثر من ذلك.

ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا فى شرائع دين الله؟ فيحمل غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء واسترقاق الرقاب وإزالة الأملاك ويصيرها إلى غير من كانت فى يديه بقول لايعرف صحته ولاقام له الدليل عليه؟

وإن كان متبع هل يجوز له أن يفتى أو يقول بما يترجح عنده؟

وهو مقر أن قائله يخطىء ويصيب، وأن مخالفه فى ذلك ربما كان المصيب، فيما خالفه فيه.

فإن أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع، لزمه أن يجيزه للعامة وكفى بهذا جهلاً، ورداً للقرآن قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(١). وقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

وقد أجمع العلماء على أن مالم يتبين ويتيقن فليس بعلم، وإنما هو ظن، والظن لا يغنى من الحق شيئاً أهـ. كله من «جامع ابن عبدالبر» رحمه الله.

تنبيهات(*) مهمة تتعلق بمسالة التقليد

اعلم أن المقلدين، اغتروا بقضيتين ظنوهما صادقتين، وهما بعيدتان من الصدق. وظن صدقهما يدخل أولياً فى عموم قوله تعالى ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ وقوله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(٣).

(١) الإسراء: ٣٦ (٢) الأعرف: ٢٨

(*) ذكرها الشنقيطى فى «أضواء البيان» (٧/ ٣٥١:٣٩٢)

(٣)[صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٢٠ ـ النووى) عن أبى هريرة به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٢٣٧ ـ بتخريجنا)

فإنهم ظنوا أن بعض أسباب رد الشرع لقول الشيخ ممن يلقده منهما فهى ظنهم، أن الإمام الذى قلدوه لابد أن يكون قد اطلع على جميع معانى كتاب الله، ولم يفته منها شيء.

ولذلك فإن كل آية وكل حديث قد خالفا قوله فلاشك عندهم أن ذلك الإمام اطلع على تلك الآية وعلم معناها، وعلى ذلك الحديث وعلم معناه.

وأنه ماترك العمل بهما إلا لأنه أطلع على ماهو أقوى منهما وأرجح.

ولذلك يجب تقديم ذلك الأرجح الذى تخيلوه شيء من الوحى الموجود بين أيديهم وهذا الظن كذب باطل بلا شك والأئمة كلهم معترفون بأنه ما أحاطوا بجميع نصوص الوحى كما تقدم إيضاحه

ومن أصرح ذلك أن الإمام مالكاً رحمه الله، إمام دار الهجرة المجمع على علمه وفضله وجلالته، لما أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس على العمل بما جمعه فى موطئه لم يقبل ذلك من أبى جعفر ورده عليه.

وأخبره أن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى أقطار الدنيا، كلهم عنده علم ليس عند الآخر.

ولم يجمع الحديث جمعاً تاماً بحيث أمكن جمع جميع السنة إلا بعد الأئمة الأربعة.

لأن أصحاب رسول الله ﷺ الذين تفرقوا فى أقطار الدنيا روى عنهم كثير من الأحاديث لم يكن عند غيرهم، ولم يتيسر الإطلاع عليه إلا بعد أزمان.

وكثرة علم العالم لاتستلزم إطلاعه على جميع النصوص.

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو عجز عن أن يفهم معنى الكلالة حتى مات رضى الله عنه.

وقد سأل النبى ﷺ عنها كثيرا فبينها له ولم يفهم.

فقد ثبت عنه رضى الله عنه أنه قال: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مماسألته عن الكلالة، حتى طعن بإصبعه فى صدرى، وقال لى«**يكفيك آية الصيف فى آخر سورة النساء**»

فهذا من أوضح البيان، لأن مراد النبى ﷺ بآية الصيف﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ**﴾(١). والآية تبين معنى الكلالة بياناً شافيا، لأنها أوضحت أنها: مادون الولد والوالد.

---

(١) تقدم قريباً (٢) النساء: ١٧٦

فبينت نفى الولد بدلالة المطابقة فى قوله تعالى ﴿إن امرؤٌ هلك ليس له ولدٌ﴾ وبينت نفى الوالد بدلالة الالتزام فى قوله تعالى ﴿وله أختٌ فلها نصف ما ترك﴾لأن ميراث الأخت يستلزم نفى الوالد.

ومع هذا البيان النبوى الواضح لهذه الآية الكريمة، فإن عمر رضى الله عنه لم يفهم. وقد صح عنه أن الكلالة لم تزل مشكلة عليه.

وقد خفى معنى هذا أيضاً على أبى بكر الصديق رضي الله عنه فقال فى الكلالة: أقول فيها برأيى. فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان، هو مادون الولد والوالد.

فوافق رأيه معنى الآية.

والظاهر أنه لو كان فاهماً للآية لكفته عن الرأى.

كما قال النبى ﷺ لعمر رضى الله عنه. «تكفيك آية الصيف».

وهو تصريح منه ﷺ بأن فى الآية كفايةعن كل ماسواها فى الحكم المسؤول عنه.

ومما يوضح ذلك أن عمر طلب من النبى ﷺ بيان الآية.

وتأخير البيان عن وقت الحاجة لايجوز فى حقه ﷺ.

فماأحال عمر على الآية إلا لأن فيها من البيان مايشفى ويكفى.

وقد خفى على أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن النبى ﷺ «أعطى الجدة السدس حتى أخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبى ﷺ أعطاها السدس»[(1)] فرجع إلى قولهما.

ولم يعلم عمر رضى الله عنه بأن النبى ﷺ: قضى فى دية الجنين بغرة عبد أو وليدة حتى أخبره المذكوران قبل.

ولم يعلم عمر رضى الله عنه بأن المرأة ترث من دية زوجها. حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن النبى ﷺ كتب إليه: أن يورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها.

ولم يعلم أيضاً بأخذ الجزية من المجوس حتى أخبره عبدالرحمن بن عوف. بأن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر.

ولم يعلم بحكم الاستئذان ثلاثاً حتى أخبره أبو موسى الأشعرى وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٩٤)، والترمذى (٢١٠٠)، والنسائى فى «الكبرى»(٦٣٣٩)، وابن ماجه (٢٧٢٤)

وأنظر «السلسبيل» (١٩٥١ بتخريجنا)

ولم يعلم عثمان رضى الله عنه بوجوب السكنى للمتوفى عنها حتى أخبرته فريعة بنت مالك أن النبى ﷺ ألزمها بالسكنى في المحل الذى مات عنها زوجها فيه حتى تنقضى عدتها.

وأمثال هذا أكثر من أن تحصر.

فهؤلاء الخلفاء الراشدون وهم هم، خفى عليهم كثيرمن قضايا رسول الله ﷺ وأحاديثه مع ملازمتهم له، وشدة حرصهم على الأخذ منه.

فتعلموه ممن هو دونهم في الفضل والعلم فما ظنك بغيرهم من الأئمة الذين نشأوا وتعلموا بعد تفرق الصحابة فى أقطار الدنيا؟

وروى عنه الأحاديث عدول من الأقطار التى ذهبوا إليها؟

والحاصل: أن ظن إحاطة الإمام بجميع نصوص الشرع ومعانيها ظن لايغنى من الحق شيئاً، وليس بصحيح قطعاً.

لأنه لاشك أنه يفوته بعض الأحاديث فلم يطلع عليها ويرويه بعض العدول عن الصحابة فيثبت عند غيره.

وهو معذور فى ترك العمل به، بعدم إطلاعه عليه مع أنه بذل المجهود فى البحث.

ولذا كان له أجر الاجتهاد والعذر فى الخطأ.

هل للمقلد عذر فى الخطأ كما للمجتهد؟

ظن المقلدون أن لهم مثل ماللإمام من العذر فى الخطأ.

وإيضاحه: أنهم يظنون أن الإمام لو أخطأ فى بعض الأحكام وقلدوه فى ذلك الخطأ يكون لهم من العذر فى الخطأ والأجر مثل ما لذلك الإمام الذى قلدوه

لأنهم متبعون له فيجرى عليهم ماجرى عليه.

وهذا ظن كاذب باطل بلاشك. لأن الإمام الذى قلدوه بذل جهده فى تعلم كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أصحابه وفتاويهم.

فقد شمر وما قصر فيما يلزم من تعلم الوحى والعمل به وطاعة الله على ضوء الوحى المنزل.

ومن كان هذا شأنه فهو جدير بالعذر فى خطئه والأجر فى اجتهاده.

وأما مقلدوه فقد تركوا النظر فى كتاب الله وسنة رسوله وأعرضوا عن تعلمها إعراضاً

كلياً مع يسره وسهولته ونزلوا أقوال الرجال الذين يخطئون ويصيبون منزلة الوحى المنزل من الله.

فأين هؤلاء من الأئمة الذين قلدوهم؟

وهذا الفرق العظيم بينهم، وبينهم، يدل دلالة واضحة، على أنهم ليسوا مأجورين فى الخطأ فى تقليد أعمى إذ لااقتداء ولاأسوة فى غير الحق.

وليسوا معذورين لأنهم تركوا ما يلزمهم تعلمه من أمر الله ونهيه على ضوء وحيه المنزل.

والذى يجب عليهم من تعلم ذلك، هو ماتدعوهم الحاجة للعمل به، كأحكام عباداتهم ومعاملاتهم.

وأغلب ذلك تدل عليه نصوص واضحة، سهلة التناول من الكتاب والسنة.

والحاصل: أن المعرض عن كتاب الله، وسنة رسوله المفرط فى تعلم دينه، مما أنزل الله، وما سنه رسوله، المقدم كلام الناس على كتاب الله، وسنة رسوله، ولايكون له ألبتة ما للإمام الذى لم يعرض عن كتاب الله وسنة رسوله، ولم يقدم عليهما شيئاً ولم يفرط فى تعلم الأمر والنهى من الكتاب والسنة.

فأين هذا من هذا؟

سارت مشرقة وسرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

لايجوز للمقلد أن يفتي بما أفتاه به شيخه

اعلم أن المقلدين للأئمة هذا التقليد الأعمى قد دل كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع من يعتد به من أهل العلم، أنه لايجوز لأحد منهم أن يقول: هذا حلال وهذا حرام.

لأن الحلال ما أحله الله، على لسان رسوله ﷺ فى كتابه أو سنة رسوله، والحرام ما حرمه الله علي لسان رسوله ﷺ فى كتابه، أوسنة رسوله.

ولايجوز ألبتة للمقلد أن يزيد على قوله: هذا الحكم قاله الإمام الذى قلدته أو أفتى به.

أما دلالة القرآن على منع ذلك فقد قال تعالي﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾(١).

(١) يونس: ٥٩.

وقال تعالى : ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ**﴾(١).

وقال تعالى :﴿ **قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا**﴾(٢).

ومعلوم أن العبرة بعموم الألفاظ، لابخصوص الأسباب .

ومما يوضح هذا أن المقلد الذى يقول : هذا حلال وهذا حرام من غير علم بأن الله حرمه على لسان رسوله ﷺ، يقول على الله بغير علم قطعاً.

فهوداخل بلاشك فى عموم قوله تعالى :﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾(٣).

فدخوله فى قوله ﴿**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ كما ترى

وهو داخل أيضاً فى عموم قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾(٤).

وأما السنة، فقد أخرج مسلم بن الحجاج فى صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أوسرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال. «**اغزوا باسم الله، فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله**»(٥) الحديث.

وفيه «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لاتدرى، أتصيب حكم الله فيهم أم لا**»(٦).

هذا لفظ مسلم فى صحيحه

وفيه النهى الصريح من النبى ﷺ عن نسبة حكم إلى الله، حتي يعلم بأن هذا حكم الله الذى شرعه على لسان رسوله ﷺ.

---

(١)النحل ١١٦ (٢) الأنعام : ١٥٠

(٣) الأعراف : ٣٣ (٤) البقرة : ١٦٩.

(٥) سيأتى تخريجه فى باب ماجاء فى ذمه الله وذمه نبيه.

(٦) ما قبله

ولأجل هذا كان أهل العلم لايتجرؤون على القول بالتحريم والتحليل إلا بنص من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

قال أبو عمر بن عبد البر ـ رحمه الله ـ في «جامعه».

قال الربيع بن خثيم:

إياكم أن يقول الرجل في شيء: وإن الله حرم هذا أو نهى عنه فيقول الله: كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه.

قال أو يقول:

إن الله أحل هذا وأمر به، فيقول: كذبت لم أحله ولم آمر به.

وذكر ابن وهب وعتيق بن يعقوب أنهما سمعا مالك بن أنس يقول: لم يكن من أمر الناس ولامن مضى من سلفنا ولا أدركت أحداً اقتدى به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام.

ماكانوا يجترئون على ذلك.

وإنما كانوا يقولون: نكره هذا.

ونرى هذا حسناً.

ونتقي هذا، ولانرى هذا.

وزاد عتيق بن يعقوب، ولايقولون حلال وحرام.

أما سمعت قول الله عزوجل ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾(١).

الحلال ماأحله الله ورسوله، والحرام ماحرمه الله ورسوله: قال أبو عمر: معنى قول مالك هذا إن ما أخذ من العلم رأياً واستحساناً لم نقل فيه حلال ولاحرام والله أعلم. أهـ. محل الغرض منه.

وقال أبو عبدالله القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسيره، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾(٢). الآية مانصه

---

(١) يونس: ٥٩

(٢) النحل: ١١٦

أسند الدارمى أبـو محمد فى مسنده أخـبرنا هارون عن حفص عن الأعـمش قال: ما سمعت إبـراهيم قط يقول: حلال ولاحرام ولـكن كان يقول: كانوا يكـرهون وكانوا يستحبون.

وقال ابن وهـب: قال مالك : لم يـكن من فتيا الـناس أن يقولوا هـذا حلال وهذا حرام.

ولكن يقولون: إياكم وكذا وكذا. ولم أكن لأصنع هذا.

ومعنى هذا أن التحليل والتحريم إنما هو لله عزوجل وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا فى عين من الأعيان، إلا أن يكون [البارىء تعالى بذلك عنه](*).

وما يؤدى إليه الاجتهاد فى أنه حرام يقول:

إنى أكره كذا.

وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى أهـ محل الغرض منه.

وإذا كان مالك وإبراهيم الـنخعى وغيرهما من أكابر أهل الـعلم لا يتجرؤون أن يقولوا فى شىء من مسائل الاجتهاد والرأى : هذا حلال أوحرام.

فما ظنك بغيرهم من المقلدين الذين لم يستضيئوا بشىء من نور الوحى؟

فتجرؤهم علـى التحريم والتحليل بلا مـستند من الكتاب إنما نشـأ لهم من الجهل بكتاب الله وسنة رسوله، وآثار السلف الصالح.

وآية يونس المتقدمة صريحة فيما ذكرنا صراحة تغنى عن كل ما سواها.

لأنه تعالى لما قال: ﴿**فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا**﴾ أتبع ذلك بقوله ﴿**قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾(١).

ولم يجعل واسطة بين إذنه فى ذلك وبين الافتراء عليه.

فمن كان عنده إذن من الله بتحريم هذا أو تحليلا فليعتمد على إذن الله فى ذلك.

ومن لم يكن عنده إذن من الله فى ذلك فليحذر من الافتراء على الله.

إذ لاواسطة بين الأمرين.

ومعلوم أن العبرة بعموم لفظ الآية لابخصوص سببها.

---

(١) يونس :٥٩.

(*) كذا فى طبعة «أضواء البيان» والأظهر أن تكون [حكم بذلك فيه]

فالذيـن يقولون من الجهـلة المقلدين: هـذا حلال وهذا حرام، وهذا حكـم الله، ظناً منهم أن أقوال الإمام الذى قلدوه تقوم مقام الكتاب والسنة وتغنى عنهما.

وإن ترك الكتاب والسنة والاكتفاء بأقوال من قلدوه أسلم لدينه أعمتهم ظلمات الجهل المتراكمة عن الحقائق حتى صاروا يقولون هذا.

فهم كما ترى، مع أن الإمام الذى قلدوه، ماكان يتجرأ على مثل الذى تجرؤوا عليه، لأن علمه يمنعه من ذلك.

والله جل وعلا يـقول: ﴿قلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾

شبهة للمقلدين والرد عليها

اعلم أنه لايخفى علينا أن المقلدين التقليد الأعمى المذكور يقولون:

هذا الذى تدعوننا إليه وتأمروننا به من العـمل بالكتاب والسنة، وتقديمهما علي آراء الرجال من التكليف بما لايطاق.

لأنا لاقدرة لنا على معرفة الكتاب والسنة حتى نعمل بهما.

ولايمكننا معرفة شيء من الشرع إلا عن طريق الإمام الذى نقلده.

لأنا لم نتعلم نحن ولا آباؤنا شيئاً غير ذلك.

فإذا لم نقلـد إمامنا بقينا فـى حيرة لانعلم شيئـاً من أحكام عباداتنا ولامـعاملاتنا، وتعطلت بيـننا الأحكام إذ لانعرف قضاء ولا فتوى ولاغيـر ذلك من الأحكام إلا عن طريق مذهب إمامنا.

لأن أحكامه مـدونة عندنا وهى التـى نتعلمها ونـتدارسها دون غيرها مـن الكتاب أو السنة وأقوال الصحابة ومذاهب الأئمة الآخرين

ونحن نقول :

والله لقد ضيقتم واسعاً. وادعيتم العجز، وعدم القدرة فى أمر سهل.

ولاشك أن الأحوال الراهـنة للمقلديـن التقليد الأعمـى، للمذاهب المدونة تـقتضى صعوبة شديدة جداً فى طريق التحول من التقليد الأعمى إلى الاستضاءة بنور الوحى.

وذلك إنما نشأ مـن شدة التفريط فى تعلـم الكتاب والسنة والإعراض عنـهما إعراضاً كلياً يتوارثه الأبناء عن الآباء عن الأجداد.

فالداء المستحكم من مئات السنين لابد لعلاجه من زمن طويل.

ونحن لانقول: إن الجاهل بالكتاب والسنة يعمل بهما باجتهاده.

بل نعوذ بالله من أن نقول ذلك.

ولكنا نقول: إن الكتاب والسنة يجب تعلمهما، ولايجوز الإعراض عنهما وأن كل ما علمه المكلف منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح وجب عليه العمل به.

فالبلية العظمى إنما نشأت من توارث الإعراض عنهما إعراضاً كلياً اكتفاء عنهما بغيرهما.

وهذا من أعظم المنكر وأشنع الباطل.

فالذى ندعو إليه هو المبادرة بالرجوع إليهما بتعلمهما أولاً ثم العمل بهما والتوبة إلى الله من الإعراض عنهما.

ودعوى أن تعلمهما غير مقدور عليه، لايشك فى بطلانها عاقل، ونعيذ أنفسنا وإخواننا بالله أن يدعوا على أنفسهم أن على قلوبهم أكنة، وفى آذانهم وقرًا يمنعهم من فهم كتاب الله

لأن ذلك قول الكفار لا قول المسلمين قال الله تعالى **﴿حمٓ (١) تنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآنًا عربيًا لِّقومٍ يعلمونَ (٣) بَشيرًا ونَذيرًا فأعْرَضَ أكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقالوا قُلوبُنا فى أكنَّةٍ مِّمَّا تدعُونا إليْه وفِى آذانِنا وقْرٌ ومِنْ بيْنِنا وبَيْنِكَ حِجَابٌ فاعْمَلْ إنَّنا عاملُونَ﴾**[1].

فاحذر يا أخي وارحم نفسك أن تقول مثل قول هؤلاء الكفرة وكنت تسمع ربك يقول: **﴿ولَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾**[2]. ويقول: **﴿فإنَّما يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يتذَكَّرُونَ﴾**[3].

ويقول **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾**[4].

فلاتخرج نفسك من عموم أولى الألباب الذين هم أصحاب العقول، لأنك إن فعلت ذلك اعترفت على نفسك أنك لست من جملة العقلاء.

---

(١) فصلت: ١-٥. (٢) القمر: ١٧

(٣) الدخان: ٥٨ (٤) ص: ٢٩

وعلى كل حال فلا يخلو المقلدون، التقليد الأعمى، من أحد أمرين:

أحدهما: ألا يلتفتوا إلى نصح ناصح.

بل يستمرون على تقليدهم الأعمى، والإعراض عن نور الوحى عمداً.

وتقديم رأى الرجال عليه.

وهذا القسم منهم لانعلم له عذراً في كتاب الله ولاسنة رسوله.

ولافى قول أحد من الصحابة، ولا أحد من القرون المشهود لهم بالخير.

لأن حقيقة ماهم عليه، هو الإعراض عما أنزل الله عمداً مع سهولة تعلم القدر المحتاج إليه منه، والاستغناء عنه بأقوال الأئمة.

ومن كان هذا شأنه وهو تام العقل والفهم قادر على التعلم فعدم عذره كماترى.

الأمر الثانى: هو أن يندم المقلدون على ماكانوا عليه من التفريط فى تعلم الوحى، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ويبادروا إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ويشرعوا فى ذلك بجد. تائبين مما كانوا عليه من التفريط قبل ذلك، وهذا القسم على هدى من الله.

وهوالذى ندعو إخواننا إليه.

الضرورة عذر فى التقليد للمضطر

لاخلاف بين أهل العلم فى أن الضرورة لها أحوال خاصة تستوجب أحكاماً غير أحكام الاختيار.

فكل مسلم ألجأته الضرورة إلى شىء إلجاءً صحيحاً حقيقياً، فهو فى سعة من أمره فيه.

وقد استثنى الله جل وعلا، حالة الاضطرار فى خمس آيات من كتابه، ذكر فيها المحرمات الأربع التى هى من أغلظ المحرمات، تحريماً وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.

فإن الله تعالى كلما ذكر تحريمها استثنى منها حالة الضرورة، فأخرجها من حكم التحريم.

قال تعالى فى سورة الأنعام:

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وقال فى الأنعام أيضاً.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾(٢).

وقال تعالى فى النحل

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣).

وقال تعالى فى البقرة:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

وقال تعالى فى المائدة

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾(٥). إلى قوله﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٦).

وبهذا تعلم أن المضطر للتقليد الأعمى اضطراراً حقيقياً، بحيث يكون لاقدرة له ألبتة، على غيره مع عدم التفريط لكونه لاقدرة له أصلاً على الفهم.

أو له قدرة على الفهم وقد عاقته عوائق قاهرة عن التعلم.

أو هو فى أثناء التعلم ولكنه يتعلم تدريجاً لأنه لايقدر على تعلم كل ما يحتاجه فى وقت واحد.

أو لم يجد كفئاً يتعلم منه ونحو ذلك فهو معذور فى التقليد المذكور للضرورة.

---

(١) الأنعام: ١٤٥ (٢) الأنعام: ١١٩ (٣) النحل: ١١٥

(٤) البقرة: ١٧٣ (٥) (٦) المائدة: ٣

لأنه لا مندوحة له عنه.

أما القادر على التعلم المفرط فيه.

والمقدم آراء الرجال على ما علم من الوحى.

فهذا الذى ليس بمعذور

نحب الأئمة جميعا وحبنا للحق أشد

إعلم أن موقفنا من الأئمة رحمهم الله من الأربعة وغيرهم. هو موقف سائر المسلمين المنصفين منهم.

وهو موالاتهم، ومحبتهم، وتعظيمهم، وإجلالهم، والثناء عليهم، بما هم عليه من العلم والتقوى، واتباعهم فى العمل بالكتاب والسنة وتقديمهما على رأيهم وتعلم أقوالهم للاستعانة بها على الحق، وترك ماخالف الكتاب والسنة منها.

وأما المسائل التى لانص فيها فالصواب النظر فى اجتهادهم فيها.

وقد يكون اتباع اجتهادهم أصوب من اجتهادنا لأنفسنا.

لأنهم أكثر علماً وتقوى منا.

ولكن علينا أن ننظر ونحتاط لأنفسنا فى أقرب الأقوال إلى رضى الله وأحوطها وأبعدها من الاشتباه.

كما قال ﷺ: **«دع ما يريبك إلى مالا يريبك»**(١).

وقال: **«فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»**(٢).

وحقيقة القول الفصل فى الأئمة رحمهم الله أنهم من خيار علماء المسلمين، وأنهم ليسوا معصومين من الخطأ، فكل ما أصابوا فيه فلهم فيه أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وما أخطأوا فيه فهم مأجورون فيه باجتهادهم معذورون فى خطئهم فهم مأجورون على كل حال، لايلحقهم ذم ولاعيب ولانقص فى ذلك.

ولكن كتاب الله وسنة نبيهﷺ حاكمان عليهم وعلى أقوالهم كما لايخفى.

فلا تغل فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذميم.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٢٠٠)، والترمذى (٢١٥٨) عن الحسن بن على به. وأنظر «رياض الصالحين» (٥٦- بتخريجنا)

(٢) تقدم تخريجه

فلا تك ممن يـذمهم وينتقصـهم ولا ممن يعتقد أقوالـهم مغنية عن كـتاب الله وسنة رسوله أومقدمة عليهما

الأعذار لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن تيمية: وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبـولين عند الأمة قبولا عاما يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ فى شىء مـن سنته؛ دقيق ولا جليل؛ فإنهم متفقون إتـفاقا يقينياً على وجـوب اتباع الرسـول، وعلى أن كل أحـد من الناس يـؤخذ من قولـه ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له من عذر فى تركه.

وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدهما: عدم اعتقاده أن النبى ﷺ قاله.

الثـانـى: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ. أهـ(١).

لابد لمن يرى التقليد أن يفرق بين كلام إمامه وبين ما ألحق بعده على قواعد مذهبه

اعلم أن كل مـن يرى أنه لابد له من تقليـد الإمام فى كل شىء بدعـوى أنه لايقدر على الاستدلال بكـتاب ولاسنة، ولا قول أحد من الصحابة ولا التـابعين، ولا أحد غير ذلك الإمام.

يجب عليه أن يتنبه تنبهاً تاماً لـلفرق بين أقوال ذلك الإمام التى قالها حقاً، وبين ما ألحق بعده علـى قواعد مذهبه، وما زاده المتـأخرون وقتاً بعد وقت من أنـواع الاستحسان التى لا أساس لها فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ﷺ.

ولو علم الإمام بإلحاقهم بمذهبه، لتبرأ منها، وأنـكر على ملحقها، فنسبة جميع ذلك للإمام من الباطل الواضح.

ويزيده بـطلانا نسبتـه إلى الله ورسوله، بدعوى أنـه شرع ذلك على لسـان رسوله. ونحو هذا كثير فى المختصرات فى المذاهب وكتب المتأخرين منهم.

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص٦).

الرد على من قال بإغلاق الاجتهاد

اعلم أن الدعوى التى اتفق عليها متأخرو الأصوليين التى تتضمن حكمهم على خالق السماوات والأرض جل وعلا لايجوز لمسلم يريد الحق والانصاف أن يعتقدها، ولا أن يصدقهم فيها لظهور عدم صحتها ومخالفتها للنص، والحكم فيها على الله بلا مستند، وهو جل وعلا الذى يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

وهذه الدعوى المذكورة هى المتركبة مما يأتى، وهو أن الاجتهاد قد انقرض فى الدنيا وانسد بابه.

وأن الله تعالى محكوم عليه بأن لايخلق مجتهدا ولايعلم أحداً من خلقه علماً يمكن أن يكون به مجتهداً إلى ظهور المهدى المنتظر.

وأنه لايجوز لأحد أن يعمل بكتاب ولاسنة ولاأن يقلد أحداً كائناً من كان غير الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المدونة، كما نص على هذه الدعوى حاكياً إجماعهم عليها صاحب مراقى السعود فى قوله.

والمجمع اليوم عليه الأربعة وقفو غيرها الجميع منعه

حتى يجيء الفاطم المجدد دين الهدى لأنه مجتهد.

ومراده بالفاطمى المهدى المنتظر لأنه شريف.

وقوله : حتى يجيء. حرف غاية، والمغيّا به، منع تقليد أحد غير الأربعة المذكور فى قوله : وقفو غيرها الجميع منعه.

وهذا صريح فى أنهم حاكمون على الله القدير العليم، بأنه لايخلق مجتهداً قبل وجود المهدى المنتظر، وهذا الذى قاله صاحب مراقى السعود هو المقرر فى كتب المتأخرين من الأصوليين من أهل المذاهب المدونة.

وهذا الحكم على الله الذى كل يوم هو فى شأن بأنه لايخلق مجتهداً قبل المهدى من مدة انقراض الاجتهاد المزعوم هو يا أخى كما ترى.

ولاشك أنك إن لم يعمك التعصب المذهبى تقطع أنه لامستند له، وهذا الذى ذكره صاحب مراقى السعود قد صرح بما يناقضه فى قوله قبله:

والأرض لم عن قائم مجتهد تخلو إلى تزلزل القواعد

وهذا النقيض الأخير هو الصحيح الموافق للحق.

لأن النبي ﷺ قد ثبت عنه فى الصحيحين وغيرهما أنه قال: «**لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله**»(١) الحديث. وهو حديث مشهور متفق عليه لانزاع فى صحته.

ولا شك فى أن هذه الطائفة التى صرح النبى ﷺ: بأنها لا تزال ظاهرة على الحق حتى يأتى أمر الله أنها طائفة على كتاب الله، وسنة رسوله، وليست ألبتة من المقلدين التقليد الأعمى.

لأن الحق هو ماجاء به محمد ﷺ من الكتاب والسنة كما قال تعالى فى سورة النساء﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾(٢) وقال فى الأنعام﴿**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ**﴾(٣). وقال فى النمل ﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**﴾(٤). وقال فى يونس: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾(٥).

والآيات بمثل ذلك كثيرة.

فدعوى أن الأرض لم يبق فيها مجتهد ألبتة، وأن ذلك مستمر إلى ظهور المهدى المنتظر مناقضة لهذا الحديث الثابت ثبوتاً لامطعن فيه، عن النبىﷺ.

ومما لانزاع فيه أن كل ما يناقض الحق فهو ضلال، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**﴾(٦). والعلم عند الله تعالى.

خطورة الإعراض عن الكتاب والسنة بكتب الفروع

اعلم يا أخى أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذى عم جل من فى المعمورة من المسلمين من أعظم المآسى والمصائب، والدواهى التى دهت المسلمين من مدة قرون عديدة.

ولاشك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه المسلمون فى واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافى لأصل الإسلام.

---

(١)[**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٧٣١١)، ومسلم فى الإمارة (٧/ ٧٤/ ١٧١) عن المغيرة به.

(٢) النساء: ١٧٠

(٣) الأنعام: ٦٦

(٤) النمل: ٧٩

(٥) يونس: ١٠٨

(٦) يونس: ٣٢

وَعَنْ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِىَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(١) .. فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟» فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِىُّ وَحَسَّنَهُ(٢).

لأن الكفار إنما احتاجوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكرى عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك فى دين الإسلام.

ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكرى فى عقائدهم ودينهم.

ولكن لما تركوا الوحى ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله والاعتصام بالقرآن، وكلام النبى ﷺ والتحصن بسنته.

ولذلك وجد الغزو الفكرى طريقاً إلى قلوب الناشئة من المسلمين.

ولوكان سلاحهم المضاد القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلا

ولاشك أن كل منصف يعلم أن كلام الناس، ولو بلغوا ما بلغوا من العلم والفضل، لايمكن أن يقوم مقام كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وبالجملة فمما لاشك فيه أن هذا الغزو الفكرى الذى قضى على كيان المسلمين، ووحدتهم وفصلهم عن دينهم، لو صادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع مدحوراً فى غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة، وكون الغزو الفكرى المذكور لم يستند إلا على الباطل والتمويه كماهو معلوم.

قوله : [وعن عدى بن حاتم : أنه سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية]

قال سليمان آل الشيخ (٣): هذا الحديث قد روى عن طرق فرواه ابن سعد، وعبد ابن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبى حاتم، والطبرانى، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى فى «السنن» وفيه قصة اختصرها المصنف.

---

(١)التوبة : ٣١

(٢) تقدم تخريجه

وقد حسنه شيخ الإسلام فى «الإيمان» (ص ٦٤).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤١٥)

● مناسبة الحديث للباب وللتوحيد

قال عبدالرحمن آل الشيخ (١): الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذى لايغفره الله؛ لقوله تعالى فى آخر الآية: ﴿**وما أُمروا إلاَّ ليعبُدُوا إلهاً واحداً لاَّ إله إلاَّ هو سبحانه عمَّا يُشْرِكُون**﴾ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تأكلوا ممَّا لم يُذْكر اسمُ الله عليه وإنَّه لفسقٌ وإنَّ الشَّياطين ليُوحُون إلى أوليائهم ليُجادلوكم وإنْ أطعتُمُوهُم إنَّكُم لمُشْرِكُون**﴾ وهذا قد وقع فيه كثيرمن الناس مع من قلدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف اللمقلد، وهومن هذا الشرك، ومنهم من يغلو فى ذلك ويعتقد أن الاخذ بالدليل - والحالة هذه - يكره،أو يحرم، فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد. وربما تَفَوَّهُوا بذم من يعمل بالدليل، ولاريب أن هذا من غربة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله فى المسائل (٢).

فتغيرت الأحوال،وآلت إلى هذه الغاية. فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحبار هى العلم والفقه. ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله: فقد عمت بها البلوى قديما وحديثا فى أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جراً. وقد قال تعالى: ﴿ **فإن لَّم يستَجيبوا لكَ فاعلمْ أنَّما يَتَّبِعُون أهواءَهُمْ ومَنْ أضلُّ ممَّنِ اتَّبعَ هواهُ بغيرِ هُدًى من اللهِ إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمين**﴾.

وعن زياد بن حدير قال: قال لى عمر رضى الله عنه: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا. قال يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين». رواه الدارمى(٣).

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون. أهـ.

وقال عبدالله بن جار الله (٤):أنه أفاد أن طاعة الأحبار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله ومن الشرك الأكبر الذى لايغفره الله. أهـ.

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٥٣٦، ٥٣٧)

(٢) مسائل الجاهلية بشرح محمود شكرى الألوسى ص (٢٠).

(٣) تقدم بنحوه

(٤) الجامع الفريد (١٥٢)

وقال قرعاوى[1]: حيث دل الحديث على شرك من أطاع العلماء فى تحريم ما أحل الله، وتحليل ماحرم الله .أهـ.

قوله [عدى بن حاتم]

قال ابن الأثير[2]: عدى بن حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس ابن عدى ابن أخزم بن أبى أخزم بن ربيعة بن جرول بن ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيى الطائى،وأبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالجود، الذى يضرب به المثل، يكنى عدى أبا طريف. وقيل: أبو وهب، يختلف النسابون فى بعض الأسماء إلى طيء.

وفْدَ عدىٌ على النبى ﷺ سنة تسع فى شعبان، وقيل :سنة عشر، فأسلم وكان نصرانياً.

عن أبى عبيدة بن حذيفة قال: كنت أسأل عن حديث عدى بن حاتم، وهو إلى جنبى، فقلت ألاآتيه فأسأله؟ فأتيته فسألته، فقال: بعث رسول الله ﷺ حين بعث، فكرهته أشد ماكرهت شيئاً قط، فانطلقت حتى إذا كنت فى أقصى الأرض مما يلى الروم، فكرهت مكانى ذلك مثلما كرهته أو أشد، فقلت : لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذبا لم يخف على، وإن كان صادقا اتبعته؟ فأقبلت، فلما قدمت المدينة استشرفنى الناس وقالوا: عدى بن حاتم ! عدى بن حاتم! فأتيته، فقال لى: ياعدى بن حاتم، أسلم تسلم قلت: إن لى دينا. قال : أنا أعلم بدينك منك. قلت : أنت أعلم بدينى منى؟ قال: نعم، مرتين أو ثلاثاً، قال :ألست ترأس قومك؟ قال، قلت: بلى . قال: ألست وكوسياً[3]؟ ألست تأكل [4] المرباع؟ قلت : بلى . قال: فإن ذلك لايحل فى دينك. قال: فنضنضت[5] لذلك، ثم قال :ياعدى، أسلم تسلم. قال :قد أظن - أو : قد أرى، أو : كما قال رسول الله ﷺ - أنه ما يمنعك أن تسلم إلا غضاضة تراها ممن

---

(١) الجديد (٧٣٣)

(٢) أسد الغابة (٤/٨: ١٠)

(٣) الوكوسية : دين النصارى والصابئين.

(٤) المرباع: ربع الغنيمة، وكان رئيس القوم المطاع فيهم يأخذه دون أصحابه فى الجاهلية.

(٥) نضنضت: حركت لسانى فى فمي

حولى، وإنك ترى الناس علينا إلبا[1] واحد. قال: هل أتيت الحيرة؟ قلت: لم آتها، وقد علمت مكانها. قال: يوشك الظعينة[2] أن ترحل من الحيرة بغير جوار، حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنز كسرى بن هرمز! قال: كسرى بن هرمز، مرتين أو ثلاثاً، وليفيضن المال حتى يهم الرجل[3] من يقبل صدقته. قال عدى: قد رأيت اثنتين: الظعينة ترحل بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وقد كنت فى أول خيل أغارت على كنوز كسرى بن هرمز، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة أنه قال رسول الله ﷺ[4].

وقيل: إنه لما بعث النبى ﷺ سرية إلى طىء أخذ عدى أهله، وانتقل إلى الجزيرة، وقيل: إلى الشام، وترك أخته سفَّانة بنت حاتم، فأخذها المسلمون، فأسلمت وعادت إليه فأخبرته، ودعته إلى رسول الله ﷺ، فحضر معها عنده، فأسلم وحسن إسلامه.

وروى عن النبى ﷺ أحاديث كثيرة، ولماتوفى رسول الله ﷺ قدم على أبى بكر الصديق فى وقت الردة بصدقة قومه، وثبت على الإسلام ولم يرتد، وثبت قومه معه. وكان جوادا شريفاً فى قومه، معظماً عندهم وعند غيرهم، حاضر الجواب؛ روى عنه أنه قال: «مادخل على وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها». وكان رسول الله ﷺ يكرمه إذا دخل عليه.

وعن عامر الشعبى قال: لما كان زمن عمر، رضى الله عنه، قدم عدى بن حاتم على عمر، فلما دخل عليه كأنه رأى منه شيئاً ـ يعنى جفاء ـ قال: يا أمير المؤمنين، أما تعرفنى؟ قال: بلى، والله أعرفك، أكرمك الله بأحسن المعرفة، أعرفك والله، وأسلمت إذ كفروا، وعرفت إذ أنكروا، ووفيت إذ غدروا» وأقبلت إذا أدبروا. فقال. حسبى يا أمير المؤمنين حسبى.

قال الشعبى: أرسل الأشعث بن قيس إلى عدى بن حاتم يستعير منه قدور حاتم، فملأها، وحملها الرجال إليه، فأرسل إليه الأشعث: إنما أردناها فارغة! فأرسل إليه عدى: إنا لانعيرها فارغة.

---

(١) أى: مجتمعين

(٢) الظعينة: المرأة مادامت فى الهودج

(٣) أى: يحزنه.

(٤) أخرج الإمام أحمد نحوه عن يزيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين عن أبى عبيدة عن رجل قال: قلت عدى بن حاتم... وذكره. المسند: ٤/ ٢٥٧.

وكان عدى يفت الخبز للنمل ويقول : إنهن جارات، ولهن حق.

وكان عدى منحرفاً عن عثمـان، فلما قتل قال: «لايحبق[1] فى قتله عناق». فلماكان يوم الجمل فقئت عيـنه، وقتل ابنه محمد مع على، وقتل ابـنه الآخر مع الخوارج، فقيل له: يا أبا طريف، هل حَبَقَ فى قتل عثمان عناق؟! قال : إى والله، والتيس الأعظم.

وتوفى سنة سبع وستين، وقيل : سنة ثمان . وقيل : سنة تسع وستين، وله مائة وعشرون سنة : قيل : مـات بالكوفة أيـام المختار، وقيل : مـات بقرقيسياء، والأول أصح.

النضنضة: تحريك اللسان. والغضاضة: الذلة. والنقيصة وقيل : إنما هى «خصاصة» بالخاء، وهى الفقر. أهـ.

قوله [أنه سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾الآية.]

تقدمت أقوال المفسرين فى تفسير الآية فى الباب الخامس / تفسير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله.

قوله: [فقلت : إنا لسنا نعبدهم]

قال سليمان آل الشيخ [2] ظن عدى أن العبادة، من السجود والذبح والنذر ونحو ذلك فقال: إنا لسنا نعبدهم. أهـ.

وقال ابن عثمين[3]: أى : لانعبد الأحبار والرهبان، ولانسجد لهم ولانركع ولانذبح ولا ننذر لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان بدليل قوله: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ماحرم الله فتحلونه؟!**».

فإن هذا الوصف لاينطبق على عيسى أبداً؛ لأنه رسول الله، فما أحله؛ فقد أحله الله، وماحرمه؛ فقد حرمه الله، وقد حاول بعض الناس أن يعل الحديث لهذا المعنى مع ضعف سنده، والحديث حسنه الترمذى والألبانى وآخرون وضعفه آخرون.

ويجاب عن التعليل المذكور بأن قول عدى: «لسنا نعبدهم» يعود على الأحبار والرهبان، أما عيسى ابن مريم؛ فالمعروف أنهم يعبدونه.

وبدأ بتحريم الحلال؛ لأنه أعظم من تحليل الحرام، وكلاهما محرم؛ لقوله تعالى :

---

(١) لايحبق : لايضرط. (٢) تيسير العزيز الحميد (٤١٥)

(٣) القول المفيد (٢/ ٣١٩، ٣٢٠)

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾(١).

قوله : «فتلك عبادتهم».

ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة: الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كانت في طاعة الله؛ فهي عبادة لله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، كما لو أمرك أبوك بالصلاة فصليت؛ فلا تكون قد عبدت أبوك بطاعتك له، ولكن عبدت الله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله؛ ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله. أهـ

قوله : [أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه....]

قال سليمان آل الشيخ(٢): صرح ﷺ في هذا الحديث بأن عبادة الأحبار والرهبان هي طاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، وهو طاعتهم في خلاف حكم الله ورسوله.

قال شيخ الإسلام: وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ماحرم الله وعكسه يكونون على وجهين

أحدهما: أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله؛ فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ماحرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر. وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم مايفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت.

في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الطاعة في معروف**»(٣) ثم نقول: اتباع هذا المحلل للحرام والمحرم للحلال إن كان مجتهداً قصده أتباع الرسول ﷺ، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لايؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه. ولكن من علم أن هذا الخطأ فيما جاء به رسول الله ﷺ، ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول ﷺ، فله نصيب من الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبعه في ذلك لهواه ونصره باللسان واليد مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

---

(١) النحل: ١١٦ (٢) تيسير العزيز الحميد (٤١٤، ٤١٧). (٣) تقدم تخريجه

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لايجوز تقليد أحد في خلافه. وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لايؤاخذ أن أخطأ كما في القبلة. وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن الحق معه فهذا من أهل الجاهلية فإن كان متبرعه مصيبا لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار. انتهى ملخصاً. أ هـ

[قلت]: وتقدم تفصيل ذلك المبحث السابق في التقليد وأيضاً في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله.

وقال ابن عثيمين(١):

● ويستفاد من الحديث

١ـ أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.

٢ـ أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله؛ فهي عبادة لله

٣ـ أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أرباباً.

واعلم أن أتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ماحرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضياً بقولهم، مقدماً له، ساخطاً لحكم الله؛ فهو كافر لأنه كره ما أنزل الله، فأحبط الله عمله، ولاتحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله؛ فهو كافر.

الثاني:أن يتابعهم في ذلك راضياً في حكم الله وعالماً بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد، ولكن لهوى في نفسه اختاره، كأن يريد مثلاً وظيفة ؛ فهذا لايكفر، ولكنه فاسق وله حكم غيره من العصاة.

الثالث: أن يتابعهم جاهلاً، فيظن أن ذلك حكم الله؛ فينقسم إلى قسمين:

(أ) أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه فهو مفرط أومقصر، فهو آثم؛ لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

(ب) أن لايكون عالماً ولايمكنه التعلم فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق؛ فهذا

---

(١) القول المفيد (٣٢٠:٣٢٨)

لاشيء عليه لأنه فعل ما أمر به وكـان معذوراً بذلك، لذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن «من أفتى بغير علم؛ فإنما إثمه على من أفتاه»(١) لو قلنا: بإثمه بخطأ غيره؛ للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

فإن قيل : لماذا لايكفر أهل القسم الثاني؟

أجيب: إننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله أهـ.

وقد تقدم معنا في الباب الخامس ما قاله وأن الكفر ينقسم إلى نوعين.

كما قال محمد بن إبراهيم في رسالته «تحكيم القوانين»(٢) فانظر كيف سجل الله تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق . ومن الممتنع أن يسمى الله ـ سبحانه ـ الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولايكون كافراً، بل هو كافر مطلقاً؛ إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد، و ماجاء عن ابن عباس رضى الله عنهما في تفسير هذه الآية من رواية طاووس وغيره يدل أن الحاكم بغير ماأنزل الله كافر؛ إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لاينقل عن الملة.

أما الأول : وهو كفر الاعتقاد ـ، فهو أنواع

أحدها:أن يجحد الحاكم بغيرما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله. . وهذامما لانزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم أن من جحد أصلا من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه، أو أنكر حرفاً مما جاءبه الرسول ﷺ قطعياً؛ فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة.

الثاني: ألايجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه وأتم وأشمل لمايحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع ؛ إما مطلقاً أو بالنسبة لما استجد من الحوادث. هذا لاريب أنه كفر.

الثالث: ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكنه اعتقد أنه مثله؛ فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

الرابع: ألايعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله لكن

---

(١) تقدم تخريجه

(١) ص (٥ ـ ٨)

اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ؛ فهذا كالذى قبله لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً وحكماً وإلزاما ومراجع ومستمدات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلهاإلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ فلهذه المحاكم مراجع هى القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة؛ كالقانون الفرنسى، والقانون الأمريكى، والقانون البريطانى وغيرها من القوانين.

فأى كفر فوق هذا الكفر، وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟!

السادس: مايحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادى ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعادتهم التى يسمونها «سلومهم» يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به عند النزاع؛ إبقاءً على أحكام الجاهلية، وإعراضاً ورغبة عن حكم الله ورسوله.

وأما القسم الثانى من قسمى كفر الحاكم بغير ما أنزل الله، وهو الذى لايخرج من الملة؛ فقد تقدم أن تفسيرابن عباس رضى الله عنهما لقول الله- عز وجل - فيقوله رضى الله عنه «كفر دون كفر. . . .» وذلك بأن تحمله شهوته وهواه على الحكم فى القضية بغير ما أنزل الله، مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ، ومجانبة الهدى وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر ؛ كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، فإن معصية سماها الله كفراً أعظم من معصية لم يسمها كفراً» . أهـ.

● **فائدة:**

قال ابن عثيمين(١): وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

١- قال تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾

٢- قال تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾

٣- وقال تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾(٢).

واختلف أهل العلم فى ذلك:

---

(١) القول المفيد (٢/ ٣٣٠)

(٢) المائدة : ٤٧

فقيل : إن هذه الأوصاف لموصوف واحد؛ لأن الكافر ظالم؛ لقوله تعالى : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١) ،و فاسق؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾(٢)؛ أي : كفروا.

وقيل : إنها لموصوفين متعددين، وإنها على حسب الحكم، وهذا هو الراجح.

فيكون كافراً في ثلاثة أحوال.

أ - إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل ، بدليل قوله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾(٣) ، فكل ماخالف حكم الله؛ فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لايجوز الحكم بغير ما أنزل الله فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد،وذلك كمن اعتقد حل الزنا أوالخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب - إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

ج - إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله.

بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٤)،

فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام، بدليل قوله تعالى مقرراً ذلك: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾(٥)، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكاماً وهو أحكم الحاكمين؛ فمن أدعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن فهو كافر لأنه مكذب للقرآن.

ويكون ظالما:

إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام،وأنه أنفع للعباد والبلاد، وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله؛ فهو ظالم.

ويكون فاسقاً:

إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق. لكن حكم بغيره لهوى في نفسه؛ أي : محبة لما حكم به لا كراهة لحكم الله ولايضر

---

(١) البقرة: ٢٥٤ (٢) السجدة : ٢٠ (٣) المائدة: ٥٠
(٤)المائدة : ٥٠ (٥) التين :٨

أحداً به، مثل : أن يحكم لشخص لرشوة رشى إياها، أو لكونه قريباً أوصديقاً، أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه؛ فهذا فاسق، وإن كان أيضاً ظالماً، لكن وصف الفسق فى حقه أولى من وصف الظلم(١).

أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعه مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله؛ فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر؛ فنعنى بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر.

ولكن قد يكون الواضع له معذوراً، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لايخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس.

فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون: إن مسألة المعاملات لاتعلق لها بالشرع، بل ترجع إلى مايصلح الاقتصاد فى كل زمان بحسبه، فإذا اقتضى الحال أن نضع بنوكاً للربا أو ضرائب على الناس؛ فهذا لاشىء فيه.

وهذا لاشك فى خطئه؛ فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا؛ فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لاعلماء الملة.

ومما لاشك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التى بين الإنسان وربه والمعاملات التى بين الإنسان مع الخلق فى العقود والأنكحة والمواريث وغيرها؛ فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(٢).

وكيف يقال : إن المعاملات لاتعلق لها بالشرع وأطول آية فى القرآن نزلت فى المعاملات، ولولا نظام الشرع فى المعاملات لفسد الناس؟!

وأنا لا أقول: نأخذ بكل ما قاله الفقهاء؛ لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال تقع بين

(١) قال القرطبى فى «تفسيره» : «إن حكم به ـ أى : بغير ما أنزل الله ـ هوى ومعصية ؛ فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة فى الغفران للمذنبين».

وقال شيخ الإسلام فى «منهاج السنة» (٥/ ١٣١) أمامن كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطناً وظاهراً، لكن عصى واتبع هواه؛ فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة»

(٢) المائدة : ٣

الناس إلا فى كتاب الله وسنة رسوله مايزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم، وهذا قصور، أونقص التدبر، وهذا تقصير

أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد فى الوصول إلى الحق؛ فلا بد أن يصل إليه حتى فى المعاملات، قال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾(١)وقال تعالى: ﴿أفلم يدبروا القول﴾(٢) وقال تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾(٣) قال تعالى﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾(٤). فكل شيء يحتاجه الإنسان فى دينه أو دنياه؛ فإن القرآن بينه بياناً شافياً.

ومن سن قوانين تخالف الشريعة وأدعى أنها من المصالح المرسلة؛ فهو كاذب فى دعواه لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهى حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها؛ فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع؛ فهو مصلحة، ومانفاه؛ فليس بمصلحة، وما سكت عنه؛ فهو عفو.

والمصالح المرسلة توسع فيها كثير من الناس ؛ فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها؛ كعيد ميلاد الرسول، فزعموا أن فيه شحذا للهمم وتنشيطاً للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ، وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين فى كل صلاة يشهدون أن محمداً عبده ورسوله ويصلون عليه، والذى لايحيى قلبه بهذا وهو يصلى بين يدى ربه كيف يحيى قلبه بساعة يؤتى فيها بالقصائد الباطلة التى فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ؟! فهذه مفسدة وليست بمصلحة.

فالمصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار؛ فلا شك أن مرادهم نصر الله ورسوله، ولكن استخدمت هذه المصالح فى غير ما أراده أولئك العلماء وتُوسع فيها، وعليه؛ فإنها تقاس بالمعيار الصحيح، فإن اعتبرها الشرع قبلت، وإلا ؛ فكما قال الإمام مالك: «كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»، وهناك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات.

وليعلم أنه يجب على الإنسان أن يتقى ربه فى جميع الأحكام؛ فلا يتسرع فى البت بهاخصوصاً فى التكفير الذى صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا

---

(١) النساء: ٨٢ (٢)المؤمنون: ٦٨

(٣) ص: ٢٩ (٤) النحل: ٨٩

روية، مع أن الإنسان إذا كفر شخصاً ولم يكـن الشخص أهلاً له؛ عاد ذلك إلى قائله، وتكفيـر الشخص يترتب علـيه أحكام كثيرة؛ فيـكون مباح الدم والمال، ويترتـب عليه جميع أحـكام الكفر، وكما لا يـجوز أن نطلق الكفر عـلى شخص معين حتـى يتبين شروط التكفير فى حقه يجب أن لانجبن عن تـكفيرَ من كفره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المعين وغير المعين؛ فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١ـ ثبوت أن هذه الخصلة التى قام بهاىما يقتضى الكفر.

٢ـ انطباق شروط التكفير عليه، وأهمهـا العلم بأن هذا مكفر، فإن كان جاهلاً؛ فإنه لايكـفر ،و لهذا ذكـر العلمـاء أن من شروط إقامـة الحد أن يكون عـالماً بالتـحريم، وهذاوهو إقامة حد وليس بكفر، والتحرز من التكفير أولى وأحرى.

قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١)، وقال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾(٣) ولابد مع توفر الشروط من عدم الموانع، فلو قام الشخص بمـا يقتضى الكفر إكراهاً أو ذهولاً لم يكفـر؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾(٤)ولقول الرجل الذى وجد دابته فى مهلكه: «اللهم! أنت عبدى وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح»(٥)، فلم يؤاخذ بذلك أهـ.

خلاصة القول فى شبهة التسوية بين العلمانية وبين انحرافات التطبيق الجزئية

قال الدكتور صلاح الصاوى: اعلم أن توحيد الألوهية يقتضى إفراد الله بالطاعة والانقياد، وأن الإيمان المجمـل هو التصديق والانقياد، و أن الكـفر هو عدم الإيمان، سواء أكان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أوإعراض، وأن مـن لم يحصل فى قلبه التصديق والانقياد فهو كافر.

وعلى هذا يمـكن تفصيل القـول فى قضية الحكـم بغير ما أنزل الله، ذلك أن تـعبير الحكم بـغير ما أنزل الله، قد يـقصد به عمل الـقضاة والمنفـذين، وقد يقصد بـه عمل

(١) النساء: ١٦٥ (٢) الإسراء: ١٥

(٣) التوبة: ١١٥

(٤) النحل: ١٠٦

(٥) [صحيح][متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٠٩) ،ومسلم فى التوبة (٩/ ٧٢/ ٧) عن أنس به

الأصوليين المشرعين، وعلى حسب الدقة فى تحديد المناط تكون الدقة فى سلامة الحكم وموافقته لمراد الشارع.

● فإن قصد به عمل القضاة والمنفذين نظر: فإن كان مرده إلى تكذيب الحكم الشرعى أو رده فهو كفر أكبر يخرج من الملة، وإن كان مرده إلى عارض من هوى أو شهوة أونحوه مع بقاء التحاكم ابتداء إلى الكتاب والسنة أو ماحمل عليهما بطريق الاجتهاد فهو من جنس الذنوب والمعاصى، وأصحابه فى مشيئة الله إن شاء الله عذبهم وإن شاء غفر لهم.

وهذه هى صورة الحكم بغير ما أنزل الله، التى عرفت فى تاريخ الإسلام، والتى قال فيها علماء الإسلام ما قالوا وفصلوا فيها من الأحكام ما فصلوا، إذ لم تعرف الدولة فى تاريخها الطويل نبذاً كاملا لأحكام الله واطراحاً مجملا لشريعة الله، وتحاكما من حيث المبدأ إلى كتاب غير القرآن وإلى دين غير الإسلام. اللهم إلامرة واحدة فى أيام التتار ولقد جزم أهل العلم يومها بأن هذه الصورة المستحدثة لاتكييف لها إلا الكفر، وأن أصحابها كفار بلا خلاف وأنه يجب قتالهم حتى يرجعوا إلى حكم الله ورسوله.

قال ابن كثير رحمه الله عما كان يحكم به التتار من السياسات الملكية(فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه فى قليل ولاكثير) (١) .

ويقول فى البداية والنهاية: (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه، من فعل فقد كفر بإجماع المسلمين)(٢).

● أما إن قصد به المعنى الأصولى التشريعى الذى هو خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل الاقتضاء أو التخيير أو الوضع، وأريد به اصدار قواعد تشريعية عامة تبدل بها شرائع الإسلام وتكون لها السيادة فى الأمة بدلاً من سيادة الكتاب والسنة وتصبح هى المرجع فى الحكم عند التنازع ويقدم العمل بها على العمل بأحكام الشريعة المطهرة فلاجدال فى أن هذه الصورة مناطها واحد وتكييف واحد وهو الكفر الأكبر المخرج من الملة الذى لاتبقى معه من الإيمان حبة خردل، كما قال تعالى : ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**﴾(٣).

(١) تفسير ابن كثير(٢/ ٦٧)

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ١١٩)

(٣) الشورى : ٢١

يقول ابن تيمية : (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا باتفاق الفقهاء)[1].

وقد سبق قول ابن كثير : (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء ﷺ وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلي الياسق وقدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين).

ولقد أدى اللبس فى هذه القضية وعدم تحديد مناطات الحكم فى صوره المختلفة إلى اضطراب كثير من أهل العلم من منتسبى الحركة الإسلامية وغيرهم فى تقريرها مما أتاح للمبطلين أن يجدوا من بين فرجات اختلافهم مدخلا لهم يلبسون به على العامة، ويسبغون به الشرعية على هذه العلمانية الغازية التى تقوم على رد شرائع الإسلام، واستباحة الحكم بغير ما أنزل الله، وإهدار سيادة الشريعة الإسلامية، وحمل الأمة كلها على تحكيم القوانين الوضعية وذلك بإشاعة القول بأن الكفر الوارد فى قوله تعالى : **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** هو الكفر الأصغر الذى لاينقل عن الملة، ويسوقون فى ذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين فى بيان أنه كفر دون كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته، فتصبح بذلك أمام خلل جزئى أو انحراف فروعى لايبرر أنعدام الشرعية ولاسقوط واجب الطاعة.

ولقد نبه **محمود شاكر ـ رحمه الله ـ** فى تعليقه على الطبرى إلى هذا الخلل، وفصل القول فى مثل هذه الآثار عند تعليقه على ما أورده الطبرى فى تفسير قوله تعالى: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾** من قول أبى مجلز وهو تابعى ثقة لمن سأله من الإباضية عن معنى هذه الآية وأرادوا أن يلزموه الحجة فى تكفير الأمراء لأنهم فى معسكر السلطان، ولأنهم ربما ارتكبوا بعض مانهاهم الله عن ارتكابه فأجابهم أبو مجلز بقوله : (إنهم يعملون بمايعملون ـ يعنى الأمراء ـ ويعلمون أنه ذنب ! قال : بينما أنزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى، قالوا : أما والله إنك لتعلم مثل ما نعلم، ولكنك تخشاهم ! قال : أنتم أحق بذلك منا، أما نحن فلا نعرف ما تعرفون ! قالوا: ولكنكم تعرفونه ولكن يمنعكم أن تمضوا أمركم من خشيتهم!)[2].

يقول الشيخ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ: تعليقا على ذلك (فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء فى الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة

(١) مجموع فتاوى (ابن تيمية :(٣/ ٢٦٧)
(٢) تفسير الطبرى (٦/ ٢٥٢، ٢٥٣).

أهل الإسلام، ولا فى إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلي حكم غير حكم الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم فى تكفير القائل به والداعى إليه.

والذى نحن فيه اليوم هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار حكم غير حكمه فى كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما فى شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفصيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين بذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، و لعلل وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها.

فأين هذامما بيناه من حديث أبى مجلز، والنفر من الإباضية من بنى عمرو ابن سدوس !!»[١] .

ويقول فى موضع آخر: (ولو كان الأمر على ما ظنوا فى خبر أبى مجلز، أنهم أرادوا مخالفة السلطان فى حكم من أحكام الشريعة، فإنه لم يحدث فى تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكما وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها، هذه واحدة، وأخرى أن الحاكم الذى حكم فى قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة، وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية فهذا ذنب تناله التوبة وتلحقه المغفرة، وإما أن يكون حكم به متأولا حكما يخالفه به سائر العلماء فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب، وسنة رسول الله ﷺ وأما أن يكون فى زمن أبى مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء فى أمر، جاحدا لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثرا لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط فلا يمكن صرف كلام أبى مجلز والإباضيين إليه.

فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما فى غير بابهما، وصرفهما إلى غير معناهما رغبة فى نصرة سلطان، أو احتيالا على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده، وفحكمه فى الشريعة حكم الجاحد بحكم من أحكام الله: أن يستتاب، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله، ورضى بتبديل الأحكام فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين)[١].

(١) راجع تفسير الطبرى بتحقيق أحمد شاكر (١٠/ ٣٤٩)

(٢) تفسير الطبرى بتحقيق محمود شاكر (١٠/ ٣٥٨).

والذى نخلص إليه من ذلك كله أن قول بعض السلف كفر دون كفر فى تفسير هذه الآية لاينصرف مناطه إلى مناط العلمانية التى ترد مرجعية الشريعة، وتهدر سيادتها فى علاقة الدين بالدولة وتجعل من التحاكم إليها خروجا على الشرعية وسببا قاطعا من أسباب بطلان الحكم ونقضه!

شبهة وجوابها

ولكن تبقى بعد ذلك شبهة: وهى أن هذه النصوص السابقة إنما هى فى قوم رفضوا الدخول فى الإسلام من البداية، وأبوا أن يذعنوا له رغم معرفتهم بأنه حق من عند الله، أما هؤلاء الممتنعون عن التزام الشرائع أو الحكم بها فقد أعلنوا قبولهم للإسلام فى الجملة.

ويجاب عن هذا بأنه قدعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لافرق بين من يدفع جميع ما أنزل الله على عباده، ومن يدفع شيئاً واحداً من ذلك، كما لافرق بين من يكذب بالقرآن كله ومن يكذب بسورة واحدة من سوره أو حتى آية واحدة من آياته،ولابين من يجحد الإسلام من البداية ومن يجحد حكماً واحداً من أحكامه القطعية، فمن أعلن قبوله للإسلام والتزامه بشرائعه جملة، ثم رد شيئاً من أحكامه القطعية فقد خرق بذلك قاعدة الخضوع والتزام الطاعة،وهى التى تمثل إحدى دعامتى التوحيد كما سبق القول.

ولكن سؤالا يرد فى هذا المقام:

هل مجرد التحاكم إلى الشرائع الوضعية والتزامها يعد خلعاً للربقة وتحللا من الالتزام بشرائع الله؟

وفى الجواب على هذا تفصيل لاغنى عن ذكره.

أولا: لاشك أن الإقدام على نقض أحكام اللهوتبديل شرائعه، وإحلال أهواء البشر محلها طواعية واختيارا بلا عارض من تأويل أوإكراه، [أو غير ذلك منا الموانع الشرعية المعتبرة] وحمل الأمة على ذلك بقوة السلطان يعد شركا بالله العظيم وكفر بربوبيته وألوهيته.

ثانياً: أما من توارث ذلك عمن سبقه من الولاة، ولم يبتدىء جريمة التبديل والفصل بين الدين والدولة فلايخلو حاله من صورة من هذه الصور:

- أن يرضى بهذه العلمانية، ويعلن التزامه بها،ويسعى للتمكين لها، ويعقد ولاءه وبراءه عليها، فهذا لاشك فى كفره، لأن الرضا بالكفر والتزامه كفر بالاتفاق.

- أن يعلن الكفر بهاوالعزم على تغييرها، ويتخذ بهذا الصدد خطوات حقيقية تبين صدقه فى دعواه، فهذا قد برىء من الرضا والمتابعة،وذلك هو المسلم الذى له ذمة الله ورسوله،ويجب على الأمة عونه وتأييده، وقد يستغرق استكمال التغيير مددا تطول أو تقصر، ولكن هذا لايقدح فى صحه إسلامه ما صدّقت أفعاله أقواله.

- أن يروغ فى مواقفه، فلا يعلن صريح الرضا والمتابعة، ولاصريح الانخلاع والبراءة وإنما تتذبذب مواقفه بين الفريقين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهذا هو النفاق الذى مافتئت تواجهه الدعوات على مدار التاريخ، وعلى الأمة أن تتابع مواقفه، وأن تلجئه إلى التزام أحد المنهجين لتفوت عليه ما يريده من الخداع والتلبيس، فإذا مـاأظهر نفاقه بيقين فقد زالت شرعيته وسقطت طاعته.

والحق أن هذا الموقف الأخير هو أخطر ما يواجه الدعوة إلى إقامة الدين فى هذا العصر؛ لأنه يجعل الناس فى هؤلاء المارقين فئتين:

- فئة تحسن الظن بأقوالهم، فتلقى إليهم السلم، وتشايعهم بالقول والعمل، وتتهم الآخرين بالغلو والشطط!

- وفئة أخرى حاكمت أقوالهم إلى أعمالهم، فتبين لهاكذب المقالات وزيف الشعارات، فلم تقم لها وزناً وحكمت عليهم بما أسفر عنه استقراء واقعهم، ورصد حقيقتهم.

وإن المعركة الحقيقية فى مثل هذه المواقع لابد أن تكون على محورين.

- **الأول:** بيان حقيقة التوحيد وتبليغها للكافة حتى يستفيض العلم بأنه لا حكم إلا لله، وأن العلمانية والإسلام نقيضان، وأن تحكيم القوانين الوضعية لايجتمع مع أصل الإيمان بحال من الأحوال.

- **الثانى** : بيان حقيقة الواقع ورصده بمنتهى الموضوعية والدقة،حتى يتبين للناس الحقيقة والدعوى فى هذه المزاعم والادعاءات.

ذلك أن من الناس من يجهل حقيقة التوحيد وعلاقته بتحكيم الشريعة ووجوب إفراد الله بالطاعة.

ومنهم من يجهل حقيقة الواقع تحت تأثير أبواق التضليل والدعاية وخبراء الخداع والتلبيس! وهؤلاء يمثلون فى الواقع نسبة عالية لايستهان بها،وفيهم الدعاة والهداة من حملة القرآن والسنة ممن يقرون بالقضية فى جانبها العلمى، وتعتبر عند كثير منهم من

البديهيات والمسلّمات، ولكنهم فُتنوا بالشعارات والتصريحات التى تطلقها أبواق العلمانية فشوشت عليهم الرؤية وجعلتهم فى أمرمريج!

بقيت مسألة فى غاية الأهمية وهى أن موقف الدعوة من العلمانية موقف عقدى ثابت، فالعلمانية والإيمان نقيضان، وهى من الطواغيت التى تَعَبَّدَاللهُ عباده بالكفربها واجتنابها، ومهما تفاوتت اجتهادات الدعاة فى أشخاص القائمين عليها من طواغيت البشر فلا علاقة لذلك بالقضية الأصلية وهى رفض هذا المنهج وعدم مشايعة سدنته بقول أو عمل والله هو الهادى لسبيل الرشاد ولصالح القول والعمل أهـ.

من فتاوى أئمة المسلمين فى علمانية التشريع

الإمام أبو بكر الجصاص:

يقول فى أحكام القرآن فى تفسير قوله تعالى: ﴿**فلاوربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾(وفى هذه دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع عن التسليم وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة فى حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبى ﷺ قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان)(١).

قال ابن تيمية

(والإنسان متى أحل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أوبدل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتداً باتفاق الفقهاء)(٢).

وقال ابن تيمية، رحمه الله تعالى فى موضع آخر: حول معنى قوله تعالى ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾، حيث قال: (ولاريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فإنه ما من أمة إلا وهى تُؤْمَر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم، بل كثيرمنهم من المنتسبين إلى الإسلام، يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله، كسواليف البادية. ويرون أن هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر، فإن كثيرا من الناس

---

* نقلا من «أصول الإيمان» المقرر على طلبة كلية الدراسات الإسلامية بالجامعة الأمريكية المفتوحة (١/ ١٤٢: ١٤٩)

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٨١)

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٢٦٧)

أسلموا، ولكن لايحكمون إلا بالعادات الجارية التى يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لايجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله، فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار)(١).

وفى نفس الموضوع يقول شارح العقيدة الطحاوية: (وهنا أمريجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة، وذلك بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر)(٢).

ابن كثير :

قال عند تفسير قوله تعالى: **﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾**(٣).

(ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان الذى وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى عينهم شرعاً يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلايحكم بسواه فى قليل ولاكثير)(٤).

ويقول فى البداية والنهاية (٥): (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه؟! من فعل فقد كفر بإجماع المسلمين).

ويقول أحمد شاكر(٦) تعليقا على كلام ابن كثير السابق: (أقول أفيجوز ـ مع هذا ـ فى شرع الله أن يحكم المسلمون فى بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والاراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون، لايبالى واضعه أوافق شريعة الإسلام أم خالفها؟

(١) منهاج السنة، ومجموعة التوحيد (١٩٣)
(٢) الطحاوية (٣٦٣)
(٣) المائدة : ٥٠
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧)
(٥) البداية والنهاية (١٣/ ١١٩)
(٦) عمدة التفسير اخيار وتحقيق أحمد شاكر (جـ٤/ ١٧١، ١٧٢)

إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا فى ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم، فأدخلهم فى شرعته، وزال أثر ماصنعوا، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم . وبما أن الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه، ولم يعلموه أبناءهم، فما أسرع ما زال أثره.

أفرأيتم هذا الوصف القوى من الحافظ ابن كثير - فى القرن الثامن - لذاك القانون الوضعى، الذى صنعه عدو الإسلام جنكيزخان؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين فى هذا العصر، فى القرن الرابع عشر؟ إلا فى فرق واحد، أشرنا إليه آنفا: أن ذلك كان فى طبقة خاصة من الحكام، أتى عليها الزمن سريعا، فاندمجت فى الأمة الإسلامية وزال أثر ماصنعت.

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا، وأشد ظلما وظلاما منهم، لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج فى هذه القوانين المخالفةللشريعة، والتى هى أشبه شيء بذاك (الياسق» الذى اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر . هذه القوانين التى يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقى هذ(الياسق العصرى) ويحقرون من يخالفهم فى ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم (رجعيا) و(جامدا) إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة.

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقى فى الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى (ياقسهم) الجديد بلهوينا واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبماملكت أيديهم من السلطات تارات، و يصرحون، ولايستحيون، بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين! أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد أعنى التشريع الجديد ؟. . .

أو يجوز لرجل مسلم أن يلى القضاء فى ظل هذا (الياسق العصرى) وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة؟ ما أظن أن رجلا مسلما يعرف دينه، ويؤمن به جملة وتفصيلا، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتابا محكما لايأتيه الباطل من بين يديه، ولامن خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذى جاء به واجبة قطعية الوجوب فى كل حال - ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولامتأول، بأن ولاية القضاء فى هذه الحال باطلة بطلانا أصليا، لايلحقه التصحيح ولا الإجازة؟

إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هى كفر بواح، لاخفاء فيه ولامداراة ، ولاعذر لاحد ممن ينتسب للإسلام - كائنامن كان - فى العمل بها، أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر كلٌ امرؤ لنفسه،وكلٌ امرىء حسيب نفسه)

٣ـ **ويقول أحمد شاكر** أيضاً فيمن ينكرون حد السرقة: (هذا حكم الله فى السارق والسارقة، قاطع صريح اللفظ والمعنى، لايحتمل أى شك فى الثبوت ولا فى الدلالة .وهذا حكم رسول الله تنفيذا لحكم الله وطاعة أمره، فى الرجال والنساء ،وقطع اليد، لاشك فيه، حتى ليقول ﷺ«لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

فانظروا إلى ما فعل بنا أعداؤنا المبشرون المستعمرون؟ لعبوا بديننا، وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة، نسخوا بها حكم الله وحكم رسوله، ثم ربوا فينا ناسا ينسبون إلينا، أشربوا فى قلوبهم بغض هذا الحكم، ووضعوا على ألسنتهم كلمة الكفر: إن هذا حكم قاس لايناسب هذا العصر الماجن، عصر المدنية المتهتكة. وجعلوا هذا الحكم موضوع سخريتهم وتندرهم فكان عن هذا أن امتلأت السجون - فى بلادنا وحدها - بمئات الألوف من اللصوص، بما وضعوا فى القوانين من عقوبات للسرقة، ليست برادعة، ولن تكون أبداً رادعة، ولن تكون أبداً علاجا لهذا الداء المستشرى.

ثم أدخلوا فى عقول الطبقة المثقفة، وخاصة القائمين على هذه القوانين الوثنية مايسمونه (علم النفس)، وهو ليس بعلم ولا شبيه به، بل هو أهواء متناقضة متباينة، لكل إمام من أئمة الكفر فى هذا العلم رأى ينقض رأى مخالفه، ثم جاءوا فى التطبيق يلتمسون الأعذار من علم النفس لكل لص بحبسه. ثم زاد الأمر شراً أن يكتب اللصوص أنفسهم كلاماً يلتمسون به الأعذار لجرمهم، وقام المدافعون عنهم المقامات التى توردهم النار: يعلمون أن الجريمة ثابتة، فلايحاولون إنكارها، بل يحاولون التهوين من شأنها بدراسة نفسية المجرم وظروفه!!

ولقد جادلت منهم رجالا كثيرا من أساطينهم، فليس عندهم إلا أن حكم القرآن فى هذا لايناسب العصر!! وأن المجرم إن هو إلا مريض يجب علاجه لاعقابه، ثم ينسون قول الله سبحانه فى هذا الحكم ﴿**جزاءً بما كسبا نكالاً من الله**﴾ هذه العقوبة للتنكيل بالسارقين، نصا قاطعا صريحا، فأين يذهب هؤلاء الناس؟

المسألة عندنا - نحن المسلمين - هى من صميم العقيدة، ومن صميم الإيمان، فهؤلاء

---

(١) المائدة:٣٨.

* يعنى المنصورن.

المنتسبون إلى الإسلام ، المنكرون حد القطع أو الراغبون عنه، سنسألهم : أتؤمنون بالله، وبأنه خلق هذا الخلق؟ فسيقولون: نعم. أفتؤمنون بأنه يعلم ماكان و ما يكون، وبأنه أعلم بخلقه من أنفسهم، وبما يصلحهم وبما يضرهم؟ فسيقولون نعم. أفتؤمنون بأنه أرسل رسوله محمد بالهدى ودين الحق، وأنزل عليه هذا القرآن من لدنه هدى للناس وإصلاحا لهم في دينهم ودنياهم؟ فسيقولون: نعم أفتؤمنون بأن هذه الآية بعينها﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾من القرآن؟ فسيقولون: نعم .إذن فأنى تصرفون؟ وعلى أى شرع تقومون؟ أما من أجاب - ممن ينتسب للإسلام - على أى سؤال من هذه السؤالات بأن : لا، فقد فرغنا منه وعرفنا مصيره. وقد أيقن كل مسلم من عالم أو جاهل، مثقف أو أمى، أن من يقول فى شىء من هذا : لا، فقد خرج من الإسلام وتردى فى حمأة الردة. وأما من عدا المسلمين، ومن عدا المنتسبين للإسلام، فلن نجادلهم فى هذا، ولن نسايرهم فى الحديث عنه، إذ لم يؤمنوا بمثل ما آمنا، ولن يرضوا عنا أبدا إلا أن نقول مثل قولهم وعياذا بالله من ذلك.

ولو عقل هؤلاء - الذين ينتسبون للإسلام - لعلموا أن بضعة أيد من أيدى السارقين،لو قطعت كل عام، لنجت البلاد من سبة اللصوص، ولما وقع كل عام إلا بضع سرقات، كالشىء النادر، ولخلت السجون من مئات الألوف التى تجعل السجون مدارس حقيقية للتفنن فى الجرائم. أو عقلوا لفعلوا . ولكنهم يصرون على باطلهم، ليرضى عنهم سادتهم ومعلموهم وهيهات) أهـ.

قال ابن القيم(١) : والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفر الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً - مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة - فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه مخير فيه - مع تيقنه أنه حكم الله - فهذا كفر أكبر،وإن جهله أو أخطأ، فهذا مخطىء له حكم المخطئين أهـ.

النسفى:

ويقول النسفى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾(٢) إن

---

(١) مدراج السالكين (١/ ٣٣٧)

(٢) الأحزاب : ٣٥.

كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق .

مصطفى صبرى «شيخ الإسلام فى الدولةالعثمانية

فصل الدين عن الدولة ارتداد عن الإسلام من الحكومة أولا ومن الأمة ثانياً، وإن لم يكن ارتداد الداخلين فى حوزة تلك الحكومة باعتبارهم أفراداً فباعتبارهم جماعة وهو أقصر طريق إلى الكفر من ارتداد الأفراد، بل إنه يتضمن ارتداد الأفراد أيضاً لقبولهم الطاعة لتلك الحكومة المرتدة.

محمد الأمين الشنقيطى:

ويقول الشنقيطى: وبهذه النصوص السماوية التى ذكرنا، يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التى شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألْسنة رسله، أنه لايشك فى كفرهم وشركهم إلامن طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحى مثلهم)

ويقول فى موضع آخر: (وأما النظام الشرعى المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى فى الميراث ليس بإنصاف بل يلزم استواؤهما فى الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوها أعمال وحشية لايسوغ فعلها بالإنسان ونحو ذلك.. فتحكيم هذا النوع من النظام فى أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السماوات والأرض وتمرد على نظام السماء الذى وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوا كبيرا **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾**(١).

محمد بن إبراهيم آل الشيخ:

(إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين»

ثم أخذ يعدد أنواع الحكم بغير ما أنزل الله التى تخرج من الملة فقال:

(١) أضواء البيان.

(من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني، أو غير ذلك من مذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة؟)(١).

قلت: تقدم هذا في موضع قريب، وكررناه هنا للمناسبة.

محمد حامد الفقي ذكر في تعليقه على كتاب فتح المجيد معقباً على كلام ابن كثير في قوله تعالى ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون...**﴾الآية.

(ومثل هذا وشر منه من اتخذ كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولاينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها)(٢).

قلت: وتقدم هذا في موضع قريب ، ووضعناه هنا للمناسبة.

أحمد شاكر:

(إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح لا خفاء فيه ولامداورة، ولاعذر لأحد ممن ينتسب إلى الإسلام كائناً من كان في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرىء حسيب نفسه)(٣).

قلت: وتقدم هذا في موضع قريب، ووضعناه هنا للمناسبة

عبدالعزيز بن باز:

ويقول الشيخ عبدالعزيز بن باز في معرض نقده لدعوة القومية العربية: (إن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها يفضي بالمجتمع ولابد إلى رفض حكم القرآن، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاما وضعية تخالف حكم القرآن،حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام، وقد صرح الكثير منهم بذلك كما سلف، وهذاهو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة كما

(١) رسالة تحكيم القوانين : ١، ٧

(٢) فتح المجيد (٤٠٦)

(٣) عمده التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٤/ ١٧٤.

قال تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ وقال تعالى: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ وقال تعالى ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ وقال تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾

وكل دولة لاتحكم بشرع الله، ولاتنصاع لحكم الله فهى دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها فى الله حتى تؤمن بالله وحده وتحكم شريعته كما قال عزوجل :﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده﴾(١).

ويقول فى موضع آخر: (وقد أجمع على أن من زعم أن حكم غير الله أحسن من حكم الله، أو أن غير هدى رسول الله ﷺ أحسن من هدى الرسول ﷺ فهو كافر، كما أجمعوا على أن من زعم أنه يجوز لأحد من الناس الخروج على شريعة محمد ﷺ أو تحكيم غيرها فهو كافر ضال، وبما ذكرناه من الأدلة القرآنية، وإجماع أهل العلم يعلم السائل وغيره، أن الذين يدعون إلى الاشتراكية أو إلى الشيوعية أو غيرها من المذاهب الهادمة المناقضة لحكم الإسلام، كفار ضلال أكفر من اليهود والنصارى، لأنهم ملاحدة لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ، ولايجوز أن يجعل أحد منهم خطيبا أو إماما فى مسجد من مساجد المسلمين ولاتصح الصلاة خلفهم، وكل من ساعدهم على ضلالهم، وحسن مايدعون إليه وذم دعاة الإسلام ولمزهم، فهو كافر ضال، حكمه حكم الطائفة الملحدة، التى سار فى ركابها وأيدها فى طلبها، وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم عليهم بأى نوع من أنواع المساعدة، فهو كافر مثلهم.

الكوثرى *

(وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن دين الإسلام جامع لمصلحتى الدنيا

---

(١) فكرة القومية العربية لصالح العبود (٢٦٨).

* والمقصود من إيراد مقالة الكوثرى فى هذا المقام رغم وجود بعض ا لاستدراكات الجوهرية على منهجه بيان أن الأمة كلها على اختلاف طوائفها ومدارسها الفكرية والعقدية تبرأ من نحلة العلمانية وتجمع على خروجها على محكمات الملة وقواطع الشريعة.

(١) مجموع الفتاوى ومقالات متنوعة (١/ ٢٧٤)

والآخرة ولأحكامهما دلالة واضحة لاارتياب فيها، فتكون محاولة فصل الدين عن الدولة كفراً صريحاً منابذاً لإعلاء كلمة الله، وعداءً موجهاً إلى الدين الإسلامى فى صميمه، ويكون هذا الطلب من الطالب إقراراً منه بالأنتباذ والانفصال، فنلزمه بإقراره فنعده عضوا مفصولا عن جماعة المسلمين وشخصاً منفصلاً عن عقيدة أهل الإسلام! فلا تصح مناكحته ولاتحل ذبيحته؛ لأنه ليس من المسلمين ولامن أهل الكتاب!)

محمد الخضر حسين شيخ الأزهر سابقاً.

(أما أن تفعل البلاد الإسلامية مافعلته الدولة الغربية من تجريد السياسة من الدين، فهو رأى لايصدر إلاممن يكنّ فى صدره أن ليس للدين من سلطان على السياسة، وهذا ما يبثه فئة يريدون أن ينقضوا حقيقة الإسلام من أطرافها، حتى تكون بمقدار غيرها من الديانات الروحية التى فصلها أهلها عن السياسة، ثم يصبغوا هذا المقدار بأى صبغة أرادوا فيذهب الإسلام، فلا القرآن نزل ولا محمد ﷺ بعث! ولا الخلفاء الراشدون جاهدوا فى الله حق جهاده ! ولا الراسخون فى العلم سهروا فى تعرف الأصول من مواردها وانتزاع الأحكام من أصولها!)

يوسف القرضاوى:

(بل إن العلمانى الذى يرفض «مبدأ» تحكيم الشريعة من الأساس، ليس له من الإسلام إلا اسمه، وهو مرتد عن الإسلام بيقين، يجب أن يستتاب وتزاح عنه الشبهة وتقام عليه الحجة، وإلا حكم القضاء عليه بالردة، وجرد من انتمائه إلى الإسلام ، أو سحبت منه «الجنسية الإسلامية» وفرق بينه وبين زوجه وولده، وجرت عليه أحكام المرتدين المارقين فى الحياة وبعد الوفاة)(١).

● ● ●

(١) الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه للقرضاوى: ٧٣، ٧٤.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ آيَةِ (النُّورِ).

الثانية: تَفْسيرُ آيَةِ (بَراءةٌ).

الثالثة: التَّنْبيهُ عَلَى مَعْنَى العِبَادَةِ الَّتى أَنْكَرَهَا عَدىٌّ.

الرابعة: تَمْثيلُ ابنِ عَبَّاسٍ بأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمْثيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ.

قال ابن عثيمين(١).

قوله : «فيه مسائل»

● **الأولى: تفسير اية النور.**

وهى قوله تعالى : ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾وسبق تفسيرها.

● **والثانية: تفسير آية براءة.**

وهى قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ الآية ، وقد سبق ذلك.

● **الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التى أنكرها عدى.**

لأن العبادة هى التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود والنذر وما أشبهه، لكن بين ﷺ المراد من عبادتهم بأنها طاعتهم فى تحليل الحرام وتحريم الحلال.

● **الرابعة : تمثيل ابن عباس بأبى بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان.**

أى : إذا كان أبو بكر وعمر لايمكن أن يعارض قول النبى ﷺ بقولهما؛ فما بالك بمن عارض قول النبى ﷺ بقول من دونهما؟! فهو أشد وأقبح، وكذلك مثل الإمام أحمد بسفيان الثورى وأنكر على من أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ واستدل بقوله تعالى﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ**﴾الآية.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٣٣٠)

الخامسة: تَحَوُّلُ الأَحْوَال إلى هَذه الغَايَة، حتَّى صَارَ عِنْدَ الأَكْثَر عِبَادَةُ الرُّهْبَان هِيَ أَفْضَلُ الأَعْمَال، وتُسَمَّى الوِلاَيَةُ، وَعِبَادةُ الأَحْبَار هِيَ العِلْمُ وَالفِقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الأَحْوالُ إلى أَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ الله مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالحِينَ، وَعُبِدَ بِالمَعْنَى الثاني مَنْ هُوَ مِنَ الجَاهِلِينَ.

● **الخامسة:** تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة . . . إلخ.

قال سليمان آل الشيخ(١).

قوله : صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، يشير إلى ما يعتقده كثير من الناس فيمن ينتسب إلى الولاية من الضر والنفع، والعطاء والمنع، ويسمون ذلك الولايةوالسر ونحو ذلك وهو الشرك.

قوله: وعبادة الأحبار هى العلم والفقة أى: هى التى تسمى اليوم العلم والفقه المؤلف على مذاهب الأئمة ونحوهم، فيطيعونهم فى كل مايطيعوك سواء وافق حكم الله أم خالفه، بل لايعبأون بماخالف ذلك من كتاب وسنة، بل يردون كلام الله وكلام رسوله لأقوال من قلدوه، ويصرحون بأنه لايحل العمل بكتاب ولاسنّة، وأنه لايجوز تلقى العلم والهدى منهما، وإنما العلم والفقه والهدى عندهم هو ماوجدوه فى هذه الكتب. بل أعظم من ذلك وأطم رمى كثير منهم كلام الله وكلام رسوله بأنه لايفيد العلم ولا اليقين، فى باب معرفة أسماء الله وصفاته وتوحيده. ويسمونها ظواهر لفظية، ويسمون ما وضعه الفلاسفة المشركون القواطع العقلية، ثم يقدمونها فى باب الأسماء والصفات والتوحيد على ماجاء من عند الله، ثم يرمون من خرج عن عبادة الأحبار والرهبان إلى طاعة رب العالمين،وطاعة رسوله وتحكيم ماأنزل الله فى موارد النزاع بالبدعة أو الكفر.

وقوله: ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وذلك كاعتقادهم فى كثير ممن ينتسب إلى الولاية من الفساق والمجاذيب.

وقوله: وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين، وذلك كاعتقادهم العلم فى أناس من جهلة المقلدين فيحسنون لهم البدع والشرك فيطيعونهم، ويظنون أنهم أعلماء مصلحون: ﴿ **أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾ أهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٦ ـ٤١٧)

قال ابن عثيمين (١):يقول المؤلف رحمه الله تعالى : تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال.. وهذا لاشك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبى بكر وعمر، ثم قال:«ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين»؛أى :يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب،ويوصف بمالا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لايستحقون أن يكونوا بمنزلة أبى بكر وعمر.

ثم قال: «وعبد بالمعنى الثانى»: وهو الطاعة والاتباع من هو من الجاهلين؛ فأطيع الجاهل فى تحليل ماحرم الله وتحريم ما أحل الله، ما يوجد فى بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية؛ فإن واضعيها جهال لايعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئاً، فصاروا يعبدون بهذا المعنى ، فيطاعون فى تحليل ماحرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا فى زمان المؤلف؛ فكيف بزماننا؟! وقد قال النبى ﷺ فيما رواه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ؛ أنه قال :«**لايأتى زمان على الناس إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم**»(٢)،وقال النبى ﷺ للصحابة:«**ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**»(٣)، وعصرالصحابة أقرب إلى الهدى من عصر من بعدهم.

والناس لايحسون بالتغير؛ لأن الأمور تأتى رويداً رويداً، ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء؛ لوجد التغير الكثير المزعج ـ نسأل الله السلامة ـ ، فعلينا الحذر، أن نعلم أن شرع الله يجب أن يحمى وأن يصان، ولايطاع أحد فى تحليل ماحرم الله أو تحريم ما أحل الله أبداً مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عباداً لله ـ عزوجل ـ تذللاً وتعبداً وطاعة.

● ● ●

(١) القول المفيد (٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه من حديث العرباض بن سارية